مقالات كبار العلماء
في
الصحف السعودية القديمة

١٣٤٣هـ - ١٣٨٥هـ

المجموعة الثانية

الجزء الأول

جمع وترتيب

أحمد بن عبد العزيز الجماز
عبد العزيز بن صالح الطويل

دار أطلس الخضراء
للنشر والتوزيع

مقالات كبار العلماء

في

الصحف السعودية القديمة

(١)

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

دار أطلس الخضراء
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف: ٤٢٦٦١٠٤ - ٤٢٦٦٩٦٣ فاكس: ٤٢٥٧٩٠٦
www.facebook.com/DARATLAS
twitter: @ dar-atlas
dar-atlas@hotmail.com



مقدمة المجموعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّٰه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أفضل النبيين والمرسلين ، محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعدُ ؛ فإليك أخي القارئ الكريم المجموعة الثانية من « مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة » نزفها إليك منمَّقةً بنقوشِ أعلامٍ آخرين دون ما عُرِضَ في المجموعة الأولى ، حسب ما تم سلوكه في منهج الترتيب على تواريخ وفياتهم ، وبها يتمُّ عِقدُ الدُّرر لأولئك الأعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين ، في فترة من الزمن المنير ، ظهرت فيه أعلامُ السنة تخفقُ بين المشرقين ، على حين فترة سبقت من الزمن ، يحمل راية الإيضاح لها أئمة ربانيون ، ولقد حصرناها بما بين عام ١٣٤٣هـ وعام ١٣٨٣هـ فانتخبنا كل ما وقعت العين عليه من مقالات مبثوثة بين صفحات الصحف الصادرة في تلك الفترة ، فتحصل لنا كمية كبيرة لأولئك الأعلام ما بين مقل ومكثر ، وهم :

١- الشيخ فالح بن مهدي آل مهدي . المتوفى سنة (١٣٩٢هـ) .

٢- الشيخ محمد الأمين الشنقيطي . المتوفى سنة (١٣٩٣هـ) .

٣- الشيخ محمد بن خليل الهراس . المتوفى سنة (١٣٩٥هـ) .

٤- الشيخ محمد بهجة البيطار . المتوفى سنة (١٣٩٦هـ) .

٥- الشيخ سليمان بن عبد الرحمن بن حمدان . المتوفى سنة (١٣٩٧هـ) .

٦- الشيخ عبد اللّٰه بن عبد الرحمن آل الشيخ . المتوفى سنة (١٣٩٧هـ) .

٧- الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري . المتوفى سنة (١٣٩٩هـ) .

٨- الشيخ عبد اللّٰه بن عبد الرحمن بن جاسر . المتوفى سنة (١٤٠١هـ) .
٩- الشيخ عبد اللّٰه بن محمد بن حميد . المتوفى سنة (١٤٠٢هـ) .
١٠- الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ . المتوفى سنة (١٤٠٤هـ) .
١١- الشيخ عبد اللّٰه بن دهيش . المتوفى سنة (١٤٠٦هـ) .
١٢- الشيخ صالح بن علي الناصر . المتوفى سنة (١٤٠٦هـ) .
١٣- الشيخ محمد بن صالح بن سليم . المتوفى سنة (١٤٠٧هـ) .
١٤- الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي . المتوفى سنة (١٤١٠هـ) .
١٥- الشيخ صالح بن عبد العزيز العثيمين . المتوفى سنة (١٤١٠هـ) .
١٦- الشيخ عبد اللّٰه بن محمد الخليفي . المتوفى سنة (١٤١٤هـ) .
١٧- الشيخ صالح بن أحمد الخريصي . المتوفى سنة (١٤١٥هـ) .
١٨- الشيخ عبد اللّٰه بن عبد الغني خياط . المتوفى سنة (١٤١٥هـ) .
١٩- الشيخ زيد بن عبد العزيز الفياض . المتوفى سنة (١٤١٦هـ) .
٢٠- الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري . المتوفى سنة (١٤١٧هـ) .
٢١- الشيخ علي بن محمد الهندي . المتوفى سنة (١٤١٩هـ) .
٢٢- الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّٰه بن باز . المتوفى سنة (١٤٢٠هـ) .
٢٣- الشيخ حمود بن عقلا الشعيبي . المتوفى سنة (١٤٢٢هـ) .
٢٤- الشيخ عبداللّٰه بن عبدالرحمن البسام . المتوفى سنة (١٤٢٣هـ) .
٢٥- الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللّٰه الفريان . المتوفى سنة (١٤٢٤هـ) .
٢٦- الشيخ إبراهيم بن عبد المحسن العبيد . المتوفى سنة (١٤٢٥هـ) .
٢٧- الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ . المتوفى سنة (١٤٢٦هـ) .

نسأل اللّٰه أن يرحمهم جميعا ، ويجزيهم عن الإسلام خير جزاء ، وأن يجمعنا بهم ووالدينا والمسلمين في جنات النعيم .

ولكي لا نطيل على القارئ الكريم في افتتاحية هذه المجموعة ببيان المنهج في جمع وترتيب هذه المقالات ، فإنا نكتفي بنقل ما أوردناه في مقدمة المجموعة الأولى من الكتاب؛ سائلين اللّٰه تعالى أن يبارك في الجهد ، وأن يتقبل العمل ، وأن ينفع به ، وأن يجعله سببا للفوز بجنته ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والحمد للّٰه أولا وآخرا ، وصلى اللّٰه على نبينا محمد وآله ، وسلم تسليما كثيرًا .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد للّه الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب اللّه الموتى، ويبصرون بنور اللّه أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب اللّه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[١].

وصلى اللّه وسلم وبارك على سيد الحنفاء، وإمام العلماء، مَن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في اللّه حق جهاده، سيدنا ونبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد اللّه، وعلى آله وأصحابه الذين تلقوا عنه هذا الدين غضًا طريًا، وبلغوه للعالمين كما تلقوه علمًا زكيًا، وعلى أتباعهم ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أمَّا بعدُ:

فقد ندب الشارع - عليه أفضل الصلاة والسلام - إلى نقل العلم، وحث على حفظه، وتبليغه لمن لم يشهده، فقال في خطبته في حجة الوداع: «ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم. قال: «فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع»[٢].

وقال ﷺ: «نضر اللّه امرأ سمع مقالتي، فحفظها، ووعاها، فأداها إلى من

(١) الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل، رحمه اللّه ص ٦.
(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي اللّه عنه.

لم يسمعها ، فرب حامل فقه غير فقه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[١] .

وقال : « بلغوا عني ولو آية »[٢] .

وقد امتثلت الصحابة حينئذ - الذين هم خير قرون هذه الأمة - ذلك ، فحفظوا عنه أحواله وأقواله وأفعاله ، امتثالًا لأمره ، وابتغاء ثواب اللَّه وأجره .

ثم فعل ذلك بعدهم التابعون وتابعوهم ، قبيلًا بعد قبيل ، وجيلًا بعد جيل ، تلقوا ذلك عنهم ، واستفادوه منهم ، رضي اللَّه عنا وعنهم .

وهم مستمرون على ذلك مدى الدهور والأعوام ، منذ زمنه عليه أفضل الصلاة والسلام ، إلى انقضاء الدنيا والذهاب ، بإخباره عليه أفضل الصلاة والسلام حيث قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى تقوم الساعة »[٣] .

فشمروا عن ساعد الجد ، وبذلوا في إتقانه وتبليغه المال والمهج ؛ طمعًا في الثواب الجزيل الذي بشرهم به الصادق المصدوق ﷺ في قوله : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا »[٤] . وفرارًا من الوعيد المترتب على كتمان العلم في قوله : « من كتم علمًا ألجمه اللَّه يوم القيامة بلجام من نار »[٥] .

وسلكوا في تبليغه ما أمكنهم من التعليم ، والإفتاء ، والتأليف ، من خلال ما

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت رضي اللَّه عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاصي رضي اللَّه عنه .

(٣) مقتبس من مقدمة ابن الملقن في البدر المنير . والحديث أخرجه مسلم (١٩٢٠، ١٩٢١، ١٠٣٧) من حديث ثوبان والمغيرة وجابر ومعاوية رضي اللَّه عنهم .

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٥) أخرجه ابن حبان (٩٥، ٩٦) من حديث أبي هريرة وعبد اللَّه بن عمرو رضي اللَّه عنهم . وصححه الألباني في تعليقه على كتاب العلم لأبي خيثمة (٥٧) .

اسطاعوا عليه من وسائل وسبل شتى ، حتى جاءت ثورة الإعلام المعاصرة ، فكان تبليغ العلم عن طريقها أكثر انتشارًا ، فكانوا من السباقين لاستثمارها رجاء نشر دين اللَّه على المنهج القويم بين العالمين .

ومما اتفقت عليه كلمتهم من أدوات الإعلام « الصحافة » ، إذ دبجوا فيها الكلمات ، وحرروا فيها المقالات ، وأثروها بالبحوث العلمية ، والنكات الفقهية ، ونوادر المسائل ، ودقائق الدلائل ، ولا شك أن للصحافة السعودية نصيبًا من ذلك المعين الضافي ، والنبع الصافي ، فمنذ نشأتها وحتى يومنا هذا والعلماء يسهمون من خلالها في تبليغ الشريعة ونشر السنة .

ومن فضل اللَّه تعالى أن كانت تلك النشأة للصحافة السعودية مواكبة للاستقرار السياسي الذي تمتعت به البلاد في عهد الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل - طيب اللَّه ثراه - وبالتحديد بعد دخول مكة المكرمة تحت الولاية العامة للبلاد في ١٧/٣/١٣٤٣هـ ، حيث كانت بلاد الحجاز آنذاك مهيئة - نسبيًا - بشيء من مقومات تلك النشأة ؛ لوجود بعض الصحف التي كانت تصدر تحت وطأة الظروف القاسية للمطابع في ذلك الوقت ، وهي قليلة جدًّا لا تتجاوز الثلاث صحف ؛ أهمها صحيفة « القبلة » التي تم تطويرها بعد شهرين من دخول مكة وتحويله تحت مسمى « أم القرى » لتصبح الصحيفة الرسمية للدولة بعد ذلك - ولا تزال - ، وهي تعتبر النواة الأولى لنشأة الصحافة في العهد السعودي . صدر العدد الأول منها بتاريخ ١٥/٥/١٣٤٣هـ ، ثم تبعها صدور مجلة « الإصلاح » (١٣٤٧هـ) ، ثم صحيفة « صوت الحجاز » (١٣٥٠هـ) ، فمجلة « المنهل » (١٣٥٥هـ) ، فصحيفة « المدينة المنورة » (١٣٥٥هـ) ، فمجلة « الحج » (١٣٦٦هـ) ، فصحيفة « البلاد السعودية » (١٣٧٠هـ) ، فمجلة « اليمامة » (١٣٧٢هـ) ، فمجلة « الرياض » (١٣٧٣هـ) ، فمجلة « عرفات »

(١٣٧٧هـ)، فصحيفة «الندوة» (١٣٧٧هـ)، فـ «قريش» (١٣٧٨هـ)، فـ «الرائد» (١٣٧٨هـ)، فـ «عكاظ» (١٣٧٩هـ)، فصحيفة «القصيم» (١٣٧٩هـ)، فـ «راية الإسلام» (١٣٧٩هـ)، فمجلة «الجزيرة» (١٣٧٩هـ).

هذه أبرز ما صدر من صحف سعودية في الفترة التي تعد الأولى من حيث التطور الصحفي في المملكة العربية السعودية، استغرقت أربعة عقود من القرن الماضي (١٣٤٣ - ١٣٨٣هـ)، تبعها بعد ذلك الكثير من النشاط الصحفي الذي يصعب حصره.

ومن توفيق اللَّه تعالى أن توافق وقت صدور تلك الصحف في تلك الفترة ووجود ثلة من أبرز علماء القرن الماضي من أمثال الشيخ رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ)، والشيخ عبد اللَّه بن بليهد (ت١٣٥٩هـ)، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح (ت١٣٧٠هـ)، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ت١٣٧٦هـ)، والشيخ عبد اللَّه بن حسن آل الشيخ (ت١٣٧٨هـ)، والشيخ محمد حامد الفقي (ت١٣٧٨هـ)، والشيخ محمد بن مانع (ت١٣٨٥هـ)، والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم (ت١٣٨٦هـ)، والشيخ محمد بن إبراهيم (ت١٣٨٩هـ)، والشيخ محب الدين الخطيب (ت١٣٨٩هـ)، والشيخ عبد اللَّه القرعاوي (١٣٨٩هـ)، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة (ت١٣٩٢هـ)، والشيخ عبد الرحمن بن قاسم (ت١٣٩٢هـ)، وغيرهم[١]، رحم اللَّه الجميع بمنه وكرمه.

فكانت تلك الصحف ميدانًا لتوقيعات أولئك الأعلام، أثروا بها صفحاتها؛

(١) هؤلاء هم علماء المجموعة الأولى من المقالات، وسيرد - إن شاء اللَّه - في المجموعة الأخرى أعلام آخرون أمثال الشيخ الشنقيطي، والشيخ البيطار، والشيخ سليمان بن حمدان، والشيخ عبد الملك بن إبراهيم، والشيخ إسماعيل الأنصاري، والشيخ ابن حميد، والشيخ ابن باز، وغيرهم.

واتخذوها وسيلة في تبليغ الشريعة ؛ حسبة وديانة ، ساعد ذلك حرص شديد من قِبل رؤساء تحريرٍ من أمثال يوسف ياسين ، وعبد القدوس الأنصاري ، والشيخ زيد بن فياض ، وغيرهم ، إذ كانوا يستكتبون أولئك الأعلام لينشروا لهم ما عساه أن يكون سببًا في إيضاح الشريعة لعموم الأمة ؛ من خلال بيان معضلة ، أو مناقشة مسألة ، أو تدوين فتوى شرعية .

وقد آل الزمن بتلك المقالات إلى أن أصبحت دررًا متناثرة تحت أغطية صحف قديمة يعز الوصول إليها إلا بمشقة بالغة ؛ مما جعل بعثها وإخراجها مطلبًا من مطالب الشريعة ؛ ليصبح مرجعًا توثيقيًا ، وسفرًا مجموعًا يضاف لتراث علماء الأمة ؛ يفيد منه الباحثون والقراء .

وحيث إن استيعاب جميعه يحتاج لجهد كبير ووقت طويل وعدد من الباحثين كثير ، فقد رأينا ضرورة إخراج ما يمكننا إخراجه ولو كان نزرًا يسيرًا ؛ أخذًا بـ : « ما لا يدرك كله لا يترك كله » ، فآثرنا تحديد الفترة الأولى للتطور الصحفي في المملكة تحت عنوان : « مقالات كبار العلماء في الصحف[١] السعودية القديمة في الفترة (١٣٤٣ - ١٣٨٣هـ)[٢] » ؛ وذلك لما يلي :

١- أن تلك الفترة جمعت أسماء بارزة من العلماء في تاريخ العهد السعودي الحديث بلغوا من المكانة العلمية والاجتماعية ما يجعل أقوالهم وآراءهم مرجعًا علميًا .

---

(١) مصطلح « الصحف » يشمل الجرائد والمجلات ، كما ورد في تعريف نظام المطبوعات السعودي للصحيفة ، وعليه فإن استخدام كلمة « الصحف » في عنوان الكتاب يعني مباشرة الجرائد والمجلات مجتمعة .

(٢) ونسأل اللّٰه تعالى أن ييسر لنا بعده استخراج ما نشر من مقالات في الفترة التالية لهذه الفترة ، خصوصًا من عام ١٣٨٤هـ إلى عام ١٤٠٤هـ ، حيث اشتملت على مقالات كثيرة من كبار علمائنا الأجلاء .

٢- صدور قرار مجلس الوزراء رقم (٤٨٢) في ١٣٨٣/٦/٢٣هـ ، والذي أنهى امتيازات الجرائد والمجلات الصادرة في تلك الفترة ، وأعطى امتياز إصدار الصحف السعودية إلى شركات ومؤسسات أهلية وفق نظام المؤسسات الصحفية ؛ مما أدى لتوقف كثير من الصحف العريقة التي كانت تصدر سابقًا[١] ، وتكاثر الصحف الجديدة بعد ذلك التاريخ .

وقد يسر اللّٰه تعالى لنا ذلك - بمنه وكرمه وحسن توفيقه - فقمنا باستعراض شامل ومسح متواصل لكل ما وقفنا عليه من أعداد تلك الصحف المحفوظة في مراكز المحفوظات في المملكة ، سواء عن طريق مصورات الميكروفيلم ، أو أصل الصحيفة ، ولم يفتنا من أعداد الصحف المذكورة في هذه المقدمة إلا نزرٌ يسيرٌ ، واللّٰه المستعان .

ولقد لقينا نصبًا أثناء استخراجها من بطون تلك الصحف لرداءة الطباعة قديمًا ، وسوء التصوير بالميكروفيلم الذي قد يصل عُمُرُ بعضه سبعين عامًا ، بحيث لا تمكن قراءته إلا بمشقة بالغة ، فللّٰه الحمد أولًا وآخرًا .

وبما أن تلك المقالات قد دونت في موضوعات متنوعة ، خلال أطوار متباينة ، لا يربط بعضها بعضًا ، ولم تنتظم في سلك واحد ، كما هو حال سائر المقالات الصحفية ، ناسب أن يجمع ذلك الشتات ، فينظم في عقد واحد ؛ يضم النظير إلى النظير ، ويلحق الفرع بالأصل ، في ترتيب بديع ، سيما وقد صيغت تلك المقالات بلغة علماء أجلاء في تأصيل شرعي بليغ ، كما في بعض الصحف العلمية المتخصصة كمجلة « الحج » مثلًا ، فتم ذلك بحمد من اللّٰه تعالى وتوفيقه .

---

(١) ومما يشار إليه أن جزءًا منها قد توقف قبل ذلك التاريخ لأسباب وظروف متنوعة .

وفي الختام يسرنا أن نزجي وافر الشكر والتقدير لدارة الملك عبد العزيز ممثلة في مركز الوثائق، وكذلك لمعهد الإدارة العامة ممثلًا في مركز الوثائق به، أو جامعة الإمام محمد بن سعود ممثلة في قسم الدوريات بالمكتبة المركزية، حيث ذللوا لنا الصعاب، وسخروا لنا ما لديهم من إمكانات، فشكر اللّٰه لهم، وجزاهم عنا خير الجزاء.

ويعد هذا السفر «المجموعة الأولى» من جملة المقالات المستخرجة، جمع فيه مقالات العلماء المذكورين، يليه - بإذن اللّٰه - «المجموعة الثانية» تحوي مقالات أخرى لعلماء آخرين.

نسأل اللّٰه أن ينفع به ويجعله ذخرًا لنا في الآخرة، ويغفر لنا الزلل ويتجاوز عن السيئات، والحمد للّٰه رب العالمين، وصلى اللّٰه على نبينا محمد وآله وسلم.



المنهج في جمع المقالات وترتيبها

* حصر الصحف المستهدفة في البحث بالصحف الصادرة في المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها دون ما كان صادرًا قبله أو خارج المملكة وتصدره جهات سعودية .
* استعراض كل ما تم الوقوف عليه من أعداد تلك الصحف .
* تحديد الفترة المستهدفة بفترة ما بين عامي (١٣٤٣هـ - ١٣٨٣هـ) .
* الاقتصار على جمع مقالات كبار علماء تلك الفترة .
* الاقتصار على المقالات العلمية دون غيرها من المقالات التي كتبت لمناسبة اجتماعية ، أو اقتصرت على حدث زمني كتبت لأجله ، ونحو ذلك .
* تدوين مقال العالِم سواء كتبه للصحيفة بنفسه ، أو نقله عنه غيره[1] .
* عزو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .
* ضبط النص وتصحيحه وفق قواعد اللغة العربية ، إضافة إلى العناية بعلامات الترقيم ، وإصلاح الأخطاء المطبعية .
* تصحيح النقول من خلال الرجوع لمصادرها الأصلية .
* إثبات مصدر المقال بذكر اسم الصحيفة ورقم العدد وتاريخه .
* بيان غريب بعض الكلمات والعبارات الغامضة من خلال الرجوع للمعاجم اللغوية .

---

(١) ولذا ستجد رسائل للشيخ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ت١٢٩٢هـ) نشرت مجلة « الإصلاح » نشرها ابنه الشيخ محمد بن عبد اللطيف رحمه اللّه ، كما ستجد مقالات للشيخ رشيد رضا منقولة في أم القرى عن مجلة « المنار » ، أو نحو ذلك ، وهو قليل جدًّا .

* التعريف بكل عالم في مقدمة مقالاته بترجمة موجزة .
* ترتيب العلماء حسب تاريخ الوفاة .
* ترتيب مقالات كل عالم حسب الفنون والموضوعات .
* وضع فهارس عامة في آخر الكتاب .

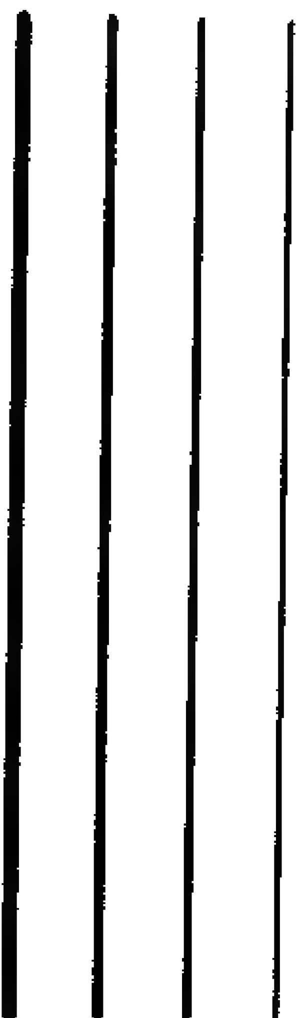


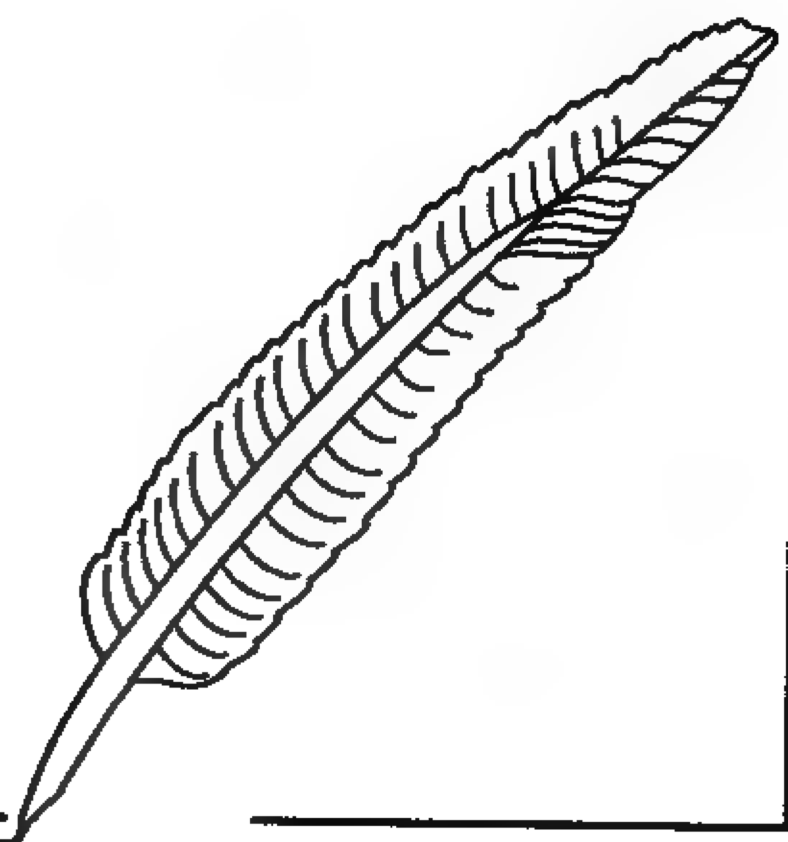


مقالات

الشيخ فالح بن مهدي رحمه الله

١٣٥٢هـ - ١٣٩٢هـ





مقالات الشيخ فالح بن مهدي(١)

الأمر بالمعروف في نظر أعداء اللَّه(٢)

لا جدال في أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سهمان من سهام الإسلام، لا يشك في أهميتهما مسلم يؤمن بالكتاب المنزل والنبي المرسل، فهما من الأهمية بمكان؛ لصلاح المجتمع وصيانة أخلاقه وحفظ دينه ومبادئه السامية عن عبث الملحدين وزيغ المنحرفين.

ولا شك أن مجتمعًا يؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، هو أرقى

---

(١) هو الشيخ فالح بن مهدي بن سعد بن مهدي بن مبارك آل مهدي، وآل مهدي أسرة من قبيلة الدواسر.
ولد في بلدة «ليلى» عام ١٣٥٢هـ، ونشأ فيها، ودخل الكتاب لدى الشيخ عبد العزيز بن يحيى بن سليمان البواردي، فحفظ القرآن عن ظهر قلب.
وقد أصيب بمرض الرمد وهو في سن العاشرة فكان من أثره أن كفَّ بصره، فكانت رغبته وهمته مواصلة التعليم، ولم تمنعه عاهته من ذلك فسافر إلى الرياض عام ١٣٦٥هـ فشرع في طلب العلم فقرأ على الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، وأخذ عنه النحو والفرائض وبعض رسائل أئمة الدعوة. ثم شرع في القراءة على الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في التوحيد والحديث والفقه والنحو، كما قرأ على الشيخ سعود بن رشود والشيخ إبراهيم بن سليمان.
ولما فتح المعهد العلمي في الرياض عام ١٣٧١هـ التحق به فدرس على صفوة من العلماء ثم التحق بكلية الشريعة بالرياض فتوسعت دراسته وكثر محصوله العلمي وفي عام ١٣٧٨هـ أنهى دراسته فعين مدرسًا في نفس معهد الرياض، وفي عام ١٣٨١هـ درَّس في كلية الشريعة بالرياض. وما زال مجدا في العلم بحثا وتعلما وتعليما في كلية الشريعة وفي منزله وفي المسجد حتى عد من كبار العلماء.
له من المؤلفات: «التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية»، «السلف بيت القديم والجديد».
توفي عن عمر يناهز الأربعين عاما في سنة ١٣٩٢هـ، رحمه اللَّه تعالى وأسكنه فسيح جناته.
انظر ترجمته في: «علماء نجد» (٥/٣٧٠)، «المبتدأ والخبر» (٥/١١).

(٢) مجلة اليمامة- العدد (٣٣٤)- محرم ١٣٨٢هـ.

المجتمعات وأعزها، يعلو فيه الأبرار والأخيار على أضدادهم؛ وحيث ينتصر فيه الحق على الباطل فتسعد الأمة وتعيش في ظل الأمن والسلام: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمران: الآية ١١٠].

وبالرغم من أهمية الأمر بالمعروف ومكانته من الدين وأنه مقام الرسل وأنه حفظ وسياج لأخلاق الأمة عن الانهيار والتفسخ، فهناك ممن انحرفوا عن الصراط المستقيم واتبعوا غير سبيل المؤمنين من يرى ذلك ظلمًا وإرهابًا، ويسمي القائمين به: عصابات إرهابية! ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ١٦] كأن القوم لم يسمعوا قول اللَّه سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٤].

يا قوم، أليس اللَّه تعالى يقول في معرض الذم لبني إسرائيل وتحذيرنا ما فعلوا: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. ويقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التّوبَة: الآية ٧١]. ويقول لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩].

أما قال رسول اللَّه ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(١). وقال: «والذي

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه.

نفس محمد بيده ، لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض »[1] .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات المؤمنين والمؤمنات ، كما أن النهي عن المعروف والأمر بالمنكر من صفات المنافقين والمنافقات : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: الآية ٦٧] .

إن قومًا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إنما يريدون في الحقيقة نجاة مجتمعهم وسلامته من الهلاك والانهيار ، أما الذين يتركون الحبل على الغارب فلا يأمرون تارك الواجب بفعله ولا يردعون مرتكب المنكر عن غيه ، فإنما يتسببون في هلاك مجتمعهم وتدهور أخلاقه!!

اسألوا أولئك الإباحيين والشيوعيين الذين لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ، بل أرخوا العنان للفساق وأهل الدعارة والمجون ، وفتحوا باب الإنحلال والخلاعة على مصراعيه ، اسألوهم ماذا جنت بلدانهم؟! إن الأعراض فيها تنتهك ، إن الخمور تشرب ، إن الميسر يلعب دورًا خطيرًا ، إن الربا الصريح متفش في معاملاتهم ، إن الصلاة- وهي أعظم شعائر الدين- تضاع ، وتذهب الأوقات العديدة واللاهون في مراقصهم ومسارحهم وملاعبهم ساهون!! ثم ماذا كانت النتيجة الطبيعية لهذا؟! لقد انقلبت بلدانهم مسارح للفتن المتلاحقة ، وموئلًا للنكبات المتوالية؛ مصداقًا للأثر القائل : « أوحى الله إلى بعض الأنبياء : إذا

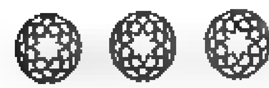
---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦، ٤٣٣٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وضعفه الألباني بهذا اللفظ ، وقد أخرجه الترمذي (٢١٦٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه بنحوه ، وحسنه الألباني . وانظر السلسلة الضعيفة (١١٠٥) .

عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني »[١] .

ونحن اليوم لا نستغرب من الإباحيين والشيوعيين أن يسموا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرهابًا؛ فقوم يقولون عن القِصاص وقطع يد السارق : إنه وحشية وهمجيـة ! واللَّه تعالى يقول : ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩] .

يتبع.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣١) عن الفضيل بن عياض، موقوفًا وأخرجه ابن فاخر الأصبهاني في فوائد ابن السماك (٣٩١- ضمن عشرة أجزاء حديثية) عن عبد اللَّه بن سلام، موقوفًا .

الأمر بالمعروف في نظر أعداء اللَّه[(١)]

[٢]

وبالجملة قوم عزلوا الكتاب والسنة عن التحكيم، وجحدوا ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام، قوم هذا شأنهم لا يستغرب منهم صدور مثل هذا.

ولكن الواجب علينا- معشر المسلمين- عدم الاغترار بهم، والحذر من التراخي والتساهل بهذا الأمر العظيم.

أيها المسلمون: إننا اليوم على مفترق الطرق، والخيار بأيدينا، فأمامنا خط مستقيم يفضي بسالكه إلى السعادة في الدارين؛ هو سبيل اللَّه، وعن يمينه وشماله سبل كثيرة، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه.

فهناك من يقول: نحن في القرن العشرين، يجب أن نساير الزمن وروح العصر، ولا نتقيد بأحكام الشريعة! والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رجعية وتأخر!!

فإن استجبنا[(٢)] لنداء الحق، ووقفنا عند حدود اللَّه الذي فرض فرائض وأمرنا أن لا نضيعها، وحد حدودًا ونهانا عن تجاوزها، والتمسنا رضاه ولو سخط علينا الناس، فقد سعينا في نجاتنا وسعادة مجتمعنا وأمتنا.

وإن حاولنا مجاراة هؤلاء المنحرفين والتمسنا رضاهم ومن على شاكلتهم من الإباحيين؛ ليُسمُّونا تقدُّميِّين، وليقولوا عن بلادنا: إنها متحضرة وراقية. فقد سعينا لأنفسنا بالهلاك والدمار، وتسببنا في سخط اللَّه علينا وسخط من أرضيناهم في سخطه.

(١) مجلة اليمامة- العدد ٣٣٥- في ١٣٨٢/٢/٢٧هـ.

(٢) في الأصل: «استجبت».

روى الطبراني[١] من حديث جابر بن عبد اللّٰه رضي اللّٰه عنهما ، أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « من أسخط اللّٰه في رضا الناس ، سخط اللّٰه عليه ، وأسخط عليه من أرضاه في سخطه . ومن أرضى اللّٰه في سخط الناس ، رضي اللّٰه عنه ، وأرضى عنه من أسخط في رضاه ، حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينه » .

وكتب معاوية رضي اللّٰه عنه ، إلى عائشة رضي اللّٰه عنها : أن اكتبي إليّ كتابًا توصيني فيه ، ولا تكثري عليّ . فكتبت عائشة إلى معاوية : سلام عليكم ، أما بعد ، فإني سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « من التمس رضا اللّٰه بسخط الناس ، كفاه اللّٰه مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط اللّٰه ، وكله اللّٰه إلى الناس » . والسلام عليك[٢] .

وفي الختام أذكِّرُ المسئولين في بلادنا وحكومتنا المسلمة الآمنة المطمئنة؛ أذكرهم بقول اللّٰه تعالى : ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦] ويقول رسول الهدى ونبي الرحمة محمد عليه الصلاة والسلام : « مثل القائم على حدود اللّٰه والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أسفلها وبعضهم أعلاها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا بمن فوقهم ، فقالوا : لو خرقنا في نصيبنا ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وهلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوا ، ونجوا جميعًا »[٣] .

أيها المسلمون : إن الواجب يقتضي منا مضاعفة الجهود في تدعيم الأمر

---

(١) أخرجه الطبراني (١١٦٩٦) لكن من حديث ابن عباس رضي اللّٰه عنهما ولم نجده من حديث جابر . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٦٣) ، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٣١١) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤) . وصححه الألباني ، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٣١١) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٩٣، ٢٦٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي اللّٰه عنه .

بالمعروف والنهي عن المنكر وتعزيزه ، والعمل على اختيار رجاله الصالحين . إن النصح للّٰه ورسوله وللمؤمنين يفرض علينا أن نضرب بيد من حديد على أيدي السفهاء والملحدين والمجرمين ، دون أن تأخذنا بهم رأفة في دين الله؛ ليقفوا عند حدهم ، وليعيش الناس في رحمة وطمأنينة وأمن وسلام . واللّٰه الموفق والهادي إلى سواء السبيل .



السر الكامن وراء الفتن(١)

ما تكاد نار فتنة تخبو حتى تشتعل أخرى في العالم العربي والإسلامي ، وفي عالم الدنيا كله!!

وإذا بحثنا عن سرٍّ هذه الفتن وسبب تلاحقها بين حين وآخر لدى الأمم التي لم ترض بالإسلام لها دينًا ، ولم تتخذ آخر كتاب نزل من اللّٰه لها دستورًا ، وجدنا أن سر ذلك هو تنكبها(٢) الصراط المستقيم ، وسيرها في سياستها حسب ما تمليه عليها الآراء البشرية والقوانين الوضعية التي ما يلبث أن يفرغ واضعها من صياغتها حتى يثور عليه منافسه فيطيح بحكمه ويُنحِّيه عن سلطانه ، ثم يفنِّد موادَّ قانونه وينقضها! فهم دائمًا في تناحر وعناء وشقاء؛ مصداقًا لقول اللّٰه سبحانه : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٦] .

قال أهل التفسير : معنى الآية : أن اللّٰه عز وجل جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش في الدنيا عيشًا هنيئًا ، غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: الآية ٩٧] . وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه وكتابه ولم يعمل بما فيه أن يعيش عيشًا ضيقًا في تعب ونصب . ومع ما يصيبه في هذه الدنيا من المتاعب فهو في الآخرة أشد تعبًا وأعظم ضيقًا .

---

(١) مجلة اليمامة- العدد- ٣٣٦- في ١٣٨٢/١/١هـ.

(٢) تنكَّب فلانًا : ولاه منكبه وأعرض عنه ، ونكَّب عنه : عدل وتنحى «المعجم الوسيط» : (نكب) .

ولاشك أن من يسير في ركاب تلك الأمم الكافرة، ويستبدل بكتاب اللَّه العزيز آراء الرجال، ويقلدها في أعمالها الشريرة من أنواع الخبث وأصناف الفجور والفسق؛ حري بأن يصيبه ما أصابهم، وإلى هذا يشير قوله عز وجل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ٦٥]

قال علماء التفسير في معنى هذه الآية: يعني: هو القادر على أن يجعلكم في شدة ومحنة وكرب، ويبعث عليكم عذابه من كل جانب بتسليط أئمة السوء الظلمة والأنذال السفلة، ويجعلكم مختلطي الأهواء مختلفي المبادئ والآراء، ويصيب بعضكم ببعض قتلًا وسلبًا وأسرًا، فاحذروا مخالفة أمره والإقامة على معاصيه. وفي الأثر يقول الرسول ﷺ: «ما ترك قوم كتاب اللَّه إلا جعل اللَّه بأسهم بينهم»[(١)].

ومما لا ريب فيه أن من أعرض عن كتاب اللَّه وسنة رسوله وحكم القوانين الوضعية؛ فحلل ما حللت وحرم ما حرمت ولو كان ذلك مخالفًا لشرع اللَّه، ليس من الإسلام في شيء وإن زعم أنه من المسلمين. يقول اللَّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٠]، ويقول سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٥].

مما مضى نستطيع أن نحكم حكمًا جازمًا أن سبب الاضطرابات ومصدر

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٣١٥) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٨٧).

القلاقل وسر النكبات والفتن المتلاحقة هو : الانحراف عن الصراط المستقيم ، واتباع غير سبيل المؤمنين . أما الحياة الطيبة واستتباب الأمن ، فإنما يحصل باتباع أمر اللّٰه والوقوف عند حدوده؛ تحقيقًا لوعده سبحانه حيث يقول : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور : ٥٥، ٥٦] .

ولا يفوتني هنا أن أشير إلى القرارات والمواثيق التي يصدرها الزعماء؛ فهذه القرارات والمواثيق التي تبرم بين حين وآخر لو لوحظ فيها- أولًا وقبل كل شيء- محاولة انضواء الجميع حول دستور السماء والوقوف عند حدوده وترسم خطاه ، وطلب من يعتنق هذا المبدأ من الآخرين أن يحذوا حذوه فيه ، وصارحهم فيما ينبغي أن تكون عليه سياسة الجميع في تنظيم شؤونهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ أقول : لو حصل هذا لأدت هذه القرارات ثمارها طيبة ، ولحصل الأمن والاستقرار والعيش بسلام ، ولحل الوئام والوفاق محل النزاع والخصومة .

ولست أنكر ما يحصل من نتائج مفيدة نسبيًا من تحسين العلاقات بين هذه الدول ، وحصول المصالح المشتركة ، إلا أن الفائدة الكبرى والمصلحة العظمى المستمرة التي تحصل بها سعادة الدنيا والآخرة لا يمكن أن تتحقق إلا بسير الجميع على منهاج واحد؛ هو دستور السماء .

إنه لا يمكن بحال من الأحوال وبأي شكل من الأشكال أن يتحقق النصر على الأعداء ، أو يستتب الأمن ، أو يحصل الاستقرار والعيش بسلام بصورة مستمرة في بلدان تحكم بغير ما أنزل اللّٰه ، وترتكب فيها المحرمات وتنتهك فيها

الأعراض ، وينتشر فيها الفسق بأشكاله المختلفة علنًا . وصدق اللَّه العظيم حيث يقول : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [الشورى : ٣٠، ٣١] . وحيث يقول : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: الآية ٤٠] .



حول مقال:
«الواقع العربي والمستقبل»[(١)]
لا تبدأوا من حيث انتهى غيركم

نشرت جريدة «القصيم» في عددها الصادر تحت رقم (٨١)، وتاريخ ٢٨/ ١/٨١ مقالًا لفهد العبد الجبار تحت عنوان: «الواقع العربي والمستقبل» جاء فيه قوله: «ويعتقد الدكتور عزة النص أن القيمة البشرية للوطن العربي تبلغ نحو ٢٠٠ مليار ليرة من وجهة نظر الدولة، بينما تبلغ أربعة أضعاف هذا الرقم، من وجهة نظر القومية، هذا وإذا علمنا أن نصف سكان الوطن العربي لا يزالون يعيشون وراء الجدران، معطلي القوى، ومستهدفين للذة فقط؛ باعتبارها أحد النشاطات البشرية، أدركنا فداحة المشكلة وعمقها. فالمرأة العربية رغم بعض مظاهر التحرر التي نالتها في بعض أجزاء الوطن العربي- وحتى في بعض الأقطار التي أعطتها حقوقها السياسية- لا تزال بعيدة عن المشاركة الفعلية في الإنتاج، وهي في الغالب أداة استهلاك مستمر لا سيما لمستحضرات التجميل المستوردة».

ثم قال بعد كلام طويل: «هذه الأرقام مأخوذة من كتاب الوطن العربي للدكتور عزة النص».. إلى آخر كلامه.

وبدافع النصح والإرشاد سأبين فيما يلي مغزى هذا الكلام، وأوضح الهدف الذي يرمي إليه، وأعيذ شبابنا- بما فيهم صاحب المقال الآنف الذكر- أعيذهم بالله أن تستبد بهم الأفكار المسمومة، أو تستولي على مشاعرهم الآراء الهدامة التي يعتنقها ويدعو إليها أناس لهم مقاصد دنيئة وأغراض غير شريفة:

فقوله: «إن نصف سكان الوطن العربي لا يزالون يعيشون وراء الجدران

(١) مجلة الجزيرة- العدد الخامس- في ربيع الأول ١٣٨١هـ.

معطلي القوى مستهدفين للذة فقط » إلى قوله عن المرأة : « وهي في الغالب أداة استهلاك مستمر ، ولا سيما لمستحضرات التجميل المستوردة » . معناه : الدعوة الواضحة لانخراط المرأة في سلك العمل ، مهما كان نوعه ، وكيفما كانت ظروفه وملابساته!! وهو يعني كذلك : الدعوة الصريحة إلى سفور المرأة وتهتكها ، ورميها حجاب التستر والاحتشام إلى غير رجعة! فهو يريد أن يراها في المصنع والمتجر ، وفي الإذاعة والمكتب؛ جنبًا إلى جنب مع الرجال!!

استمع معي إلى قول شاعرهم :

سجنوهن في البيوت فشلوا نصف شعب يهم بالحركات
إن هذا الحجاب في كل أرض ضرر للفتيان والفتيات
إن هذا الحجاب قبر كثيف حال بين الفتات والنسمات

من هذا يتضح للقارئ الكريم أن الذين يطالبون بإقحام المرأة في مختلف الأعمال التي هي من شؤون الرجال ، إنما يريدون للمرأة المسلمة التي لا تزال تحافظ على دينها وأخلاقها أن تنحدر في هوة السفور السحيقة ، يريدون منها أن تخرج إلى السوق حاسرة الرأس ، مكشوفة الصدر والنحر ، عارية العضدين والساقين ، ترتدي الملابس الضيقة والشفافة القصيرة التي تبرز مفاتنها ومحاسن جسمها للرجال ، نعم يريدون منها أن تخرج إلى السوق ، وعلى هذه الصفة؛ لتزاحم الرجال ، وتأخذ مكانها في المصنع وفي الإذاعة وفي المتجر ، وفي كل مصلحة حكومية أو شركة وطنية؛ ليأنس إليها مرضاء النفوس ، ويطمئن إليها كل إباحي منحل؛ وهنا يصفق دعاة تحرير المرأة والطالبون بحقوقها!!

وتدعيمًا لهذه الحقيقة سأثبت فيما يلي للقارئ العزيز ما قاله أحد العلماء بهذا الشأن؛ ومن له جولة وصولة في هذا الميدان :

يقول الشيخ محمد سالم البيحاني في كتابه « أستاذ المرأة » بعد أن ذكر ما

للمرأة من خصائص ينبغي أن لا تشذ عنها، وما لها على وليها من حقوق، ما نصه: ورأى الناس أن الحمل والولادة والتربية وتدبير المنازل غير كاف من النساء، وأنه لا يجوز حرمانهن من الخلاعة والمجون بالرقص والسباحة وسائر أعمال الرياضة المكشوفة! وقالوا لها: شاركينا في كل شيء، وخذي بحظك من كل شيء، وأسمعينا صوتك الرخيم، وأرينا وجهك الكريم، وتعرضي للرجال كما يتعرضون لك، واختاري لنفسك من تهوين، ولا تبالي بقول أحد في سبيل ما ترضين!! وضربوا لها الأمثال بالأوربيات والأمريكيات وغيرهن من الفاجرات اللواتي لا دين لهن ولا حياء، ولا وازع من أهل ولا عقل.



الأخوة الإسلامية[1]

قرأت كلمة لأحد الكتاب نُشرت في افتتاحية بعض صحفنا. موضوع الكلمة : « أزمة الكويت مع العراق »

وقد عجبت كثيرًا وأسفت! حيث لم يأت هذا الكاتب في مقاله ولو بكلمة واحدة تشير إلى الأخوة الإسلامية التي تربط القطرين الشقيقين بعضهم ببعض، بالإضافة إلى الرابطة العربية!! على أن رابطة الإسلام وأخوة الإيمان فوق كل الوشائج، وأقوى من كل الأواصر، وليس هناك من مبدأ أو قومية يمكن بواسطتها تأليف القلوب وجمع الكلمة سوى الإيمان.

ارجع إلى تاريخ ما قبل فجر الإسلام لتدرك مدى ما كان بين العرب أنفسهم من الضغائن والأحقاد، وبالتالي التناحر واقتناص قويهم مَنْ هو أضعف منه، ثم انظر كيف كان حالهم بعد بزوغ شمس الإسلام وانبثاق الرسالة السماوية على الرسول العربي محمد ﷺ وكيف تقاربت وجهات نظرهم وائتلفت قلوبهم، وانضموا تحت لواء واحد وشعار واحد، وساروا خلف قائد واحد : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

قرأت الكلمة المشار إليها، كما اطلعت على كلمة نشرت في صحيفة أخرى تبحث نفس القضية، ولكن كان حديث كاتبها عن تلك القضية من زاوية أخرى؛ زاوية الإسلام، فتذكرت الكلمة المأثورة عن بعض السلف وهي : « سبحان من أودع في كل قلب ما أشغله »!

ولا أريد أن أذكر هنا بعض كلمات الكاتب الأول التي رددها في مقاله،

---

(١) صحيفة « الندوة » في ١٣٨١/٢/٧هـ.

واعتبرها الأصل الذي لا ينبغي على أساسه اعتداء دولة عربية على أختها .

ولكن أشير إلى بعض ما جاء في كلمة الكاتب الثاني الذي بحث القضية من زاوية الإسلام ، كما أنني سأعقب على بعض الفقرات التي جاءت في هذه المقال ، ولكنه تعقيب تأييد وليس بتعقيب نقد أو تفنيد :

قال الكاتب الأخير : « الدين الإسلامي يدعو للوحدة وجمع الكلمة ولمّ الصفوف ، ولهذا قد حرم الخروج على الحاكم؛ حفظًا للأمة من الفرقة ، وإبقاء عليها من الفناء ، ومنعًا لها من الضياع ، كما حرم أن تعتدي طائفة مسلمة على أخرى مسلمة ، أو تقاتلها أو تحاربها » . ثم استشهد بآية الحجرات ..

ثم قال بعد أن أوضح ما ترمي إليه الآية الكريمة في هذا الخصوص : « وقد بين اللّه تعالى أن المؤمنين إخوة ، وإذا كانوا إخوة فلا يعتدي بعضهم على بعض ، ولا يبغي بعضهم على بعض . ومن شأن الإخوة أنهم إذا اختلفوا تدخَّل بينهم الإخوة الآخرون بالصلح ، وإلا فيرد الظالم بالقتال والحرب والنضال » .

كما أضاف قائلًا : « إن شأن الجندي المسلم أن يحارب؛ رغبة في الشهادة ، فهل إذا اشتبك المسلمان ، وقتل أحدهما الآخر ، أفيكون شهيدًا له الجنة؟! كلا هو في النار » .

ثم استشهد بقول الرسول ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا : يا رسول اللّه هذا القاتل فما بال المقتول؟ فقال ﷺ : « إنه كان حريصًا على قتل أخيه » .

هذا ما أردت نقله من هذا المقال؛ كمقارنة بين كلمتين لكاتبين من كتابنا المحترمين .

واللّه أسأل أن يوفق الجميع لتسخير أقلامهم في الدعوة إلى ما فيه عز العالم بأسره وهو الإسلام .

أما ما وعدت بالتعقيب عليه ، فهو قول الكاتب الفاضل : « لو كانت الأمم العربية سائرة على هدي ربها ، ومحكومة بشرع دينها ، لما رأينا مثل هذا الذي وقع بين أخوين مؤمنين » .

قلت : وهذا كلام حق ، ولقد كان في كل ما حدث للمسلمين عبر قرون طويلة ما يوضح بجلاء مدى ما يعانيه الشرق والغرب من الظلم والقسوة والعناء والاضطراب المتزايد ، كل ذلك من جراء عدم تحكيم كتاب اللّٰه العزيز : الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٢] ، وعدم تطبيق سنة الرسول ﷺ ، وهذه حقيقة مسلم بها ومعلومة لدى الجميع .



خطأ في التعبير[١]

قرأت الخطاب الذي نشرته جريدة « الندوة » الغراء في عددها الصادر برقم (٧١٤) وتاريخ ٣- ١٢- ٨٠ هـ والموجه إلى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، بتوقيع زوجتي شوعي بن أحمد وأولاده السبعة.

وقد جاء في هذا الخطاب الجملة التالية : « إننا نتوسل إلى جلالتكم باللَّه، ثم بهذه المناسبة التي يشمل اللَّه فيها عباده بالرحمة أن ترحمونا بتحمل دين عائلنا »!!.

وحيث إن قول الكاتب : إننا نتوسل إلى جلالتكم باللَّه، ثم بهذه المناسبة. تعبيرٌ غير لائق شرعًا، وفيه سوء أدب مع الله!! رأيت أن من الواجب التنبيه على ذلك، وبيان أنه تعبير غير صحيح؛ فإن التوسل معناه : التزلف والاستشفاع. فقولك لشخص : إنني أتوسل باللَّه إليك. معناه : أجعله شفيعًا وواسطة، يشفع لي عندك!!

وإذا عرف هذا، فقول الكاتب : إننا نتوسل إلى جلالتكم باللَّه، ثم بهذه المناسبة .. إلخ. معناه : نجعل اللَّه شفيعًا لنا، وواسطة لدى جلالتكم.

ولا يخفى ما في هذا من قلة أدب مع اللَّه تبارك وتعالى؛ إذ هو تنقص له سبحانه، فإن الشافع إنما يشفع عند من هو أعظم منه، واللَّه سبحانه وتعالى هو رب كل شيء ومليكه، وجميع الخلق وما لديهم ملك له جل وعلا، يتصرف فيه كيف يشاء، فكيف يسوغ أن يجعل سبحانه واسطة لدى أحد من خلقه، أو شفيعًا عنده؟! تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا.

وما قاله الكاتب هنا هو نظير ما قاله الأعرابي للرسول ﷺ، كما في الحديث

(١) مجلة « راية الإسلام »- العدد الثاني والثالث- محرم، صفر ١٣٨١.

الذي رواه أبو داود(١) بسنده، وهو عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام! فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ: «ويحك! أتدري ما تقول؟». وسبَّح رسول الله ﷺ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله؟! إن عرشه على سمواته لهكذا» وقال بأصابعه مثل القبة عليه «وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب»

وقد قال العلماء من معنى هذا الحديث: إن الله سبحانه وتعالى هو الكبير المتعال، فكيف يشفع عند أحد من خلقه، تعالى الله عن ما لا يليق بجلاله وعظمته؛ فإن الشافع إنما يشفع عند من هو أعلى منه. فقول هذا الأعرابي: ونستشفع بالله عليك. من أعظم التنقص لرب العالمين؛ ولهذا أنكر الرسول ﷺ عليه.

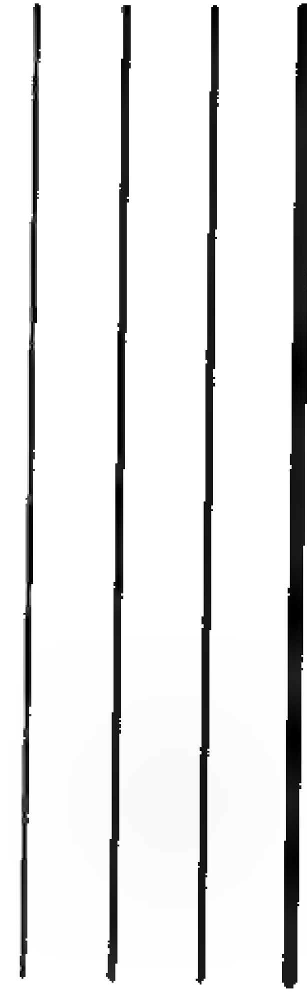
وأنا على يقين من أن الكاتب لم يقصد تنقصًا لله عز وجل، وإنما صدر منه هذا القول جهلًا منه بمدلوله، ولكن الواجب التحفظ من استعمال مثل هذه العبارات التي تمس عقيدة المسلم، وتنقص توحيده.

كما أن جلالة الملك- أيده الله- لا يرضى باستعمال مثل هذه الألفاظ، لا في حقه، ولا في حق غيره.

هذا وأسأل الله سبحانه أن يمن علينا بالفقه في الدين، وأن يجنبنا جميعًا كل ما من شأنه أن يمس عقيدتنا، أو يقدح في توحيدنا، إنه على كل شيء قدير.



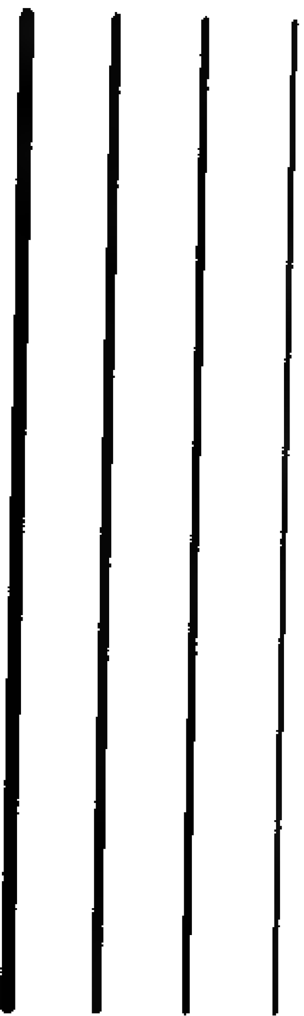
(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، وضعفه الألباني.

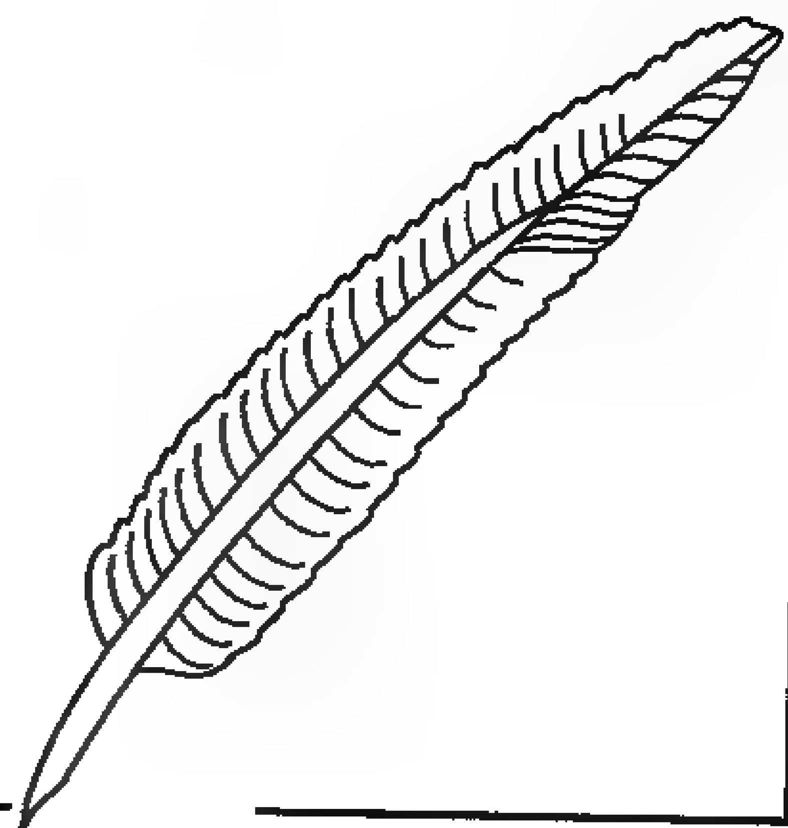


مقالات الشيخ

محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله

١٣٢٥هـ - ١٣٩٣هـ





مقالات الشيخ محمد الأمين الشنقيطي(١)

(١) هو الإمام العلامة المفسر محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد ابن سيدي أحمد بن المختار الشنقيطي، وهو من قبيلة حمير العربية.
ولد رحمه اللَّه- عام ١٣٢٥هـ ونشأ يتيما فقد توفي والده وهو صغير فتربى في بيت أخواله.
حفظ القران وهو دون العاشرة من عمره. درس خلال حفظه للقران بعض المختصرات في فقه الإمام مالك إضافة إلى الأدب والنحو والسيرة على أخواله وأبناء أخواله وزوجات أخواله. ثم درس بقية العلوم على جمع من العلماء منهم الشيخ محمد بن صالح والشيخ محمد الأفرم والشيخ أحمد عمر والشيخ محمد زيدان وغيرهم، فقد أخذ عنهم النحو والصرف والأصول والبلاغة والتفسير والحديث، أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فيقول إنه حصله بالمطالعة. طلب العلم حتى فاق فيه الأقران فاشتغل في بلده بالتدريس والفتيا والقضاء، ولم يخرج من بلاده حتى علا قدره وعظم تقديره وكان علما من أعلامها وموضع ثقة أهلها.
خرج من بلاده لأداء فريضة الحج برًّا بنية العودة فلما قدم المدينة التقى بالشيخين عبد اللَّه بن زاحم وعبد العزيز بن صالح، وتباحث معهما فيما سمع عن الدعوة الإصلاحية من إشاعات مغرضة، وكان صريحًا فيما عرض عليهما مما سمع، فدارت بينهم جلسات، وكانا حكيمين فيما يعرضان عليه ما عليه أهل هذه البلاد من مذهب في الفقه ومنهج في العقيدة، وكان أكثرهما مباحثة معه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح، حتى اقتنع الشيخ بأن منهج المجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب منهج سليم العقيدة يعتمد الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة.
ثم رغب في البقاء في المسجد النبوي لتدريس التفسير، فتم ذلك بأمر من جلالة الملك عبد العزيز رحمه اللَّه. وقد ختم القرآن في تفسيره بالمسجد النبوي مرتين، وتوفي ولما يكمل الثالثة.
انتقل إلى الرياض عام ١٣٧١هـ لتدريس التفسير والأصول بالمعهد العلمي وكليتي الشريعة واللغة العربية وظل هناك عشر سنين واستفاد منه خلق لا يحصون كثرة في الدراسة النظامية وغيرها، فكان يدرس في الرياض ويقضي إجازته في التدريس بالمسجد النبوي، حتى فتحت الجامعة الإسلامية في المدينة عام ١٣٨١هـ، حيث استمر الشيخ يدرس بها حتى توفي. وقد كان بجانب تدريسه بالجامعة عضوا في مجلس الجامعة ساهم في سيرها ومناهجها كما ساهم في إنتاجها وتعليمها.
ثم عين كأحد أعضاء هيئة كبار العلماء عند بداية تشكيلها، وكان عضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي. =

من هدي القرآن(١)

من هدي القرآن التي هي أقوم: ملك الرقيق، المعبر عنه في القرآن بملك اليمين في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: الآية ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] في سورة: قد أفلح المؤمنون، وسأل سائل.

وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: الآية ٣٦]. وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٢٤] الآية. وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: الآية ٣٣] الآية. وقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٢]. الآية. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ

= من أكابر من أخذ عن الشيخ: سماحة الإمام عبد العزيز بن باز، والشيخ حماد الأنصاري، والشيخ صالح اللحيدان، والشيخ حمود العقلا الشعيبي، والشيخ عبد الله الغديان، والشيخ محمد الصالح العثيمين، والشيخ صالح الفوزان، والشيخ عبد المحسن العباد، والشيخ بكر أبو زيد، وغيرهم كثير.

له من المؤلفات: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز»، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، و«مذكرة أصول الفقه»، و«أدب البحث والمناظرة»، و«أضواء البيان»، و«رحلة الحج».

توفي رحمه الله في مكة يوم الخميس ١٣٩٣/١٢/١٧هـ. وصلى عليه سماحة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله في الحرم المكي. انظر ترجمته في: «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي» للشيخ عبد الرحمن السديس، ومقدمة الشيخ عطية سالم لـ «أضواء البيان»، و«المبتدأ والخبر» (٣٤٥/٥).

(١) نشر في مجلة «راية الإسلام» العدد (٦، ٧، ٨) السنة الثانية في جمادى الأولى والثانية ورجب عام ١٣٨٠ هـ ص (١٠- ١٦).

أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] الآية. وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٥].

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النّساء: الآية ٢٥]. وقوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [النّحل: الآية ٧١]. وقوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٨] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات ونحوها: ملك الرقيق بالرق، ومن الآيات الدالة على ملك الرقيق قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النّحل: الآية ٧٥] الآية. ونحو ذلك من الآيات، وسبب الرق هو الكفر ومحاربة الله ورسوله، فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم وجميع قواهم، ومما أعطاهم الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا على الكفار، جعلهم ملكًا لهم بالسبي، إلا إذا اختار المنَّ أو الفداء، لما في ذلك من المصلحة على المسلمين، وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة؛ وذلك أن الله- جل وعلا- خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

وفي الآية الأخرى في سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: الآية ١٨]. وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة

ليشكروه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٧٨].

فتمرد الكفار على ربهم، وطغوا، وعتوا، وأعلنوا الحرب على رسله؛ لئلا تكون كلمته هي العليا، واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته، وارتكاب ما يسخطه، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره، وهذا أكبر جريمة يتصورها الإنسان، فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير- جل وعلا- عقوبة شديدة تناسب جريمتهم، فسلبهم التصرف، ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه، كمقام الحيوانات، فأجاز بيعهم وشرائهم وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلبًا كليًا، فأوجب على مالكيهم الرفق والإحسان إليهم، وأن يطعموهم بما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، وإن كلفوهم أعانوهم، كما هو معروف في السنة الواردة عنه ﷺ، مع الإيصاء عليهم في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾- إلى قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ [النّساء: الآية ٣٦].

كما تقدم وتشوف الشارع تشوفًا شديدًا للحرية والإخراج من الرق، فأكثر من أسباب ذلك، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ، وظهار، ويمين، وغير ذلك. وأوجب سراية العتق، وأمر بالكتابة في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ [النّور: الآية ٣٣]. ورغب في الإعتاق ترغيبًا شديدًا.

ولو فرضنا- ولله المثل الأعلى- أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرق، وتشنع في ذلك على دين الإسلام، قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان، ودبر عليها ثورة

شديدة ، يريد بها أنظمتها التي يظهر لها أن بها صلاح المجتمع ، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة ، فإنها تقتله شر قتلة ، ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه ، فهو أشد سلبًا لتصرفات الإنسان ، ومنافعه من الرق بمراحل .

والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ، ليحول دون إقامة نظام اللَّه الذي شرعه ليسير عليه خلقه ، فينشر بسببه في الأرض الأمن والطمأنينة والرخاء والعدالة والمساواة في الحقوق الشرعية ، وتنتظم به الحياة على أكمل الوجوه وأعدلها وأسماها . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية ٩٠] فعاقبه اللَّه هذه المعاقبة بمنعه التصرف ، ووضع درجته ، وجريمته تجعله يستحق العقوبة بذلك .

فإن قيل : إذا كان الرقيق مسلمًا ، فما وجه ملكه بالرق ، مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة اللَّه ورسله قد زال؟

فالجواب : أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء ، أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق ، والأحقية بالأسبقية ظاهره لا خفاء بها ، فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي ، ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع ، وهو الحكيم الخبير ، فإذا استقر هذا الحق وثبت ، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك ، كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبوقًا بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام ، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه ، كما هو معلوم عند العقلاء .

نعم يحسن بالمالك ويجمل به أن يعتقه إذا أسلم ، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه ، وفتح له الأبواب الكثيرة ، كما قدمنا ، فسبحان الحكيم الخبير ،

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: الآية ١١٥] فقوله: صدقًا، أي: في الإخبار. وقوله: عدلًا. أي في الأحكام. ولا شك أن من ذلك العدل الملك بالرق، وغيره من أحكام القرآن.

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: القصاص. فإن الإنسان إذا غضب وهمَّ بأن يقتل إنسانًا آخر، فتذكر أنه إن قتله، قتل به، خاف العاقبة، بترك القتل، فحيي ذلك الذي كان يريد قتله، وحيي هو؛ لأنه لم يقتل، فيقتل قصاصًا، فقتل القاتل يحيى به ما لا يعلم إلا الله كثرة كما ذكرنا. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٩]

ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها؛ ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا- قديمًا وحديثًا- قلة وقوع القتل في البلاد التي تحكم بكتاب الله؛ لأن القصاص رادع عن جريمة القتل، كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفًا.

وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ لأن فيه إقلال عدد المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل، فيحبس وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع كله. كلام ساقط عار من الحكمة؛ لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعة، فإن السفهاء يكثر منهم القتل، فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: قطع يد السارق؛ المنصوص عليه بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٣٨]. وقال النبي ﷺ: «لو سرقت فاطمة، لقطعت يدها»؛ وجمهور العلماء على أن القطع هو من الكوع، وأنها اليمنى، وكان ابن مسعود وأصحابه يقرؤن: فاقطعوا أيمانهما.

والجمهور أنه إن سرق ثانيًا ، قطعت رجله اليسرى ، ثم إن سرق فيده اليسرى ، ثم إن سرق فرجله اليمنى ، ثم يعزر . وقيل : يقتل ، كما جاء في الحديث : « ولا قطع إلا في ربع دينار »[١] . أو قيمته ، أو ثلاثة دراهم ، كما هو معروف في الأحاديث .

وليس قصدنا هنا تفصيل أحكام السرقة ، وشروط القطع ، كالنصاب ، والإخراج من حرز ، ولكن مرادنا : أن قطع يد السارق من هدي القرآن للتي هي أقوم ، وذلك أن هذه اليد الخبيثة الخائنة التي خلقها الله لتبطش وتكتسب في كل ما يرضيه من امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، والمشاركة في بناء المجتمع الإنساني ، فمدت أصابعها الخائنة إلى مال الغير لتأخذه بغير حق ، واستعملت قوة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح؛ فإنها يد نجسة قذرة ، ساعية في الإخلال بنظام المجتمع؛ إذ لا نظام له بغير المال ، فعاقبها خالقها بالقطع والإزالة كالعضو الفاسد الذي يجر الداء لسائر البدن ، فإنه يزال بالكلية ، إبقاءً على البدن وتطهيرًا له من المرض ، ولذلك فإن قطع اليد يطهر السارق من دنس ذنب ارتكاب معصية السرقة ، مع الردع البالغ بالقطع عن السرقة

قال البخاري في « صحيحه »[٢] : باب الحدود كفارة . حدثنا محمد بن يوسف ، أخبرنا ابن عيينة ، عن الزهري ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : كنا عند النبي ﷺ في مجلس فقال : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا » وقرأ هذه الآية كلها « فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب به ، فهو كفارته ، ومن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٩) ، ومسلم (١٦٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٢) « صحيح البخاري » قبل حديث (٦٧٨٤) .

أصاب من ذلك شيئًا فستره اللَّه عليه ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » ا هـ هذا لفظ البخاري في « صحيحه » .

وقوله ﷺ في هذا الحديث الصحيح : « فهو كفارته » . نص صريح في أن الحدود تطهر المرتكبين لها من الذنوب . والتحقيق في ذلك ما حققه بعض العلماء من أن حقوق اللَّه يطهر منها بإقامته الحد ، وحق المخلوق يبقى ، فارتكاب جريمة السرقة- مثلًا- يطهر منه بالحد ، والمؤاخذة بالمال تبقى؛ لأن السرقة علة موجبة حكمين ، وهما : القطع ، والغرم . وقال في « مراقي السعود » :

وذاك في الحكم الكثير أطلقه   كالقطع مع غرم نصاب السرقة

مع أن جماعة من أهل العلم قالوا : لا يلزمه الغرم مع القطع ، لظاهر الآية الكريمة ، فإنها نصت على القطع ، ولم تذكر غرمًا ، وقال جماعة : يغرم المسروق مطلقًا ، فات أو لم يفت ، معسرًا كان أو موسرًا ، ويتبع به دنيًا إن كان معسرًا ، وقال جماعة : يرد المسروق إن كان قائمًا ، وإن لم يكن قائمًا ، رد قيمته إن كان موسرًا ، فإن كان معسرًا ، فلا شيء عليه ، ولا يتبع به دينًا .

والأول : مذهب أبي حنيفة . والثاني : مذهب الشافعي وأحمد . والثالث : مذهب مالك .

وقطع السارق كان معروفًا في الجاهلية ، فأقره الإسلام . وعقد ابن الكلبي بابًا لمن قطع في الجاهلية بسبب السرقة ، فذكر قصة الذين سرقوا غزال الكعبة ، فقطعوا في عهد عبد المطلب ، وذكر من قطع في السرقة عوف بن عبد بن عمر بن مخزوم ، ومقيس بن قيس بن عدي بن سهم وغيرهما ، وأن عوفًا السابق لذلك . انتهى .

وكان من هدايا الكعبة : صورة غزالين من ذهب؛ أهدتهما الفرس لبيت اللَّه الحرام ، كما عقده البدوي الشنقيطي في نظم « عمود النسب » بقوله :

ومن خباياه غزالًا ذهب   أهدتهما الفرس لبيت العرب

وقال القرطبي[١] في تفسير هذه الآية الكريمة: وقد قطع السارق في الجاهلية، وأول من حكم بقطعه في الجاهلية: الوليد بن المغيرة، فأمر الله بقطعه في الإسلام؛ فكان أول سارق قطعه رسول الله ﷺ في الإسلام من الرجال؛ الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف. ومن النساء: مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم، وقطع أبو بكر يد اليمنى الذي سرق العِقد، وقطع عمر يد ابن سمرة؛ أخي عبد الرحمن بن سمرة. اهـ.

قال مقيده، عفى الله عنه: ما ذكره القرطبي رحمه الله، من أن المخزومية التي سرقت، فقطع النبي ﷺ يدها أولًا هي: مرة بنت سفيان، خلاف التحقيق، والتحقيق أنها فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهي بنت أخي أبي سلمة بن عبد الأسد، الصحابي الجليل، الذي كان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، قتل أبوها كافرًا يوم بدر، وقع في غزوة الفتح. وأما سرقة أم عمر بنت سفيان بن عبد الأسد ابنة عم المذكورة، وقطع النبي ﷺ يدها، ففي حجة الوداع بعد قصة الأولى بأكثر من سنتين.

فإن قيل: أخرج الشيخان في صحيحهما وأصحاب السنن وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم. وفي لفظ بعضهم: قيمته ثلاثة دراهم. وأخرج الشيخان في صحيحهما وأصحاب السنن، غير ابن ماجه، وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا. والأحاديث بمثل هذا كثيرة جدًّا، مع أنه عرف من الشرع أن اليد فيها نصف الدية، ودية الذهب ألف دينار، فتكون دية اليد خمسمائة دينار، فكيف تؤخذ في مقابلة ربع دينار، وما وجه العدالة والإنصاف في ذلك؟

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٤٤٩.

فالجواب : أن هذا النوع من اعتراضات الملحدين الذين لا يؤمنون باللَّه ورسوله ، هو الذي نظمه المعري بقوله[١] :

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

وللعلماء عنه أجوبة كثيرة نظمًا ونثرًا؛ منها قول القاضي عبد الوهاب ، مجيبًا له في بحره ورويه :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

وقال بعضهم : لما خانت هانت . ومن الواضح أن تلك اليد الخبيثة الخائنة لما تحملت رذيلة السرقة ، وإطلاق اسم السرقة عليها في شيء حقير كثمن المجن والأترجة ، كان من المناسب المعقول أن تؤخذ في ذلك الشيء القليل الذي تحملت فيه هذه الرذيلة الكبرى ، وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة[٢] : ثم إنا أجبنا عن هذا الطعن ، بأن الشرع إنما قطع يده بسبب أنه تحمل الدناءة والخساسة في سرقة ذلك القدر القليل ، فلا يبعد أن يعاقبه الشرع بسبب تلك الدناءة هذه العقوبة العظيمة . اهـ .

فانظر ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق والتنزه عما لا يليق ، وقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا ، يدل على أن التشريع السماوي يضع درجة الخائن من خمسمائة درجة إلى ربع درجة الخائن ، من خمسمائة درجة إلى ربع درجة ، فانظر هذا الحط العظيم لدرجته ، بسبب ارتكاب الرذائل

وقد استشكل بعض الناس قطع يد السارق في السرقة خاصة دون غيرها من الجنايات على الأموال كالغصب والانتهاب ونحو ذلك ، قال المازري ، ومن تبعه : صان اللَّه الأموال بإيجاب قطع سارقها ، وخص السرقة لقلة ما عداها

(١) ديوان أبي العلاء المري ص ٥٧٠.

(٢) مفاتيح الغيب ١١/ ١٧٩.

بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب ، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها ، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر ، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حماية لليد ، ثم لما خانت هانت ، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله :

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها وأرخصها حماية المال فافهم حكمة الباري

وشرح ذلك : أن الدية لو كانت ربع دينار ، لكثرت الجنايات على الأموال ، فظهرت الحكمة في الجانبين ، وكان في ذلك صيانة من الطرفين ، وقد عسر فهم المعنى المتقدم ذكره ، في الفرق بين السرقة وبين النهب ونحوه ، على بعض منكري القياس ، فقال : القطع في السرقة دون الغصب وغيره غير معقول المعنى؛ فإن الغصب أكثر هتكًا للحرمة من السرقة ، فدل على عدم اعتبار القياس؛ لأنه إذا لم يعمل به في الأعلى ، فلا يعمل به في المساوئ؛ وجوابه : أن الأدلة على العمل بالقياس أشهر من أن يتكلف لإيرادها ، وستأتي الإشارة إلى شيء من ذلك في كتاب الأحكام . ا هـ بواسطة نقل ابن حجر في « فتح الباري »[(١)] .

قال مقيده ، عفا اللَّه عنه : الفرق بين السرقة وبين الغصب ونحوه الذي أشار إليه المازري ، ظاهر ، وهو : أن النهب والغصب ونحوهما قليل بالنسبة إلى السرقة ، ولأن الأمر الظاهر غالبًا توجد البينة عليه ، بخلاف السرقة؛ فإن السرقة إنما يسرق خفية بحيث لا يطلع عليه أحد ، فيعسر الإنصاف منه ، فغلظت عليه الجناية ليكون أبلغ في الزجر ، والعلم عند اللَّه تعالى .

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم : رجم الزاني المحصن ، ذكرًا كان أو أنثى ،

---

(١) فتح الباري ١٢/ ٩٨.

وجلد الزاني البكر مائة جلدة؛ ذكرًا كان أو أنثى .

أما الرجم فهو منصوص بآية منسوخة التلاوة ، باقية الحكم؛ وهي قوله تعالى : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من اللَّه واللَّه عزيز حكيم »(١) .

وقد قدمنا ذم القرآن للمعرض عما في التوراة من حكم الرجم ، فدل القرآن في آيات محكمة كقوله : ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المَائدة: الآية ٤١] الآية وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٣] الآية . على ثبوت حكم الرجم في شريعة نبينا ﷺ ، لزمه في كتابنا للمعرض عنه ، كما تقدم ، وما ذكرنا من أن حكم الرجم ثابت بالقرآن لا ينافي قول علي رضي اللَّه عنه حين رجم المرأة يوم الجمعة : رجمتها بسنة رسول اللَّه ﷺ . لأن السنة هي التي بينت أن حكم آية الرجم باقٍ بعد نسخ تلاوتها ، ويدل لذلك قول عمر رضي اللَّه عنه في حديثه الصحيح المشهور : فكان مما أنزل إليه آية الرجم ، فقرأناها وعقلناها (رجم رسول)(٢) اللَّه ﷺ ورجمنا بعده . الحديث .

والملحدون يقولون : إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية ، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان لقصور إدراكهم عن فهم حِكَم اللَّه البالغة في تشريعه .

والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى؛ لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر ، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض ، وتقدير الحرمات ، والسعي في ضياع أنساب المجتمع

---

(١) هنا سقط وتخليط في الأصل ، والمثبت من صحيح البخاري (٦٨٣٠) فقد أخرجه من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه أحمد ١٣٤/٣٥ (٢١٢٠٧) من حديث أُبي بن كعب ، وأخرجه ابن ماجه (٢٥٤٣) من حديث عمر رضي اللَّه عنه . وانظر الإرواء (٢٣٣٨) ، والصحيحة (٢٩١٣) .

الإنساني ، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله ، ومن كان كذلك فهو نجس قذر لا يصلح للمصاحبة ، فعاقبه خالقه الحكيم الخبير بالقتل ، ليرفع شره البالغ غاية الخبث والخسة ، وشر أمثاله عن المجتمع ، ويطهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب ، وجعل قتلته أفظع قتلة؛ لأن جريمته أفظع جريمة ، والجزاء من جنس العمل .



إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم[(١)]

[١]

لا شك أن هذا القرآن الكريم يهدي للطريق التي هي أقوم الطرق ، أي : أعدلها وأجراها على الاستقامة في جميع الميادين وعامة المرافق الحيوية ، وحل جميع المشاكل العالمية ، فلا حاجة معه إلى غيره أبدًا .

وقد فصلت السنة كل ما فيه مما يحتاج إلى التفصيل والإيضاح ، وسنوضح إن شاء اللَّه أن هذا القرآن الكريم كفيل بجميع المصالح الدنيوية والأخروية ، ويحل جميع المشاكل وبيان أسبابها وعلاجها على أكمل وجه وألزمه .

ونبدأ بأشياء طعن أعداؤه فيه بسببها؛ زعمًا منهم أنها على غير الحكمة والمصلحة :

قالوا مثلًا : الرجل والمرأة يمتان إلى مورثهما بقرابة واحدة ، والقرابة معنى من المعاني ، والمعاني يستحيل تجزؤها ، فكيف يفضل الذكر على الأنثى في الميراث؛ مع أن القرابة التى يدلي بها الذكر هي عين القرابة التي تدلي بها الأنثى؟! .

والقرآن يوضح حكمة ذلك التفضيل في قوله تعالى : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ٣٤] ، وقوله : ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزّخرُف: الآية ١٨] فأشار في الآيتين إلى أن الذكورة كمال خلقي وشرف طبيعي ، وأن الأنوثة نقص خلقي وضعف طبيعي ، فكان كمال الذكورة وشرفها الطبيعيان يقضيان أن يكون الكامل في خلقته القوي في طبيعته قائمًا على الناقص خلقة

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٤٥) في ٢٥ رمضان ١٣٧٩هـ.

الضعيف طبيعة؛ ليجبر نقصه وضعفه الخلقيين بقيامه عليه .

فقوله : ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: الآية ١٨] الآية : أتجعلون للَّه أنقص الولدين وأضعفهما؟! بدليل أن الأنثى تنشأ في الحلية وأنواع الزينة ليجبر بذلك نقصها الخلقي .

وما الحلي إلا زينة من نقيصة   يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

وأما إذا كان الجمال موفرا   كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا(١)

بخلاف الذكر فجمال ذكورته الخلقي يكفيه عن الحلي . وأشار إلى ضعفها الخلقي بقوله : ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: الآية ١٨] فهي بذلك الضعف ، لا تقدر على المدافعة الكاملة عن حقها ، وهذا هو الغالب في نوع الأنثى ، ولا عبرة بنوادر النساء؛ لأن النادر لا حكم له .



(١) انظر نفح الطيب للمقرّي ٥/ ١٦٥، وأضواء البيان ١/ ١٠٤، ٣/ ٢٥، ٧/ ٤١٦.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم[١]

[٢]

بل عجز المرأة عن القيام بحقها وضعفها الجبلي من محاسنها الأنوثية .

قال ابن الدمينة[٢] :

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ... ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل ... به سكتة حتى يقال مريب

إذا عرفت أن جمال الرجل وشرفه الطبيعيين يقتضيان أن يكون قائمًا على الضعيف الناقص ، وأن نقص المرأة وضعفها الخلقيين يقتضيان أن يكون غيرها قائمًا عليها ، وأن الرجل يبذل المال دائمًا في الصداق والنفقة وغيرهما ، والمرأة تأخذ المال دائمًا صداقًا ونفقة ، فاعلم أن مال الميراث ما تسببا في كسبه ولا مسحا فيه عرقًا ، بل اللّه ملكهما إياه . ولما كان الرجل يترقب النقص بالبذل دائمًا ، والمرأة تترقب الزيادة بالأخذ دائمًا ، اقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يؤثر مترقب النقص على مترقب الزيادة؛ جبرًا لنقصه المترقب ، وهو جل وعلا مالك الملك يصلح بما شاء على من شاء ، فظهر وجه الحكمة البالغة في تفضيله عليها .

قالوا أيضًا : كيف يجعل القرآن الطلاق بيد الرجل دون إذن المرأة ، مع أن النكاح لم ينعقد إلا باتفاقهما ، وكيف يمكن أحد المتعاملين من الاستقالة دون رضى الآخر؟!

والقرآن يبين ذلك في قوله : ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٣] الآية . فصرح بأن النساء حقول ومزارع يبذر فيها النطف كما يبذر البذر في الأرض ،

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٤٦) في ٢٨ رمضان ١٣٧٩هـ .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢٩، وديوان الحماسة ٢ / ١١٨، وأضواء البيان ٣/ ٢٦.

والحقيقة المحسوسة تشهد لما جاء به القرآن؛ لأن آلة الازدراع مع الرجل، فلو أكرهنا الرجل على البقاء مع من لا يريدها فأرادت أن تعلق منه، فلا تستطيع أن تحصل منه على النسل الذي هو أعظم أغراض النكاح، وبه بقاء نوع الإنسان في الدنيا، بخلاف الرجل فإنه يمكنه أن يتحصل منها على النسل وهي كارهة، فلو رأينا إنسانًا أراد أن يترك حقلًا غير مناسب للزراعة في نظره، فأرغمناه على البقاء على ذلك الحقل حتى يرضى ذلك الحقل، فكل العقلاء يقولون: ما أنصفتموه. فظهرت الحكمة البالغة في جعل الطلاق بيد من يرفع الساق.

قالوا أيضًا: كيف يبيح القرآن أكثر من زوجة واحدة؟ مع أن متزوج اثنتين يكون دائمًا في مشاجرة ومشاغبة؛ لأنه كلما أرضى إحداهما سخطت الأخرى، فهو بين سخطتين دائمًا، مع أنه لو اقتصر على واحدة لكانا في انسجام وائتلاف وموافقة تامة!

والقرآن يبين أن أعظم أغراض النكاح هي وجود النسل.

(يتبع).



إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(١)

[٣]

الذي به بقاء النوع الإنساني، قال تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧]. والمراد به الولد على التحقيق، وبه قال الجمهور، فهو إشارة إلى أن تلك المباشرة لابتغاء ما كتب اللّٰه من الولد أن يخلقه منها، والمرأة الواحدة تحيض وتمرض وتنفس، فلو اقتصر على واحدة لكان يحيض كلما حاضت، وينفس كلما نفست.

وأيضًا فالنساء أكثر من الرجال؛ لأن الرجال أكثر تعرضًا لأسباب الموت، كالجهاد والأسفار البعيدة، فلو اقتصر على واحدة، لبقي عدد كثير من النساء بلا أزواج، فكان ذلك سببًا للزنى والانحلال الخلقي.

ولما أباح التعدد في النكاح حدد قدرًا يمكن فيه العدل عادة، وأمر من يخاف ألا يعدل أن يقتصر على واحدة أو يتسرى.

أما المشاجرة بين الرجل وأهله فشأنها خفيف وخطبها يسير، ولا تسلم منها أسرة من الأسر، فهي تكون بين الرجل وأولاده، وبينه وبين أبويه وبين إخوته، يتشاجرون وقتًا ويصطلحون آخر، وكذلك الرجل وزوجه الواحدة يتشاجران مرة ويصطلحان أخرى، فظهرت الحكمة البالغة في تعدد الزوجات.

قد بين القرآن أسباب المشاكل العالمية وعلاجها أوضح بيان، ومن أعظم المشاكل التي يعانيها العالم الإسلامي اليوم: اختلاف القلوب، وضعف المسلمين عن مقاومة الكفار، وتسليط الكفار على المسلمين ينكلون بهم ويهينونهم في أقطار المعمورة كلها

---

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٤٧) في ٥ شوال ١٣٧٩هـ.

وقد بين القرآن أن سبب اختلاف القلوب : عدم العقل ، قال تعالى : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: الآية ١٤] ، وبين أن دواء فساد العقول هو : إنارتها بنور الوحي باتباع دين الإسلام ، قال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢] . فصرح بأنه كان ميتًا في ظلمات لا يميز نافعًا من ضار ولا حسنًا من قبيح ، فجعل اللّٰه له باتباع الوحي نورًا يمشي به في الناس ، يضيء له طريقه ، يميز به بين الضار والنافع ، وبين الحسن والقبيح ، وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ [الحديد: الآية ٢٨]- إلى قوله- ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: الآية ٢٨] . فبين أن اتباع رسوله ﷺ يجعل اللّٰه بسببه للمتبع نورًا يمشي به؛ يضيء له الطريق فلا يلتبس عليه في سلوكه ضار بنافع ولا قبيح بحسن : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المُلك: الآية ٢٢] .

(يتبع) .



إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(١)

[٤]

وقد بين القرآن أن علاج ضعف المسلمين في العدد والعدة عن مقاومة الكفار هو: الإخلاص لله تعالى وقوة الإيمان به، ولذلك لما ضرب الكفار على المسلمين في غزوة الأحزاب ذلك الحصار العسكري العظيم المذكور في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. وجميع أهل الأرض أعداء لهم، فقاطعوهم سياسيًّا واقتصاديًّا، كان العلاج لذلك هو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢].

فكان من نتائج هذا العلاج ما قصَّه تعالى بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥]. وهذا الذي نصرهم الله به ما كان في ظنهم ولا في حسابهم وهو الملائكة والريح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٩]

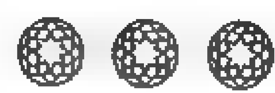
ولما علم ذلك الإخلاص من أهل بيعة الرضوان الذي نوه به في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: الآية ١٨]- إلى قوله- ﴿مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ٦٣]. وكان من نتائج ذلك الإخلاص ما ذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ [الفتح: الآية ٢١]، فصرح بأن إمكانياتهم لا

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٤٨) في ٩ شوال ١٣٧٩هـ.

تجعلهم قادرين عليها ، فجعلها غنيمة لهم لما علم من أن الإخلاص في قلوبهم .

قد بين القرآن سبب تسليط الكفار على المسلمين؛ لأن أصحاب النبي ﷺ استشكلوا ذلك لما وقع ما وقع يوم أُحد ، فقالوا : كيف ينال منا المشركون ، ويسلطوا علينا ونحن على الحق وهم على الباطل؟! فأفتاهم اللَّه في ذلك فتوى قرآنية موضحة سببَ ذلك بقوله : ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥] يعني : ما وقع يوم أُحد من قتل سبعين منكم ، ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥] يوم بدر بقتلكم سبعين وأسركم سبعين على أظهر القولين ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥]؟ أي : كيف يسلطون علينا ونحن على حق وهم على باطل؟ ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥] . وقد أوضح ذلك بقوله : ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٢] . إلى قوله : ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٢] .

(يتبع) .



إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(١)

[٥]

فبين أن سبب تسليطهم على المسلمين الفشل والنزاع في الأمر والعصيان وإرادة الدنيا؛ لأن الرماة الذين كانوا عند الجبل يمنعون ظهور المسلمين رغبوا الغنيمة عند هزيمة المشركين في أول الأمر، فخالفوا أمره ﷺ؛ رغبة في تحصيل عرض من الدنيا، ومَنْ شخَّص الداء عرف الدواء.

ومِن حِكَم تسليط الكفار على المسلمين: تمييز المخلص من المنافق، قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٤] الآية. وقال: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ٣١]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

ومن حكمه أيضًا: تمييز فضيلة الشهادة في سبيل الله للمسلمين؛ لأنه لو لم يسلط الكفار على قتل بعض المسلمين، لفاتهم فضيلة الشهادة في سبيل الله، ومن فاتته فقد فاته خير كثير، ولذا قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٠] الآية.

لا منافاة بين الدين والتقدم

قد بين القرآن أن لا منافاة بين الدين والتقدم، أي: لا منافاة بين التقدم وبين التمسك بالدين، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٦٠] الآية.

ومعلوم أن داود من الأنبياء المذكورين في سورة الأنعام في قوله تعالى:

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٤٩) في ١٣ شوال ١٣٧٩هـ.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٤]، ثم قال بعد أن ذكرهم مخاطبًا لنبينا ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠].

وقد ثبت في «صحيح البخاري»[(١)] أن مجاهدًا سأل ابن عباس: من أين أخذت السجدة في سورة (ﷺ)؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٤] .. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠]؟ فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ.

فإذا علمت ذلك فاعلم أن الله تعالى قال لداود: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [سبأ: الآية ١١] فأمره بالاستعداد لكفاح العدو في قوله: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ [سبأ: الآية ١١]، وأمره بالتمسك بالدين في قوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١].

فالكفاح والعمل الصالح في غاية الانسجام والازدواج وصحة الاقتران، ألا ترى أن الله أمر نبيه ﷺ بالمحافظة على الجماعة في الصلاة وقت الكفاح المسلح المباشر، قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٢] الآيتين، وأمره بالمحافظة على أداء الصلاة في وقت التحام الحرب، قال: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٩]. وأمره بكثرة الذكر عند التقاء الصفين قال:

(يتبع).



---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٧).

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(١)

[٦]

قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] الآية . فالخيال الذي زرعه أعداء اللَّه وأعداء الإسلام في قلوب المسلمين أنهم لا يمكنهم التقدم حتى ينسلخوا من الدين؛ وهَمٌ لا أصل له ، والحقيقة بخلافه بشهادة الوحي المحكم والعقل والتاريخ المجمع عليه . وسنوضح إن شاء اللَّه بطلان هذا الخيال الوهمي بتحقيق النسب بين جميع المعقولات ، وبيان ما يتنافى منها وما لا يتنافى :

اعلم أن كل معقولين لا بد أن تكون بينهما إحدى نسب أربع ، وهي : التباين ، والمساواة ، والعموم والخصوص المطلق ، والعموم والخصوص من وجه .

وبرهان الحصر : أن المعقولين إما أن لا يجتمعا ألبتة ، أو لا يفترقا ألبتة ، أو يجتمعا تارة ، ويفترقا أخرى .

فإن كانا لا يجتمعان ألبتة فهما المتباينان ، كالإنسان والحجر؛ فإن كل ذات تثبت لها الإنسانية انتفت عنها الحجرية ، كالعكس ، فالنسبة بين الإنسان والحجر مثلًا التباين .

وإن كانا لا يفترقان ألبتة فهما المتساويان ، كالإنسان والبشر؛ فإن كل ذات تثبت لها الإنسانية تثبت لها البشرية ، كالعكس ، فالنسبة بين الإنسان والبشر مثلًا المساواة .

وإن كانا يجتمعان تارة ويفترقان أخرى ، فلا يخلو : إما أن يكون الافتراق من

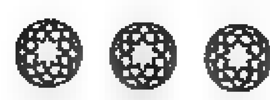
(١) المدينة المنورة- العدد (٨٥١)- ١٩ شوال ١٣٧٩هـ.

طرف واحد، أو من الطرفين كليهما، فإن كان من طرف واحد فهما اللذان بينهما العموم والخصوص المطلق، فالذي يفارق أعم مطلقًا، والذي لا يفارق أخص مطلقًا، كالحيوان والإنسان، فالحيوان يفارق الإنسان فيوجد بدونه في الفرس مثلًا، والإنسان لا يفارق الحيوان؛ إذ لا إنسان ألبتة إلا وهو حيوان، فالنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق، فالحيوان أعم مطلقًا، والإنسان أخص مطلقًا.

وإن كان الافتراق من الطرفين فهما اللذان بينهما العموم والخصوص من وجه؛ كالإنسان والأبيض، فإنهما يجتمعان في الإنسان الأبيض، كالعربي والرومي فهو إنسان أبيض، وينفرد الإنسان عن الأبيض في الزنجي؛ لأنه إنسان أسود، وينفرد الأبيض عن الإنسان في الثلج والعاج ونحوهما؛ لأنه أبيض غير إنسان. فالنسبة بين الإنسان والأبيض مثلًا العموم والخصوص من وجه.

وهذه النسب الأربع المذكورة هي المعيار الذي يعرف به صدق القضايا وكذبها، فكل قضية كانت النسبة بين طرفيها التباين فهي صادقة السلبيين كاذبة الإيجابيين، أعني السلب الكلي والجزئي، والإيجابي الكلي والجزئي، فلو ركبت قضية من إنسان وحجر مثلًا صدقت في كل سلب وكذبت في كل إيجاب، فقولك: لا شيء من الإنسان بحجر، أو بعض الإنسان ليس بحجر، كعكسها، كل ذلك صادق. ولو جعلتها موجبة، فقلت: كل حجر إنسان كالعكس، أو بعض الحجر إنسان كالعكس، فكل ذلك كاذب.

(يتبع).



إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم[1]

[٧]

لا منافاة بين الدين والتقدم

وإن كانت النسبة بين طرفيها المساواة فهي صادقة الإيجابيين كاذبة السلبيين؛ عكس التي قبلها، فقولك: كل بشر إنسان، أو بعض البشر إنسان، كعكسها، كل ذلك صادق. ولو جعلتها سالبة، فقلت: لا شيء من البشر إنسان، أو بعض البشر ليس بإنسان، كعكسها. لكان كل ذلك كاذبًا.

وإن كانت النسبة بين طرفيها العموم والخصوص من وجه، فهي صادقة الجزئتين، أعني: الجزئية الموجبة والسالبة، كاذبة الكليتين، أعني: الموجبة والسالبة.

فلو ركبت قضية من إنسان أبيض مثلًا صدقت في كل جزئية موجبة كانت؛ كقولك: بعض الإنسان أبيض، أو بعض الأبيض إنسان، أو سالبة؛ كقولك: بعض الأبيض ليس بإنسان، أو بعض الإنسان ليس بأبيض. كل ذلك صادق. وكذبت في كل كلية؛ كقولك: كل الإنسان أبيض، أو لا شيء من الإنسان بأبيض، كعكسها، كل ذلك كاذب.

وإن كانت النسبة بين طرفيها العموم والخصوص المطلق، فلها حالتان:

الأولى: أن يكون الموضوع هو الأخص، والمحمول هو الأعم؛ كقولك: الإنسان حيوان. وهذه تجري على حكم المتساويين؛ فتصدق في كل إيجاب، وتكذب في كل سلب.

الثانية: أن يكون الموضوع هو الأعم، والمحمول هو الأخص؛ كقولك:

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٥٣) في ٢٦ شوال ١٣٧٩هـ.

بعض الحيوان إنسان . وهذه تجري على حكم الأعمين من وجه فتصدق في كل جزئية ، سالبة كانت أو موجبة ، وتكذب في كل كلية ، سالبة كانت أو موجبة ، وهو واضح .

ولا يخفى أن الكلية في الاصطلاح هي الحكم بالمحمول على جميع أفراد المجموع ، سلبًا أو إيجابًا ، وأن الجزئية هي الحكم بالمحمول على بعض أفراد الموضوع ، سلبًا أو إيجابًا .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن التباين قسمان : تباين مقابلة ، وتباين مخالفة .

وضابط تباين المقابلة هو : أن تكون الحقيقتان متنافيتين في حد ذاتيهما ، ولا يمكن اجتماعهما في ذات ثالثة؛ لأن بينهما غاية المنافاة ، وهذا القسم من التباين محصور في أربعة أقسام :

الأول : تباين النقيضين؛ وهما : النفي والإثبات .

الثاني : تباين الضدين؛ كالسواد والبياض .

الثالث : تباين المتضادين؛ كالأبوة والبنوة ، فإنه يستحيل أن تكون الذات الواحدة أبًا لشخص وابنًا لذلك الشخص بعينه؛ كاستحالة اجتماع السواد والبياض في نقطة بسيطة .

الرابع : تباين العدم والملكة؛ كالعمى والبصر .

(يتبع) .



إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(١)

[٨]

لا منافاة بين الدين والتقدم

وضابط تباين المخالفة هو: أن تكون الحقيقتان متنافيتين في حد ذاتيهما، إلا أنهما يمكن اجتماعهما في ذات ثالثة، كالبياض والبرودة، والكلام والقعود، وكالحلاوة والسواد. فحقيقة البياض تنافي حقيقة البرودة، ولكن يجوز اجتماعهما في ذات واحدة كالثلج. وحقيقة الكلام تنافي حقيقة القعود، ولكن يجوز أن يكون الإنسان الواحد قاعدًا متكلمًا في وقت واحد.. وهكذا

إذا حققت هذا، فاعلم أن أعداء الدين وأذنابهم المنفذين خططهم ممن يزعم، وهو منه كالشمس من اللمس، خيلوا لغير العارفين من المسلمين أن تباين المخالفة هو تباين المقابلة؛ فأوهموهم أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين، كالنسبة بين البياض والسواد مثلًا؛ لا يمكن اجتماعهما في وقت واحد، في محل واحد، فأضلوهم بذلك ضلالًا بعيدًا.

والحق الذي لا يشك فيه عاقل: أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين، بالنظر إلى الحكم العقلي مجردًا من أدلة الوحي، كالنسبة بين البياض والبرودة، فلا مانع من اجتماعهما ألبتة، فلا شك أن يسوغ عقلًا أن يكون الجرم الأبيض باردًا كالثلج، وكذلك لا مانع ألبتة عقلًا من أن يكون العامل في مصانع الذرة مثلًا المتقدم في جميع الميادين الدنيوية متمسكًا بالدين، في الأخلاق والسمت وجميع الحركات والسكنات.

ونزيد على ذلك دلالة الوحي المحكم على أن المتمسك بالدين ملزوم يلزمه

---

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٥٥) في ٣ ذي القعدة ١٣٧٩هـ.

التقدم والنصر الحاسم وقهر جميع الأعداء.

فانظر سفسطة أعداء الدين، كيف خيلوا لضعفاء الإدراك من المسلمين أن الرابط بين اللازم والملزوم الكائن بين التمسك بالدين والنصر على الأعداء أنه تنافر تقابل؛ فأوهموهم أن التمسك بالدين يلزمه انتفاء التقدم كلزوم انتفاء البياض عن المحل لوجود السواد فيه، وذلك بمثابة قول القائل: إن وجود البياض في جرم يلزمه انتفاء البرودة عنه. فكل الناس يعلمون بطلان ذلك، وأن الثلج أبيض بارد، فكذلك المتمسك بالدين متقدم لا محالة.

خفافيش أعماها النهار بغبرته وَوافقها قطع من الليل مظلم

(يتبع)



إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(١)

[٨]

أحوال القوميات

اعلم أنه باستقراء القرآن العظيم يتبين أن القومية لها حالتان ، وإحداهما تنقسم إلى حالتين؛ فيصير المجموع ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن يكون النداء بالرابطة الإسلامية ممكنًا بوجه من الوجوه ، وفي هذه الحالة يجب النداء بالرابطة الإسلامية ، ويمنع النداء بالقوميات؛ لأن النداء بالقوميات من أفعال الجاهلية الذين كانوا ينادون : يا لبني فلان . وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ من حديث جابر أنه قال : « دعوها فإنها منتنة »(٢) .

والأصل في صيغة« افعل » في الكتاب والسنة أنها للوجوب إلا لدليل صارف عنه ، لا سيما وقد صرح ﷺ بأنها منتنة .

أما الرابطة الإسلامية فهي التي جاء بها الشرع الكريم بالحث عليها ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠] ، ولم يقل : إنما القوميون إخوة ، وقال : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: الآية ٧١] ولم يقل : والقوميون .

بل صرح القرآن أن الرابطة النسبية والعواطف العصبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية ، قال تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] فتأمل قوله : ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ

---

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٥٧) في ١٠ ذي القعدة ١٣٧٩هـ .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] . يظهر لك تلاشي القوميات مع رابطة الإسلام ، وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [التوبة: الآية ٢٤]- إلى قوله- ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ [التوبة: الآية ٢٤] .. الآية .

وقد بيّن ﷺ أن رابطة الإسلام بالغة إلى حد تجعل به المجتمع الإسلامي كله جسد إنسان واحد ، قال ﷺ : « إن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(١) .

وقال تعالى : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] ، ولا يخفى أن أسلافنا إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالرابطة الإسلامية لا بالقومية العربية ، وربنا جل وعلا يقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]

وقال الشاعر :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس ... ووضع الشرك الشريف أبا لهب

فانظر إلى قوله تعالى في أبي لهب : ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: الآية ٣] الآية . وقوله ﷺ في سلمان : « سلمان منا أهل البيت »(٢) . تعرف قوة رابطة الإسلام ، وتلاشي غيرها من الروابط به .

(يتبع) .



(١) أخرجه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي اللّٰه عنه .

(٢) أخرجه الطبراني (٦٠٤٠) ، والحاكم (٥٩٨/٣) من حديث عمرو بن عوف رضي اللّٰه عنه وجاء من حديث أنس وغيره ، وقال الألباني في الضعيفة (٣٧٠٤) : ضعيف جدًا : ولكن صح موقوفًا عن علي رضي اللّٰه عنه .

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم[(١)]

[٩]

أحوال القوميات

الحالة الثانية : لو فرضنا على سبيل التقدير والفرض -لا قدر الله- أن النداء بالرابطة الإسلامية أصبح وقتًا ما غير ممكن لظروف شديدة ضيقة يمتنع فيها ذلك ، وعقبات شداد تسد الطريق إلى ذلك ، ففي هذه الحالة المفروضة ينقسم حال القوميات باستقراء القرآن إلى حالتين :

الأولى : أن تكون أهداف تلك القومية العربية القضاء على الإسلام والمسلمين .

ومعلوم أن هذا النوع من القومية شر كله ، ورؤساء هذا النوع من القومية العربية : أبو جهل ، وأبو لهب ، والوليد بن المغيرة ، وأضرابهم .

وهذه القومية هي المشار إليها في قوله تعالى : ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٤] وقوله : ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرُف: الآية ٢٢] الآية . وقوله : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧] ، ونحو ذلك من الآيات .

والحالة الثانية : أن تكون تلك الأواصر النسبية والعواطف العصبية تميل قلوب أولئك القومين إلى المسلمين؛ فتجعل أهداف قوميتهم نصر المسلمين ، ومدافعة أعدائهم عنهم ، وإعانتهم على بث دعوتهم .

فهذا النوع من القومية في الأحوال الضعيفة خير للمسلمين من لا شيء ، فبقاء الروابط العصبية بعد ذهاب الروابط الدينية في الأوقات الحرجة والظروف الصعبة

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٥٩) في ١٧ ذي القعدة ١٣٧٩هـ .

خير من ذهابهم معًا .

حمدت إلهي بعد عروة إذ نجا خراش وبعض الشر أهون من بعض(١)

وقد بين القرآن العظيم في آيات عديدة أن هذا النوع من القومية نفع اللَّه به جماعة من الرسل الكرام نفعًا عظيمًا محمود العاقبة على الإسلام والمسلمين ، فقد قال تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضّحى: الآية ٦] أي : فآواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب . فقد امتن اللَّه في هذه الآية الكريمة على نبيه ﷺ بإيواء عمه أبي طالب له ، مع أن إيواءه له قومية عربية؛ فهي من أواصر نسبية وعواطف عصبية ، لا صلة لها بالدين بتاتًا ، ومن آثارها قول أبي طالب فيه ﷺ :

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل(٢)

وقوله فيه : أيضًا .

(يتبع) .



(١) انظر الكامل للمبرد ٢/ ١٨٢، والأغاني للأصفاني ٢١/ ٢١٨، والإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٣٥٢.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٣، ٢/ ٢٣، والروض الأنف ٢/ ٢٣، ٣/ ١٩٨.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(١)

[١٠]

أحوال القوميات

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر بذاك وقر منه عيونا

فهذا النوع من القومية نفعه ﷺ، فكف الله عنه به الأعداء، وأعانه به على بث دعوته، ألا ترى قوله له: «فاصدع بأمرك» .. البيت؟.

وقد بين تعالى أن ذلك منة منه عليه ﷺ، ولا يمن جل وعلا إلا بأمر محمود عظيم النفع.

ولما كان بنو عبد المطلب بن عبد مناف مع الهاشميين في هذه القومية، وتخلف عنهم فيها إخوانهم الآخرون؛ بنو عبد شمس وبنو نوفل بن عبد مناف، قال فيهم أبو طالب:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا ... عقوبة شر عاجل(٢) غير آجل
بميزان قسط لا يخِيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل
لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا ... بني خلف قيضًا بنا والغياطل

وهذه القومية عرفها النبي ﷺ لبني المطلب فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «إنا وبنو المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام»(٣). ولم يعط بني عبد شمس ولا بني نوفل شيئًا من الخُمس مع أن الجميع أولاد

---

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٦١) في ٢٤ ذي القعدة ١٣٧٩هـ.
(٢) في سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٦، والروض الأنف ٢/ ٢٥ وغيرهما: «عاجلًا».
(٣) أخرجه البخاري (٣١٤٠)، وأبو داود (٢٩٨٠)، والنسائي (٤١٤٨) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

عبد مناف بن قصي.

وفي حياة أبي طالب لم يضطر ﷺ إلى الهجرة لدفاعه عنه.

وهذا النوع من القومية نفع اللَّه به نبيه شعيبًا، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كما أشار إليه تعالى، بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هُود: الآية ٩١]، فبين أنهم لم يمنعهم من رجمه إلا عصبية قومه له.

ونفع اللَّه به أيضًا نبيه صالحًا، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: الآية ٤٩].

فبين أنهم لما أرادوا الفتك بصالح تآمروا أن يفعلوا به ذلك ليلًا خفية، ثم يقولون لأوليائه وعصبته المتعصبين له: ما شهدنا مهلك أهله. وينكرون أنهم فعلوا به شيئًا، وذلك يدل على أن أولياءه يمنعونهم من إتيانه علنًا، وأن ذلك لا يمكنهم إلا في حالة الخفاء.

وقد ظهر عدم هذه القومية في لوط، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، لما لم يكن له عصبة في قومه، فإنه قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٠].

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «إن اللَّه ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1].

فالمسلم قد ينتفع في الدنيا بنصرة قريبه الكافر ودفاعه عنه، وإن كان مصير الكافر إلى النار، على حد قولهم: اجن الثمار وألق الخشبة في النار.

(يتبع).



(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢، ٤٢٠٤)، ومسلم (١١١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم(١)

[١]

حول حياة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

لا شك أن القرآن يهدي للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها في كل شيء.

وسنبين الآن التي هي أقوم في شأن عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، التي هدى إليها القرآن من جهة مكانته، ومن جهة حياته وأنه لم يمت.

ولا يخفى أن النصارى هلكوا بالإفراط في عيسى، واليهود هلكوا بالتفريط فيه، قال تعالى ذامًّا النصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣٠] وقال عن أخرى منهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: الآية ٧٣].

فقد كفرت هذه الطوائف الثلاث أعظم الكفر بالإفراط فيه عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

أما اليهود فقالوا: إنه لغير رشيدة. يعنون أنه جاءت به امرأة لا يعرف لها زوج، فهم يدعون عليها الزنى، وأنه هو عليه الصلاة والسلام ولد من ذلك، كما قال اللَّه عنهم: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٥٦]. والبهتان العظيم: هو ما ذكرنا، وقال تعالى عنهم أنهم قالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨] يعنون: فكيف تفجرين بالزنى وأبواك ما كانا فاجرين؟ فكفروا أعظم الكفر بالتفريط فيه.

فجاء القرآن هاديًا إلى التي هي أقوم في شأنه، فنفى إفراط هؤلاء وتفريط

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٧٥) في ٢١ محرم ١٣٨٠هـ.

هؤلاء، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢] الآية. ونحو ذلك من الآيات

كما أنه قد ضل اليهود ومن صدقهم من النصارى بادعاءهم- أعني اليهود- قتلوا عيسى وصلبوه كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: الآية ١٥٧] الآية.

وصار كثير من الجهلة ممن يدعي الإسلام، والإسلام بريء منه براءة الشمس من اللمس، يناصرون اليهود والنصارى في دعواهم: أن عيسى قتله اليهود وصلبوه.

(يتبع).



إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم[١]

[٢]

حول حياة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

ويستدلون في زعمهم الكاذب بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عِمران: الآية ٥٥] الآية، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المَائدة: الآية ١١٧] الآية. قالوا: في الآيتين المذكورتين التصريح بأنه توفاه، فلا وجه للقول بحياته!

ودونك تحرير المقام بالأدلة التي لا تتردد[٢] في الحق لها، على أنه حي لم يمت، وذلك ثلاثة أبحاث:

الأول: في الأدلة الدالة على حياته.

الثاني: في أن الآيتين اللتين استدل بهما المخالف لا دليل فيها بحسب الوضع العربي على أنه مات بالفعل.

الثالث: في معنى الآيتين اللتين استدل بهما أنصار اليهود والنصارى على أن عيسى مات بالفعل.

أما الأدلة الدالة على أنه حي لم يمت فهي القرآن العظيم والسنة المتواترة عنه ﷺ، وإجماع من يعتد به من المسلمين.

واعلم أنه لم يدَّع أحد كائنًا من كان سببًا لموت عيسى المزعوم إلا سببًا واحدًا؛ وهو أن اليهود قتلوه.

وقد صرح تعالى بأن هذه الدعوى كاذبة لا أصل لها، ومن أصدق من اللَّه

(١) صحيفة المدينة المنورة- العدد (٨٧٨) في ٢ صفر ١٣٨٠هـ.
(٢) غير واضحة بالأصل، ولعل المثبت هو الصواب.

حديثًا، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧] ثم صرح بأن انتفاء القتل عنه أمر يقين لا شك فيه بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧]، ثم أكد إبطال ذلك بقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٥٨].

والتحقيق أن النفي في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧] منصب على الفعل الذي هو القتل؛ أن القتل منتف عنه يقينًا لا شك فيه، وليس النفي منصبًا على قوله: «يقينًا» إذ يصير المعنى بذلك أن المنفي يقين القتل.

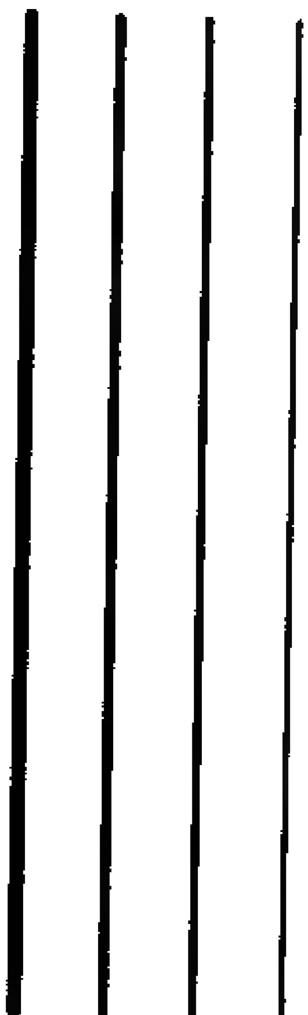
ونفي تيقن القتل يصدق بتوهمه وظنه والشك فيه، ولو فرضنا لواحدة هذا المحتمل الأخير لرجع المعنى إلى الوجه الأول؛ لأن المراد بعدم تيقنهم لقتله: أن دعواهم خالية عن يقين وعلم؛ فهي كاذبة، ويدل عليه دلالة لا شك فيها أنه تعالى صرح بأنهم ما قتلوه تصريحًا باتًا في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧]، ثم بين السبب الذي استندت إليه دعواهم الكاذبة، وهو أن اللَّه ألقى شبه عيسى على غيره، فظنوه إياه، فقتلوه زاعمين أنه عيسى لشبهه الذي ألقي عليه، مع أنه ليس هو، وذلك في قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧]، ثم بين أنهم ليس عندهم علم بذلك، وإنما يتبعون الظن الكاذب بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧].

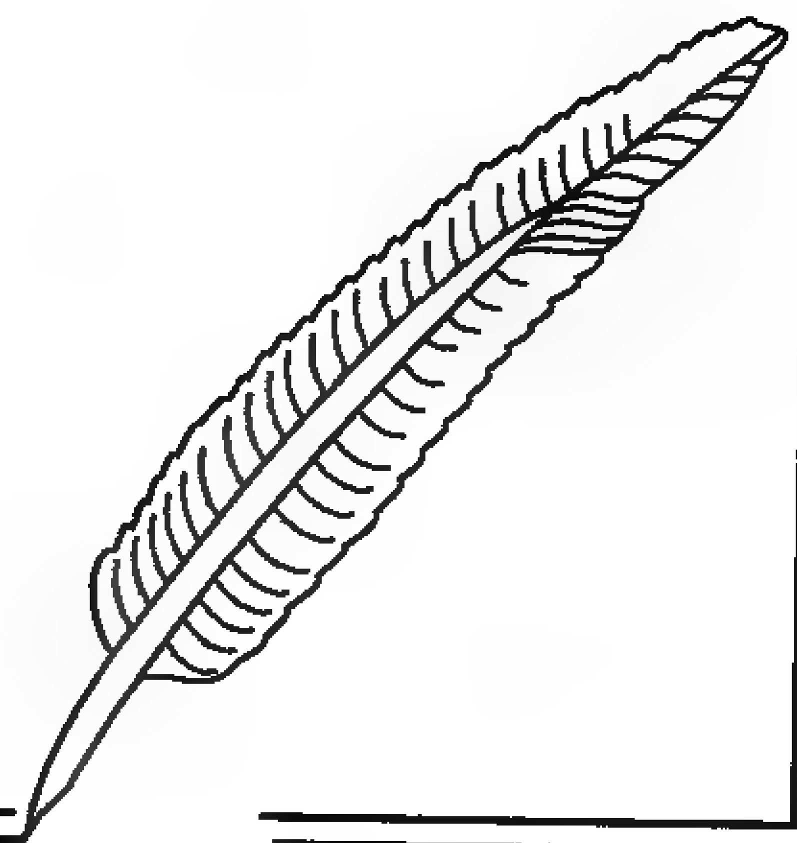
(يتبع).





مقالات الشيخ
محمد خليل هراس رحمه الله
١٣٣٤هـ - ١٣٩٥هـ





مقالات الشيخ محمد خليل هراس[(١)]

دراسات في الأخلاق[(٢)]

حينما دعاني صديقي الأستاذ حمد الجاسر إلى كتابة كلمة في مجلته الغراء، التي أرجو لها مخلصًا أن تسدَّ ذلك الفراغ الملموس الذي يشعر به الشباب العربي المثقف في حقل العلم والأدب، فكَّرتُ مليًا: أيُّ الموضوعات أختار؛ ليكون

(١) هو الشيخ الدكتور محمد بن خليل حسن هراس، ولد في مصرسنة ١٣٣٤ هـ، ثم بدأ تعليمه في الأزهر الشريف فتخرج من كلية أصول الدين، وحصل على الدكتوراه، وكان موضوعها: ابن تيمية السلفي ونقده لمسالك المتكلمين في الإلهيات والفلسفة.
ثم شغل وظيفة أستاذ بكلية أصول الدين ثم أُعير للعمل بالمملكة العربية السعودية بناء على طلب شخصي من الشيخ عبد العزيز بن باز، حيث قام بالتدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، ثم عاد إلى مصر ثم أُعير مرة أخرى، ليشغل منصب رئيس شعبة العقيدة في قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة سابقًا- وهي جامعة أم القرى حاليًا- في مكة المكرمة. بعد عودته إلى مصر، شغل منصب نائب الرئيس العام لجمعية أنصار السنة المحمدية، ثم الرئيس العام لها.
يُعد الشيخ من أبرز دعاة السلفية في مصرفي العصر الحديث واشتهر بأنه كان من أشد الناس في التصدي للصوفية ومنكري السنة، لما يراه في منهجهم من ابتداع وخروج عن تعاليم الكتاب والسنة حتى وصل الأمر ببعض المتشددين إلى محاولة قتله أكثر من مرة. في عام١٩٧٣م قام بالاشتراك مع د.عبد الفتاح سلامة بتأسيس جماعة الدعوة الإسلامية في محافظة الغربية في مصر، وكان أول رئيس لها.
كما كانت له عناية بالتدريس والتعليم، حيث تتلمذ على يديه العديد من العلماء والدعاة، ومنهم: الشيخ محمد أمان الجامي، ود.عبد الفتاح سلامة. والشيخ علي بن ناصر الفقيهي.
له من المؤلفات: «دعوة التوحيد»، «باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفى»، «الثمار الشهية فى شرح العقيدة الوسطية»، «فصل المقال فى رفع عيسى عليه السلام»، «شرح القصيدة النونية» لابن القيم في مجلّدين.
توفى سنة ١٣٩٥هـ عن عمر يناهز الستين. كانت آخر خطبة له بعنوان «التوحيد وأهمية العودة إليه»، حيث توفي بعدها مباشرة.

(٢) مجلة اليمامة- العدد الأول في- ذي الحجة/١٣٧٢هـ.

براعة استهلال لتلك المجلة الناشئة، بمناسبة أول عدد يصدر منها؟ . وأخيرًا هداني التفكير إلى أن يكون هذا الموضوع أخلاقيًا- أعني له صلة بالبحث الأخلاقي- حيث إن حاجتنا إلى شباب ذوي خلق أكثر منها إلى أي شيء آخر .

وحيث إن الغرض الأول من إصدار مثل تلك المجلة، في مثل هذا البلد المسلم، لابد أن يكون هو تحصين الشباب ضد التحلل والفساد، بالأخلاق الفاضلة الكريمة، فوق وقايته من الجهل بالعلوم النافعة والآداب القويمة .

ولعل مما يفيد الشباب المثقف في مثل هذا البحث أن نَقِفَهُ على شيء مما قاله وذهب إليه فلاسفة الأخلاق قديمًا وحديثًا، وأن نعرض له- في صورة مجملة- التطور التاريخي لهذه المذاهب؛ حتى يتضح له- عند مقارنة ذلك بما جاء به الإسلام في هذه الناحية- مقدار الفرق بين ما في هذه المذاهب من نقص وانحراف عن الجادة، وبين ما في الأخلاق الإسلامية من قوة وكمال .

وقد جرت عادة الفلاسفة في بحوثهم الأخلاقية أن يبدأوها بالكلام عن حقيقة النفس الإنسانية، وكيفية ارتباطها بالجسد، وهل هي من جوهر آخر متميز عنه؟ وهل لها حياة أخرى بعد هذه الحياة؟ وما كيفية إدراكها للأشياء؟ هل تدركها بواسطة الحواس أو بطريق الكشف والإلهام .... إلى آخره .

وعلى ضوء هذه البحوث النفسية يحددون الغاية التي يجب أن يتجه إليها سلوك المرء، وتدور حولها أعماله في هذه الحياة، وعلى ضوء تحديد تلك الغاية أيضًا يكون تمييزهم بين الخير والشر . فكل عمل يوصل إلى تلك الغاية الأخلاقية، ويعين على تحقيقها فهو خير يجب فعله . وكل عمل من شأنه أن يعوق سير الإنسان إلى غايته، فهو شر يجب اجتنابه .

وقد اختلف هؤلاء الفلاسفة في تحديد تلك الغاية الأخلاقية اختلافًا كبيرًا، يرجع في معظمه إلى الاختلاف بين مذاهبهم الفلسفية العامة ونظرتهم إلى

الإنسان ، ومنزلته بين الموجودات .

فالسوفسطائيون ، الذين كانوا قبل سقراط وفي زمنه ، ذهبوا إلى أن كل إنسان هو مقياس نفسه؛ إذ إن شعور كل شخص خاص به لا يعدوه إلى غيره ، والأشياء الخارجية- سواء كانت حسية أو معنوية- لا حقيقة لها إلا بمقدار ما يشعر به المرء نحوها ، فليس هناك شيء هو في ذاته حق أو باطل ، وليس هناك عمل هو في ذاته خير أو شر ، فالحق ما اعتبره الإنسان حقًّا ، والباطل ما اعتبره باطلًا ، والخير ما حصَّل لذة أو دفع ألمًا ، والشر بعكسه ، فهو ما موَّت لذة أو جلب ألمًا .

وقد كان هؤلاء السوفسطائيون- مثل الكلاب المسعورة- يجوبون البلاد ، ويتجرون بالعلم ، ويفسدون الشباب ، ويبشرون بتلك المبادئ الهدَّامة التي كانت أكبر جناية على القوانين والأخلاق في بلاد اليونان .

وكانوا يجدون من الشباب الفارغ المتحلل إقبالًا عليهم واغترارًا بسفسطتهم وتمويههم .

ومن العجيب أنك تجد لهؤلاء السوفسطائيين ذيولًا كثيرة في كل عصر وفي كل مكان يقولون مثل قولهم؛ تشابهت قلوبهم!! يأبى الواحد منهم أن يعترف بحق ، أو يصدق إلا بما رأى وسمع؛ معرضًا عن كل دليل وبرهان! ويستبد الواحد منهم برأيه مهما ظهر أفنه وخطله! فهم كما قال اللَّه عز وجل : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣] ويَحْلُوا للواحد منهم أن يجادل فيما لا يسهل عليه إدراكه! فإذا بينت له وجه الحق أظهر الخلاف؛ أنفة واستكبارًا ، كأنما هو مولع باللجاجة والعناد .

جاء بعد ذلك شيخ الفلاسفة (سقراط) فوجد صروح القوانين والأخلاق تكاد تسقط تحت ضربات السوفسطائيين ، ووجد كل ما تواضع عليه الناس من مبادئ وعلوم وعادات وتقاليد قد أصبح محلًا للشك والإنكار ، فجعل وكْدَهُ في حياته

أن يرد على هؤلاء السوفسطائيين، وأن يكشف للناس ما لبَّسوا به عليهم، وأن يقيم صروح الأخلاق والفضائل على أسس ثابتة، لا تستطيع أن تنال منها تشكيكات المغالطين.

وإذا صح ما يحكيه لنا أفلاطون- تلميذ سقراط- في كتابيه: «الجمهورية» و«المحاورات» استطعنا أن نحكم على سقراط بأنه خطا بالبحث الأخلاقي خطوة عظيمة إلى[1] الأمام.

وكان شعار فلسفته، تلك الحكمة[2] التي وجدوها مكتوبة على أحد جدران معبد «دولف» وهي: (اعرف نفسك بنفسك).

لذلك وجه سقراط عنايته إلى البحث في الإنسان نفسه، بعد أن كان الفلاسفة قبله يعنون بحل مشكلة الوجود كله، ويبحثون عن مصدره الأول أو علله الأولى. ولذلك يقال: إن سقراط استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض.

فالغاية عنده التي يجب أن يتجه إليها بحث الفيلسوف هي النفس الإنسانية وكيفية إدراكها للأشياء، وعن الفضائل التي يجب أن تتحلى بها لتبلغ ما قدر لها من الخير والكمال.

ويرد سقراط على السوفسطائيين في جعلهم المعرفة قاصرة على ما يدرك بالحس والشعور، بأننا لو فتشنا فيما لدينا من معارف متنوعة؛ لا نجدها قاصرة على المدركات الحسية، بل إن هذه المدركات لا تعدو أن تكون المرحلة الأولى للمعرفة، وليست الحواس إلا مجرد آلات ووسائط من شأنها أن تنقل إلى العقل ما لا يحصى من المدركات الجزئية، فهي أشبه شيء بحامل البريد الذي لا وظيفة له إلا أن ينقل الرسائل، ثم يأتي بعد ذلك دور العقل الذي من شأنه أن يفرز

(١) تكررت في الأصل.
(٢) في الأصل: «الحكماء».

تلك الرسائل ويميز بينها ، فالعقل ينظر في تلك الجزئيات التي تحملها إليه الحواس ، فيستخلص منها الصفات الأساسية المشتركة بين كل طائفة من هذه الجزئيات ويُكَوِّنُ منها حقيقةً كلية تنطبق على كل فرد من الأفراد المشتركة فيها .

ولنضرب لذلك مثلًا : يرى الإنسان في حياته كثيرًا من الناس من أجناس مختلفة ، ولكل منهم وفي مرأى العين صورةٌ مميزة بعوارضها ومشخصاتها عن الصورة الأخرى ، ولكن العقل لا يهتم بتلك العوارض والمشخصات التي يمتاز بها شخص عن شخص ، ولكن يبحث عن الصفات الأساسية التي لا يخلو منها فرد من الناس ، والتي تصدق عليهم جميعًا بلا استثناء ، فيجد صفتين أساسيتين هما : الحيوانية والناطقة ، فيُكَوِّنُ منهما حقيقة كلية في الذهن مشتركة بين أفراد ذلك النوع ، وهكذا .

وليست هذه الكليات الذهنية قابلة للتغيير ، ولا يمكن أن يختلف فيها عقل عن عقل؛ لأنها عبارة عن جوهر الشيء وذاته التي يصير بها هو هو ، وأنه إذا كانت المدركات الحسية يمكن أن يغلط فيها الحس فيتصورها على غير ما هي عليه في الواقع ، ويمكن أن يحدث فيها اختلاف؛ فإن هذه الكليات باقية بقاء العقل الإنساني نفسه .

وعلى ذلك فما يدعيه السوفسطائيون من اقتصار المعرفة على المدركات الحسية باطل ، وإنكارهم للحقائق العقلية الثابتة مكابرة ، وادعاؤهم أن الفضائل أمور اعتبارية تختلف باختلاف أحوال الناس سفسطة ، بل الفضيلة فضيلة في ذاتها مهما تنوعت مظاهرها في الأشخاص المتخلقين بها ، فالتقوى- مثلًا- فضيلة في جميع صورها ، لا يمكن أن تكون فضيلة في حق زيد ورذيلة في حق عمرو! ومثلها : الكرم ، والشجاعة ، والصدق ، والعدل ، وغيرها .

وهكذا استطاع سقراط أن يرد عادية السوفسطائيين ، وأن يرد إلى الفضائل

الأخلاقية اعتبارها بواسطة اختراعه لنظرية «الكُلِّي» التي لعبت فيما بعد دورًا كبيرًا في مثل أفلاطون، وفي المنطق الأرسطي، والتي كان لها أكبر الأثر في الفلسفتين: المسيحية والإسلامية، في العصور الوسطى.

ويرى سقراط أن سلوك سبيل الفضيلة غير ممكن إلا مع العلم بأنها فضيلة، وأن التردي في مهاوي الرذيلة لا يكون أيضًا إلا مع الجهل بأنها رذيلة، ولذلك يذهب سقراط إلى أن الفضيلة هي العلم، وأن الرذيلة هي الجهل؛ يقصد بذلك: أن العلم هو جماع الفضائل كلها؛ إذ لا يمكن التوصل إليها أو التخلق بها إلا معه. وأن الجهل جماع الرذائل كلها كذلك؛ لأن من يجهل الرذيلة لابدَّ أن يتلبس بها.

وقد تعصب بعض فلاسفة المسلمين كالغزالي لتلك النظرية السقراطية، وذهبوا مع سقراط إلى أن العلم الجازم بشيء أنه حسن أو قبيح لابدَّ أن يحمل على فعله أو تركه.

والفضيلة في نظر سقراط هي الخير الذي يقصد لذاته، مهما تحمل الإنسان في سبيلها من آلام ومشقات، والرذيلة هي الشر الذي يجب أن يحذره، وإن كان طريقها مفروشًا بالورود والرياحين. وثواب الفضيلة فيها لا في شيء آخر، فيكفي الرجل الفاضل أن معه الفضيلة وبها وحدها يصير أسعد الناس وإن كان شقيًا محرومًا، وعقاب الرذيلة فيها كذلك، فالرجل الشرير أشقى الناس مهما كان حظه في الحياة عظيمًا، على أنه لابّد من يوم يلقى فيه الأخيار جزاء صبرهم واحتمالهم الآلام في سبيل الفضيلة، ويلقى فيه الأشرار الآثمون سوء المصير.

ويتخذ سقراط من قانون الفضيلة والرذيلة دليلًا قويًا على البعث والحياة الآخرة؛ فإن العدالة الإلهية تقتضي حتمًا تعويض أولئك الأخيار الفاضلين عما فاتهم من حظوظ الحياة، كما تقتضي عقاب الأشرار المجرمين.

وما أقرب هذا من قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢١]

ويحكي أفلاطون عن سقراط في المحاورة الأخيرة التي تسمى « فيدون »- أو خلود الروح- ما كان يلقيه على تلاميذه وهو في السجن قبيل إعدامه من محاضرات في النفس الإنسانية وخلودها بعد الموت، وما ينتظرها هناك من سعادة أو شقاء. حتى إنه لما حكم عليه قضاة « أثينا » بالموت، وجاءه الجلّاد بقدح السم، شربه مبتسمًا راضيًا، وظل يكلم تلاميذه إلى أن شعر ببرودة الموت تدب في جسمه، فقضى نحبه بين بكاء تلاميذه ومريديه!.



ابن تيمية في مصر[(١)]

لقد سبق أن قلت في كتابي « ابن تيمية السلفي » : إن شيخ الإسلام ، رحمه اللَّه ، شخصية متشعبة النواحي مترامية الأطراف ، وأن حياته سجل حافل بالجليل من الأعمال والجديد من الأفكار والآراء ، ودعوت الباحثين من علمائنا أن يتوفروا على تحليل تلك الشخصية الفذة من جميع نواحيها ، ودراسة آثارها المختلفة؛ حتى يقدموا إلى الناس صورة كاملة عنها .

وإنه ليطيب الحديث دائمًا عن شيخ الإسلام والكتابة فيه؛ لأنه هو الشخصية التي قدر اللَّه أن أجد عندها ضالتي! بعد أن أعياني البحث عنها فيما قرأت من كتب الأزهر ، أو سمعت من علمائه . فكانت كتب شيخ الإسلام ورسائله هي المصباح الذي فتح اللَّه به عيني على الحق فأبصرته وسلكت جادته بعد التعثر في بنيات الطريق .

ولقد أراني من يومها كلفًا بحبِّ شيخ الإسلام ومطالعة كتبه ، وما قرأت كتابًا منها قط إلا أحسست بأن روحه القوية التي أودعها كتبه ورسائله تجذبني إليها جذبًا عنيفًا؛ حتى ليخيل إليّ أني لو أدركته حيًا لكنت من أشد تلاميذه تعلقًا به وملازمة له ، وتتمثل حياته دائمًا في خاطري كأنها سحابة مزن في طهرها ونقائها ، أو كأنها مرآة مجلوة لم يعلق بها ما يخدشها أو يكدر صفاءها .

لقد كانت حياة شيخ الإسلام- رحمه الله- وقفًا على العلم والدين وحدهما ، كما كانت رصدًا للباطل في جميع صوره وألوانه؛ فما شُغِلت هذه الحياة بشيء مما يتعلق به الناس من مال أو جاه أو ولد ، ولا تدلت يومًا إلى شيء من الشهوات الدنيا ، بل كانت كلها صفحة ناصعة من الزهد الصحيح والورع

(١) مجلة الحج- جمادى الآخرة- ١٣٧٢هـ.

الصادق، والبطولة الحقة والشجاعة الفذة، والجهاد الدائب لنصرة الحق، والصبر على الأذى في سبيله.

ولقد جهد أعداؤه في تلمس ثغرة ينفذون منها إلى النيل منه والطعن فيه، فلما أعياهم أن يجدوا مغمزًا في دينه أو خلقه، لجأوا إلى سلاح الوشاية والكيد الرخيص.

لقد كبر على هؤلاء الأعداء أن يتعرض ابن تيمية لمذاهبهم بالنقد، أو لأئمتهم بالتجريح. وأقض مضاجعهم ما رأوه من جرأته في الحق وصراحته في كشف جهالاتهم، وما هم عليه من زيغ وضلال ومخالفة للكتاب والسنة، فأخذوا يقعون فيه عند الأمراء والسلاطين ويتهمونه بأنواع التهم التي هو منها براء، والأمراء يومئذ مماليك جهلة، ولهؤلاء الأعداء عليهم دالة، ولهم في دولتهم نفوذ وصولة، فكان هؤلاء الأمراء يصغون لوشاياتهم؛ فيصدرون حكمهم بسجنه المرة بعد المرة، حتى أصبحت حياته- رحمه الله- سلسلة متصلة الحلقات من المحن والمكائد والاضطهادات، ولم تكن رحلة شيخ الإسلام إلى مصر في بعض أدوارها إلا حلقة من تلك السلسلة الكيدية، بل ربما كانت من أعنفها وأشدها على نفسه، وأقساها على أنصاره وأهله، فهو لم يذهب إلى مصر حرًا طليقًا كما اعتاد العلماء أن يتنقلوا بين البلدان المختلفة، ولكنه ذهب إليها رهين القيود والأغلال، ولم يذهب إلى مصر ليستقبل بما يليق بإمام مثله من التجلة والتكريم! ولكن ليحقق معه فيما نسب إليه من اتهامات مزعومة، ثم ليلقى به بعد ذلك في غياهب السجون! ولكن شيخ الإسلام- وقد ملأ اللَّه قلبه إيمانًا وثقة واعتزازًا بالحق وفناء في سبيله- ما كان ليهن أمام أعدائه أو ليستكين، وما كانت لتفت في عضده تلك الاضطهادات المتلاحقة، بل كانت تزيده مضاء وقوة، وتكسبه- رغم أعدائه- علوًا ورفعة.

ولما طُلب إلى مصر على تلك الصورة التي دبرها له أعداؤه فباؤا بإثمها وعوارها ، ما فزع لذلك ولا اضطرب رغم ما يعرفه من عداوة الكثيرين في مصر له ، بل فرح به واستبشر؛ لما كان يؤمله من إعلان دعوة الحق في مصر ومحاربة ما فيها من بدع وجهالات .

لقد كان ابن تيمية في مصر- كما هو في الشام- رجل دعوة وزعيم فكرة ، رصد لها حياته ووهبها لسانه وقلمه ، فهو لا يعرف السكوت عن الحق ، ولا المواربة فيه مهما تهدده في سبيله من أخطار .

ولو قُدِّر لمصر كما قُدِّر للشام أن تنعم ببقاء شيخ الإسلام فيها من حرية التنقل والاتصال بالناس ما يمكِّنه من بثِّ دعوته وتجلية فكرته إذًا لوجد من الأعوان في مصر أكثر مما وجد في الشام ، ولتقدم التاريخ بالدعوة السلفية في مصر ستة قرون من الزمان؛ لأننا نعتقد في غير تعصب أن الشعب المصري شعب متدين بالفطرة ، سلس القياد للحق متى ظهر له ، فكان من الطبيعي أن يستجيب كثير منهم لدعوة شيخ الإسلام ويتعصبوا لها .

لقد عاشت مصر ردحًا من الزمن تحت حكم بني عبيد الملاحدة الذين كان من أمرهم فيها أن ملاؤها بالخرافات والبدع ، وحاولوا أن يأخذوا أهلها بمذهبهم في التشيع ، فبنوا لذلك الجامع الأزهر وغيره من المدارس ، وأقاموا المشاهد الوهمية لآل البيت؛ مثل مشهد الحسين وغيره ، وأخذوا يرغبون الناس في غشيانها والعكوف عليها؛ إشباعًا لوثنيتهم الجائعة .

وبالجملة فقد ساعدوا على ترويج سبل الضلال بكافة أنواعها؛ ليطمسوا بذلك نور الحق ، ويمحوا معالم السنة وآثار السلف .

ولا يتسع المجال هنا لذكر ما عانته مصر تحت حكمهم من سخافات حفظها لهم التاريخ .

جاء بعد ذلك صلاح الدين الأيوبي فقضى على دولة بني عبيد ، وعمل جاهدًا في محو آثارهم ، وتطهير البلاد من سموم دعوتهم الرافضية الخبيثة .

ولكن لما كان صلاح الدين أشعريًا فقد اجتهد في نشر المذهب الأشعري بمصر؛ ليحل محل المذهب الشيعي ، على أنه لم ينجح كل النجاح في القضاء على آثار الفاطميين في مصر .

وهكذا كانت لمصر إبان رحلة شيخ الإسلام إليها خليطًا من التشيع الذي يتمثل في زيارة المشاهد وإقامة الموالد وانتشار الطرق الصوفية ، ومن الأشعرية التي أصبحت المذهب الرسمي للدولة .

ولقد رأت مصر شيخ الإسلام مرتين كان في أوليهما سفيرًا من قبل أهالي دمشق وأعيانها ونائب السلطنة بها إلى السلطان الناصر؛ كي يستحثه على الخروج لقتال التتر مع أهل الشام . وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٧٠٠ من الهجرة ، حينما سرت في دمشق إشاعة بأن التتر قد أصبحوا على مقربة منها ، وأنهم عازمون على دخولها والتوجه بعدها إلى مصر . وطبيعي أن يفزع أهل الشام؛ لتلك الشائعات ويضطرب أمرهم ، حتى لقد هاجرت أسر كثيرة من السراة إلى مصر وغيرها من البلاد .

ولكن شيخ الإسلام- رحمه الله- أخذ يواجه هذا الموقف الشديد بما يتطلبه من ثبات وحزم ، فكان يجمع الناس في المسجد الجامع ويشجعهم على ملاقاة التتر ، ويحثهم على الصبر والاستعداد للجهاد ، وينهاهم عن الهجرة وترك البلاد؛ فإن في ذلك تمكينًا للعدو من غزوها وفتحها . وكان يقول لهم : لو أن ما ينفق في سبيل الهجرة والرحيل أنفق في الاستعداد والتأهب للقتال لحصل من ذلك قوة كبيرة . وما يزال بالناس يشجعهم ويقويهم ويلهب حماستهم .

وتصل الأخبار في تلك الأثناء بأن السلطان قد توجه بعساكره إلى الشام ،

فتهدأ النفوس ويزايلها الفزع . ولكن يحدث بعد ذلك أن تتجدد الشائعات قوية عارمة عن قرب وصول التتر ، وعما هم عليه من كثرة في العدد ، وقوة في الحرب ، فيعاود الناس الاضطراب والفزع ، ويزيد من اضطرابهم وفزعهم ما نمى إليهم من عدول السلطان عن المسير إلى الشام ورجوعه بالعسكر إلى مصر .

حينئذ انتدب نائب السلطنة وأعيان دمشق شيخَ الإسلام ليركب على البريد إلى مصر؛ ليستحث السلطان على المضي بعساكره إلى الشام ، فيجد ابن تيمية في أثره يريد اللحاق به قبل أن يدخل مصر ، ولكن السلطان كان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة وأمر بتسريح الجيوش .

ولكن شيخ الإسلام لم ييأس مع ذلك من إقناعه بالخروج ، فلم يزل له يذكره بواجبه نحو أهل الشام ، وأنهم تحت سلطنته ومسئولون منه . ويروى أن من جملة ما قاله شيخ الإسلام للسلطان الناصر في هذه السفارة : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانًا يحوطه ويحميه ، ويستغله في زمن الأمن ، ولو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله لوجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه ، وهم رعيتكم ، وأنتم مسؤلون عنه؟! .

وما زال شيخ الإسلام بالسلطان وبطانته ، تارة يغلظ لهم في القول ويعنفهم على القعود ، وتارة يقوي من جأشهم ويعدهم بالنصر على عدوهم حتى أمروا بتجريد العساكر إلى الشام .

وهكذا نجحت سفارة شيخ الإسلام ، وكانت زيارته الأولى لمصر على قصرها- إذ لم تتجاوز ثمانية أيام- زيارة خير ويمن على أهل الشام؛ مما جعلهم يستقبلونه عند عودته من مصر استقبال المنقذ الذي أعدته الأقدار لكبريات الأمور ، وادخرته لمواجهة الشدائد والملمات .

❁❁❁

ابن تيمية في مصر[1]

[٢]

تكلمنا في المقالة السابقة عن زيارة شيخ الإسلام ابن تيمية الأولى لمصر، وقلنا : إن السبب في هذه الزيارة هو ما كان يتهدد دمشق وبلاد الشام من خطر الغزو التتري، وما أصاب أهلها من الخوف والفزع نتيجة للأراجيف والشائعات التي ملأت الجو عن ذلك الغزو؛ مما حدا بنائب السلطنة الأفرم وأهالي دمشق وأعيانها أن يختاروا شيخ الإسلام نائبًا عنهم إلى السلطان الناصر في مصر؛ لكي يطلب منه النجدة لأهل الشام في تلك الظروف العصيبة.

وقلنا أيضًا : إن هذه الزيارة الأولى كانت قصيرة خاطفة، لم يتجاوز عمرها ثمانية أيام، قضاها شيخ الإسلام بالقلعة بعيدًا عن الناس، ولم يكن له من همٍّ في تلك الفترة القصيرة إلا أن ينجح فيما انتدب له من حمل السلطان وعساكره على الخروج للقتال.

ولكن التاريخ مع ذلك يحدثنا بأن كثيرًا من علماء مصر وجهابذة الفنون فيها قد حضروا إلى شيخ الإسلام بالقلعة؛ قصد التعرف إليه والترحيب بمقدمه، وأنه قد جرت بينه وبين بعضهم مناقشات، كنا نود لو نقل إلينا شيء منها، ولكنها على كل حال لابد أن تكون دلتهم على غزير علمه وعظيم فضله :

جاء في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»[2] للحافظ ابن حجر العسقلاني :

قال الشهاب بن فضل الله : لما قدم ابن تيمية على البريد إلى القاهرة في سنة ٧٠٠ من الهجرة، نزل عند عمي شرف الدين، وحض أهل المملكة على

(١) مجلة الحج- العدد ٢/٧- شعبان- ١٣٧٢هـ.

الجهاد ، فأغلظ القول للسلطان والأمراء ، ورتبوا له في مقر إقامته في كل يوم دينارًا ومخفقة طعام ، فلم يقبل شيئًا من ذلك ، وأرسل له السلطان بقجة قماش فردها . ثم حضر عنده شيخنا أبو حيان فقال : ما رأت عيناي مثل هذا الرجل . ثم مدحه بأبيات ذكر أنه نظمها بداهة وأنشده إياها وهي :

لما أتانا تقي الدين لاح لنا ... داع إلى اللَّه فرد ما له وزر
على محياه من سيما الأولى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
خير تسربل منه دهره خبرا ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذ عصت مضر
وأظهر الحق إذ آثاره اندرست ... وأخمد الشر إذ طارت له شرر
كنا نحدث عن خير يجئ بها ... أنت الإمام الذي قد كان ينتظر

ثم دار بينهما كلام ، فجرى ذكر سيبويه ، فأغلظ ابن تيمية القول في سيبويه ، فنافره أبو حيان وقطعه بسببه ، ثم عاد ذامًّا له ، وصير ذلك ذنبًا لا يغفر!! .

ويروى أن ابن تيمية قال لأبي حيان عندما انتصب منافرًا له في سيبويه : ما كان سيبويه نبي النحو ، ولا كان معصومًا ، بل أخطأ في « الكتاب » في ثمانين موضعًا ما تفهمها أنت . فكان ذلك سبب مقاطعته إياه .

ولا نحب أن نتجاوز هذه الحكاية التي حكاها صاحب « الدرر » عن الشهاب حتى نقف وقفة قصيرة مع أبي حيان؛ لنسأله عن موقفه المتناقض من شيخ الإسلام؟ فقد دلت أبياته البليغة الرائعة على تقدير كبير لما يقوم به ابن تيمية من الجهاد في نصرة الحق وذب المبطلين عنه ، وأن شهرة شيخ الإسلام في ذلك قد استطارت في الأمصار حتى سبقت مجيئه إلى مصر ، نسمعها منظومة في أبيات أبي حيان . فعلام إذن كانت منافرته لشيخ الإسلام ومقاطعته إياه؟! .

إن هذا الموقف من أبي حيان لا يمكن تفسيره إلا إذا أدركنا مبلغ الجمود

والتعصب الذي أصاب عقلية العلماء في ذلك العصر، حتى اعتقدوا العصمة في أئمتهم السابقين؛ فاتخذوا أقوالهم ومذاهبهم وحيًا منزلًا لا يجوز نيله بالنقد ولا دفعه بالدليل!

فهذا صاحبنا أبو حيان مع تبحره في العلم وإمامته في النحو لم يعجبه من شيخ الإسلام أن يتعرض لسيبويه بالنقد والتخطئة، فانقلب عدوًا له يذمه ويهجوه ويذكره بالسوء في كتبه بعد أن جاءه أول الأمر مادحًا مشيدًا بعلمه وفضله.

ولم يكن أبو حيان في موقفه هذا إلا صورة لأغلب علماء عصره، فقد كانوا كلهم- سواء في الفقه أو في النحو أو في التوحيد- على هذه الصورة من الجمود على التقليد، وأخذ ما قاله السابقون من غير دراسة ولا تمحيص، مما يفسر لنا مقدار ما لقيه شيخ الإسلام من عناء وما بذله من جهد في صراعه مع هذه العقليات الجامدة، ذلك الصراع الذي استمر طول حياته قويًا عنيفًا؛ لأنه كان صراعًا بين الحركة والجمود، أو بالأحرى بين الاجتهاد والتقليد.

ومن العجب أن تنسلخ القرون الطويلة على وفاة شيخ الإسلام ولا يزال ذلك الصراع الذي بدأه مع جحافل الباطل باقيًا حيًا! بل لا يزال عنيفًا قويًا بين أنصاره الذين تخرجوا على كتبه ورسائله وبين مخالفيهم من أسراء التقليد وعبيد الأوهام الذين يكابرون في الحق بعدما تبين، ويتبجحون بالباطل بعدما لزمتهم الحجة وقهرهم الدليل.

وأما المرة الثانية التي جاء فيها ابن تيمية إلى مصر فكانت مختلفة كل الاختلاف عن المرة السابقة، فقد جاء هذه المرة لا سفيرًا لقومه عند السلطان، ولكن مع الأسف جاءها بأمر السلطان؛ ليحقق معه فيما عزي إليه من اتهامات لفقها له أعداؤه وشانئوه. وكانت زيارته الأولى كما قلنا قصيرة؛ لأن الحالة بالشام كانت تستدعي عودته إليها بسرعة، أما في هذه المرة فقد طال مقامه بمصر،

حيث سار إليها في رمضان سنة ٧٠٥ للهجرة وبقي بها إلى سنة ٧١٢ ومعنى هذا أنه أقام بمصر في هذه المرة نحوًا من سبع سنين، قضى معظمها في غياهب السجون، ولكنه مع ذلك ترك في مصر من الآثار الخالدة والذكريات الطيبة ما سجله التاريخ، وإن نسيه المصريون!.

ولكن ما هي هذه التهم التي وجهت إلى شيخ الإسلام حتى استدعي بسببها إلى القاهرة؟ وهل كلامه في الصفات، أو في غيرها، ببيان ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين وإنكاره على المؤولة والمعطلين يصح أن يكون تهمًا تثير كل هذه الضجة، وتحمل السلطان على أن يهتم باستدعائه من دمشق للتحقيق معه.

إننا لا نستطيع أن نفهم السر الكامن وراء تلك الضجة المفتعلة إلا إذا وضعنا أمام أعيننا صورة- ولو تقريبية- لتلك البيئة التي كان يعيش فيها الشيخ من جهة الروح العامة التي كانت تسود أهل عصره، والمشاعر والنزعات التي كانت تغلب عليهم، ومن جهة الخرافات والأوهام التي كانت تحكمهم في كل ما يأتون وما يذرون.

لقد قلنا فيما سبق: إن هذا العصر الذي كان يعيش فيه ابن تيمية قد سيطر عليه الجمود العلمي والتعصب الممقوت للمذاهب وأئمتها. فكان كل جديد في نظر علماء هذا العصر بدعًا وضلالًا، وكل دعوة فيها مخالفة لما ورد في كتب السابقين وأقوالهم تعد مروقًا وإلحادًا!! حتى ولو كانت دعوة للرجوع إلى مصادر الدين الأولى من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين. وكانت كل حركة يراد بها تطهير الإسلام مما داخله ولصق به من الخرافات والبدع، تفسر بأنها اجتراء على المقدسات وانتهاك للحرمات.

فأتباع الأئمة الأربعة متعصبون لأئمتهم جامدون على مذاهبهم؛ يرى كلٌّ في

مذهب إمامه أنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حتى ولو قام ألف دليل على خلافه.

وعامة المتكلمين في مصر والشام في ذلك العصر أشعرية على مذهب إمام الحرمين الجويني، ومن نهج نهجه من متأخري الأشاعرة؛ في نفي صفات اللّٰه عز وجل، وتعطيل ذاته عن كمالاتها، وإن صرخت في وجوههم النصوص الصريحة من الكتاب والسنة بالإثبات.

وإلى جانب هؤلاء وأولئك توجد جماعات الصوفية بما تتلبس به من العقائد الفاسدة التي ورثوها عن الضلال من أسلافهم؛ مثل عقيدة الحلول التى قال بها الحلاج، وعقيدة وحدة الوجود التي نادى بها ابن عربي في كتبه، وتغنى بها ابن الفارض في شعره. هذا إلى جانب ما كانت تجر وراءها من بدع وخرافات لا حصر لها وما كانت تمخرق به على الناس من ألوان الجهل والشعوذة؛ حتى صرفتهم عن هدي الدين، وبعدت بهم عن صراطه المبين.

هذه صورة مجملة للبيئة التى ظهر فيها شيخ الإسلام، وهي بيئة كما ترى مليئة بالأوحال والأشواك، ومتراكمة فيها الظلمات بعضها فوق بعض!! فإذا أضفنا إلى ذلك ما اشتهر به ابن تيمية من الحرية في الرأي، والشجاعة في قول الحق، والصراحة في نقد أحوال الناس، وبيان ما هم عليه من زيغ وضلال، مع ما كان يعتريه أحيانًا من الغضب والحدة عند التعرض للخصوم والمخالفين، أدركنا إلى أي مدى بلغت عداوته في نفوسهم، وكيف نما ضغنهم عليه؛ حتى جرهم آخر الأمر إلى الكيد الدنيء والوشاية لدى الأمراء الجاهلين.

لقد كانت «العقيدة الحموية الكبرى» التي ألفها شيخ الإسلام سنة ٦٩٨ إجابة على سؤال ورد إليه من حماة عن صفات اللّٰه عز وجل أول قذيفة في هذا النضال العلمي الذي استحر فيما بعد بينه وبين خصومه، ولقد قذف بها بقوة في

وجه الأشاعرة نفاة الصفات ، وفيها بيَّن في صراحة وجرأة مذهب السلف الحق في الإثبات من غير تمثيل .

يقول الحافظ الذهبي[(١)] : ولما صنف المسألة الحموية في الصفات سنة ثمان وتسعين وستمائة تحزبوا له ، وآل بهم الأمر إلى أن طافوا به على قصبة من جهة القاضي الحنفي ، ونودي عليه بأن لا يستفتى . ثم قام بنصره طائفة آخرون ، وسلم اللَّه .

ثم توالت بعد ذلك القذائف في وجوه المخالفين من الصوفية والفقهاء والمتفلسفة والشيعة والقدرية إلى غيرهم من أصحاب المقالات الفاسدة ، فقامت جميع الطوائف ألبا عليه؛ تخترع له التهم وتناصبه العداء .

وقد كان أشد أعداء شيخ الإسلام نكاية به ووقيعة فيه رجلين من أهل مصر :

أحدهما : رجل صوفي من شيعة ابن عربي يقال له : الشيخ « نصر المنبجي » .

والآخر : قاض مالكي يقال له : زين الدين بن مخلوف .

وقد استطاع هذان الرجلان بما لهما من نفوذ في الدولة وحظوة عند السلطان أن يغريا بيبرس الجاشنكير الذي كان قد انتزع السلطة من الملك الناصر بشيخ الإسلام ، وأن يزينا له وجوب استدعائه إلى مصر؛ لسؤاله عن معتقده والتحقيق معه فيما نسب إليه من مقالات! .

يقول صاحب « الدرر »[(٢)] : واتفق أن الشيخ نصر المنبجي كان قد تقدم في الدولة؛ لاعتقاد بيبرس الجاشنكير فيه . فبلغه أن ابن تيمية يقع في ابن عربي ، وكان نصر يعتقد أن ابن عربي مستقيم ، وأن الذي ينسب إليه من الاتحاد

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ١٧٧.

(٢) انظر ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/ ٣١٦.

(٣) الدرر الكامنة ١/ ١٨٠.

والالحاد من قصور فهم من ينكر عليه ، فأرسل إليه ابن تيمية ينكر عليه ذلك ، وكتب إليه كتابًا طويلًا ، ونسبه هو وأصحابه إلى الاتحاد الذي هو حقيقة الإلحاد . فعظم ذلك عليهم ، وأعانه عليه قوم آخرون ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة وقعت منه في مواعظه وفتاويه ، ورده على من توسل بالنبي ﷺ ، أو استغاث . فأشخص من دمشق في رمضان سنة خمس وسبعمائة ، فجرى عليه ما جرى وحبس مرارًا ، فأقام على ذلك نحوًا من أربع سنين ، وهو مع ذلك يشتغل ويفتي .



ابن تيمية في مصر[1]

[٣]

نريد الآن- بعد أن وقفنا على الأسباب الحقيقية التي حملت السلطان بيبرس الجاشنكير على استقدام شيخ الإسلام إلى مصر- أن نتتبع تلك الرحلة فى جميع خطواتها؛ لنقف على ما تحمله كل خطوة فيها من معاني البطولة التي امتاز بها شيخ الإسلام ، ولنعرف عن كثب ماذا ترك من الآثار بمصر ، وكيف كان بلاؤه في الدعوة إلى الحق ، وحملاته الشديدة على البدع والمنكرات التي تفيض كثرة في هذه البلاد .

ونرى أن نقدم بين يدي ذلك وصفًا إجماليًا لتلك الرحلة المباركة ، ملخصة من كتب التاريخ والتراجم المعتبرة؛ ليكون عونًا للقارئ على الإلمام بأطرافها والوقوف على أبرز حوادثها :

فنقول وباللَّه التوفيق :

كان مسير شيخ الإسلام من دمشق إلى مصر في رمضان سنة ٧٠٥ بسعاية أعدائه لدى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فكتب إلى نائب دمشق الأفرم بأن يرسله هو والقاضي نجم الدين بن حصري على البريد ، فوصلا القاهرة يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان .

وفي اليوم التالي عقد له بعد صلاة الجمعة مجلس برئاسة قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف ، كان فيه هو المدعي وهو الحاكم!! وأقيم الشيخ مرسمًا عليه ، وحبس في برج أيامًا ، ثم نقل ليلة عيد الفطر إلى الحبس المعروف بـ« الجب » بقلعة الجبل هو وأخواه : شرف الدين عبد اللَّه ، وزين الدين

(١) مجلة الحج- ذو القعدة- ١٣٧٢هـ .

عبد الرحمن. وبقوا في هذا الحبس سنة ونصف سنة.

وفي شهر ربيع الأول من سنة ٧٠٧ دخل الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى مصر، وحضر بنفسه إلى الجب وأخرج الشيخ بعد أن استأذن في ذلك، فخرج يوم الجمعة ٢٣ من ربيع الأول إلى نائب السلطنة بالقلعة، وعقدت له مجالس مناظرة كان القضاة يتهربون منها بحجة المرض وغيره!!.

وأقام الشيخ بدار بن شقير بالقاهرة، ووصلت الأخبار إلى دمشق بإطلاقه فكان السرور عامًا شاملًا.

وأقام بمصر يقرئ العلم، ويجتمع عنده خلق. وتكلم في الاتحادية القائلين بوحدة الوجود، فأخرج على البريد مساء الأربعاء ١٢ من شوال سنة ٧٠٧ إلى بلاد الشام، ثم ردوه في اليوم التالي وهو على مرحلة من مصر، وسجنوه أولًا بسجن الحاكم بحارة الديلم في ليلة الجمعة ١٩ من شوال. ووجد المحابيس مشتغلين باللهو، ويضيعون الصلاة! فما زال يرغبهم في الخير، حتى صار الحبس بما فيه خيرًا من الزوايا والمدارس، وكثر المترددون على الحبس. ويرجح: أن نُقل من هنا إلى حبس القضاة، ولعله هو الذي يسمى بـ« قاعة الترسيم » التي سيأتي ذكرها فيما بعد. فلبث فيه سنة ونصف سنة، وكان أصحابه يدخلون إليه في السر ثم تظاهروا، فأخرجته الدولة على البريد إلى الإسكندرية وحبس ببرج منها، وأشيع بأنه قتل وأنه غرق غير مرة!.

فلما عاد السلطان الناصر من الكرك وشرد أضداده بادر باستحضار الشيخ إلى القاهرة مكرمًا، واجتمع به وحادثه، وساره بحضرة القضاة والكبار، وزاد في إكرامه.

ونزل الشيخ وسكن في دار، واجتمع بعد ذلك بالسلطان. فلما خرج السلطان الناصر إلى الشام لغزو التتر عاد معه الشيخ إلى دمشق سنة ٧١٢.

هذا ملخص الرحلة كما روتها كتب السير والتراجم ، فلنرجع إليها مرة أخرى لننقل منها ما عساه أن يكون وصفًا تفصيليًا لخطوات تلك الرحلة ، وما اكتنفها من ظروف وملابسات وما لقي الشيخ فيها من مشقة واعنات ، وما قام في أثنائها من أعمال جليلة في السجن وخارج السجن ، حتى برم به أعداؤه وتمنوا أن لو لم يكونوا قد استقدموه إلى القاهرة؛ لما رأوا من شدة تأثيره واتفاق الناس حوله .

يقول ابن عبد الهادي(١) :

وفي يوم الاثنين خامس شهر رمضان من سنة خمس وسبعمائة ، وصل كتاب السلطان بالكشف عما كان وقع للشيخ تقي الدين في ولاية سيف الدين جاغان ، وفي ولاية القاضي إمام الدين ، وبإحضاره وإحضار القاضي نجم الدين بن صصري إلى الديار المصرية . فطلب نائب السلطنة الشيخ وجماعته من الفقهاء ، وسألهم عن تلك الواقعة ، وقرئ عليهم المرسوم .

فأجاب كل منهم بما كان عنده في تلك القضية ، وكتبه عنهم صاحب الديوان محي الدين ، وأرسل الشيخ والقاضي نجم الدين إلى مصر على البريد . وخرج مع الشيخ خلق كثير وبكوا وخافوا عليه من أعدائه .

وأخبرت أن نائب السلطنة كان قد أشار على الشيخ بترك التوجه إلى مصر ، وأن يكاتب السلطان في ذلك ، فامتنع الشيخ من ذلك ولم يقبل ، وذكر أن في توجهه إلى مصر مصالح كثيرة .

ولا بد لنا من وقفة قصيرة عند هذه الجملة الأخيرة ، فرغم ما يعرفه الشيخ ومخاطر تلك الرحلة ، ومن عداوة الكثيرين من فقهاء مصر ومتصوفتها له ، وأن هؤلاء الأعداء قادرون على أن ينزلوا به من ألوان النكال ما شاء لهم الحقد والهوى ، لاسيما وأن السلطان ضالع معهم في هذه الخصومة ، لم يرض مع ذلك

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ص ٢٦٤ وما بعدها .

أن يقبل ما عرضه عليه نائب السلطنة من القعود[١] ومكاتبة السلطان بشأنه، بل أصر على الذهاب إلى مصر؛ لما يؤمله من وراء تلك الرحلة من الخير والنفع الكثير.

ثم يقول ابن عبد الهادي بعد ذلك: وقرأت خط بعض أصحاب الشيخ قال: ولما توجه الشيخ في اليوم الذي توجه فيه من دمشق المحروسة، كان يومًا مشهودًا غريب المثل في كثرة ازدحام الناس لوداعه ورؤيته! حتى انتشروا من باب داره إلى قريب للجسورة فيما بين دمشق والكسوة التي هي أول منزلة منها، وهم ما بين باكٍ وحزين ومتعجب ومتنزه ومزاحم متغال فيه. ودخل الشيخ مدينة غزة يوم السبت، وعمل في جامعها مجلسًا عظيمًا.

ولعل هذا النص الذي يحكيه ابن عبد الهادي عن شاهد عيان من أصحاب الشيخ يعطينا فكرة واضحة عن المنزلة العالية التي كان يحتلها الشيخ من قلوب أهل دمشق، ومدى تعلقهم به، حتى خرجوا جميعًا لرؤيته ووداعه في تلك الساعة الرهيبة، كما يدلنا أيضًا على أن الشيخ رحمه اللّه لم يكن مكترثًا[٢] لما هو مقبل عليه من خصومات ومحاكمات ومواجهة أعداء الداء، ولم يصرفه التفكير في ذلك عن أداء واجب الدعوة إلى اللّه وهو في طريقه إلى مصر، حتى إنه لما دخل مدينة غزة- وهي على الحدودين: مصر وفلسطين- أقام في مسجدها مجلسًا عظيمًا للوعظ والتدريس.

ثم تأتي الخطوة الثانية؛ وهي دخوله مصر ومحاكمته على يد خصومه ثم حبسه، وفي ذلك يقول ابن عبد الهادي:

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان وصل الشيخ والقاضي إلى

---

(١) في الأصل: «العقود».

(٢) اكترث له: حَزِن. ويقال: ما أكترث له: ما أبالي به. وأراك لا تكترث لذلك: لا تتحرك ولا تعبأ به (المعجم الوسيط»: (كرث).

القاهرة. وفي ثاني يوم بعد صلاة الجمعة جمع القضاة وأكابر الدولة بالقلعة لمحفل، وأراد الشيخ أن يتكلم فلم يمكن من البحث والكلام على عادته! وانتدب له شمس الدين بن عدلان خصمًا احتسابًا، وادعى عليه القاضي ابن مخلوف المالكي أنه يقول: إن اللَّه فوق العرش حقيقة، وإن اللَّه يتكلم بحرف وصوت. وسأل جوابه؟

فأخذ الشيخ في حمد اللَّه والثناء عليه. فقيل له: أجب، ما جئنا بك لتخطب!.

فقال: ومن الحاكم فيَّ؟ فقيل له: القاضي المالكي. قال: كيف يحكم فيّ، وهو خصمي؟ وغضب غضبًا شديدًا وانزعج. فأقيم مرسمًا عليه، وحبس في برج أيامًا، ثم نقل منه ليلة عيد الفطر إلى الحبس المعروف بـ« الجب » هو وأخواه شرف الدين عبد اللَّه، وزين الدين عبد الرحمن.

وهنا نرى التحامل على شيخ الإسلام من جانب هؤلاء الأعداء من القضاة وغيرهم سافرًا غير مقنع؛ مما يدل على أنهم لم يستقدموه إلى مصر ليجروا معه تحقيقًا عادلًا، ولا يقوم على إعطائه الفرصة للدفاع عن نفسه، ويقوم كذلك على تلبية رغبته في تنحية القاضي إذا كان هو يشك في عدالته لخصومه بينه وبينه، وإنما كانت الغاية التي يهدفون إليها من استقدامه هي التشفي منه بإسكات لسانه وقلمه، والحيلولة بينه وبين الجمهور المفتتن به، وذلك بزجه في غياهب السجن.

ولعل هؤلاء القضاة من ناحية أخرى خشوا أن يتكلم شيخ الإسلام في حفل كبير كهذا، مع ما يعلمونه[1] من شدة تأثيره وقوة عارضته ومتانة استدلاله، فيفسد عليهم ما دبروه من وسائل التشفي والكيد الأثيم.

(١) في الأصل: « ما يعملونه ».

ولسنا ندري كيف أباح هؤلاء القضاة لأنفسهم أن يُزرُوا بحرمة القضاء إلى هذا الحد ، وأن يخالفوا أبسط مبادئ العدالة؛ فيحولوا بين متهم وبين حقه الطبيعي في الدفاع عن نفسه؟! ولكن يظهر أن الأخلاق في هذا العصر كانت تعاني ما يعانيه العلم من محنة وفساد كبير .

ثم يقول بعد ذلك ابن عبد الهادي ، وابن كثير :

إنه في ليلة عيد الفطر من سنة ست وسبعمائة- بعد مضي أكثر من سنة على حبس شيخ الإسلام- أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر القضاةَ الثلاثة : الشافعي ، والمالكي ، والحنفي ، وجماعة من الفقهاء ، وتكلموا في إخراج الشيخ تقي الدين من الحبس ، فاشترط بعضهم شروطًا منها : أنه يلتزم بالرجوع عن بعض معتقده .

وأرسلوا إليه من يحضره ليتكلموا معه في ذلك ، فلم يجبهم إلى الحضور رغم تكرر الرسل إليه ، ولم يلتفت إليهم ، ولم يعدهم شيئًا . فلما طال عليهم المجلس تفرقوا وانصرفوا غير مأجورين .

وفي الثامن والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة نفسها أخبر نائب السلطنة بدمشق بوصول كتاب إليه من الشيخ تقي الدين من الحبس الذي يقال له : « الجب » فجيء بالكتاب وقرئ على الناس ، وجعل نائب السلطنة يشكر الشيخ ويثني عليه وعلى علمه وديانته وشجاعته وزهده ، وقال : ما رأيت مثله! . وإذا بالكتاب مشتمل على ما هو عليه في السجن من التوجه إلى اللّه تعالى . وأنه لم يقبل من أحد شيئًا؛ لا من النفقات السلطانية ، ولا من الكسوة ، ولا من الإدارات ولا غيرها ، ولا تدنس بشيء من ذلك .

يا سبحان اللّه ، ما أعجب شأن هؤلاء الخصوم ، وما أجهلهم بحقيقة من يحاربون! لقد ظنوا أن شيخ الإسلام قد فت في عضده بقاؤه في السجن هذه

المدة ، وأنه لابد سيجيبهم إلى ما يطلبونه منه؛ فراحوا يجسون النبض ، ويعرضون عليه تلك المساومات الرخيصة ، ويطلبون إليه التنازل عن بعض عقيدته ثمنًا للإفراج عنه!! ولكنهم لم يجدوا إلا الثبات والإصرار من رجل يضع عقيدته فوق كل اعتبار ، بل لم يجدوا منه إلا الإيثار للبقاء في السجن على هذا الإفراج الذليل ، وكأن لسان حاله كان يقول لهم ما قال يوسف الصديق عليه السلام من قبل لما اجتمع عليه النسوة بكيدهن : ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٣] .

ولقد ظن السلطان هو الآخر أن ابن تيمية من أولئك العلماء الذين يمدون أيديهم ويدنسون علمهم بالأطماع الفاسدة ، وقبول المنح والهبات من الملوك والأمراء! فراح يرسل إليه في سجنه من ذلك ما يظن أنه سيقع من نفسه موقع الرضى والشكر ، لاسيما وهو غريب منقطع عن أهله وماله ، فلم يجد إلا عفة زانها اضطرار ، ولم يجد إلا إباءً لا يعرف الذلة والانكسار لغير الواحد القهار .

فمن للإسلام بعلماء من طراز ابن تيمية في ثباته وجرأته وفي عفته ونزاهته ، يعيدون إليه غابر مجده وعزته؟! .

« يتبع »



ابن تيمية في مصر[1]

[٤]

انتهى بنا الكلام في المقالة السابقة إلى ما كان من اجتماع نائب السلطنة الأمير سلار ليلة عيد الفطر من سنة ست وسبعمائة بالقضاة الثلاثة : الشافعي والمالكي والحنفي ، وبعض الفقهاء ، وحديثه معهم بشأن إخراج الشيخ تقي الدين ابن تيمية من السجن المعروف « بالجب » وما اقترحه بعضهم في ذلك الاجتماع من تنازل شيخ الإسلام عن بعض معتقده ، مثل مسألة الاستواء على العرش ، ومسألة الحرف والصوت ونحوهما .

وقلنا : إن الشيخ رحمه اللّه أبى أن يجيبهم إلى ما طلبوه من ذلك رغم الإلحاح الشديد وتكرر الرسل إليه ، بل آثر على تلك المساومات الرخيصة أن يبقى في سجنه حتى يفصل اللّه بينه وبين أعدائه .

وكنا قد أشرنا قبلًا في موجز الرحلة إلى ما كان من دخول الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى أمير آل فضل إلى مصر ، وقلنا : إنه ذهب بنفسه إلى الجب وأطلق سراح الشيخ بعد أن استأذن في ذلك ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول من سنة سبع وسبعمائة .

وبذلك تكون الفترة الأولى التي قضاها شيخ الإسلام هو وأخواه في السجن نحوًا من سنة ونصف سنة تقريبًا .

وهنا نرى الشيخ قد أصبح في مصر حرًّا طليقًا ، يقيم حيث شاء ، ويجتمع بالناس ، ويعقد المجالس للوعظ والتدريس ، ويكاتب أهله وأنصاره بدمشق؛ يخبرهم بما منَّ اللّه به عليه من عودة الحرية وطيب الإقامة ، ويبين لهم ما في

(١) مجلة الحج - العدد :- صفر- ١٣٧٣هـ .

إقامته بمصر من الخير والمنفعة والهداية لكثير من الخلق.

يقول ابن عبد الهادي في ذلك الموضع ما ملخصه: فخرج يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر إلى دار نائب السلطنة بالقلعة، وحضر بعض الفقهاء، وحصل بينهم بحث كثير، وفرقت صلاة الجمعة بينهم. ثم اجتمعوا إلى المغرب ولم ينفصل الأمر، ثم اجتمعوا يوم الأحد بعد يومين بمرسوم السلطان مجموع النهار، وحضر جماعة أكثر من الأولين، ولم يحضر القضاة، فاعتذر بعضهم بالمرض وبعضهم بغيره، وانفصل المجلس على خير، وبات الشيخ عند نائب السلطنة، وكتب كتابًا إلى دمشق بكرة الاثنين السادس والعشرين من الشهر يتضمن خروجه، وأنه أقام بدار ابن شقير بالقاهرة. ففرح خلق كثير بخروجه وسروا بذلك سرورًا عظيمًا، وحزن آخرون وغضبوا!

وفي يوم الجمعة صلى الشيخ في جامع الحاكم وجلس، فاجتمع إليه خلق عظيم وسأله بعضهم أن يتكلم بشيء يسمعونه منه، فلم يجبهم إلى ذلك، بل كان يتبسم وينظر يمنة ويسرة. فقال له رجل: قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٧].

فنهض الشيخ قائمًا وابتدأ بخطبة الحاجة؛ خطبة ابن مسعود رضي الله عنه، ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقرأ الفاتحة، وتكلم على تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] وفي معنى العبادة والاستعانة إلى أن أذن مؤذن العصر.

وإذا كان لابد لنا من التعليق على كلام ابن عبد الهادي؛ جريًا على عادتنا التي التزمناها في هذه المقالات من الوقوف عند كل نص ذي مغزى خطير في هذه الرحلة، فنقول: إن هذا الكلام يدل أوله على أن ابن تيمية قد نهد لجميع علماء

مصر وقضاتها وفقهائها يناظرهم وحده ويلزمهم الحجة ، وأن هؤلاء الخصوم قد أصبحت أسلحتهم مغلولة بعد أن أصبحت المناظرة بينه وبينهم حرة ، بدليل أنهم كانوا يتهربون من هذه المناظرات بحجة المرض وغيره! مع دعوتهم إليها رسميًّا من قبل السلطان .

ويدل آخر هذا الكلام على ما آل إليه أمر شيخ الإسلام من الشهرة في مصر ، حتى كانت ترمقه الأبصار أينما ذهب ، وتلتف حوله الجماهير لاستماع وعظه وأحاديثه ، فهو يذهب للصلاة في مسجد الحاكم ، فلم يكد يفرغ من صلاته حتى تهرع إليه الجماهير طالبين منه أن يعظهم ويذكرهم ، فيسكت شيخ الإسلام هنيهة حتى يتحقق من صدق رغبتهم في الاستماع ، وأنه ليس بينهم من يريد الشغب وإحداث الفتنة ، ولكن لم يكد يذكره أحدهم بالآية الكريمة وبما يجب عليه من تبليغ العلم وبيانه حتى يقوم فيأخذ في تفسير فاتحة الكتاب ، ويقف وقفة طويلة عند قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] ليعلِّم المصريين من معاني العبادة والاستعانة ما عساه أن يحملهم على الإقلاع عما اعتادوه من دعاء الموتى والعكوف على قبورهم ، وطلب الحوائج منهم ، إلى غير ذلك من المنكرات الشركية .

وإذا كان شيخ الإسلام قد شغل في تلك الفترة- كما قدمنا- بمكاتبة أهله وأنصاره بدمشق فوق ما كان يقوم به في مصر من واجب الدعوة والتدريس ، فيجمل بنا أن لا نتجاوز تلك الخطوة حتى يقف القارئ على ناحية هامة من نواحي ابن تيمية قد غفل عنها الكثيرون؛ لأن شهرته في العلم والتأليف قد غطت عليها ، ونعنيى بها : الناحية الأدبية .

إن كثيرين من الناس يعرفون ابن تيمية إمامًا راسخًا في العلم ، ومؤلفًا بارعًا في التأليف ، ومناظرًا قوي الحجة ، ومحاضرًا واسع الأفق ، غزير المادة ، عميق

الفكرة . ولكنهم يجهلون أن ابن تيمية كان إمامًا من أئمة الأدب في عصره ، وأنه كان كاتبًا حلو العبارة ، قوي الأسلوب ، يجري في كتابته على غير ما كان شائعًا في عصره من التزام السجع المتكلف ، والعناية بالمحسنات اللفظية ، بل كان يترسل ولا يهتم إلا بإصابة المعنى وإيضاحه على نحو ما يجري عليه مشاهير الكتاب في عصرنا الحاضر ، بحيث يمكن القول بأن ابن تيمية كان مجددًا في الأدب كما كان مجددًا في العلم ، وأنه سبق ابن خلدون وغيره إلى الإرسال في الكتابة الإنشائية

وإذا جاز للبعض أن يطالبنا بالدليل على هذه الدعوى فإنا سننقل له من كتب الشيخ ورسائله في تلك الفترة ما فيه مقنع ، وسنجتزئ من ذلك بذكر مختصر لكتابين أوردهما ابن عبد الهادي في كتابه « العقود الدرية » أحدهما : كتبه الشيخ إلى والدته رحمها اللَّه . والآخر : كتبه إلى بعض أنصاره بدمشق؛ وذلك لما تضمنه هذان الكتابان من بيان لأهداف شيخ الإسلام من رحلته ، ووصف بعض ما جرى عليه وعلى أشياعه في تلك المحنة ، فضلًا عما تضمنه الكتاب الأخير من وصايا حكيمة أوصى بها الشيخ أتباعه وخاصته .

قال رحمه اللَّه فيما كتبه إلى والدته :

من أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة ، أقر اللَّه عينها بنعمته ، وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من خيار إمائه وخدمه ، سلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته .

فإنا نحمد إليكم اللَّه الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير ، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين ، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم تسليمًا .

كتابي إليكم عن نعم من اللَّه عظيمة ، ومنن كريمة ، وآلاء جسيمة ، نشكر اللَّه عليها ، ونسأله المزيد من فضله . ونعم اللَّه كلما جاءت في نمو وازدياد ،

وأياديه جلَّت عن التعداد .

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية ، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا واللَّه مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ، ولكن الغائب عذره معه ، وأنتم لو اطلعتم على بواطن الأمور فإنكم- وللَّه الحمد- ما تختارون الساعة إلا ذلك . ولم نعزم على المقام والاستيطان شهرًا واحدًا ، بل كل يوم نستخير اللَّه لنا ولكم . وادعوا لنا بالخيرة ، فنسأل اللَّه العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية .

ومع هذا فقد فتح اللَّه من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ، ولا يدور في الخيال ، ونحن في كل وقت مهمون بالسفر ، مستخيرون اللَّه سبحانه ، فلا يظن الظان أنّا نؤثر على قربكم شيئًا من أمور الدنيا قط ، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه ، ولكن ثم أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها ، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، والتاجر يكون مسافرًا فيخاف ضياع بعض ماله فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه ، وما نحن فيه أمر يجل عن الوصف ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه .

وقال رحمه اللَّه تعالى فيما كتبه إلى أنصاره بدمشق :

أما بعد ، فإن اللَّه وله الحمد قد أنعم علّي من نعمه العظيمة ، ومننه الجسيمة ، وآلائه الكريمة ، ما هو مستوجب لعظيم الشكر والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن الصبر على فعل المأمور ، والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء .

وتعلمون أن اللَّه سبحانه منَّ في هذه القضية من المنن التي فيها من أسباب نصر دينه وعلو كلمته ، ونصر جنده وعزة أوليائه ، وقوة أهل السنة والجماعة ، وذل أهل البدعة والفرقة ، وظهور الحق لأمم لا يحصي عددهم إلا اللَّه تعالى ،

وإقبال الخلائق إلى سبيل السنة والجماعة ، وغير ذلك من المنن ، ما لابدَّ معه من عظيم الشكر ومن الصبر وإن كان صبرًا في سراء .

وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين : تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين ، فإن اللَّه تعالى يقول : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١] ، ويقول : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٣] ، ويقول : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٥] وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهى عن الفرقة والاختلاف .

وتعلمون أيضًا أن ما يجري من نوع تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان ما كان يجري بدمشق ، ومما جرى الآن بمصر ، فليس ذلك غضاضة ولا نقصًا في حق صاحبه ، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض ، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدرًا وأنبه ذكرًا وأحب وأعظم ، وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين التي يصلح اللَّه بها بعضهم ببعض ، فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة ، ولكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما تحمد معه ذلك التخشين

وتعلمون رضي اللَّه عنكم أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها من اجتهاد الآراء واختلاف الأهواء وتنوع أحوال أهل الإيمان وما لابد منه من نزغات الشيطان ما لا يتصور أن يعرى عنه نوع الإنسان .

وقد أظهر اللَّه من نور الحق وبرهانه ما رد أفك الكاذب وبهتانه . فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي .

ذلك هو ابن تيمية في رسائله وكتبه؛ أسلوب هادئ رقيق يمتاز بالسهولة والوضوح ، وحسن الاقتباس والاستشهاد .

وذلك هو ابن تيمية مع والدته؛ عطف ورحمة ، وبر وإحسان ، ورقة في الاعتذار ، وطلب للدعاء والخيرة .

وذلك هو ابن تيمية مع أنصاره وشيعته؛ تعليم وإرشاد ، وتشجيع وتثبيت ، وأبوة رقيقة رحيمة .

وذلك هو ابن تيمية مع أعدائه الذين كادوا له وآذوه ورموه بكل تهمة ونقمة؛ عفو شامل وصفح كريم ، وحب بعد ذلك لكل مسلم ، ولو كان من الحاسدين الشائنين .



ابن تيمية في مصر[(١)]

[٥]

تركنا شيخ الإسلام في مقالنا السابق حرًّا طليقًا بالقاهرة بعد خروجه من السجن؛ يعلِّم الناس ويفتيهم، ويذكِّر باللَّه ويدعو إليه، ويختار لدعوته المواطن الصالحة، ويرتاد لها النفوس الطيبة، والناس في كل يوم يزيدون إقبالًا عليه؛ مأخوذين بسحر بيانه وصدق لهجته، وقوة عارضته، حتى أصبح له في القاهرة كثير من الأتباع والأنصار، مما جعل أعداءه من الصوفية والفقهاء يضيقون به ذرعًا ويتربصون به الدوائر ويتلمسون له الهفوات؛ لعلهم يستطيعون أن يقذفوا به في السجن مرة أخرى قبل أن يستفحل شأنه ويعظم خطره.

وكان الشيخ في هذه الأثناء كثيرًا ما يتعرض للصوفية باللمز والتحقير، ويكشف للناس عن كثير مما يقومون به من أعمال الدجل والشعوذة، وكان ينهى عن زيارة المشاهد وتعظيمها والتوسل والاستغاثة بأصحابها؛ مبينًا ما في تلك الأعمال من بدع منافية للتوحيد. وكان لا يفتأ يذكر ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود، ويعلن في الناس كفره وإلحاده، رغم ما كان يتمتع به هذا الرجل من نفوذ قوي لدى جماعات الصوفية.

وقد ذكرنا فيما سبق أن محنة شيخ الإسلام في مجيئه إلى مصر ومحاكمته وحبسه بها إنما كانت بتدبير من الشيخ نصر المنبجي الصوفي لما بلغه أن شيخ الإسلام يتعرض لابن عربي ويكفره.

كانت هذه الصراحة من ابن تيمية في الجهر بالحق والنكير على أهل البدع والزندقة من الصوفية وأتباعهم سببًا في محنة جديدة تصيبه، فقد برم به أعداؤه

(١) مجلة الحج- العدد :- ربيع الآخر- ١٣٧٣هـ.

وخشوا مغبة دعوته ، وما يمكن أن تحدثه من أثر عظيم في نفوس المؤمنين بها؛ فيكون ذلك سببًا في سقوط هيبتهم وضياع نفوذهم عند العامة ، فأغروا به الطغام من الدراويش وغيرهم من العامة ، وألفوا منهم مظاهرات صاخبة ، وقذفوا بها إلى القلعة؛ لتشكوه إلى السلطان .

يقول ابن عبد الهادي في « العقود » :

فضلع منهم خلق إلى القلعة ، وكان منهم خلق تحت القلعة ، فكانت لهم ضجة شديدة حتى قال السلطان : ما لهؤلاء؟ فقيل له : هؤلاء كلهم قد جاؤوا من أجل الشيخ تقي الدين ابن تيمية يشكون منه ، ويقولون : إنه يسب مشايخهم ويضع من قدرهم عند الناس .

واستغاثوا منه وأجلبوا عليه ، ودخلوا على الأمراء في أمره ، ولم يبقوا ممكنًا .

إزاء ذلك لم ير السلطان بدًا من حسم الفتنة ، والتحقيق في تلك التهمة ، فرد الأمر إلى القاضي الشافعي ، وقام ابن عطاء الصوفي وآخرون وادعوا على الشيخ بأشياء لم يثبت منها شيء .

وأخيرًا رأوا إسكانًا للفتنة أن يخيروه بين ثلاثة أشياء : فإما أن يذهب إلى دمشق ، أو الإسكندرية بشروط تحدد إقامته ، وإما أن يحبس .

وكان الظن أن يختار الشيخ الذهاب إلى دمشق؛ فليس أحب إلى الإنسان من الأوبة إلى أهله ووطنه بعد طول الغربة ، ولكن الشيخ لأمر ما آثر الحبس!

فاغتم أصحابه لذلك ودخلوا عليه يرجونه السفر إلى دمشق ملتزمًا ما شرط ، فأجابهم إلى ما اختاروا جبرًا لخواطرهم .

وركب على خيل البريد ليلة الثامن عشر من شوال سنة سبع وسبعمائة ، وكان الشيخ زين الدين ابن مخلوف قاضي المالكية في هذه الفترة مشتغلًا بنفسه لمرض ألم به أشفى منه على الموت ، وكان هذا الرجل من أعدى أعداء شيخ الإسلام ،

فلما علم بتوجهه إلى دمشق طلب من نائب السلطنة رده ، فردوه من الطريق بعد أن كان قد وصل إلى بلبيس ، وحضر عند قاضي القضاة ابن جماعة وكان عنده جملة من الفقهاء فقال له أحدهم : إن الدولة ما ترضى إلا بالحبس . فقال القاضي : وفيه المصلحة له .

ولكنهم لم يجدوا هذه المرة سببًا للحكم بحبسه فتوقفوا في ذلك . فلما رأى الشيخ توقفهم قال : أنا أمضي إلى الحبس . واتبع ما فيه المصلحة ، وحبس بسجن الحاكم بحارة الديلم ليلة الجمعة تسعة عشر من شوال .

يقول ابن عبد الهادي(١):

ولما دخل الحبس وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه كالشِّطْرنج والنرد ونحو ذلك من تضييع الصلوات ، فأنكر الشيخ عليهم ذلك أشد الإنكار ، وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى اللّٰه بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه ، ورغبهم في أعمال الخير وحضهم على ذلك ، حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيرًا من الزوايا والربط والخوانق والمدارس ، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده ، وكثر المترددون عليه حتى كان السجن يمتلئ بهم .

فلما كثر اجتماع الناس به وترددهم إليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم ، فسألوا نقله إلى الإسكندرية ، وظنوا أن قلوب أهلها عند محبته عرية ، وأرادوا أن يبعد عنهم خبره ، أو لعلهم يقتلونه فينقطع أثره .

ويصف لنا الشيخ إبراهيم بن أحمد الغياني الذي كان يقوم على خدمة الشيخ في مصر انتقاله إلى ثغر الإسكندرية في أسلوب مؤثر ، فيقول : ثم بعد أيام جاء إلى

---

(١) العقود الدرية ص ٢٨٥.

عند الشيخ شمس الدين ابن سعد الدين الحراني وأخبره أنهم يسفرونه إلى الإسكندرية، وجاءت المشايخ التدمرة[١] وأخبروه بذلك، وقالوا له: كل هذا يعملونه حتى توافقهم، وهم عاملون على قتلك أو نفيك أو حبسك. فقال لهم: أنا إن قتلت كانت لي شهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو دعوني إلى قبرص[٢] لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبدًا، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت على صوف.

فيئسوا منه وانصرفوا، فلما كان بعد صلاة المغرب جاء نائب والي المدينة بدر الدين المحب بن عماد الدين العفيف ومعه جماعة، فقال: يا سيدي، بسم الله.

فقال له الشيخ: إلى أين؟ قال: إلى الإسكندرية بأمر السلطان بذلك الساعة. فقال له: لو كنتم أخبرتموني بذلك حتى تجهزت للسفر وأخذت معي نفقة. فقال له: قد أمرت لك ولأصحابك ما يكفيك. فقال له: أنا الليلة ما أسافر. فقال له: ما يمكنني أن أخالف مرسوم السلطان، فقال له: معك مرسوم وأنه تستخطني؟ فقال: لا، وقام، خرج من عنده فغلق السجان باب الحبس وراح[٣].

فلما كان ثاني يوم جاء عبد الكريم بن أخت الشيخ نصر، وحلف أن الشيخ نصر ما عنده علم من هذا وانصرف.

فلما صلينا المغرب بقي يدعو بدعاء الكرب، وأنزل الله من البهاء والنور والحال شيئًا عظيمًا، وأشرت إلى المحبوسين! فكان وجهه شمع يجلوه مثل

---

(١) كذا في الأصل ولعلها: «المتذمرة».

(٢) في الأصل: «قبر ﷺ».

(٣) في هامش أصل الصحيفة: هذا الكلام نقلناه من رسالة نشرها الشيخ محب الدين الخطيب على لسان الغياني خادم الشيخ، ويلاحظ أن لغتها بين الفصيحة والعامية.

العروس ، حتى إذ راق[1] الليل جاء نائب الوالي فقال : بسم اللَّه ، بسم اللَّه ، فبقوا يودعونه ويبكون ، ويدعون عليهم بدعاء مختلف أقله : أن يسلبهم اللَّه نعمته .

وركب على باب الحبس ، فقال له إنسان : يا سيدي ، هذا مقام الصبر . فقال له : بل هذا مقام الحمد والشكر! إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قُسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم ، ولو أن معي في هذا الموضع ذهبًا وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها .

ويقول ابن عبد الهادي : بقي الشيخ بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر مقيمًا ببرج مليح نظيف له شبَّاكان أحدهما إلى جهة البحر ، يدخل إليه من شاء ، ويتردد عليه الأكابر والأعيان والفقهاء ، ويقرأون عليه ويستفيدون منه .

فلما دخل السلطان الناصر إلى مصر بعد خروجه من الكرك وقدومه إلى دمشق وتوجهه منها إلى مصر ، وكان قدومه يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩هـ ، أنفذ لإحضار الشيخ من الإسكندرية في اليوم الثامن من شوال ، وخرج الشيخ منها متوجهًا إلى مصر ، ومعه خلق من أهلها يودعونه ويسألون اللَّه أن يرده إليهم ، وكان وقتًا مشهودًا!!

ووصل إلى القاهرة يوم السبت ١٨ الشهر ، واجتمع بالسلطان في يوم الجمعة ٤ منه ، وأكرمه وتلقاه في مجلس حفل به قضاة المصريين والشاميين والفقهاء ، وأصلح بينه وبينهم .

ولو شاء الشيخ بعد انقلاب الحال أن يقتص منهم بحقه جزاء بغيهم عليه لفعل ، لكنه عفا وصفح .

قال قاضي المالكية ابن مخلوف : ما رأينا أتقى للَّه من ابن تيمية! لم نُبق ممكنًا في السعي فيه ، ولما قدر علينا عفا عنَّا!! .

---

(١) في الأصل : « أذراق » ولعل المثبت هو الصواب .

وأقام الشيخ بالقاهرة ما شاء اللَّه أن يقيم ، ويقع عليه من الأذى ما شاء اللَّه أن يقع ، حتى عزم السلطان الناصر على الخروج إلى الشام لغزو التتار ، وكشفهم عن الجهات التي استولوا عليها . فخرج معه الشيخ بنية الغزو ، فلما وصل معهم إلى عسقلان توجه إلى بيت المقدس فأقام فيها أيامًا ، ثم خرج منها إلى دمشق ومعه أخواه وجماعة من أصحابه ، فلما وصل إليها خف أهلها لاستقباله فرحين مغتبطين!

وكان يوم عودته كيوم وداعه يومًا عظيمًا مشهودًا .

رحم اللَّه شيخ الإسلام ، وجزاه عن العلم والدين خير ما يجزي به العلماء العاملين .

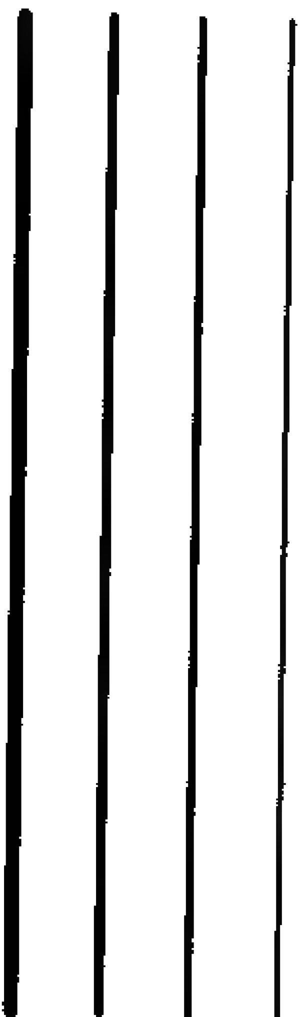


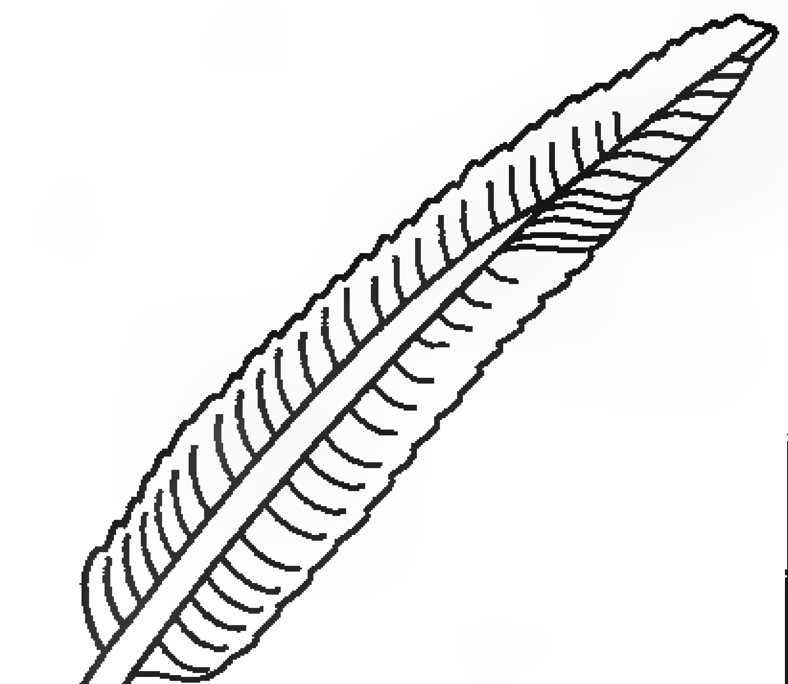


مقالات الشيخ

محمد بهجت البيطار رحمه الله

١٣١١- ١٣٩٦هـ





مقالات الشيخ محمد بهجت البيطار(١)

مباحث في القرآن الكريم(٢)

(١) هو العلامة السلفي الشيخ بهجت البيطار ولد بدمشق سنة ١٨٩٤م في أسرة دمشقية عريقة، اشتهر كثير من أبنائها بالعلم والأدب والتقوى، وكان جدها الأعلى هبط دمشق مهاجرًا من بليدة من أعمال الجزائر في المغرب العربي.

نشأ محمد بهجت البيطار في حجر والده الشيخ محمد بهاء الدين بن عبد الغني حسن إبراهيم الشهير بابن البيطار. تلقى مبادئ علوم الدين واللغة على والده الشيخ محمد بهاء الدين، وأتم دراستيه الابتدائية والإعدادية بدمشق، وتابع دراسته العالية في العلوم الدينية والعربية على والده وعلى جده لأمه الشيخ عبد الرزاق البيطار، وعلى كل من الشيوخ الأعلام في عصره: جمال الدين القاسمي الدمشقي، محمد خضر حسين التونسي نزيل دمشق، وعلى محدث الديار الشامية الكبير محمد بدر الحسيني، ونال الإجازة منهم في مختلف العلوم النقلية والعقلية.

عُين معلمًا في دمشق، وشارك بمؤتمر العالم الإسلامي الذي دُعي إلى عقده في مكة المكرمة، وبعد انتهاء المؤتمر استبقاه الملك عبد العزيز آل سعود في مكة المكرمة ليشرف خلالها على المناصب القضائية والعلمية فيها. ثم إدارة دار التوحيد السعودية في الطائف مدة ثلاث سنوات.

عهدت إليه جامعة دمشق القيام بتدريس مادتي التفسير والحديث في كلية الآداب. وفي سنة ١٩٥٣ أُحيل محمد بهجت البيطار على التقاعد من وظيفته الحكومية، فقصر نشاطه على محاضرات في التفسير كلف بإلقائها في كلية الشريعة، وعلى التدريس الديني ووظائف وزارة الأوقاف، إلى جانب إلقاء الأحاديث الدينية والاجتماعية في الإذاعة السورية، وعلى أعمال مجمعية عديدة حيث كان قد انتخب عضوًا عاملًا في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٣. كما انتخب عضوًا لمجمع اللغة العربية.

توفي محمد بهجت البيطار يوم السبت ٣٠ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ إثر مرض لم يمهله طويلًا. ترك مؤلفات عديدة وبحوثًا كثيرة طبع منها مستقلًا :- رسالة «الثقافتان الصفراء والبيضاء»، «تفسير سورة يوسف» حيث أكمل التفسير الذي بدأه السيد رشيد رضا مع التقديم له، رسالة «الإسلام والصحابة الكرام بين السنة والشيعة»، بحث «الإنجيل والقرآن في كفتي الميزان»، بحث «الاشتقاق والتعريب».

انظر «المستدرك على تتمة الأعلام» (٣/٨٤)، «مشاهير أعلام المسلمين» (ص٩٧).

(٢) مجلة الحج- العدد (٢- ٣)- شعبان ورمضان- ١٣٦٧هـ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾

[الرحمن : ١- ٤]

فله الحمد على ما علَّم ، وله الشكر على ما أنعم ، والصلاة والسلام على أفصح من ينطق بالضاد ، وأول من رفع راية القرآن ، وعلم بيانه البيان ، حتى يخيل لمن تدبر قوله أنه وحي من الوحي؛ وتنزيل من التنزيل ، وعلى سائر إخوانه المرسلين الدعاة للأخوة(١) الدينية ، وحماة الفضيلة الإنسانية ، ومن تبعهم بإحسان .

القرآن : الذي هو كلام اللّٰه المنزل ، ووحيه المعجز ، ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام إلَّا نقله- بلفظه العربي- من سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض ، ولا لمحمد الرسول العالمي إلا تبليغه للناس بلفظه الذي تلقاه عن الروح الأمين ، ثم بيانه لهم بالقول والعمل؛ ليهتدوا به

هو معجزة للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه ، وهدايته وتأثيره وعلومه ، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ وعلى آله ، أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ولا مواهبه؛ من علومه ومعارفه وفصاحته وبلاغته ، بل هو لم يكن عالمًا ولا بليغًا ممتازًا إلَّا به .

وقد وصف هذا الوحيَ الإلهيَّ إمامُ البيان العربي الإسلامي في عصرنا الأستاذُ مصطفى صادق الرافعي ، بأنه :

ألفاظٌ إذا اشتدت فأمواجُ البحر الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاسُ الحياة الآخرة ، تَذكُرُ الدنيا فمنها نظامُها وعمادُها ، وتصفُ الآخرةَ فمنها جنَّتُها وضِرامُها ، ومتى وعدت من كرَّم اللهُ ، جعلت الثغورَ تضحك في وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب اللّٰه ، جعلت الألسنةَ ترعُدُ من حمى القلوب

---

(١) في الأصل : « الأخوة » .

ومعان بينا هي عَذوبةُ تروِّيك من ماء البيان ، ورقةٌ تستروح منها نسيمَ الجنان ، ونورٌ تبصر به في مرآة الإيمان وجهَ الأمان

وبينا هي ترف بندى الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق في أوراقها من مغاني العبرة معنى العبير ، وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتنمُّ بسرٍّ هذا العالمِ الصغير .

ثم بينا هي تتساقطُ من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان ، وتدع القلبَ من الخشوع؛ كأنه جنازة ينوح عليها اللسان ، وتمثِّل للمذنب حقيقةَ الإنسانية[1] حتى يظن أنه صنفٌ آخر من الإنسان ، إذا هي بعد ذلك أطباقٌ وقد انهارت قواعده ، والتمعت ناره ، وقصفت في الجو رواعده؛ وإذا هي السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها ، واستأذنت في صدمة الفزع ربها ، فكانت ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وإنما هي عند ذلك زجرة واحدة ، فإذا الخلق طعام الفناء ، وإذا الأرض مائدة .

وبعد ، فهذا هو الوحي الإلهي القدسي ، الذي أُنزل على النبي العربي ، فتمَّت للأمة العربية وحدةٌ بعد فرقة ، وعزَّةٌ بعد ذلَّة ، وقوةٌ بعد ضعف وهوان ، وكان لهم بعد ذلك العداء المستمر والقتال المستعر ، وحدةٌ عربية إسلامية لم يسبق لها نظير .

فنحن إذا دعونا إلى تلاوة القرآن وتدبُّره ، وإلى استماعه واتِّباعه ، وإلى الوقوف على نظمه وأسرار إعجازه ، دعونا إلى نهضةٍ أدبيةٍ قيِّمة ، وحياة عربية طيبة ، ودعونا إلى عزٍّ تالد ، ومجد خالد . ولعمري إذا كانت النهضاتُ القومية والاقتصادية يرمي كلٌّ منها إلى أن تعيش كلُّ أمةٍ حرةً في بلادها ، متمتعةً بحقوقها ، لا سلطان لأجنبي عليها ، فإن نهضةَ العرب بالقرآن هي « أم هذه النهضات » وأروعُها؛ لأنها علاوة على كونها نهضة أدبية قومية ، هي نهضة

(١) في الأصل : « لإنسانية » .

روحية أخلاقية، تحرر الأرواح من ذل الشهوات واستعبادها، وتخلص النفوس من قلقها واضطرابها. وهي ترمي إلى تجديد شباب العروبة، وإعادة الزعامة الكونية الأخلاقية إلى يدهم كرَّةً أخرى.

أيها الإخوان الأعزاء: سنتكلم في محاضراتنا الأسبوعية، عن تاريخ القرآن الكريم، ونزوله؛ ومكيِّه ومدنيِّه، وجمعه وتدوينه، وترتيبه وترتيله، واختلاف رسمه، وأحرفه السبعة، وطرق أدائه، ووصف قراءاته السبع وقرائه، وبيان الحق في ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وكون إعجازه بلغته، وتعذر ترجمته، وأقسامه وأمثاله، وفواتح سوره وخواتيمها، ومفردات القرآن، وتأثير القرآن في اللغة، وتحقيق معاني بعض الألفاظ الواردة في القرآن الكريم مثل لفظ: الهداية، والولاية، والإرادة، والمشيئة، والقدرة، والأمر، والجمع بين نصوصها واستخراج المراد منها، وعن قصص القرآن وتفسيره في مختلف العصور، على أن نفرد لكل مطلب بحثًا خاصًا به- إن شاء الله- ومنه سبحانه المعونة، وبه التوفيق.

القرآن الكريم وأنواع الوحي

القرآن المحفوظ في الصدور، المكتوب في السطور، المتلو على الألسنة، المتحدى به، هو كلام اللّه المنزل ووحيه المعجز.

الوحي ومعناه:

الوحي: الإشارة السريعة، أوحى إليه وأومأ، بمعنى. ووحيت إليه وأوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. وأوحى اللّه إلى أنبيائه. ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النّحل: الآية ٦٨] ووحى وحيًا: كتب. قال رؤبة: لقدَرٍ كان وحاه الواحي.

وتوحَّى: أسرع، قال الأعشى:

مثْلُ ريح المسكِ ذاكَ ريحُها صبَّها الساقي إذا قيل توَح

واستوحيته : استعجلته ، واستوح لي بني فلان ما خبرهم : استخبرهم .

وحي اللَّه تعالى إلى أنبيائه :

وحي اللَّه تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة ، وهما : الخفاء والسرعة ، فهذا معنى المصدر ، ويطلق على متعلقه ، وهو ما أنزله اللَّه تعالى على أنبيائه ورسله ، وعرفهم به من أنباء الغيب ، والشرائع ، والحكم ، ومنهم من أعطاه كتابًا . أي : تشريعًا يكتب ، ومنهم من لم يعطه .

أنواع الوحي الثلاثة :

قال الراغب في « مفرداته » : ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه : وحي . وذلك أضرب ، حسبما دل عليه قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: الآية ٥١] وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ، ويسمع كلامه ، كتبليغ جبريل عليه السلام في صورة معينة ، وإما بسماع كلام اللَّه ، وإما بإلقاء في الروع ، كما ذكر عليه السلام : « إن روح القدس قد نفخ في روعي »(١) .

وإما بإلهام نحو : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: الآية ٧] وإما بتسخير نحو قوله : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: الآية ٦٨] أو بمنام ، كما قال عليه السلام : « انقطع الوحي وبقيت المبشرات ، رؤيا المؤمن »(٢) . فالإلهام والتسخير والمنام دل عليها قوله : ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: الآية ٥١] وسماع الكلام دل عليه قوله : ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: الآية ٥١] وتبليغ جبريل في صورة معينة دل عليه قوله : ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: الآية ٥١] . اهـ المراد باختصار .

---

(١) أخرجه البزار (٢٩١٤) من حديث حذيفة رضي اللَّه عنه ، وأخرجه الطبراني (٧٦٩٤) ، وأبو نعيم في الحلية ١٠/٢٧ من حديث أبي أمامة رضي اللَّه عنه ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٦٦) .

(٢) أخرجه أحمد ٣/٢٦٧- من حديث أنس ، وأخرجه البخاري (٦٩٩٠) من حديث أبي هريرة بنحوه .

المبيِّنُ الأول لمعاني القرآن الكريم

يجب أن يُعلم أنَّ النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٤٤] يتناول هذا وذاك، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد اللَّه بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من الرسول ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا[١]. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة. وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ «البقرة» و«آل عمران» جل في أعيننا[٢]. وأقام ابن عمر على حفظ «البقرة» عدة سنين، قيل: ثمان سنين. ذكره مالك[٣]؛ وذلك أن اللَّه تعالى قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: الآية ٢٩] وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النِّساء: الآية ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٨] وتدبر الكلام من دون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢] وعقل الكلام متضمن لفهمه.

ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها[٤]. ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد، فحسبك به[٥]. ولهذا أيضًا يعتمد على تفسيره الشافعيّ والبخاريّ وغيرهما من أهل العلم،

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤١٠، والدارقطني في العلل ٣/ ٦٠ وغيرهما، وحسنه محققو المسند.
(٢) أخرجه أحمد٣/ ١٢١. وصححه محققو السند.
(٣) الموطأ ١/ ٢٠٥.
(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٢٧٩.
(٥) أخرجه الطبري في تفسير ١/ ٩١.

وكذلك الإمام أحمد- وغيره ممن صنف في التفسير- يكثر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة، كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال.

نزول القرآن منجمًا، وحكمته

اقتضت حكمة اللَّه تعالى أن لا ينزل القرآن جملة واحدة، بل منجمًا مفرقًا، فكانت آياته تنزل بحسب الوقائع والحوادث ومقتضيات الأحوال، أو جوابًا لأسئلة واستفتاءات؛ وهذا ما يسهل حفظه وتعليقه على ما دون العادي من الحوافظ والملكات، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: الآية ٣٢] وكان جبريل عليه السلام يلقي على النبي ﷺ ما يلقي من الآيات؛ فينطبع في نفسه انطباعًا، ولا يصيبها فيه اضطراب، ولا خطأ، ولا نسيان، ولا زيادة، ولا نقصان، كما ينتقل الكلام من المتكلم إلى لوحة الحاكي، إذا نفخ في صورها بصوت تلقته كاملًا غير منقوص، ثم تعيده كما نفخ فيها؛ قال تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: الآية ٦].

*** ولنزول القرآن منجمًا أسباب:**

١- أن نزوله جملة واحدة يفوت على المسلمين ذلك التشوف والترقب الذي هو أقوى الأسباب في سهولة حفظه عليهم، ولا مراء في أن ما تترقبه النفس ترقبًا يتمكن منها أكثر مما يفاجئها على غير ترقب ولا انتظار، واللَّه يريد أن يعيه المسلمون ويحفظوه.

٢- أنه معجز في كلِّه وأجزائه، وفي غالب أوقاته ينزل منه القدر المعجز، فهو في منزلة تكرر الإعجاز بتكرر النزول، ولا ريب في أن استمرار ذلك ٢٣ سنة

أبلغ فيه من حصوله مرة واحدة .

٣- أنه مربي للأمة في بلاغتها وبيانها ، فهو كلَّ يوم يلقي عليها درسًا جيدًا في البلاغة والبيان .

٤- أن العرب ليسوا سواء في البلاغة وتناول الأحكام منه ، ففي تنجيمه تيسير على مستحفظيه ومستخرجي أحكامه .

٥- أنه كان ينزل في الغالب بحسب الحوادث ، فتكون الآيات فصل الخطاب في أحكام تلك الحوادث والمسائل المشكلة .

٦- لو أنزله تعالى جملة واحدة لكان استواؤه في الفصاحة والإعجاز آية ، قد يجوز على العقل فهمها ، ولكنه مع طول الزمان؛ وتغاير المكان واختلاف الأحوال ظلت طبقته في الفصاحة واحدة مستوية؛ فكانت آيته فوق العقل؛ وعلامة كلام الخالق الأعلى؛ إذ لو كان من نفس ذات إحساس بشري ، لتلونت آياته بتلون قائلها ، إذ ما يكون لبشر أن يمكث على حالة واحدة بضعًا وعشرين سنة يمنح الكلام من نفسه على وتيرة مستوية ، والكلام كما يعرف القراء لون من ألوان متكلِّمه .

*** مدة نزول القرآن ، وأول ما نزل منه ، وآخره :**

نزل القرآن في خلال ثلاث وعشرين سنة ، وكان أول[1] ما نزل على رسول الله ﷺ من الوحي بمكة من القرآن قوله تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١- ٥] وذلك عندما كان يتحنث- أي يتعبد- في غار حراء ، وكان ذلك لما بلغ ﷺ سن الكمال- وهي أربعون سنة- وذلك في شهر رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة ، الموافق لشهر آب سنة ٦١٠ ميلادية ، كما أوضحه المرحوم

(١) في الأصل « وأول » .

محمود باشا الفلكي . ومن حديث عائشة الذي أخرجه الشيخان البخاري ومسلم[(١)] : وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : « ما أنا بقارئ » قال : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العَلَق: الآية ١] حتى بلغ ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العَلَق: الآية ٥] » فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده .

ثم انقطع الوحي عنه مدة تعرف بزمن فترة الوحي ، وبعد هذه المدة أخذ ينزل منجمًا كما تقدم ، فكانت تنزل عليه ﷺ الآية والآيات الخمس ، والعشر ، كما كانت تنزل السورة كلها؛ مثل سورة « الفاتحة » ، و« الإخلاص » ، و« الكوثر » ، و« تبت » ، و« لم يكن » ، و« العصر » ، و« المرسلات » ، و« المدثر » .

وآخر ما نزل منه : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: الآية ٣] وكان نزولها في حجة الوداع ، والناس وقوف بعرفة ، وكان بين نزول هذه الآية ووفاته ﷺ واحد وثمانون يومًا لسنة ١١ للهجرة .

* عهد نزول القرآن

نزل قسم من القرآن الحكيم بمكة ونواحيها ، وذلك قبل الهجرة ، وتلك المدة نحو ثلاث عشرة سنة إلَّا قليلًا ، ويسمى هذا القسم بالسور المكية ، أو المكي ، ونزل قسم آخر بالمدينة ،وذلك بعد هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة

(١) أخرجه البخاري (٣، ٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

(في شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين من ميلاده)- وإن نزل بغيرها- ويسمى هذا القسم بالسور المدنية، أو المدني.

وعدة سور القرآن (١١٤) أربع عشرة ومائة سورة، نزل منها بمكة المكرمة قبل الهجرة (٨٦) ست وثمانون، ونزل (٢٨) ثمان وعشرون في المدينة المنورة، وأكثر من السور الطوال

وعدد آيات القرآن (٦٢١٧) على قول نافع و(٦٢١٤) عند شيبة و(٦٢٣٦) عند الكوفيين و(٦٢١٩) عند البصريين و(٦٢٢٦) عند الشاميين، وذلك حسب القواعد التي اتخذوها لعدد الآيات

وعدد كلمات القرآن (٧٧٩٣٤ كلمة)

وسبب ذلك: أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآيات للتوقيف، فإذا علم محلها وصل للتمام؛ فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة.

وقد اختلف في عدد آي القرآن على حسب اختلاف العادين، والعدد منسوب إلى خمسة بلدان، وهي: مكة، والمدينة، والبصرة، والكوفة، والشام.

*** فائدة في مأخذ الآية والسورة:**

قال الجمبري: حد الآية: قرآن مركب من جمل- ولو تقديرًا- ذو مبدأ، ومقطع مندرج في سورة، وأصلها: العلامة. ومنه: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٨] لأنها علامة للفضل والصدق.

وقال غيره: الآية: طائفة من القرآن، منقطعة عما قبلها وما بعدها.

وقيل: هي الوحدة من المعدودات في السور؛ سميت به لأنها علامة على صدق من أتى بها، وعلى عجز المتحدَّى بها. «الإتقان ١- ٧٠».

والسورة: المنزلة من منازل الارتفاع، قال النابغة:

ألم تر أن اللّه أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

يعني بذلك : أن اللَّه أعطاك منزلة من منازل الشرف قصرت عنها منازل الملوك . « تاريخ التشريع الإسلامي ص ٧» .

الفرق بين المكي والمدني :

للناس في المكي والمدني ثلاثة مصطلحات :

أحدها : أن المكي : ما نزل على النبي ﷺ بمكة ، والمدني : ما نزل عليه بالمدينة .

وعلى هذا تثبت الواسطة ، فما نزل عليه بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني ، وذلك مثل ما نزل عليه بتبوك .

ويدخل بمكة ضواحيها ، كالمنزل عليه بمنى ، وعرفات ، والحديبية . ويدخل في المدينة أيضًا ضواحيها؛ كالمنزل عليه ببدر ، وأحد ، وسلع .

الثاني : أن المكي : ما وقع خطابًا لأهل مكة ، والمدني : ما وقع خطابًا لأهل المدينة .

وعليه يحمل قول من قال : ما كان في القرآن من : يا أيها الناس . فهو مكي . وما كان فيه من : يا أيها الذين آمنوا . فهو مدني؛ لأن الغالب على أهل مكة كان الكفر ، فخوطبوا بيا أيها الناس ، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم ، والغالب على أهل المدينة كان الإيمان ، فخوطبوا بيا أيها الذين آمنوا ، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم .

الثالث : أن المكي : ما نزل قبل الهجرة ، وإن نزل بغير مكة . والمدني : ما نزل بعد الهجرة وإن نزل بغير المدينة . هذا هو المشهور .

وقد ذهل العلامة الماوردي عن ذلك ، حيث قال : إن سورة البقرة مدنية في قول الجميع إلَّا آية واحدة ، وهي : ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨١] فإنها نزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى ، فإن نزولها هناك لا يخرجها عن المدني في الاصطلاح؛ لأن ما نزل بعد الهجرة مدني ، سواء نزل بالمدينة أو بغيرها .

وقد وقع له مثل ذلك، حيث قال: سورة النساء مدنية، إلّا آية واحدة نزلت بمكة في عثمان بن طلحة حين أراد النبي ﷺ أن يأخذ منه مفتاح الكعبة، ويسلمه إلى العباس، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النِّساء: الآية ٥٨] والكلام فيه كالكلام في الذي قبله.

*** التعريف بالمكي والمدني:**

إن أكثر السور المكية- لا سيما المنزلة في أوائل البعثة- قوارع تصخ الجنان، وتصدع الوجدان، وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف، وتدعُّ العقول إلى إطالة الفكر في الخطبين الغائب والعتيد، والخطرين القريب والبعيد، وهما عذاب الدنيا بالإبادة والاستئصال، أو الفتح الذاهب بالاستقلال، وعذاب الآخرة وهو أشد وأقوى، وأنكى وأخزى؛ وبكل من هذا وذاك، أنذرت السور المكية أولئك المخاطبين، إذا أصروا على شركهم، ولم يرجعوا بدعوة الإسلام عن ضلالهم وإفكهم، ويأخذوا بتلك الأصول المجملة التي هي الحنيفية السمحة السهلة، وليست بالشيء الذي ينكره العقل، أو يستثقله الطبع، وإنما ذلك تقليد الآباء والأجداد، بصرف النظر عن سبيل الهدى والرشاد.

راجع تلك السور الغزيرة، ولا سيما قصار المفصل منها، كالحاقة ما الحاقة، والقارعة ما القارعة، وإذا وقعت الواقعة، وإذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت، وإذا زلزلت الأرض زلزالها، والذاريات ذروا، والمرسلات عرفا، والنازعات غرقا. تلك السور التي كانت بنذرها، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها، تفزعهم من سماع القرآن حتى يفروا من الداعي من مكان إلى مكان ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هُود: الآية ٥].

انظر إلى السور المكية الطوال، فلا تجدها تخرج في الأوامر والنواهي عن الإجمال؛ كقوله عز وجل: «الإسراء: ١٧: ٢٣» ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إلى ٣٧ منها، وقوله بعد إباحة الزنا وإنكار تحريم الطيبات من الرزق: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٣].

*** السور المدنية:**

وأما السور المدنية ففي أسلوبها شيء من الإسهاب، ولا سيما في مخاطبة أهل الكتاب، وما فيه من المحاجة في أصول الدين؛ أكثره محاجة لهم، ونعي عليهم، ودعوة لهم إلى التوحيد الخالص؛ توحيد الألوهية والربوبية، وبيان ليكون الإسلام الذي جاء به القرآن هو دين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وفي هذه السور أيضًا بيان لما لا بدَّ منه من الأحكام العلمية، في العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية، والسياسية والحربية، ولأصول الحكومة الإسلامية، والتشريع فيها، كما تراه في طوال المفصل منها، كـ« البقرة »، و« آل عمران »، و« النساء »، و« المائدة ».

وقال الخضري: لكلٍّ من المكي والمدني مميزات متى عرفها المتعلم أمكنه التمييز(١) بينهما، منها:

١- أن آيات المكي- على الجملة- قصار، بخلاف الآيات المدنية.

وشاهد ذلك: أن السور المدنية تزيد قليلًا على ١١: ٣٠ من القرآن، وعدد آياتها (١٤٥٦) أي: أنها تزيد قليلًا على ربع مجموع آياته، ومن الأمثلة القريبة على جزء (قد سمع) كله مدني، وعدد آياته (١٣٧)، وجزء (تبارك) مكي،

(١) في الأصل: « التمييزات ».

وعدد آياته (٤٣١) وجزء (عمَّ) مكي، وعدد آياته (٥٧٠)، ومن ذلك «الأنفال»، و«الشعراء» وكلتاهما نصف جزء من القرآن، الأولى مدنية، عدد آياتها (٧٥) والثانية مكية عدد آياتها (٢٢٧) وهذا المميز أغلبي، فقد يوجد في الآيات المكية طول، وأكثره في السور الطوال.

٢- خطاب الجمهور في الآيات المدنية يغلب أن يكون بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وقلَّما يرد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وأما في خطابه في الآيات المكية فبالعكس، ولم نر في السور المكية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أما في السور المدنية فورد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ سبع مرات: «البقرة»: ٢٠ و١٦٧، «النساء»: ١، ١٣٢، ١٧٠، ١٧٤، «الحجرات»: ١٣.

٣- آيات المكي ليس فيها شيء من التشريع التفصيلي، بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى المقصد الأول من الدين؛ وهو توحيد اللَّه سبحانه وتعالى، وإقامة البراهين على وجوده، والتحذير من عذابه، ووصف يوم الدين وأهواله ونعميه، والحث على مكارم الأخلاق التي بعث رسول اللَّه صلي اللَّه عليه وسلم ليكملها، ثم ضرب الأمثال بما أصاب الأمم حينما خالفت ما دعاها إليه أنبياؤها.

أما التشريع التفصيلي، معظمه وارد في الآيات المدنية.

وإن التالي للآيات المكية ليجد فيها قوة وأمرًا لا يجدهما في الآيات المدنية؛ ذلك لأن النبي صلي اللَّه عليه وسلم كان في مكة مضطهدًا قليل الناصر، فكان بحاجة إلى من يشد عضده، ويربط على قلبه، فجعل اللَّه له من قوة التبليغ ما يجعله يؤمن كل الإيمان بفوز حقه على باطلهم، وقهر دينه لوثنيتهم

ومن أمثلة هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: الآية ٥١]، وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾ [ص: الآية ٨٨]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا

يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٦٠]، وقوله: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤].

وأما الآيات المدنية، فقد كانت في قص حوادث الغزوات، واستخلاص العبرة منها للمسلمين، كما كانت في بيان العبادات والمعاملات، من صلاة الجمعة، وصلاة الخوف، والصيام، والحج والزكاة، والقصاص، والزواج، والميراث، والتنبيه على آداب اجتماعية، كآداب الاستئذان، ورد التحية، والنهي عن إبداء الزينة، إلى غير ذلك من الآداب التي لا يصلح الاجتماع بدونها.

* علامات يعرف بها المكي والمدني:

١- كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وليس فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مكية، وفي «الحج» اختلاف.

٢- وكل سورة فيها «كلا» فهي مكية.

٣- وكل سورة في أولها حروف المعجم، فهي مكية، إلا «البقرة»، و«آل عمران»، وفي «الرعد» خلاف.

٤- وكل سورة فيها قصة إبليس، فهي مكية، سوى «البقرة».

وقال بعض المحققين: هذا القول-أي: كل سورة فيها: يا أيها الناس، وليس فيها: يا أيها الذين آمنوا، فهي مكية- إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١] وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٨] وسورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النِّساء: الآية ١]، وسورة الحج مكية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحَجّ: الآية ٧٧]

فإن أريد أن الغالب كذلك، فصحيح، وكذا قال مكي: هذا إنما هو في

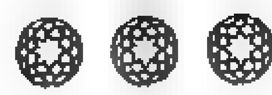
الأكثر ، وليس بعام . وفي كثير من السور المكية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ .

فائـــدة :

وردت « كلا » في القرآن في ثلاثة وثلاثين موضعًا ، وهي في خمس عشرة سورة ، كلها في النصف الأخير من القرآن ، وليس في النصف الأول منها شيء .

قال الشيخ عبد العزيز الديريني :

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى



تاريخ المصاحف[(١)]

أيضًا حينما عرفوه، وصاروا يسمون به كلَّ ما يكتبون عليه من الصحف.

هذا وإنَّ ما ورد في كلامهم من لفظ: (كتاب) كانوا يريدون به ما يطلق عليه في عرفنا اليوم لفظ: (خطاب) أو: (جواب) ومنه قوله تعالى في قصة سليمان ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: الآية ٢٨] ومنه كتب النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ومثل الكتاب: السِّفرُ، والزَّبورُ، والسِّجل، والدفتر، فإن معانيها كلِّها متقاربة، وما كانوا يفهمونها كما نفهمها الآن.

ولذلك لما جمع القرآن بعد النبي، اختلف الصحابة في ماذا يسمونه به، وتوقفوا؛ لأنهم لم يعهدوا مثله من قبل، ثم استقر رأيهم أخيرًا على تسميته بـ: «المصحف»؛ تبعًا لأهل الحبشة في تسمية مجموعاتهم بذلك.

والمصحف: للكتاب بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن عند الإطلاق؛ لأنه مأخوذ من أصحف، أي: جمع الصحف. اهـ.« دين اللّه في كتب أنبيائه».

جمع القرآن

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد[(٢)]، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتلَ أهلِ اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتاني فقال: إن القتل قد استحر (اشتد) بقرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتلُ بالقرَّاء في المواطن؛ فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول اللّه ﷺ؟ قال عمر: هذا واللّه

(١) مجلة الحج- العدد (٢، ٩، ١٠)- ربيع الأول والآخر- ١٣٦٨هـ.

(٢) في الأصل: «سعيد». والمثبت من مصدر التخريج. وينظر تهذيب الكمال.

خير . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح اللّه صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول اللّه ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . واللّه لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان علي أثقل مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول اللّه ﷺ؟ قال : هو واللّه خير . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح اللّه صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما ، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف (جمع لخفة ، وهي : صحائف النجارة ، تجمع على ، لخف- بضمتين- كما في رواية أخرى) وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع غيره (أي : أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره ممن كانوا يكتبون الوحي؛ لأنه لم يكن يحفظها غيره ، بل كان يحفظها الكثيرون ، ويتلونها في الصلاة وغيرها) : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] حتى خاتمة « براءة » .

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه اللّه ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي اللّه عنهم[١] .

وقد روى البخاري[٢] هذا في غير موضع من كتابه ، ورواه الإمام أحمد ، والنسائي ، والترمذي ، من طرق عن الزهري به[٣] .

وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق رضي اللّه عنه ، فإنه أقامه اللّه تعالى بعد النبي ﷺ مقامًا لا ينبغي لأحد من بعده : قاتل الأعداء من مانعي الزكاة والمرتدين ، والفرس ، والروم . ونفذ الجيوش ، وبعث البعوث والسرايا ، ورد الأمر إلى نصابه ، بعد الخوف من تفرقه وذهابه ، وجمع القرآن العظيم من أماكنه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧٩، ٧١٩١) .

(٣) أخرجه أحمد ١/ ١٣، والنسائي في الكبرى (٧٩٩٥) ، والترمذي (٣١٠٣) .

المتفرقة، حتى تمكن القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سرِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: الآية ٩].

كتابة عثمان رضي اللَّه عنه للمصاحف

قال البخاري رحمه اللَّه: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها، ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد اللَّه بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من هذا القرآن[(١)] فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان المصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[(٢)].

قال ابن شهاب الزهري: فأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، سمع زيد بن

---

(١) كتب في الهامش: أي: إذا اختلفتم في رسم كتابته فاكتبوه بالرسم الذي يوافق لغة قريش ولهجتها من نحو همز وغيره؛ فإنه نزل بها؛ لأنها لغة الرسول ﷺ وأفصح لغات العرب وإنما أقرأ جبريل النبي ﷺ بغيرها من لغات العرب رخصة؛ ليسهل عليهم ترتيله بغير تكلف يشغل عن تدبره.

(٢) كتب في الهامش: حكمة ذلك أن مصحف حفصة هو الذي نسخت منه المصاحف الرسمية التي تحروا في جمعها ونسخها، فيخشى من إباحة وجود غيرها أن يكون في بعضها غلط، أو أن تكون سببًا للكذب والاختلاق.

ثابت فقال. فقدت آية من «الأحزاب» حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري، وهي: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣] فألحقناها بسورتها بالمصحف[١].

وهذا أيضًا من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء، وهو جمع الناس على قراءة واحدة؛ لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة.

وإنما روي عن عبد الله بن مسعود شيء من التغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف، وأمر أصحابه بغلِّ مصاحفهم لمَّا أمر عثمان بحرق المصاحف ما عدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق، حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا.

فاتفق الأئمة الأربعة أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، على أن ذلك من مصالح الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»[٢].

وكان السبب في هذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فإنه لما كان غازيًا في فتح أرمينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق، وجعل حذيفة يسمع منهم قراءات على حروف شتى، ورأى منهم اختلافًا وافتراقًا، فلما رجع إلى عثمان أعلمه، وقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب. فلما قال حذيفة لعثمان ذلك أفزعه، وأرسل إلى حفصة أم المؤمنين أن ترسل إليه بالصحف التي عندها مما جمع الشيخان؛ ليكتب ذلك في مصحف واحد،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٢٦، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه. وصححه الألباني في الإرواء (٢٤٥٥).

وينفذه إلى الآفاق ، ويجمع الناس على القراءة به ، وترك ما سواه ففعلت حفصة ، وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم : زيد بن ثابت الأنصاري؛ أحد كُتّاب الوحي لرسول اللَّه ﷺ ، وعبد اللَّه بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي ، أحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علمًا وعملًا وأصلًا وفضلًا ، وسعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي ، وكان كريمًا جوادًا ممدحًا ، وكان أشبه الناس لهجة برسول اللَّه ﷺ ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي .

فجلس هؤلاء النفر الأربعة يكتبون القرآن نسخًا ، وإذا اختلفوا في موضع الكتابة على أي لغة؟ رجعوا إلى عثمان ، كما اختلفوا في « التابوت » أيكتبونه بالتاء أو بالهاء؟ فقال : زيد بن ثابت : إنما هو التابوه . وقال : الثلاثة القرشيون : إنما هو التابوت . فتراجعوا إلى عثمان فقال : اكتبوه بلغة قريش ، فإن القرآن نزل بلغتهم .

وكان عثمان رضي اللَّه عنه- واللَّه أعلم- رتب السور في المصحف ، وقدَّم السبع الطول وثنَّى بالمئين .

ولهذا روى ابن جرير ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، من حديث غير واحد من الأئمة الكتاب ، عن عوف الأعرابي ، عن يزيد الفارسي ، عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى « الأنفال » ، وهي من المثاني ، وإلى « براءة » وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر : بسم اللَّه الرحمن الرحيم . ووضعتموها في السبع الطول ، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان . كان رسول اللَّه ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد؛ فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : « ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » . وكانت « الأنفال » من أول ما نزل بالمدينة؛ وكانت « براءة » من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ،

وحسبت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين[١] لنا أنها منها؛ فمن أجل ذلك قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم ، فوضعتها في السبع الطول[٢] .

ففهم من هذا الحديث أن ترتيب الآيات في السور أمر توقيفي متلقى عن النبي ﷺ ، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه[٣] ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتبًا آياته ، فإن نكّسه أخطأ خطأ كثيرًا .

ثم إن عثمان رضي الله عنه رد الصحف إلى حفصة رضي الله عنها ، فلم تزل عندها حتى أرسل مروان بن الحكم يطلبها ، فلم تعطه حتى ماتت ، فأخذها من عبد الله بن عمر ، فحرقها؛ لئلا يكون فيها شيء يخالف لمصاحف الأئمة[٤] التي نفذها عثمان إلى الآفاق؛ مصحفًا إلى مكة ، ومصحفًا إلى البصرة ، وآخر إلى الكوفة ،

---

(١) في الأصل : « يتبين » . والمثبت من مصادر التخريج .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١/ ١٠٢، وأبو داود (٧٨٦) ، والترمذي (٣٠٨٦) ، والنسائي في الكبرى (٨٠٠٧) . وضعفه الألباني .

(٣) في هامش أصل الصحيفة ما نصه : هذا خطأ لا يجوز في جميع السور ، بل هو باطل ، واعتمده بعضهم في هاتين السورتين؛ عملًا بهذه الرواية ، وهو مردود أيضًا ، ويرد عليه أنه لا يعقل أن يرتب النبي ﷺ جميع السور إلا الأنفال وبراءة؛ وقد صح أنه ﷺ كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من كل عام ، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه القرآن مرتين ، فأين كان يضع السورتين في قراءته ؟ التحقيق أن وضعهما في موضعهما أمر توقيفي ، وإن فات عثمان أو نسيه ، ولولا ذلك لعارضه الجمهور ، أو ناقشه فيه عند كتابة القرآن ، كما روى عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره في الأقطار أ.هـ (من هامش الأصل) .

(٤) في هامش أصل الصحيفة ما نصه : الأولى بل المتعين أن يقال : لئلا يدعي أحد بعد ذلك أن فيها ما يخالف هذه المصاحف؛ فإنها كانت صحفًا منشورة يظهر أنها لم تكن قوية بشكل واحد ، وقياس واحد ، فتتخذ مصحفًا إمامًا يصلح للبقاء ، كالمصاحف التي نسخت لهذا الغرض وجعلت رسمية بالإجماع ، وقد نقلت صحف الأخبار العامة أن أحدها وهو الذي كان محفوظًا عند قياصرة روسية ، وهبه خلفهم الشيوعيون لأمير بخارى بعد أن أخذوا صورة منه =

وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة مصحفًا، رواه أبو بكر ابن أبي داود[١] عن أبي حاتم السجستاني سمعه يقوله.

فهذه الأعمال من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر، وعمر رضي اللَّه عنهما، حَفِظًا على الناس القرآن، وجمعاه لئلا يذهب منه شيء. وعثمان رضي اللَّه عنه جمع قراءات الناس على مصحف واحد، ووضعه على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول اللَّه ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه السلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين؛ ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ لفاطمة ابنته لما مرض: «وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي». أخرجاه في الصحيحين[٢].

وأما المصاحف العثمانية الأئمة، فأشهرها اليوم الذي في الشام، بجامع دمشق عند الركن، شرقي المقصورة المعمورة بذكر اللَّه، وقد كان قديمًا بمدينة طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثماني عشرة وخمسمائة، وقد رأيته كتابًا عزيزًا جليلًا عظيمًا ضخمًا، بخط حسن، مبين قوي، بحبر محكم في رَقٍّ أظنه من جلود الإبل- واللَّه أعلم- زاده اللَّه تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا.

فأما عثمان رضي اللَّه عنه فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف، وإنما كتبها زيد بن ثابت- في أيامه- وغيره، فنسبت إلى عثمان؛ لأنها بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدي عثمان، ثم نفذت إلى الآفاق. اهـ. من «ابن كثير»[٣].

= بالآلة الشمسية (الفوتوغرافية)، ويقال: إن الأصل فقد، فلم يصل إلى الأمير. اهـ. من تعليق «المنار».

(١) ابن أبي داود في المصاحف ص ١٣٤.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٨٥، ٦٢٨٦)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٣٤.

علاوة في الفرق
بين جمع أبي بكر وجمع عثمان للقرآن

في « التبيان » : أخرج ابن أبي داود في المصاحف[١] من طريق أبي قلابة أنه قال : لما كان في خلافة عثمان : جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفَّر بعضهم بعضًا ، فبلغ ذلك عثمان ، فخطب ، فقال : أنتم عندي تختلفون! فمن نأى عني من الأمصار أشدُّ اختلافًا!! .

فكأنه ، واللَّه أعلم ، لما جاءه حذيفة ، وأعلمه باختلاف أهل الأمصار ، تحقق عنده ما ظنه من ذلك ، ورأى الأمر قد حزب ، فأمر بما أمر به .

وجاء أن عثمان إنما فعل ذلك بعد أن استشار الصحابة .

أخرج ابن أبي داود ، بإسناد صحيح ، من طريق سويد بن غفلة ، قال : قال عليٌّ : لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا ، فواللَّه ما فعل الذي فعل في المصاحف إلَّا على ملأ منا ، قال : ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول : إنَّ قراءتي خير من قراءتك . وهذا يكاد يكون كفرًا! قلنا : فما ترى؟ قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد؛ فلا تكون فرقة ولا اختلاف . قلنا : فنعم ما رأيت[٢] .

وقال ابن التين وغيره : الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان لخشيته أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعًا في موضع واحد ، فجمعه في صحائف ، مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي ﷺ ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه

---

(١) المصاحف ص ٩٥. وانظر مناهل العرفان ١/ ١٧٨.

(٢) المصاحف ص ٩٥.

بلغاتهم مع اتساع اللغات، فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضًا؛ فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبًا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش؛ محتجًا بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم؛ رفعًا للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة في ذلك قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة(١).

وقال الحارث المحاسبي: والمشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لمَّا خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي نزل القرآن بها.

فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق رضي اللَّه عنه. روي عن علي رضي اللَّه عنه أنه قال: رحم اللَّه أبا بكر هو أول من جمع كتاب اللَّه بين اللوحين.

ولم تحتج الصحابة في أيام أبي بكر وعمر إلى جمعه على الوجه الذي جمعه عثمان؛ لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف ما حدث في أيام عثمان، ولقد وفِّقَ لأمر عظيم، ورفعَ الاختلافَ، وجمعَ الكلمةَ، وأراحَ الأمةَ. قال: ولهذا لم ينكِر عليه أحدٌ ذلك، بل رضوه وعدُّوه من مناقبه، حتى قال علي: لو وليت ما ولي عثمان، لعملت بالمصاحف ما عمل بها. اهـ ملخصًا.

وقد اختلف في عدة المصاحف التي أمر عثمان بكتابتها، والمشهور أنها كانت خمسة، أرسل منها أربعة إلى الآفاق، وأمسك عنده واحدًا منها.

وقال أبو عمرو الداني في «المقنع»(٢): أكثر العلماء على أنها كانت أربعة،

---

(١) انظر فتح الباري ٩/ ٢١، والإتقان في علوم القرآن ١/ ٢١٠ وما بعدها.

(٢) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص ٣.

وأرسل واحدًا منها للكوفة ، وآخر للبصرة ، وآخر للشام ، وترك واحدًا عنده .

وقال ابن أبي داود : سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتب سبعة مصاحف ، فأرسل إلى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحدًا .



أمهات كتب التفسير القديمة والحديثة ما لها وما عليها[١]

إذا رجَّعت البصرَ إلى ما أودع في بطون المكاتب والفهارس من كُتب التفسير رأيت منها ما لا يكاد يحصى، وأخذتك الدهشة من كثرة ما أُلِّف في القرآن الحكيم وفنونه. ولعمري: إن هذه التفاسير- لا سيما الأمهات والمهمات منها- آيةٌ بينةٌ على عظم أئمة التفسير، وشغفهم باستخراج كنوز الكتاب العزيز، وصرفهم أعزَّ ما يملكون في هذه السبيل، فجزاهم المولى أفضل الجزاء.

ليس قصدنا إحصاء ما أُلِّف من كتب التفسير قديمًا وحديثًا، ولا بيان أسمائها وأنواعها، فإن ذلك معروف في فهارس الإحصاء التي تكفَّلت ببيان ذلك، وإنما الغرض الإشارة إلى أهم ما هو في متناول الأيدي منها، وأشهره ثلاثة أنواع:

١- التفسير بالمأثور.

٢- التفسير بالمعقول.

٣- التفسير بالفنون اللسانية، وقواعد الأصول، ومصطلحات العلوم.

١- تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ

فأما التفسير بالآثار، فأجلُّ كتبه تفسير الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فقد فسر القرآن بلغة القرآن، وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان،

---

(١) مجلة المنهل- العدد (٧- ٤)- ربيع الآخر- ١٣٦٦هـ.
وقد جاء في صدر المقال ما نصه: «فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار غني عن التعريف، فهو عضو المجمع العلمي بدمشق، ورئيس دار التوحيد السعودية، وقد تفضل على المنهل بهذه المحاضرة القيمة التي ألقاها في المسجد الحرام في محفل زاخر من الفضلاء والعلماء ووجوه الناس فكان لها الأثر الحميد».

على أنه لم يكتف بإيراد المأثور عنهم ، بل وضع ميزان العدل والنصفة بينهم ، ورجح بعض أقوالهم على بعض بما قام عنده من وجوه الترجيح .

وأعظِمْ بهذا التفسير الذي يجدد لك فهم القرآن بلسان عربي مبين ، فتعلم معانيه في مفرداته وتراكيبه ، علمًا يدعوك إلى العمل ، ويدنيك من الصدر الأول ، ويعرفك الأسباب التي وردت الآيات في شأنها ، والمقاصد العليا التي أنزل القرآن من أجلها ، فلا تزيغ بك الآراء ، ولا تعصف بك الشبه والأهواء .

ولم تسر الخرافات والأوهام واللوثات الجاهلية في هذه الأمة إلَّا بسبب الجهل بلغة القرآن ، وحمل ألفاظه على غير معانيها ، بل على معاني الضعف والعجز والجهل .

ومثل ذلك دقة القرآن في حكمه على الأمم والشعوب ، فهو يزن بالقسطاس المستقيم ، فتراه تارة يعبر في حكمه على الأمة بلفظ : (الكثير) كقوله : ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٦٦] وتارة بلفظ : (الأكثر) كقوله : ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٦] وإذا أطلق أداة العموم يستثني ، كما في قوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٣] .

قال حكيم : إن القرآن يبين حقائق ما عليه الأمم في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم .

والدقة التي نراها في القرآن لم نرها في كتاب عالم ولا مؤرخ . ولكن وجد فينا معشر المسلمين من طمس هذه المزية ، وجعلوا كل ما ينكره القرآن من فساد الأمم ، من قبيل هجو غير المسلمين ، وكل ما يحمده ، هو خاصًّا بالمسلمين ، حتى كأنه شعر لا يقصد منه إلا مدح أناس وذم آخرين؛ وبهذا ينفرون غير المسلمين من الإسلام ويحولون بين المسلمين والعبرة والاتعاظ وفهم الحقائق .

٢و ٣- تفسير البغوي[١] المتوفى سنة ٥١٦هـ[٢]، والخازن المتوفى سنة ٧٤١هـ

إنما جمعت بين هذين التفسيرين في الوصف؛ لأن تفسير الخازن، رحمه الله، منتخب من تفسير أبي محمد ابن الحسين بن محمد[٣] البغوي مع فوائد أخرى لخصها من كتب التفاسير المصنفة، كما قال.

وقال أيضًا: فما أوردت فيه من الأحاديث النبوية عزوته إلى مخرجه، وبينت اسم ناقله.

ولعمري إن هذين التفسيرين يليان تفسير الحافظ الشهير عماد الدين ابن كثير الآتي، في الإفصاح عن معاني التنزيل، والبعد عن الأغراب في الإعراب وتكثير الوجوه والمحتملات اللفظية، وعن الاشتغال بمباحث وعلوم أخرى لا يتوقف عليها فهم الآيات الكريمة، ولا الاهتداء بهدي القرآن، لكن العجب من الإمام البغوي، الملقب بمحيي السنة، ومؤلف كتاب« مصابيح السنة » الذي ميز فيه بين صحاح الأحاديث وحسانها، كيف ينقل في تفسيره « معالم التنزيل » الأخبار الإسرائيلية التي لا تصح؟! كالذي أورده في خبر (التابوت) وما كان فيه، وغيره كثير، وتبعه في ذلك الخازن.

كما أنه اقتدى به وزاد عليه في رد بعض المفتريات على مقام النبوة، كما تراه في الفصل الذي عقده الخازن في تفسيره؛ دفعًا لما أورده في قصة زينب بنت عمة النبي أميمة، ووقوع محبتها في قلبه عندما رآها، وإرادته طلاق زيد لها،

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: طُبع تفسير البغوي ومعه تفسير الحافظ ابن كثير على نفقة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، أثابه الله تعالى، وأيده بروح من عنده.

(٢) في الأصل: ٥١٠. ولعل المثبت هو الصواب، وينظر سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٤٢.

(٣) في معظم مصادر ترجمته: الحسين بن مسعود.

منكرًا عليهم دعواهم أنه ﷺ رآها فأعجبته وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ- أي: قبل الحجاب- وهو زوجها لزيد، فلا يشك في تنزيه النبي ﷺ عن أن يأمر زيدًا بإمساكها، وهو يحب تطليقها من زيد، كما ذكر عن جماعة من المفسرين.

فهذا دفاع الخازن عن مقام النبوة في قصة زينب، وهو دفاع كما تراه معقول.

أما إيراد الخازن القصص الإسرائيلية، فما هو فيها بأول رائد أعجبته خضرة الدمن، ورأى فيها حسنًا ما ليس بالحسن، بل ذكر في نقوله ما ذكرته كتب التفسير، ولم يخل من الإسرائيليات، حتى ولا ابن جرير، وابن كثير، وما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، كتعيين عمر الدنيا مثلًا؛ يروون فيه: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» من حديث عبد الله بن عمرو، عند البخاري[1]؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قد أصاب يوم اليرموك زاملتين- الزاملة: الدابة من الإبل وغيرها يحمل عليها- من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منها، بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك. ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير في مقدمة التفسير[2] وقال: ولهذا يختلف أهل الكتاب في هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعددهم، وعصا موسى عليه السلام، من أيِّ الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١).

(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٧، وتفسير ابن كثير ١/ ٨، ٩، ٣١.

المكلفين في دينهم ولا في دنياهم ، ولكن نقل الخلاف منهم في ذلك جائز .

والمقصود أن الخازن ، رحمه اللَّه ، لم ينفرد بهذه النقول عن كعب ، ووهب ، وغيرهما من مسلمة أهل الكتاب ، بل تبع غيره فيما أخطأ فيه أو أصاب ، وكل يؤخذ من قوله ويترك ، وإنما المعصوم من عصمه اللَّه تعالى .

وإذن فلا يقال في تفسيره : « وخير ما يقال فيه : إنه مجموعة الأكاذيب » كما قال فيه بعض واصفيه من الأساتذة المعاصرين ، بل هو تفسير جليل ، وإن فيه ما في غيره ، وإن اختلف كثرة وقلة ، وإذا كان وصفه بمجموعة الأكاذيب ، هو خير ما يقال فيه! فما هو شر ما يقال فيه يا ترى؟! ثم ماذا يقال في تفاسير الباطنية التي عطلت مفاهيم اللغة والشرع جميعًا؟!

ولعلنا نعود إلى هذا الموضوع عند مناسبة ، إن شاء اللَّه .



أمهات كتب التفسير الحديثة والقديمة ما لها وعليها[1]

[٢]

٤- تفسير « الكشاف » لجار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ هـ

لا يخفى أن تفسير « الكشاف » مؤسس على بلاغة القرآن ، ومبني على علمي المعاني والبيان ، فهو قد حقق كثيرًا من فرائد الكتاب العزيز ، وكشف عن كثير من مخدرات معانيه الحسان ، فبرزت بأروع صورة ، وأجلى بيان .

ومن مزاياه أنه يوقف على مواضع من حقيقة القرآن ومجازه ، ويجلي للناظر مطالع من إيجازه وإعجازه . وإن كان هذا الوحي المعجز؛ كالكهرباء وضيائه ، تستنير بنوره الأبصار ، ولا تحيط بكنهه الأفكار ، أو هو :

كالبدر من حيث التفت رأيته — يهدي إلى عينيك نورًا ثاقبًا
كالشمس في كبد السماء وضوئها — يغشي البلاد مشارقًا ومغاربًا

لكن يؤخذ على هذا التفسير ، ما يؤخذ على مذهب مؤلفه المعتزلي ، وهو أنه منح العقل سلطة لا تحد بحد نقل ولا عقل ، فحلَّق في جو لا يبلغه حسٌّ ولا علم ، فنفى ما أثبته اللَّه لنفسه من صفات كماله ، ونعوت جلاله ، كالوجه ، واليدين ، والاستواء ، وغيرها .

نعم إن كتب التفسير المذهبية ، قد جنحت لهذا التأويل ، كما سيأتي ، غير أن الزمخشري قد زاد في تفسيره نفي صفات المعاني أيضًا ، كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ﴿سُبۡحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٨٠].

على أن محشي الكشاف العلامة ابن المنير المتوفى سنة ٦٨٣هـ قد انتصف

(١) مجلة المنهل- العدد (٦، ٧)- جمادى الآخرة- ١٣٦٦هـ .

من اعتزاليات الكشاف، وناقشه فيها، وفي غيرها من مسائل الكلام، وأساليب البيان، والناظر فيهما يستغرق في حل المشكلات الكلامية، والأعاريب النحوية، ويذهل عن تدبر الآيات الكريمة وفهمها.

٥- تفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي المتوفى سنة ٥٨٥هـ

أما القاضي البيضاوي فقد لخص ما في «الكشاف» من وجوه الإعراب أيضًا، وزاد عليه في الإجمال والإبهام، وإيراد ما يراه مرجوحًا أو ضعيفًا، ولكنه يشير إليه.

وتفسيره- رحمه الله- فيه مجملات ومغاليق كثيرة، من الفنون الكلامية والعقلية، فهو لا يشبه التفسير الكبير «مفاتيح الغيب» للرازي، في بسط ما يتعلق بالحكمة والكلام، وشرح الحقائق وإيضاح الغوامض، وسببه أنه أراد أن يوجز القول في فنون اللسان وعلم دقائق الكلام، وأسرار المعقولات والحكمة، فجاء بألغاز ومعميات عجيبة، فكان تفسيره يحتوي فنونًا من العلم وعرة المسالك، وأبوابًا من القواعد مختلفة الطرائق، كما قال فيه بعض واصفيه. وأكثر الأحاديث التي أوردها في ختام السور- كصاحب «الكشاف»- لا تصح.

٦- تفسير الإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ

أما تفسير علامة المعقول الرازي، فقد أطال فيه النفس، وفسر القرآن بحسب ما تقتضيه القواعد العربية، وعلم الكلام، وأصول الفقه، وفن الجدل والمناظرة، وأكثر في معاني الآيات من الوجوه والاحتمالات القريبة والبعيدة ونقل عن الفلاسفة الأقدمين، وعلماء الهيئة والفلك، ما لا اتصال له بعلم التفسير، بل ما يخرج بالقراء عن موضوعه، ولكن ليس من الإنصاف فيه قول بعض واصفيه: «فيه كل شيء إلا التفسير».

بل هو تفسير جليل، وفيه تطويل، وقد تجد فيه من التحقيق ما لا تجده في

غيره، ومثاله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦]. فقد ذكر هنا أن الدعاء أهم مقامات العبودية، واستدل على ذلك بالأدلة العقلية والنقلية، ثم ذكر السؤال والجواب في كتاب اللّٰه تعالى، وبين أنواعهما وصورهما، وضرب لهما الأمثال .. إلى أن قال[1]: أما الصورة الثالثة: وهي في هذه الآية، قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦]. ولم يقل: فقل إني قريب. فتدل على تعظيم حال الدعاء من وجوه:

الأول: كأنه سبحانه وتعالى يقول: عبدي؛ أنت إنما تحتاج إلى الواسطة في غير وقت الدعاء، أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك. [اهـ ص١٣١ ج٢].

أقول: إن النوع الأول الذي يختص بالتشريع، أذن اللّٰه فيه لنبيه ﷺ أن يجيب السائل بقوله: (قل) أو (فقل): ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: الآية ٨٥]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: الآية ١٠٥]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٧]، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٥]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: الآية ٢١٧]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: الآية ٢٢٠] والجواب في كلٍّ: (قل) كذا، مخاطبًا للرسول ﷺ.

أما في مقام الدعاء فقد سألوا النبي ﷺ: أربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦][2] ولم يقل: (قل). أو: (فقل)، كما جاء في آيات التشريع، بل خاطب تعالى عباده كفاحًا بلا واسطة نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ليدلهم سبحانه على أنه أقرب إليهم من جميع عباده، وهو أرحم الراحمين.

---

(١) مفاتيح الغيب ١/ ٧٧٩.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٣/ ٤٨٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ٣١٤.

إنما يؤخذ على مثل الإمام الرازي رحمه اللَّه تعالى، تأويله النصوص القرآنية المنبئة بحقائق الصفات الإلهية، وتفريقه بين ما أثبته منها؛ كصفات المعاني السبع: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام- أي: الكلام النفسي دون اللفظي- وما أوَّلَه؛ كالعلو[1]، والاستواء، والوجه، واليدين، والعين، خلافًا لما في كتاب «الإبانة» للإمام أبي الحسن الأشعري.

[للبحث صلة]



(١) في الأصل: «كالعلوم».

أمهات كُتب التفسير القديمة والحديثة ما لها وعليها[1]

[٣]

٧- تفسير الإمام أبي عبد اللَّه القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ وهو المسمى: «الجامع لأحكام القرآن»

كنا نسمع بهذا التفسير الجليل قبل أن نراه، فلما طبع أقبلنا عليه نتصفح أجزاءه؛ لنقف على خصائصه ومزاياه، فرأينا منها ما يأتي:

١- أن أول ما يتجلى للناظر فيه كون الآيات الكريمة المطبوعة بحرف كبير يميزها عن صدور التفسير، مشكولةً شكلًا تامًا، معدودةً بالأرقام. وهذا الشكل التام شامل لآيات الشواهد أيضًا.

٢- جدَّةُ الحروف، وجودةُ الورق، وجمال الطبع، والفصل بين الجمل بأنواع الفواصل التي تعين القارئ على صحة اللفظ وفهم المعنى.

٣- أما التفسير نفسه فقد قدَّم له المؤلف مقدمةً حافلة ببيان فضائل القرآن وآداب حملته، وما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به، وفي تبيينه بالسنة، ومعنى كونه أنزل على سبعة أحرف، وفي جمعه وحفظه، وذكر من حفظ القرآن في زمنه عليه الصلاة والسلام، وما في ترتيب سوره وآياته، وإيراد نكات في إعجازه .. إلى غير ذلك مما لا يستغني عنه متدبرٌ للقرآن أو مفسِّرٌ.

أما طريقة المؤلف في التفسير؛ فهي أنه يورد الآية أو الآيات ويفسرها بمسائل يجمعها في أبواب، فيقول مثلًا: تفسير سورة الفاتحة، وفيها أربعة أبواب:

الباب الأول: في فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل .. ويذكرها.

(١) المنهل- عدد ٨- شعبان ١٣٦٦هـ.

الباب الثاني : في نزولها[1] وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة .

الباب الثالث : في التأمين ، وفيه ثمان مسائل .

الباب الرابع : فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب ، وفضل الحامدين ، وفيه ست وثلاثون مسألة .. وهكذا .

وتارة يكون التفسير بمسائل يعدها على نحو ما تقدم من دون فتح باب ولا ذكر عنوان .

٥- يتنقل المؤلف في هذه المباحث أو المسائل من تفسير المفردات اللغوية ، وإيراد الشواهد الشعرية ، إلى بحث اشتقاق الكلمات ومآخذها ، إلى تصريفها وإعلالها ، إلى تصحيحها وإعرابها ، إلى ما قاله أئمة السلف فيها ، إلى ما يختاره المؤلف أحيانًا من معانيها .

٦- أحسن المؤلف كل الإحسان بعزو الأحاديث إلى مخرجيها من أصحاب الكتب الستة وغيرهم ، وقد يتكلم على الحديث متنًا وسندًا ، قبولًا وردًا ، وهو يسند الأقوال إلى قائليها أيضًا ، « ومن بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله » .

٧- اضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ، واستبدل بذلك تميز آي الأحكام- كما قال- فضمن كل آية تتضمن حكمًا أو حكمين ، فما زاد مسائل تبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم ، فإن لم تتضمن حكمًا ذكر ما فيها من التفسير والتأويل .

٨- وقد أحسن المصحح السيد الببلاوي بشكل ما يشكل من الأعلام والأبيات! ووضع تعليقات تتضمن ما خفي من المراد ، فجزاه اللّٰه على حسن صنيعه خيرًا .

أما ملاحظاتنا على هذا التفسير الجليل فمنها :

---

(١) في الأصل : « نزلها » .

١- أنه كان من تمام الإتقان أن يوضع في رأس كل صفحة خلاصة ما تضمنته ، علاوة على ذكر الجزء واسم السورة؛ ليكون المطالع على علم مجمل بها قبل قراءتها .

٢- أن توضع فهارس في أواخر الأجزاء ، مرتبة على حروف الهجاء ، تذكر فيها أسماء الأعلام[١] ، وأوائل الأبيات ، وأهم ما فسر من التعليقات؛ ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة .

٣- يبدو للمتأمل في التفسير نفسه أنه[٢] يغلب عليه البحث في الفنون العربية ، والمباحث اللغوية ، والمسائل الفقهية .

فمن أمثلة النوع الأول : تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤] فقد ذكر أن هذه الآية نزلت في المنافقين ، وأن أصل « لقوا » : لقيوا . وأعلها ، قال : وقرأ محمد بن السميقع : لاقوا . والأصل لاقيوا ، وأعلها كالأولى إعلالًا صرفيًا تصرفا ، ولم يزد على ذلك حرفا .

ومن الثاني تفسيره لآية : ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٣١] فقد كتب أكثر من صفحتين في أصل لفظ « آدم » ومأخذه ، واشتقاقه ، ومعناه .

ومن النوع الثالث تفسيره لآية : ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣] فقد ذكر فيها ثماني عشرة مسألة استغرقت أربع عشرة صفحة ، فكان منها أحكام الإقامة ، وبعض ما يتصل بالإمامة والاقتداء ، والقضاء ، وركعتا الفجر . ثم لفظ « الصلاة » ومأخذها اللغوي وشواهده ، ومعناها الشرعي ، وفروضها في المذهب المالكي . ونص عبارته رحمه الله : وأما فروضها : فاستقبال القبلة ، والنية ، وتكبيرة الإحرام ، والقيام لها ، والركوع ، والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من

(١) في الأصل : « الأعملالم » .

(٢) في الأصل : « أن » .

الركوع ، والاعتدال فيه ، والسجود ، والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من السجود ، والقعود بين السجدتين ، والطمأنينة فيه ، والسجود الثاني ، والطمأنينة فيه . أهـ

ولم يذكر الجلوس ، والتشهد الثاني ، والسلام ، وهي فرض عند الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية ، وحكاه أبو مصعب في « مختصره » عن مالك وأهل المدينة . ولكن المؤلف ذكر الفروض عند غير مالك أيضًا ، وأورد مذاهب الأئمة وأدلتهم في ذلك ، ورجح بعضها على بعض ترجيحًا مذهبيًا . وقال بعد تمام البحث (ص١٧٧) : قلت : فهذه جملة أحكام الصلاة . وسائر أحكامها يأتي بيانها في مواضعها من هذا الكتاب بحول اللّٰه تعالى .

ثم ذكر الركوع ، وصلاة الجماعة ، والقبلة ، والمبادرة إلى الأوقات ، وبعض صلاة الخوف في هذه السورة . وقصر الصلاة ، وصلاة الخوف في « النساء » ، والأوقات في « هود »؛ و« سبحان » ، و« الروم » وصلاة الليل في « المزمل » وسجود التلاوة في « الأعراف » وسجود الشكر في (ﷺ) .

لقد علمتَ- أيها القارئ الكريم- مما أوردنا مذهبَ المؤلفِ ومشربَه في هذا التفسير ، وأن المباحث اللفظية شائعة فيه ، بل هي غالبة عليه ، ومنها ما لا حاجة إليه ، كحكاية الخلاف في كنية أبي البشر وفي عمره ، ونقله عن أهل التوراة ووهب بن منبه مما فيه تطويل من دون طائل ، وكالرواية عن كعب الأحبار في أن أول من وضع الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها ، وتكلم بالألسنة[1] كلها : آدم عليه السلام . وغير ذلك من الأخبار والمبالغات التي لا يصح فيها نقل ولا يؤيدها الواقع ، على أن هذا التفسير أقل من غيره ذكرًا لمثلها .

ومما يؤيد قولنا- إن أكثر مباحثه لفظية- أنك لا تجد في جميع ما أطال به من ذكر أحكام الصلاة التي ساقها في سور متعددة ، وذكر صورها القولية والعملية

(١) في الأصل : « بالأسنة » .

عند ذكر آياتها المتفرقة- ومحل هذا التفصيل في كتب الفقه لا التفسير- لا تجد توسعًا في مقاصدها الروحية وأعمالها القلبية، وإصلاحها النفسي ولا الاجتماعي. وقد رجعها إلى تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] لنرى من الإفاضة في أسرار الصلاة وآثارها مثل ما رأينا في شرح صورها وأعمالها، فلم نر شيئًا من ذلك، مع أن هذا هو بيت القصيد وسر التكليف، وميزان صحة الإيمان ،وفيه صلاح نوع الإنسان.

وقد ذكر في تفسيره الآية ثلاث مسائل:

١- في سبب نزول الآية.

٢- في خفض البصر.

٣- في اختلاف الناس في الخشوع، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها[1].

قال: والصحيح هو الأول، ومبعثه القلب. اهـ ملخصًا (ج١٢ ص١٠٢).

وهو آخر ما رأيناه مطبوعًا عند كتابة هذه الكلمة.

وجملة القول: إن هذا التفسير جامع وبيانه رائع، ولكن هذه الأبواب التي فتحها، والمسائل التي شرحها، فيها تطويل كثير، لا يدخل في موضوع التفسير، وإذا كان بعضها من وسائله، فإن ما يدرس في كتبها ليعين على فهم مقاصده، ولو زيد في المقاصد مقدار ما يمكن أن يستغنى عنه من هذه الوسائل والمسائل، لبلغ هذا التفسير الغاية من نوعه، ولكان له حق التفضيل على غيره.

[يتبع].



(١) في الأصل: «وكملاتها».

أمهات كتب التفسير القديمة والحديثة ما لها وعليها[1]

[٤]

٨- تفسير أبي البركات حافظ الدين النسفي، المتوفى سنة ٧١٠هـ

وأما تفسير النسفي صاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول، فلا يخرج في معناه عن تفسير القاضي البيضاوي، وإن زاد ونقص وخالفه في التعبير، وبعض مسائل التفسير. ومن قابل بين تفسيريهما، وأمعن النظر فيهما، عرف ذلك منهما، على أن عبارة النسفي أوفى مراما، وأكثر إيضاحًا وأقل إيهامًا. وسأورد شيئًا من تفسيره، يصفه في جملته لا في تفصيله.

وإنما يستوقفُ نظرَ المطالع- قبل كل شيء- هذا الغلو في الألقاب التي نُعت بها مؤلف الكتاب!! ومن هذا الغلو: أستاذ أهل الأرض.. ترجمان كلام الرحمن.. وارث علوم الأنبياء والمرسلين.. ومنته على عباده. وظاهرٌ من قوله: «نفع اللّٰه الإسلامَ بطول بقائه، والمسلمين بيمن لقائه»!!.

إن بعض مريديه قد كتب هذه المبالغات في حياته، ولعل المؤلف- رحمه الله- لو اطلع عليها، لما أقرَّها.

قال الإمام النسفي[2]: «فاتحة الكتاب مكية، وقيل: مدنية؛ والأصح أنها مكية ومدنية، نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة، حين حولت القبلة إلى الكعبة».

وإن أدري أيَّ داع يدعو إلى القول بنزولها مرتين! وهي مكية بالنص؛ لقوله

(١) مجلة المنهل- العدد (٧، ٩)- رمضان- ١٣٦٦هـ.

(٢) تفسير النسفي ١/ ٤.

تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: الآية ٨٧] وهذه الآية من سورة الحجر التي هي مكية بإجماع؛ ولأن الصلاة التي فرضت بمكة باتفاق ، شرعت بالفاتحة من أول ما فرضت ، فدلت على أنها مكية أيضًا ، ولا شك أن السبع المثاني هي سورة الفاتحة ، كما ثبت في الصحيح؛ فقد أخرج البخاري ، وأصحاب السنن أيضًا من حديث أبي سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال : « الحمد للّه رب العالمين هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته »[1] .

وآي الفاتحة سبع بالاتفاق . ومعنى كونها مثاني : أنها تثنّى وتعاد في كلّ ركعة من الصلاة . وأما عطف « القرآن » على : « سبعًا من المثاني » فهو- كما قالوا- من عطف الكلِّ على الجزء ، أو العامِّ على الخاص .

ثم أورد النسفيُّ الخلافَ المشهورَ بين القرّاء والفقهاء في التسمية ، وذكر مذهب أبي حنيفة ومن تابعه ، رحمهم اللّه ، وهو أنها ليست من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وإنما كتبت للفصل بينها . وهو مذهب مالك وأصحابه أيضًا .

واستدل المفسر النسفي لمذهبه الحنفي بالحديث القدسي المشهور : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال اللّه تعالى : حمدني عبدي » فالابتداء بالحمد دليليهم على أن التسمية ليست من الفاتحة .

قال : والحديث مذكور في « صحاح المصابيح » .

وهو لم يقصر- رحمه الله- في ذكر من أثبت أنها آية من كلِّ سورة كالشافعية وغيرهم ، وليس من غرضنا الآن ترجيح قول على قول ، وإنما القصد وصف تفسير النسفي ، وبيان بعض ما يبدو لنا من مآخذٍ في تفسيره أمَّ الكتاب؛

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٤) ، وأبو داود (١٤٥٨) ، والنسائي (٩١٣) ، وابن ماجه (٣٧٨٥) .

ليكون طالب العلم على بصيرة فيما يقرأ من كتب التفسير.

فقوله في حديث قسمة الصلاة بين العبد وربه: إنه مذكور في «صحاح المصابيح» لا يهدي إلى معرفة من رواه من المحدثين. و«مصابيح السنة» للإمام البغوي، كتاب جامع للأحاديث من الصحيحين والسنن؛ كسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، والدارمي، وابن ماجه، ولكنه قسَّم أحاديثه إلى صحاح وحسان، وجعل الصحاح منها ما أخرجه الشيخان، أو أحدُهما، والحسنَ ما أورده أصحاب السنن، وهذا اصطلاح له لا يعرف عند أهل الحديث؛ لأنه وقع في كتب السنن المشار إليها غير الحسن؛ من الصحيح والضعيف. وقد أشار البغوي، رحمه الله، إلى اصطلاحه هذا بقوله: أعني بالصحاح كذا، وبالحسان كذا.

ولما رأى العلامة الخطيب التبريزي أن هذا لا يفي بالمراد، أضاف إلى كل حديث في «مشكاته» طرفي الإسناد؛ ليعلم من خرَّجه من أصحاب الكتب، ومن رواه من الصحابة، رضوان الله عليهم.

وحديث الفاتحة هذا، أخرجه أحمد، ومسلم، وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة[1].

وعجيب للإمام النسفي كيف لم يعتن بتخريج الأحاديث التي يذكرها، كدأب كثير من المفسرين، فهو على جلالة قدره، ووصْفِ الحافظ ابن حجر له في «الدرر»[2] بأنه كان علَّامة الدنيا في عصره، يذكر الأحاديث في تفسيره- على قلتها- غير معزوة إلى مخرجيها من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد، وينقل من كتب الحنفية ما يستشهد به على صحة مذهبه، ويُخطِّئ به الشافعيةَ

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٤١- ٢٤٢، ومسلم (٣٩٥)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجه (٣٧٨٤).

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣/ ١٧.

وغيرَهم . وكتاب الله تعالى ليس كتاب مذهب فقهي ، ولا هو عقيدة أشعري ، أو ماتريدي ، بل هو وحي إلهي مشاع بين جميع الأئمة هداة الأمة ، تتجاذبه أنظارهم ، ويستنبطون منه أحكامهم ، وكل منهم يخطئ ويصيب ، ويكون له من أجر اجتهاده نصيب . فأخذ مذهب معين منه ، وحصر الحق فيه ، وتطبيق القرآن عليه ، مما لا سبيل إليه .

ثم قال في تفسير ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1] : « رحمة الله : إنعامه على عباده »

وقال في تفسير ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ : « وغضب الله : إرادة الانتقام من المكذبين ، وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على ما تحت يده .. كذا .

أقول : فسر الرحمة بما تقتضيه من التفضل والإنعام ، والغضب بإنزال العقوبة وإرادة الانتقام ، وكلاهما تفسير بالمعنى المجازي . وتجد نحوه في تفسير القاضي البيضاوي وغيره .

وقالوا- في تعليل هذا التفسير- : إن الرحمةَ في اللغة : رقة القلب وانعطافه ، والغضبَ في الأصل هو: ثوران دم القلب لإرادة الانتقام . وهذا وذاك من الكيفيات التابعة لمزاج المخلوق ، والله تعالى منزه عن صفات المخلوقين؛ إذًا فالمراد من الرحمة في حقه تعالى : إرادة الخير والإنعام ، ومن الغضب : إرادة العقوبة والانتقام . وأسماء الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال ، دون المبادئ التي هي انفعالات .

ويجيب عن مثل هذه الشُبهِ ، الذين يفسرون الأسماءَ والصفاتِ على طريقةِ السلفِ؛ بأن الإرادة التي يردُّون الرحمةَ والغضبَ إليها ، هي في الإنسان ميلٌ إلى

(١) تفسير النسفي ١/ ٦، ٨.

الفعل أو الترك ، واللَّه تعالى منزه عن ذلك . وإنما رحمتُه تعالى وغضبُه صفتان قائمتان بذاته ، وهما شأنٌ من شؤونه يقتضيان الإحسانَ أو العقوبةَ .

وهكذا يقول المثبتون لسائر الصفات التي أخبر اللَّه تعالى بها عن نفسه؛ من المحبة ، والرضا ، وغيرهما ، فهم يجعلونها كلها من باب الحقيقة ، مع اعترافهم بالعجز عن إدراك كنه هذه الحقيقة .

[يتبع]



أمهات كتب التفسير القديمة والحديثة ما لها وعليها(١)

[٥]

٩- تفسير البحر المحيط لأبي حيان النحوي الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ

إن أبا عبد اللَّه محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ، الشهير بأبي حيان ، هو الذي نقل لنا في تفسيره قولَ بعض العلماء في تفسير الإمام الرازي : « فيه كلُّ شيء إلَّا التفسير » . وكأنه ارتضى هذا القول- وقد قدمنا ما فيه- وهو الذي وصف تفسيره هو ، بأوصاف جامعة ، كتفسير مفردات الآية لفظة لفظة ، وبيان ما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية ، ثم الشروع في تفسير الآيات الكريمة ، ذاكرًا أسباب نزولها ، وناسخها ومنسوخها ، وارتباطها بما قبلها ، حاشدًا فيها القراءات ، شاذها ومستعملها ، ذاكرًا توجيه ذلك في علم العربية ، ناقلًا أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها ، متكلمًا على جليها وخفيها ، بحيث لا يغادر منها كلمة ، وإن اشتهرت ، حتى يتكلم عليها ، مبديًا ما فيها من غوامض الإعراب ، ودقائق الآداب ، من معان وبيان ، ناقلًا أقوال الفقهاء وغيرهم في الأحكام الشرعية ، مما فيه تعلق باللفظ القرآني ، مختتمًا الكلام في جملة من الآيات التي فسرها إفرادًا وتركيبًا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصًا!!

ثم قال بعد ذلك الوصف الجامع ، الذي يقف عليه المطالع في مقدمة البحر : ثم أُتبعُ آخر الآيات بكلام منثور ، أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختار من تلك المعاني ، ملخصًا جملها في أحسن تلخيص ، وقد يحبر معها ذكر معان لم

(١) مجلة المنهل- (العدد ٧، ١٠)- شوال- ١٣٦٦هـ.

تتقدم في التفسير ، وصار ذلك أنموذجًا لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن!!

وأنت إذا رددت النظر على مواضع من تفسيره ، يظهر لك أنه ، رحمه اللّٰه ، لم يطبق هذا الوصف العام ، الذي أشرنا إلى بعضه في تفسيره ، بل غلب عليه تفسير المفردات والمركبات من جهة اللغة والقواعد العربية ، وإيراد أقوال النحاة والمعربين في ذلك ، بحيث تختلف أقوالهم اختلافًا بيِّنًا ، وتتعدد آراؤهم تعددًا ظاهرًا ، حتى يتيه السالك في مفاوز تلك الأقاويل ، ويضطرب في بحران ذلك المحيط الذي لا تقحم لججه ، ولا يمتطى ثبجه . وقد تنبه المؤلف ، رحمه اللّٰه ، إلى ذلك ، وأشار إليه في مقدمة تفسيره « النهر » الذي استقاه من « البحر » فقال :

ونكبت عن ذكر ما في البحر من أقوال اضطربت بها لججه ، وإعرابٍ متكلف تقاصرت عنه حججه ، وتفكيك أجزاء يخرج بها الكلام عن براعته ، ويتجرد من مفاخر بلاغته وفصاحته .

وهاك نبذة يسيرة من تفسير « البحر » تدلك على ما وصفه به مؤلفه في « النهر » من تفكك أجزائه ، وذهاب روائه ، قال في تفسير المتقين ، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣] : الغيب : مصدر غاب يغيب إذا توارى ، وسمي المطمئن من الأرض غيبًا لذلك ، أو فعيل : من غاب ، فأصله غيب . وخفف نحو لَيْن في ليِّن؛ والفارسي لا يرى ذلك قياسًا في بنات الياء ، فلا يجيز في لَيْن التخفيف ، ويجيزه في ذوات الواو ، نحو : سيد ، وميت ، وغيرهما ، قاسه فيهما ، وابن مالك وافق أبا علي في ذوات الياء ، وخالف الفارسي في ذوات الواو ، فزعم أنه محفوظ لا مقيس ، وتقرير هذا في علم التصريف .

وأطال في لفظ « الصلاة » وتفسيرها ، ومأخذها ، واشتقاقها ، وتصريفها ، مع أن موضوع التعريف والتصريف لمثل هذه المفردات– التي لا يدع منها شيئًا دون

الكلام عليه بمثل ما رأيت- هو علم اللغة والصرف .

ومثل هذا التفسير للمفردات ، والجمل الإعرابية ، وبيان الوجوه والاحتمالات النحوية والبيانية ، يبعد عن الهداية العظمى التي أنزل القرآن لأجلها ، والتي عمل بها الرسول صلوات اللّٰه عليه وعلى آله ، فأنقذ هذه الأمة من جهلها ، وقد كانت لهم هذه الملكات اللسانية من قبل ، فصرفوها في الهجاء ، وأشعلوها بينهم فتنًا عمياء هوجاء ، فما أغنت عنهم لغتهم شيئًا ، حتى نزل عليهم الوحي من السماء ، فأنقذهم مما كانوا فيه .

وقد جاء في مقدمة تفسير المنار(١) للسيد الإمام ما نصه :

التفسير قسمان :

أحدهما : جاف مبعد عن اللّٰه وكتابه ، وهو ما يُقصدُ به حلُّ الألفاظ وإعرابُ الجمل ، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات ، من النكت الفنية ، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيرًا ، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون ، كالنحو والمعاني وغيرهما .

وثانيهما : وهو التفسير الذي قلنا إنه يجب على الناس- على أنه فرض كفاية- هو الذي يستجمع تلك الشروط؛ لأجل أن تستعمل لغايتها ، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام ، على الوجه الذي يجذب الأرواح ، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام؛ ليتحقق فيه معنى قوله : ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: الآية ٥٢] ونحوهما من الأوصاف . فالمقصد الحقيقي وراء تلك الشروط والفنون ، هو(٢) الاهتداء بالقرآن ، قال الأستاذ الإمام : وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة

(١) تفسير المنار ١/ ٢٢.

(٢) في الأصل : « وهو » .

التفسير .. أي : درس التفسير الذي كان يلقيه في الأزهر الشريف ، ويسمعه جمهور العلماء والطلاب وسائر الطبقات ، وكان صاحب المنار يقتبس منه شذوره الذهبية ، فيضمها إلى تفسيره ، رحمهما اللّٰه تعالى .

[يتبع]



محدثو دار الحديث الأشرفية

و« قبة النسر » في الجامع الأموي[(١)]

عرفت الشام من الصدر الأول بأنها بلد السنة، فمسند الشاميين- أي: الصحابة الذين نزلوا الشام- هو جزء كبير من مسند الإمام أحمد المطبوع، ويجده المطالع في الجزء الرابع منه، وبالأسانيد المتصلة بهؤلاء الشاميين وغيرهم من الصحابة الذين تفرقوا في الأمصار؛ أخرج الأئمة الحفاظ أحاديثهم، كالبخاري (المتوفى سنة ٢٥٦)، ومسلم (سنة ٢٦١) وأصحاب السنن والمسانيد والمعاجم والجوامع، وعنهم أخذ أئمة الرواية والدراية مدرسو دار الحديث الأشرفية بدمشق، كابن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٣)، وأبو[(٢)] شامة (سنة ٦٦٥)، والنواوي (٦٧٦)، وابن الوكيل (٧١٦)، وابن الزملكاني (٧٢٧)، والحافظ المزي (٧٤٢)، وعلم الدين البرزالي (٧٣٩)، والحافظ الذهبي (٧٤٨)، والتقي السبكي (٧٥٦)، والحافظ ابن كثير (٧٧٤)، وابن جماعة (٧٣٣) أولئك الذين كانوا من مفاخر الدنيا في عصورهم، وهل ينسى دمشقي قول التقي السبكي:

وفي دار الحديث لطيف معنى ... إلى بسط لها أصبو وآوي

لعلي أن أمس بحَرِّ وجهي ... مكانًا مسَّه قدمُ النواوي

وروى بالسند عن هؤلاء الأئمة الحفاظ، طائفة من محدثي قبة النسر الأعلام، ومن أكبر الأسر التي تسلسل فيها العلم في ديار الشام. وقد كان من شروط قبة النسر أن يقوم على تدريس الحديث فيها أعلم علماء دمشق.

---

(١) مجلة الحج- العدد ٨، ١٠- ربيع الآخر- ١٣٧٤هـ.

(٢) في الأصل: « وابن ».

وقد ذكر المحبي[١] في خلال ترجمة المحاسني- أحد مدرسي هذه البقعة- أن هذا الدرس[٢] وظيفة حادثة بعد الخمسين والألف، رتبها بهرام كتخذا والدة السلطان إبراهيم-أي: وكيل نفقتها- وبنى السوق الجديد والخان قرب باب الجابية لأجلها.

وفي «حلية البشر» للأستاذ البيطار: ولا يتوهم أن ابتداء التدريس في هذا المحل من حين الوظيفة؛ لأن الشمس الميداني درس قبل ترتيب الكتخذا بنيف وأربعين سنة. وقد اشتهر بين الخاص والعام، أن وظيفة هذا الدرس مشروطة لأعلم علماء الشام.

ذكر أول من جلس للتحديث تحت «قبة النسر» بعد العصر في الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان

أولهم العلامة الشمس محمد الميداني، عالم الشام ومحدثها. لما مات الشمس الداودي الذي كان يعظ في الأشهر الثلاثة عن ظهر قلب- وكان الوعاظ غيره يعظون الناس من الكراريس- لما مات سنة ست وألف فقد الناس مجلسه للحديث، فقام الشمس الميداني بعقد مجلس في الحديث، فقرأ صحيح البخاري بعد صلاة العصر، واختار أن يكون جلوسه تحت قبة النسر، وكانت مدة تدريسه إما أربع أو خمس وعشرون سنة، وتوفي سنة ١٠٣٣.

ثم تولاه بعده محدث الشام ومسندها الشيخ نجم الدين محمد الغزي الدمشقي صاحب التآليف الكثيرة، وأعظمها «الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة» واستمر إلى أن توفي سنة ١٠٦١، وكان جلوسه تحت قبة النسر سبعًا وعشرين سنة.

---

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٣/ ١٧٦. ترجمة محمد بن تاج الدين بن أحمد المحاسني الدمشقي الحنفي.

(٢) في الأصل: «المدرس».

ثم تولاه بعده ولده سعود مفتي الشافعية بدمشق، وابن مفتيها وتوفي سنة ١٠٧١.

ثم درس بعده الفقيه الواعظ الشيخ محمد الأسطواني- وكان من قبل واعظ دار الخلافة العثمانية؛ مشهورًا بحسن الوعظ، وحسن التأدية، ومعرفة أساليب الكلام- ولزم التدريس تحت قبة النسر بين العشاءين، وبعد الظهر، ورغب الناس في حضور دروسه من علماء وعوام؛ لحسن تقريره، وعذوبة تفهيمه، ولطافة مناسباته، وتوفي سنة ١٠٧٢.

ثم وجهت البقعة للشيخ محمد المحاسني الخطيب بجامع دمشق، ومن جيد شعره قوله:

وتنفسي الصعداء ليس شكاية ... مما قضته سوابق الأقدار
لكن بقلبي جملة، تفصيلها ... صعب لدى العقلاء والأحرار
فجعلت موضع كل ذلك أنة ... ضمنت مرادي من عطاء الباري

وتوفي سنة ١٠٧٢ أيضًا.

ثم وجهت البقعة للأستاذ محمد بن يحيى الخباز البصير، المعروف بالبطنيني، وكانت وفاته سنة ١٠٧٥. والبطنيني: نسبة إلى قرية من قرى دمشق.

ثم وجهت البقعة إلى مفتى الحنفية بدمشق الشيخ علاء الدين الحصكفي، صاحب شرح تنوير الأبصار المسمى «بالدر المختار»، وله «شرح ملتقى الأبحر» و«شرح المنار» في الأصول وغيرها، وبقي يفيد ويدرس إلى أن مات سنة ١٠٨٨.

ثم وجهت البقعة للشمس محمد بن أحمد العيثاوي الدمشقي، كان قوالًا بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ومما اتفق أنه دخل مرة على محافظ الشام

في مصلحة متعلقة بالخانقاه السميساطية وطعامها ، فتشاغل الباشا عنه بأوراق ، فمسك الباشا من طوقه وجذبه ، وقال له : انظر في أمر هؤلاء الفقراء واقض مصالحهم . فالتفت إليه وقضى له ما جاء فيه . ودخل مرة على حاكم آخر بسبب معاليم الجامع الأموي ، وكان سنان باشا المتولي عليه كتب بها دفترًا ، وأراد قطع شيء منها ، فوجد الباشا ينظر في دفتر المتولي ويتأمله ، فجذبه أيضًا من طوقه ، وقال له : لا تلتفت إلى ما كتبه هذا الظالم- وكان حاضرًا في المجلس- وانظر إلى عباد اللّٰه بنور اللّٰه . فعمل على مراده ، وترك ما أراد المتولي . وله من هذا القبيل أشياء أخر . وكانت وفاته سنة ١٠٨٨.

ثم وجهت البقعة إلى الشيخ يونس المصري نزيل دمشق ومدرس الحديث بها ، ولي بدمشق تدريس بقعة الحديث بالجامع الأموي الشريف ، تحت قبته ، عن الشيخ علاء الدين الحصكفي المفتي سنة ٨٩[1] ، فدرس بها إلى حين موته ، وكانت وفاته سنة ١١٢٠هـ وكانت مدة تدريسه ثلاثًا وثلاثين سنة ، ما عدا سنتين درس بهما الكاملي الدمشقي الذي حضر دروس المحدث النجم الغزي ولازمه ، وكانت وفاته سنة ١١٣١.

ثم وجهت البقعة للعلامة الشهير الشيخ إسماعيل الجراحي العجلوني المولد ، الدمشقي المنشأ والوفاة؛ مؤلف المؤلفات المفيدة منها : « كشف الخفاء ومزيل الإلباس ، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » وهو مطبوع بمصر. والجراحي نسبة إلى أبي عبيدة بن الجراح ، أحد الصحابة المبشرين بالجنة .

قال المرادي : إنه ارتحل إلى بلاد الروم سنة ١١١٩هـ فلما كان بها انحل تدريس البقعة عن شيخه الشيخ يونس المصري بموته ، فأخذه هو ، وجاء به إلى دمشق ، وكان والي دمشق إذ ذاك الوزير يوسف باشا القبطان ، ومدة إقامته منذ

(١) أي سنة ١٠٨٩.

ابتدأ ٢١ سنة إلى أن مات إحدى وأربعون سنة، وكانت وفاته بدمشق سنة ١١٦٢هـ.

ثم وجه تدريس البقعة للعلامة الشيخ صالح الجينيني الأصل، الدمشقي المولد، ولما توفي الشيخ إسماعيل العجلوني مدرس الحديث تحت قبة النسر في الجامع الأموي، وجه التدريس المذكور عليه، فدرس إلى أن مات سنة ١١٧٠هـ وكانت مدة تدريسه تسع سنين.

ثم وجه تدريس القبة للشهاب أحمد المنيني، الطرابلسي الأصل، المنيني المولد، الدمشقي المنشأ، درس بالجامع الأموي بأمر من شيخه أبي المواهب مفتي الحنابلة لما توفي والده الشيخ عبد الجليل، فاستقام إلى أن توفي الشيخ أبو المواهب، فبعد وفاته درس بحجرته داخل المدرسة السميساطية، إلى أن توجه عليه تدريس العادلية الكبرى، فانتقل إليها ودرس بها، وأقام على الإفادة في المدرسة المذكورة والجامع الأموي مدة عمره، وفي يوم الجمعة بعد صلاتها صحيح البخاري؛ وانتفع منه خلق كثير، وللمترجم:

على السر لا تطلع صديقًا ودعه في ... ضميرك عن كل الأنام مصونا

فإن ضمير الفرد مستتر، وإن ... تثنى، تبدي للعيان مبينا

وكانت وفاته سنة اثنتين وسبعين ومائة ألف. قال المؤرخ المرادى: والمنيني: نسبة إلى قرية منين، من قرى دمشق، ولد بها هو ونشأ، وأصله من برفائيل؛ قرية من أعمال طرابلس الشام، وكان والده ارتحل منها إلى دمشق، ثم ارتحل إلى قرية منين المذكورة في سنة ١٠٤٦، وكان مرجعًا لأهل تلك القرية وغيرها بالفرائض، وتوفي ودفن بها سنة ١١٠٨. استمر الشهاب أحمد المنيني في تدريسه تحت القبة إلى أن توفي سنة ١١٧٢ وكانت مدته سنة واحدة.

ثم وجه التدريس للعلامة علي أفندي الداغستاني الأصل والمولد، نزيل

دمشق ومدرس الحديث بها تحت قبة النسر ، قدِم دمشق وتوطنها سنة ١١٥٠. ولما توفي الشهاب المنيني المدرس تحت القبة ، توجه له عنه التدريس ، وبقي عليه إلى وفاته ، وتصدر في دمشق . ودرَّس إلى أن أصابه داء الفالج سنة ٩٦ فأناب عنه الجهبذ النحرير الشمس محمد الكزبري ، فدرس بالنيابة عنه أربع سنوات إلى أن توفي الداغستاني سنة ١١٩٩، ودفن بسفح فاسيون .

ثم وجه التدريس إلى السيد محمد العطار ، جد بني الحسيبي ، ولم يدرِّس بل أناب الشمس الكزبري ، فبقي مدرسًا إلى أن توفي السيد محمد العطار في الآستانة سنة ١٢٠٩هـ .

ثم تولاه العلامة المحدث الشمس محمد الكزبري . قال السيد محمد عابدين : جاءته قبة النسر تسعى من غير طلب . فشرع بقراءة « الجامع الصحيح » ، وهو في الثلاثة أشهر : رجب وشعبان ورمضان من كل عام ، وقد قلتُ من موشحةٍ في مدحه :

من بـه قـبـةُ ذاك الـجـامـعِ لم تزل في كلِّ عام تسعدُ
حين يروي في الصحيح الجامعِ لحديث المصطفى أو يسندُ
يا له من خير درسٍ جامعِ ولأهل الـعـلـم فـيـه مشـهـدُ
فـكـأنَّ الـوجـهَ مـنـه حـيـنـمـا ينشر الدُرَّ على الملتمسِ
قـمـرٌ عـن جـانـبـيـه الـعُـلـمـا كنجومٍ أشرقت في الغلسِ

توفي سنة ١٢٢١هـ وكانت مدة تدريسه إحدى عشرة سنة .

ثم تولاه بعده ولده الشيخ عبد الرحمن الكزبري محدث الديار الشامية ، فدرَّس البخاري تحت قبة النسر في الأشهر الثلاثة بعد العصر كلَّ يوم ، وعامة العلماء كانت تحضر للأخذ عنه . فدرَّس إلى أن توفي في البلد الحرام ختامَ اثنتين وستين ومائتين وألف ، وكانت مدة تدريسه اثنتين وأربعين سنة .

ثم جلس مكانه وارث علمه ولدُه الشيخ عبد اللّٰه الكزبري تحت قبة النسر ، يقرأ صحيح البخاري في الأشهر الثلاثة كل يوم بعد العصر ، فدرَّس إلى أن توفي سنة ١٢٦٥هـ وكانت مدة تدريسه سنتين .

ثم تولاه بعده أخوه العالم الجليل الشيخ أحمد مسلم . قال في « الحلية » : قد أحبَّه الولاة والحكام ، وكان جاهه لعلمه ساترًا ، ولتقدمه على أضداده ناصرًا؛ لأن دائرة اشتهاره كانت أوسع من دائرة علمه ، وجلس مكان أخيه تحت قبة النسر ، وابتدأ من محل ما وصل إليه أخوه من الصحيح الشريف ، إلى أن جذبته يد المنية سنة ١٢٩٩هـ .

ثم درَّس ولده الشيخ سليم ، ولم ينظمه في « حلية البشر » في سلسلة المدرسين تحت قبة النسر ، وإنما عرض لدرسه في ترجمة مستقلة من أولئك الأعلام . وكانت وفاته سنة ١٣٣١هـ وجلس مكانه ولده الشيخ محمد علي ، ولم تطل مدته بعد أبيه ، وإنما توفي أثناء الحرب العامة الأولى .

فباشر هذا الدرس محدثُ الديار الشامية شيخُنا الشيخ بدر الدين الحسني؛ فأعاد إليه رونقه ورواءه . كان يقرأ في كل يوم جمعة بعد الصلاة صحيح البخاري في جامع بني أمية ويزدحم الناس على درسه ، من بعد فريضة كل جمعة إلى أذان العصر . وقد دأب على ذلك نحو ثلاثة أرباع القرن .

ومما يقضي بالعجب من تلك الدروس أنها كانت محطَّ رجال العلم والحكم ، وأن محدثنا كان يراعي فيها حال المستمعين ، ويتكلم بما تدعو إليه الحاجة والمناسبة . فإذا وقف على درسه رجال الحكم ، أخذ يعظهم ويذكرهم بما يجب للأمة على ولاة الأمور ، فلا يصدرون عنه إلا وقد ملئوا إعجابًا بلطف تنقلاته وبديع مناسباته ، وأخذه إياهم بالحق والصدق . وإذا حضر رجال الدين ، ملكتهم الحيرة والدهشة مما وعاه قلبه ، ورواه لسانه ، من تلك الأحاديث النبوية ،

موصولة الأسانيد صحيحة الضبط تامة الحفظ ، يتلوها من غير توقف ولا تلعثم ، كأنما يغترف من عباب أو يقرأ في كتاب ، مع ذكر ما قاله أئمة هذا الشأن فيها ، واستحضاره ما أورده العلماء من معانيها .

وهو لا ينفك في يومه عن صيامه ، ولا في ليله عن قيامه ، كثير الذكر قليل الكلام ، دائم الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام .

وهو خاتمة المحدثين تحت قبة النسر؛ إذ لم يخلفه أحد في حفظه وعلمه فيجلس مجلسه ويحقق شرط الواقف ، ولا قوة إلا باللّٰه .

تنازل بعض مدرسي « قبة النسر »
بالاستقالة أو التوكيل لمن هم أعلم منهم

بلغ حب الإنصاف والإخلاص وإسناد الأمور إلى أهلها في بعض المدرسين تحت قبة النسر إلى الاستقالة من وظائفهم ، أو التوكيل فيها إلى من هم أكفأ وأمثل . وقد عَدَّ شيخُنا القاسمي في كتابه « إصلاح المساجد من البدع والعوائد » رجالًا من هؤلاء في باب القضاء . ونحن نأثر عنه ما يتعلق بغرضنا :

قال رحمه اللّٰه : ومن ذلك تنازل السيد محمد العطار- أحد أجداد بني الحسيبي- عن تدريس صحيح البخاري تحت قبة النسر؛ لما سعى في توجيهه عليه ، إلى الشيخ يوسف الشهير بابن شمس ، وقراءة المذكور عنه بالوكالة إلى وفاته- قلت : عَدَّ له في « الحلية » أكثر من ثلاثين أستاذًا من فحول علماء الشام- قال : ثم مات رحمه اللّٰه سنة ١٢١٥هـ .

ومن ذلك نزول الوجيه أحمد أفندي المنيني من تدريس الحديث تحت قبة النسر بعد صلاة الجمعة ، إلى الشيخ سعيد الحلبي ، وقراءة المذكور عنه إلى وفاته . قلت : هو شيخ المحدثين ، من شيد ربوع العلم ، قرأ صحيح البخاري تحت قبة النسر في الأشهر الثلاثة؛ نيابة عن الشهاب المنيني ، وتوفي سنة ١٢٥٩ .

ثم قراءة ابنه الشيخ عبد اللَّه الحلبي بالوكالة عن ابن صاحب الوظيفة. تصدر بعد موت والده للإقراء والتدريس، وكان يقرأ صحيح الإمام البخاري تحت قبة النسر في كل يوم جمعة من شهر رجب وشعبان ورمضان، وتوفي سنة ١٢٨٦هـ.

ثم ختم المحدث المؤرخ القاسمي كلمته بقوله: هذا ما نحفظه ونأثره عن أشياخنا، وكله مما يشفُّ عن عقل وفضل، بل وإراحة نفس من عناء ما قد لا يتفرغ له، أو يكون الساخط عليه فيه أكثر من الراضي.

وإني أختم هذه النبذ التاريخية بكلمة جامعة لأوصاف من يصلُح للتدريس تحت قبة النسر، أو يحاول الإرشادَ والإصلاح في هذا العصر.

أيها السادة:

يستسهل من لا خبرة له ولا دربة أمرَ الإصلاح العام، مع أنه مطلبٌ عظيم لا يصلح له إلا كل من اتسعت معارفه وكثرت تجاربه، فإن إصلاح ما يطرأ من الخلل والفساد على الناس في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وآدابهم من أشقِّ الأمور، ولا سيما إذا تمكنت الأهواء من النفوس وطال عليها الزمن.

الواعظ الحكيم هو الذي يخاطب الناس بلسانهم، ويتحرى من أساليب القول ما يرى أنه ادعى إلى إقناعهم، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يُنْزِلُ الناسَ منازلهم[(١)]، ويخاطبهم على قدر عقولهم[(٢)]. ويقول صلوات اللَّه عليه: «كلموا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّبَ اللهُ ورسولُه؟»[(٣)].

المذكِّرُ أو الواعظ أو المرشد، هو كما وصفه بعض الأجلاء بقوله:

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ٤/١ بلفظ: «أنزلوا الناس منازلهم».

(٢) انظر اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة ص١٠٧ للزركشي، والمقاصد الحسنة ص١٦٤ للسخاوي. وهو حديث ضعيف.

(٣) ليس مرفوعًا، وإنما صح موقوفًا عن علي، أخرجه البخاري (١٢٧).

حافظ لحدود اللَّه ، قائم على إرشاد العقول وتهذيب النفوس وتصحيح المعتقدات وإبانة سر العبادات ، وإماطة ما غشى الأفهام القاصرة من غياهب الجهالة وتراث الضلالة ، واقف على مقاصد التشريع وحكمته ، عالم مواضع الخلاف والوفاق ، سائس لسامعيه بما يلائمهم من الأحكام . بل هو العامل الأكبر في إخراج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور العلم ، وتحريرهم من رق الخرافات والوهم . فالعالم كالسراج ، إن لم ينتفع بضوئه فلا فائدة في وجوده ، بل لا يكون العالم عالمًا حتى يظهر أثر علمه في قومه؛ إذ ليس مسئولًا عن نفسه وحدها ، بل عن عشيرته وأمته .

أيها السادة :

كان بعض الأعلام يأخذ على علماء الشام اشتغالهم بالحديث أكثر من التفسير ، ويقول : إن كتاب اللَّه هو الأصل الأصيل ، وإن أنظار الأمم وأفكارها متجهة إليه ، وحائمة حوله أكثر ، فلِمَ لا نتوفر على دراسته والدعوة إليه ودفع المطاعن عنه ، ونجعل السنة كما جعلها اللَّه مبينة له لا مستقلة عنه ، فندرسها دراسة تطبيق على كتاب اللَّه تعالى؟! .

قلت : هذا حق ، ولكن الإسلام هو القرآن والحديث ، وأن السنة الصحيحة هي شارحة للقرآن ومبينة له ، فهي تفصِّل مجملَه ، وتوضِّح مشكلَه ، وهل يستطيع مسلم أن يفهم أركان الإسلام البدنية أو المالية مثلًا كالصلاة والزكاة والحج والصيام ، على الوجه المطلوب ، من غير أن يدرس السنة والسيرة النبوية؟! .

فإلى بني قومي الأعزاء أوجِّه هذا القول ، وأدعوهم إلى إعادة هذه النهضة المباركة؛ كتابًا وسنة وعملًا بهدي السلف الصالح ، وإلى تجديد عهد أولئك الأعلام المدرسين تحت « قبة النسر » في الجامع الأموي من دمشق الشام ، الذين كانوا من مفاخر العروبة والإسلام .

المدار على التوحيد[1]

نثر جلالة الملك عبد العزيز آل السعود في كثير من المجالس العامة والخاصة دُررًا من القول، كان لها أحسن وقع وأبلغ تأثير في نفوس المستمعين. ومما كان يردده ويؤيده بالشواهد والبراهين أن مدار الأمة على التوحيد، وأن العرب لم تكن لهم وحدة حقيقية ولا جامعة عربية يحافظون عليها ويدافعون عنها إلا بالتوحيد الذي ألَّف بين قلوبهم، ووحد كلمتهم وعملهم، فصانوا دماءهم وحفظوا أموالهم، وقلصوا ظل القياصرة والأكاسرة عنهم، بل كسروا شوكة المستبدين الظالمين في أنحاء المعمورة ومزقوهم كل ممزق.

ذلك بأن عقيدة التوحيد التي تغلغلت في نفوسهم وجرت في عروقهم قد ناطت رجاءهم في اللَّه وحده، لا يسألون إلا إياه ولا يخشون أحدًا سواه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يُونس: الآية ١٠٧] وفي حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما: «إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[2].

لما أخذ العرب بهذه العقيدة المثلى تركوا عبادة الحجر والشجر والبشر والكواكب والملائكة، وعلقوا خوفهم ورجاءهم بفاطر الأرض والسموات، فطهرت عقولهم من لوثات الشرك والأضاليل، وزكت نفوسهم من الرذائل والنقائص، وأصبحوا علماء حكماء، لا تعرف الخرافات والأوهام إلى قلوبهم سبيلًا، وأخذت معارفهم حظها من الشيوع والانتشار، بحيث لم تبق أمة من أمم

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٢٧- ذي القعدة- سنة ١٣٤٥هـ.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٣، والترمذي (٢٥١٦). وصححه الألباني.

الأرض لم تقتبس من نورهم أو تعطر مسامعها بشذى ذكرهم الفياح.

قرأنا في فاتحة العدد الممتاز الذي أصدرته إدارة «أم القرى» الغراء يوم الثلاثاء (أمس) بمناسبة عودة جلالة الملك من الرياض: أنَّ ثلاثة آلاف من رؤساء القبائل العربية ومشايخها قد لبَّوا دعوة الإمام عبد العزيز، واجتمعوا لديه، واعترفوا أمامه بأنهم كانوا يشنون الغارات مع قبائلهم وعشائرهم، ويسفك بعضهم دم بعض، ويغيرون على المواشي. وبعد أن هداهم اللَّه تعالى للإسلام على يد الإمام، صاروا رحماء بينهم، تراهم ركعًا سجدًا؛ يبتغون فضلًا من ربهم ورضوانًا، وقد استعاضوا عن سفك الدماء وسلب الأموال وقطع السبل بمدارسة القرآن وتحصيل العلم، وتحري الرزق الحلال، وتقديم الزكاة الشرعية- وهي أحد أركان الإسلام الخمسة- وقد رأينا طائفة منهم في البلد الحرام، مجاورين لطلب العلم الشريف، فرأينا فيهم من الزهد والتقشف، وعزة النفس وعلو الهمة، ما يذكرنا بقول الإمام الشافعي رضي اللَّه عنه[1]:

عليّ ثيابٌ لو تباع جميعُها ... بفلسٍ لكان الفلسُ منهنَّ أكثرا
وفيهن نفسٌ لو تقاس بمثلها ... نفوسُ الورى كانت أعزَّ وأكبرا

وبعدُ، فأي حرج على فضل اللَّه تعالى في أن يعيد هذا الخلف مجدَ أسلافهم، ويحيوا ذكر آبائهم وأجدادهم بسعيهم واجتهادهم وتوفيق اللَّه تعالى لهم، ويصدق فيهم قول ذلك العربي الأبي[2]:

لسنا وإن أحسابُنا كرُمت ... يومًا على الأحساب نتّكل
نبني كما كانت أوائلُنا ... تبني ونفعلُ مثل ما فعلوا



(١) ديوان الإمام الشافعي ص٧. وفيه: «أجلّ وأكبرا».

(٢) انظر ديوان الحماسة ٢/ ٢٦٥، وزهر الآداب وثمر الألباب ١/ ٩٢، ولباب الآداب ١/ ١٤٦، والمستطرف ١/ ٢٨٠.

التوحيد والتجديد وكتاب «أعلام العراق»(١)

يظن بعض الناس أن دعاة الإصلاح والتجديد لأمر الدين والتوحيد- في هذا العصر- على أساس الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة ، وفي مقدمتهم رجل الإسلام والعرب الإمام عبد العزيز آل السعود ، إنما يحاولون إحياء التوحيد ، وإماتة ما عداه من علوم السلف وحضارتهم ، أو عدم الانتفاع بما تدعو إليه الحاجة من مخترعات الغربيين ومدنيتهم!! .

إن تعجب فعجبٌ هذا الزعم الباطل والتهمة الشنيعة ، بل الفرية الغريبة التي تخالف الحس والواقع .

إنَّ سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم ونقفو أثرهم ، قد جعلهم اللَّه تعالى هداة للناس في الدين والدنيا ، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة وما عليها من علوم وآداب وصناعة وعمران .

إن سلفنا الصالح رضي اللَّه عنهم كانوا أئمة في الدين ، أئمة في العلم ، أئمة في الصناعات ، أئمة في الإبداع والاختراع .

ونحن نتلو أخبارهم ونقتفي آثارهم وإن لم نبلغ شأوهم ، ونستفيد من مستحدثات الأمم المعاصرة ، كما استفاد سلفنا من مزايا الشعوب الغابرة ، وأليس استعمال البرق والهاتف والسيارات وحفر الآبار الارتوازية في الأرض المقدسة ، وجلب الآلات الميكانيكية اللازمة للتعمير والإصلاح المنتظر ، ومعمل النسيج الذي يشاد الآن في شارع جياد أمام المؤتمر والمعهد من دلائل السير على منهاج السلف ، والتقدم في مضمار الحياة؟ .

غير أنا نوجه النظر إلى أمرين مهمين :

أحدهما : أنا معشر المؤمنين الموحدين ، نسأل اللَّه تعالى أن لا يجعل الدنيا

(١) أم القرى-العدد ١٤٦- ربيع الآخر- سنة ١٣٤٦هـ .

أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، فإن توحيد الألوهية بإخلاص العبادة للَّه وحده، وإطراح العبادة لما سواه من حجر وشجر وبشر وملك- وكل ما خلا من شيء في الملأ الأعلى أو الملأ الأدنى- هو مناط النجاة في الآخرة، وليست الدنيا إلا دار سباق لها. وهو المقصد الأول الذي نزلت به الكتب وجاءت به الرسل، وتوارثه المجددون في كل عصر، وقاموا عليه خير قيام. وهو الذي يجب أن يكون رأس الدعوة، ويجاهد في سبيله كل من عاداه حتى يكون الدين كله للَّه.

الثاني: أنا نحاول أن نكون أمة ذات مدنية إسلامية، لا شرقية ولا غربية، أساسها الأخلاق والفضائل، وميزانها إقامة العدل بين الخلائق.

وهذا الطراز الممتاز من المدنية نقتبسه من نور العصور الذهبية للإسلام، ولسنا بحمد اللَّه في حاجة إلى الخروج عن ديننا ليقال عنا: إنا متمدنون كغيرنا! فقد ذاق الناس من ظلم المدنية الحديثة ما جعل أشدَّ الناس إيمانًا بها من قبل وكفرًا بدينه من أجلها؛ أشدَّهم بغضًا لها، وكراهية للمستبدين الظالمين من أهلها. وسبحان مقلب الأمور ومكيف العقول!!

أما المسلم الموحد والعربي الغيور فلم يتورط بها يومًا من الأيام؛ لأن له من مدنيته الصحيحة ما يجعله بعيدًا عن أن يكون هدفًا للأشراك والفخاخ التي تنصب فتصيب غيره.

لم يقتصر أمر الدعوة إلى الدين الخالص ومذهب السلف الصالح والحضارة الإسلامية العربية المصفاة من الشوائب على زمان خاص أو مكان خاص، بل هو عام في الأعصار والأمصار و«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه»[1] كما قال الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آله.

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦، ٧٣١١)، ومسلم (١٠٣٧/ ١٧٤، ١٩٢١/١٧١) من حديث معاوية والمغيرة رضي اللَّه عنهما.

ومن أشهر من دعا إلى التوحيد والتجديد في هذا العصر الإمام الكبير السيد محمود شكري الألوسي العراقي الشهير رحمه اللَّه تعالى ، وقد بسط ترجمته تلميذُه ووارث علومه ، وخلفه الكريمُ الأستاذ الشيخ محمد بهجة الأثري البغدادي ، في سفر نفيس ، سماه « أعلام العراق » شرح فيه سيرته العلمية والعملية شرحًا دل على مكانة السيد الفقيد ، وعلو كعبه في الدين والعلم والأدب ، وأنه كان في هذا العصر من أكبر أفراد المسلمين والعرب . وصدَّره بمقدمة شرح بها تاريخ أسرته ورهطه الأدنين ، وذيَّلها من كلمات التعازي وتآبين العلماء ومراثي الشعراء بشذرات هي إلى الحقيقة أقرب منها إلى الخطابة والشعر كما قال .

ومن عجيب شأن الناس أنه كلما قام مصلح بالدعوة إلى تجريد التوحيد واقتفاء أثر الرسول ﷺ والتمسك بسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، أطلقوا عليه لقب : وهابي . مهما تقادم عهده ، أو تنآى بلده!! حتى قال بعض أفاضل النجديين : صار اسم الوهابية علمًا على أهل الحق في كل زمان ومكان : ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ٨] .

إذن فلا عجب إذا لقب السيد الألوسي بهذا اللقب؟ فقد كان- رحمه اللَّه تعالى- من أكبر دعاة الحق وأنصاره ، ولكن دعاة السوء كانوا يرمون الوهابيين أنفسهم بما يملي عليهم الهوى والجهل ، كقولهم بأنهم أعداء الرسل ، أو يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ... إلخ .

وقد قال الأستاذ (البهجة) الأثري في (ص١٠) من كتابه دفاعًا عن الحق ، وردًا للباطل :

من تتبع الحقائق عرف أن هذا بهتان روَّجته السياسة على البسطاء باسم الدين والمذهب ، فإن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية ، ونهضة الأمير محمد بن سعود في تأييدها ، كل ذلك حمل الأتراك على حربهم والتشنيع على

معتقداتهم، والنيل منهم بضروب الوسائل. وقد حملوا كثيرين من سماسرتهم وكتابهم وصنائعهم على الحط منهم في جميع الأقطار الإسلامية؛ ليسقطوهم من الأنظار، ويضعفوا شأنهم!!

إلى أن قال: ولا أعلم متى ينتبه المسلمون من رقادهم ولا تروج عليهم أمثال هذه الدسائس التي خدرت أعصابهم وجعلتهم شذر مذر.

اللهم إن ذلك لا يتحمله قلب مليء بالإيمان، ولا يسيئه امرؤ رزق حظًا من الإسلام. اهـ باختصار.

ونَقَل عن مجلة «العالم الإسلامي» للمستشرق الفرنسي[1] لويزماستيون الشهير فصلًا يتعلق بالسيد الألوسي جاء فيه ما يأتي:

«ووهابية شكري الألوسي نشأت عن ولعه بإنقاذ الإسلام من الأخطار الدنيوية، والبدع المريبة المستحدثة في الأيام الأخيرة. وكان كسائر السلفيين يحب شخصيًا حركة المذهب الحنبلي الجديدة التي تشاهد في ديار نجد».

أقول: إن هذه الحركة المباركة قد عمت البوادي والحواضر، ونادى بها دعاة التوحيد والتجديد والإصلاح الديني في جميع البلدان الإسلامية، وصار لقب الوهابية علمًا على أهل الحق في كل زمان ومكان، كما أثرنا ذلك عن بعض فطاحل النجديين. وإنما أحب حزب الإصلاح في عامة الإقطار أهل نجد؛ لأنهم هم الذين جددوا أمر الدين، وأقاموا معالم التوحيد قولًا وفعلًا واعتقادًا، وقضوا على الوثنية قولًا وفعلًا واعتقادًا، فاستحق إمامهم ومن تبعه منهم بإحسان أن لقب مجدِّدٌ دينيٌّ حقًّا وصدقًا.

وممن استحق لقب وهابي بغيرته علي الدين الخالص ودعوته إليه مؤلف «أعلام العراق» سيدي الأستاذ البهجة، فقد لقي من عبدة القبور والأوهام ودعاة

---

(١) في الأصل: «الافرنسي».

الإلحاد والفساد ما يحتسبه عند ربه، ولم يبال بوشاية الواشين وإرجاف المرجفين. وكتابه «أعلام العراق»- الذي هو ذخيرة دين وعلم وأدب- شاهد عدل على حبه لمذهب السلف، وجريه عليه علمًا وعملًا، أكثر اللّٰه من أمثاله في العراق وسائر الآفاق.



توحيد الأمَّة بتوحيد الأئمَّة[1]

المسجد الحرام هو مهد الإسلام ومطاف المسلمين كافة، فما يظهر فيه من ألفة ومحبة، وما يتم فيه من إصلاح، يفوح شذى عرفه في سائر الأقطار الإسلامية، فيكون له أجمل وقع في نفس كل مسلم غيور على دينه وأمته.

لبثت جراثيم الفساد تفتك في جسم الأمة المحمدية دهرًا طويلًا، وكان المستبدون الظالمون ومن تبعهم من دعاة السوء يجعلون الدين الذي هو أقوى جامع للمسلمين ومؤلف بينهم أداةً لتفكيك روابطهم وحل عرى وحدتهم.

كان الدور الأول منذ قرن ونصف تقريبًا دور تكفير المسلمين بعضهم لبعض، وتلته حروب وفتن كقطع الليل المظلم، ونُبزَ إخوانُنا النجديون بأسوأ الألقاب، وافتريت عليهم مفتريات كانت تخدع الأغرار الغافلين، وتؤسف العقلاء العالمين بحقائق الأمور.

ومن هذه المفتريات: أن النجديين قاطبة يكفِّرون عامةَ المسلمين الأحياء منهم والأموات، من عصر الستمائة إلى عصرنا هذا، إلَّا من كان من أهل مذهبهم أو على طريقتهم!!

فأخذ علماء نجد الغيورون على الدين وحفظ وحدة الإسلام يؤلفون الكتب والرسائل، ويدفعون بها عن أنفسهم المطاعن والمثالب، ويبينون للناس حقيقة ما هم عليه من صحة المعتقد، ويبرؤون إلى المولى سبحانه مما عزي إليهم من المزاعم الباطلة، لا سيما تكفير المسلمين، اللهم إلا من أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة مجمعًا عليه إجماعًا صحيحًا. وهم يسترشدون في أعمالهم بنصوص الكتاب والسنة، وعمل النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم، وسنة الخلفاء

(١) أم القرى- جمادى الثانية- سنة ١٣٤٥هـ.

الراشدين من بعده. وقد طُبعت تلك الرسائل، ووزِّعت في كثير من الأمصار الإسلامية، فأزالت عن العقول الحيرى المسترشدة كلَّ شبهة، وكشفت عن وجه الحقيقة كلَّ تمويه وتضليل، وقرَّبت مسافة الخلف بين أمة التوحيد.

ثم إنَّ الإمام- الملك المحبوب- رأى أن أفضل ما تداوى به القلوب، وينتزع به منها منارات الشكوك: هو جمع المصلين في كل صلاة على إمام واحد، كما تقتضيه وحدة الإسلام التي بني عليها عمل السلف الصالح في خير القرون وأهداها، فأمر- أيده الله- أن يتناوب الإمامةَ عدَّةُ أئمةٍ من فقهاء المذاهب الأربعة يأتم بكل واحد منهم في نوبته جميع المصلين، فتم ذلك ولله مزيد الحمد على أحسن وجه، وعاد المسلمون في بيت الله الحرام كما كانوا جماعة واحدة.

قضى الإمام عبد العزيز آل السعود- أجزل الله ثوابه- بهذا التوحيد العملي على كل خلاف قديم، وأدخل عصر التفريق والتمزيق في خبر كان، وبات القول بأن النجديين يكفرون إخوانهم المسلمين وإخوانهم يكفرونهم أضحوكةَ العجائز والصبيان، وأسطورةَ الكذب والبهتان.

فنحن نذكِّر إخوانَنا المسلمين في سائر الأقطار الإسلامية بأن يحذوا حذو البيت الحرام قبلةِ الإسلام بالاقتصار على إمام واحد لكل صلاة توحيدًا للأمة وجمعًا للكلمة، ونحذرهم من ضرر تعدد الجماعة في وقت واحد.

ونرى أن هذا من أهم ما يجب أن يذكَّرَ به في الدروس، وينبه عليه في الخطب، وينشر على أعمدة الصحف؛ تحقيقًا لقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٢].



كتب الإلحاد والتخريف(١)

بدت طلائع النهوض والإصلاح في أفق عاصمة الإسلام وعرين الأمة العربية ، وأخذ الناس يؤمون الحرم الشريف لاستماع الدروس الكثيرة المنوعة ، ويذهبون بأبنائهم إلى المدارس النظامية لتلقي العلوم الدينية والمدنية على اختلاف أنواعها ، ويقتنون الكتب الوافدة بكثرة على التجار ، مما يبشر بحسن المستقبل ، ويذكر بالعهد الأول الأغر المحجل .

ولما كانت هذه النهضة الدينية المدنية يتوخى فيها أن تكون خالية من الشوائب التي تشوه سمعتها أو تعرقل سيرها ، وجب أن يجتنب منها نوعان :

١- كتب الإلحاد التي تفسد عقائد الأمة وأخلاقها ، وتذهب بمقوماتها ومشخصاتها وهما مادة حياتها :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت وإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

٢- كتب التحريف والتخريف التي تورث الأمة ضلالًا وخبالًا .

والكتب الوافدة على البائعين كالسيل الطامي ، تارة يقذف بالدر الذي يجمل قلادة النحر ، وتارة يرمي بالخزف أو الجيف التي تفسد برائحتها الصحة العامة وجو البلاد الصافي .

وإني أعرض أمثلة من كتاب واحد على القارئ المنصف؛ ليتأكد بها أني أنظر فيما أكتب إلى ما قال ، لا إلى من قال ، واعرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال :

« رباعيات الشاعر الزهاوي » (ج٣) :

قال في طليعتها مترجمًا نفسه تحت عنوان : « حياتي » : تعلمت كثيرًا من علوم الأولين فلم ترق لي!! .

---

(١) أم القرى- العدد ١٠٣- جمادى الأولى- ١٣٤٥هـ.

أقول : لم يبق مؤرخ منصف شرقي ولا غربي ، عربي ولا أعجمي ، إلا وشهد لسلفنا الصالح في قرونهم الثلاثة الأولى الذهبية- قرون التوسع في العلوم واستبحار العمران- بأنهم فجروا القرآن عيونًا ، واستنبطوا منه علومًا وفنونًا ، وصححوا ما نقلوه عن اليونان والروم والفرس والهنود ، ووضعوا في لغتهم أضعاف ما نقلوا إليها ، ولم يكن في الإمكان أبدع مما ظهروا به في حياتيهم الدينية والمدنية ، وسيرتيهم العلمية والعالمية . والمؤلف الشاعر لم يرق له ذلك من علوم السلف!! ولذلك أبرز للناس كتابًا دينيًا سماه : « الفجر الصادق » وأودعه الشبه والأوهام التي يوردها المشتبهون والواهمون على التوحيد الخالص ، وخلاصتها الحض على الاستغاثة والاستعانة بمن أرشدوا الناس إلى وجوب الاستعانة بالله وحده في جميع المطالب التي لا يقدر عليها أحد من البشر الأحياء ولا الأموات .

وبمثل إرشاد المؤلف وأمثاله قديمًا وحديثًا أضاع المسلمون دينهم ودنياهم ، وأصبح ميراثهم الذي ورثوه عن سلفهم الصالح نهبًا مقسمًا بين أيدي الطامعين فيهم ، وكانت نتيجة تلك المقدمات المضادة للعقل والنقل خروج قسم كبير من المتعلمين عن دائرة الإسلام ، مع أنهم لو فقهوه لأذعنوا أنه جاء لهدم تلك الأوهام الضارة بأهله : ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٩] .

ولو كان ترك وسائل النصر والظفر والاستنصار بغيره سبحانه مفيدًا لنا في شيء لكنا اليوم أسعد الأمم حالًا وأنعمها بالًا ، وأوفرها عزة وثروة وقوة ، ولكن تلك الخطة المعارضة للشرع والطبع والحس التي سلكها أولئك الناس ، لم تزد الأمة إلا نكالًا ووبالًا : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] .

قال المؤلف في رباعياته : وطبع لي ثلاث كتب ، اثنان منها فلسفيان ، والثالث في الرد على الوهابية- أي الكتاب الذي سماه : « الفجر الصادق »- قال : وسبب تأليفي لهذا الكتاب سياسي!! .

أقول : عجبًا له!! إن كان تأليفه لهذا الكتاب ناشئًا عن اعتقاد فتلك مصيبة ، وإن جرى فيه على منهج السياسيين الذين يقولون ما لا يعتقدون فالمصيبة أعظم .

وقد طبع حديثًا رد على هذا الكتاب للشيخ سليمان بن سحمان ، أحد أعلام نجد ، سماه : « الضياء الشارق » بدد بضياء حقائقه ظلام الأوهام الحالك .

وإلى القارئ الكريم مثالًا منه يتضح به الفرق المحسوس بين تشبث الرجل الغافل وتدين العالم الراسخ ، وليكن هذا المثال عبرة للخارجين على دينهم ، باعثًا لهم على التفكير فيما عادوه لجهلهم بحقيقته :

قال المحقق ابن سحمان[(١)] أمتع المولى به : وأما قوله : « فإن السكين لا يقطع بنفسه ، بل القاطع هو اللّٰه تعالى ، والسكين سبب عادي خلق اللّٰه تعالى القطع عنده » .

قال شيخ الإسلام : وهؤلاء هم الاقترانية الذين يقولون : إن اللّٰه يخلق عند السبب لا بالسبب ، ومن نحا نحوهم ..إلى أن قال : وأما أئمة السنة وجمهورهم فيقولون : ما دل عليه الشرع والعقل ، قال تعالى : ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: الآية ٩] ، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٧] .. وبعد أن أورد أمثلةً أخرى من الكتاب العزيز قال : ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة ، يخبر اللّٰه تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب . انتهى المقصود منه .

وقال ابن القيم- رحمه اللّٰه تعالى- : وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجردة نصبها اللّٰه تعالى أمارة على قضاء الحاجة ، فمتى وقف

(١) الضياء الشارق ص ٤٥٩. وانظر الصفدية ٢/ ٧٢، والجواب الكافي ص ٨.

العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قضيت وهكذا ، كما إذا رأيت غيمًا أسود بارقًا في زمن الشتاء فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر .

قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب ، والكفر والمعاصي مع العقاب ، هي أمارات محضة لوقوع الثواب ، لا أنها أسباب له . وهكذا عندهم : الكسر مع الانكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل ، ليس شيء من ذلك سببًا البتة ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا بمجرد الاقتران العادي ، لا التأثير السببي ..

قال ابن القيم رضي اللّه عنه : وخالفوا بذلك الحس والعقل والشرع والفطرة ، وسائر طوائف العقلاء ، بل أضحكوا عليهم العقلاء .. قال : والصواب أن هنا قسمًا ثالثًا غير ما ذكره السائل ، وهو أن هذا المقدور قُدِّر بأسباب ، ومن أسبابه : الدعاء فلم يقدر مجردًا عن سببه ، ولكن قدر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور ، وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر ، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه ..

إلى أن قال : وقد رتب اللّه سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة ، وحصول الشر في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع . اهـ .

لقد علم القارئ لما تقدم أن معلومات الزهاوي القديمة التي خالف فيها الشرع والعقل والحس ، وأودعها مؤلفه المذكور الذي سماه : « الفجر الصادق » هي التي أوجبت أن يقول : تعلمت كثيرًا من علوم الأولين ، فلم يرق لي منها شيء . وأن ينشد :

سئمت كلَّ قديم عرفته في حياتي

لأنه لم يدرس إلا القشور ، ولم يكن فجره صادقًا ، فهو قد انفق حياته الأولى في الباطل ، ولم يظفر منها بطائل .

*** بعض مؤلفاته الجديدة :**

قال : « ورسالة في لعبة (الداما) أودعتها ألفًا وخمسمائة لعبة ، ألف منها من مستنبطاتي وسميتها : « اشتراك الداما »!! »

أقول : للَّه دره من مخترِعٍ مجدٍّ! يشبه أديسون الأميركي باختراعه وإبداعه!

قال : « ونشر لي بعد برهة في « المؤيد » مقال دافعت فيه عن المرأة ، فأثار عليّ الشعب بإيعاز أعدائي » .

أقول : هو المقال الذي طعن به في الإسلام والقرآن وكان مبدأ انتقاله من السخف إلى الخرف ، ومن الجمود إلى الجنون . ولم يبق مجال لتحسين الظن بمثل هذا الكاتب ، فقد نشرت الصحف عن أمثاله أنهم أباحوا تزويج النساء المسلمات من غير المسلمين ، وصار الرجل منهم يذهب بأخته وبنته وزوجته إلى المراقص العامة ، ويقدمها إلى من تحب ويحب أن يرقص معها من الأجانب ، ويشرب الخمر هو على ذلك ، فرحًا فخورًا! فيا للخزي ويا للعار!! وقد قال النبي ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت »[(١)] .

وإليك بعض أبيات من « الرباعيات » التي يحذو بها حذو الخيام في رباعياته ، قال في أعدائه (ص٥٤) :

اغني نهاري باسمهم متكذبا والعنهم بالحق في الليل إن جنا

تغنيه باسمهم في النهار هو كذب ولعب ، لا يرضاه لنفسه الصادق المجد ،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود رضي اللّه عنه .

ولعنهم في الليل عبث لا يحملهم على شيء، ولا يصدهم عن شيء

وقال:

لا تقف في وجه لذاتك مكتوف اليدين أنت لا تأتي إلى دنياك هذي مرتين

ومثله قوله:

انعَم بعيش لذيذٍ فأنت سوف تموت ولا تدع فرصًا تُسعِدُ الحياةَ تفوت

وهذا إغراء بالفساد وإنكار للمعاد، يقلد به الخيام في رباعياته، أهكذا يكون نصح الشيخ للناس في آخر حياته؟!!

قال:

يَلقى العقولَ المستدلةَ هازئًا دينٌ قلوبُ الناس من أنصاره
للدين صرحٌ لا يُفَلُّ بحجَّةٍ فالعقل منحطمٌ على أسواره

وفي معناهما قوله:

العقل بحّاث يطالبُ أهله بدلائل والدينُ غير مطالب
العقل جاء مقررًا لحقائق والدين جاء ممثلًا لرغائب

أقول: ليس لمن يخالف في كلامه وأحكامه الحس والعقل والدين أن يوازن بين العلم والدين ويمثلهما متضادين وهما متفقان في تقرير الحقائق وبيانها. ومن طالع كتاب «العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية، ورسالة «التوحيد» للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، أو «دلائل التوحيد» لعالم الشام الشيخ جمال الدين القاسمي، وغيرها من كتب الأعلام قديمًا وحديثًا، علم جرأة هذا الرجل وغرابة عقله وشدة جهله بالدين.

ثم قال: «أثبت العلم باكتشافاته للناس أن الإنسان قردٌ راقي».

هذا من افتئاته على العلم وتقوله عليه ما لم يثبته، وقد قال الباحثون في أصل الإنسان: إنَّ تولُّد نوع من نوع أخس منه عن طريق التحول شيءٌ مجهول، وتولده

من نوعه هو الثابت القطعي، ولا يدفع المعلوم بالمجهول، ولا المحسوس بالمفروض.

وقال (ص١٦٠):

شككتُ في كلِّ شيءٍ حولي وما أنا أحمق　　وليس إلا وجودي في الكون لي بمحقق

وهذا منزع سوفسطائي في إنكار الحقائق الثابتة والعلم بها، فأين عقله المقرر للحقائق؟! أرأيتم كيف يخالف الحس والعقل والشرع، ويضحك عقلاء البشر بهذه الفلسفة الباردة، ثم يحاول أن يتكلم في العقل والدين!!

هذه نماذج مما قاله في حياته ورباعياته، عرضناها على أنظار القراء؛ ليحذروا من تضييع الوقت والعقل والدين بهذه الأقوال الباطلة.

فإن سأل سائل: لم خصصت أبيات الكفر بالذكر؟ أجيب؛ لأن السفهاء يجعلونه بمثلها حكيم العصر، وفيلسوف الشعر.

وممن فند مزاعم المؤلف وبيّن غروره وتهافته ابنُ أخيه الشابُّ الناهض السلفي، الشيخ إبراهيم أدهم الزهاوي، وله في ذلك بيتان مذكوران وهما:

يقولون الجميلَ أبرَّ عَمٍّ　　وأنت بجنبه فظٌّ غليظُ
فقلت لهم ألا يا قوم كفُّوا　　فإن صنيعه مما يُغيظُ

هذا قليل من كثير من مؤلف واحد فيه السم والدسم، فما بالك بسائر كتب الإلحاد والإفساد والخرافات والأوهام التي تمر علينا ونمر عليها؟ وما قول رجال العلم والدين ودعاة النهوض والإصلاح؟!



دروس التوحيد
في «المعهد الإسلامي السعودي»[١]

لا شك أن تعليم الدين هو الواجب الأول، فإن اللّٰه تعالى لم يخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، وعبادته لا تصح إلا على الوجه الذي شرعه، وهذا لا يعرف إلا بالتعليم. وأساس العلوم الدينية: هو التوحيد الذي نزلت به الكتب، وأرسلت به الرسل وارتقى به السلف الصالح ارتقاء فاقوا به الأمم، وسادوا به العالم.

فطريقة المعهد السعودي في التوحيد هي الطريقة التي جرى عليها السلف الصالح في إثبات ما أثبته اللّٰه تعالى لنفسه. فنقول: إن اللّٰه تعالى مستو على عرشه، بائن من خلقه، وعرشه فوق سمواته. وقد صرح بذلك الإمام أبو الحسن الأشعري إمام الأشاعرة في كتابه «الإبانة»، والإمام أبو محمد عبد القادر ابن أبي صالح الجيلاني شيخ الصوفية في كتابه «الغنية».

ولا نخوض في ذكر الألفاظ المخترعة المبتدعة التي أدخلها بعضُ أهل الكلام وغيرهم في العقائد، وذلك مثل: الجوهر، والجسم، والأعراض، والأغراض، والأبعاض، والحدود، والجهات، وحلول الحوادث، وغيرها.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه اللّٰه تعالى في «الصواعق المرسلة»[٢]: يسمع الغِرُّ المخدوع هذه الألفاظ فيتوهم منها أنهم ينزهون اللّٰه عمَّا يفهم من معانيها عند الإطلاق من العيوب والنقائص والحاجة، فلا يشك أنهم يمجِّدونه ويعظمونه.

ويكشف الناقد البصير ما تحت هذه الألفاظ، فيرى تحتها الإلحاد وتكذيبَ

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٢٨ في يوم السبت ١٩ ذي القعدة سنة ١٣٤٥هـ.

(٢) الصواعق المرسلة ٣/ ٩٣٤.

الرسل، وتعطيل الرب تعالى عما يستحقه من كماله. فتنزيههم عن الأعراض، هو جحد صفاته، كسمعه، وبصره، وحياته، وعلمه، وكلامه، وإرادته. وأما الأغراض، فهي الغاية والحكمة التي لأجلها يخلق ويفعل، ويأمر وينهى، ويثيب ويعاقب. وأما الأبعاض، فمرادهم بتنزيهه عنها أنه ليس له وجه ولا يدان. وأما الحدود والجهات، فمرادهم بتنزيهه عنها أنه ليس فوق السموات ربٌّ ولا على العرش إلهٌ. وأما حلول الحوادث، فيريدون أنه لا يتكلم بقدرته ومشيئته. اهـ باختصار.

وأنشد بعضهم في هذا المعنى أبياتًا منها:

وإن كان تنزيهًا جحود استوائه ... وأوصافه، أو كونه يتكلم

فمن ذلك التنزيه نزهت ربنا ... بتوفيقه واللَّه أعلى وأعظم

ولا نميل إلى مذهب الاقترانية في إسقاط الأسباب، القائلين: إن اللَّه يخلق عند السبب لا بالسبب. كقولهم: السكين سبب عادي لا يقطع بنفسه، ولكن اللَّه تعالى يخلق القطع عنده. وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب، لا أنها أسباب له، ولا ارتباط بينها إلا بمجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي.

قال الإمام ابن القيم رحمه اللَّه تعالى: وخالفوا بذلك الحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.. إلى أن قال: وقد رتب اللَّه سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشر في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع. اهـ.

ونقرر ما بسطه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه من أن الدليلين السمعي والعقلي القطعيين لا يتعارضان أصلًا، وإذا تعارضا كان أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا، والقطعي منهما هو المقدم.

كان حوار سلفنا الصالح- رضي اللَّه عنهم- مع الفِرَقِ التي ظهرت في عصورهم، وشاعت مقالاتهم في الناس، كالقدرية، والخوارج، والجبرية، والجهمية، والمرجئة، والوعيدية. وقد انتشرت في زماننا شبه وشكوك في دين الحق لأقوام آخرين، كدعاة التثليث، والإلحاد، والتحريف، والتخريف، والتفرنج!!

وفي كتب دعاة الإسلام وحماته دفع لباطلهم، وكبح لجماحهم، ونحن نستعين باللَّه، ثم بقوة التربية الإسلامية الطاهرة، وبكتب الردود القيمة على تزييف أقاويلهم، ورد أباطيلهم، وباللَّه التوفيق.



دروس الدين ، والجيل الجديد[١]

تمهيد :

إن العرب لم تكن لهم وحدة حقيقية ، ولا جامعة عربية يحافظون عليها ويدافعون عنها إلا بالتوحيد الذي ألف بين قلوبهم ، ووحد كلمتهم وعملهم ، فصانوا دماءهم وحفظوا أموالهم ، وقلصوا ظل القياصرة والأكاسرة عنهم ، بل كسروا شوكة المستبدين الظالمين في أنحاء المعمورة ومزقوهم كل ممزق .

ذلك بأن عقيدة التوحيد التي تغلغلت في نفوسهم وجرت في عروقهم ، قد ناطت[٢] رجاءهم في اللَّه وحده ، لا يسألون إلا إياه ، ولا يخشون أحدًا سواه : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: الآية ١٠٧] وفي حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما : « إذا سألت فاسأل اللَّه وإذا استعنت فاستعن باللَّه »[٣] .

لما أخذ العرب بهذه العقيدة المثلى ، تركوا عبادة الحجر والشجر والبشر والكواكب والملائكة ، وعلقوا خوفهم ورجاءهم بفاطر السموات والأرض ، فطهرت عقولهم من لوثات الشرك والأضاليل ، وزكت نفوسهم من الرذائل والنقائص ، وأصبحوا علماء حكماء لا تعرف الخرافات والأوهام إلى قلوبهم سبيلًا ، وأخذت معارفهم حظها من الشيوع والانتشار ، بحيث لم تبق أمة من أمم الأرض لم تقتبس من نورهم ، أو تعطر مسامعها بشذى ذكرهم الفياح .

لا شك أن تعلم الدين هو الواجب الأول ، فإن اللَّه تعالى لم يخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، وعبادته لا تصح إلا على الوجه الذي شرعه ، وهذا لا يعرف

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٥٥- جمادى الأولى ١٣٦٦هـ.

(٢) ناط ينوط نوطًا : إذا علق به الشيء وعهد به إليه . (معجم تصحيح لغة الإعلام » ص٢٦٣.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، والترمذي (٢٥١٦) . وصححه الألباني وتقدم .

إلا بالتعلم ، وأساس العلوم الدينية : هو التوحيد الذي نزلت به الكتب ، وأرسلت به الرسل ، وارتقى به السلف الصالح ارتقاء فاقوا به الأمم وسادوا به العالم .

يظن بعض الناس أن دعاة الإصلاح والتجديد لأمر الدين والتوحيد في هذا العصر على أساس الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة التي قال اللّٰه تعالى فيها : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] يحاولون إحياءَ التوحيد وإماتة ما عداه من علوم السلف وحضارتهم ، أو عدم الانتفاع بما تدعو إليه الحاجة من مخترعات الغربيين ومدنيتهم!!

إن تعجب فعجبٌ هذا الزعم الباطل والتهمة الشنيعة ، بل الفرية الغريبة التي تخالف الحس والواقع!! .

إن سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم ، ونقتفي أثرهم ، قد جعلهم اللّٰه تعالى هداة للناس في الدين والدنيا ، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة وما عليها من علوم وآداب وصناعة وعمران .

إنا نحاول أن نكون أمة ذات مدنية إسلامية ، أساسها الأخلاق والفضائل ، وميزانها إقامة العدل بين الخلائق ، وهذا الطراز من المدنية نقتبسه من نور الإسلام وهدى القرآن .

الإسلام دين عام لجميع الشعوب والأقوام : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٨] ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٠٧]

والقرآن هو الذي هدى من دانوا به من الأمم إلى جميع ما تمتعوا به من صنوف النعم ، وهو الذي أظهر على أيديهم تلك المدنية الزاهرة التي جددت ما اندرس من المدنيات الغابرة ، وأوجدت أصول مخترعات الأمم المعاصرة .

وبناءً على هذا الأساس نوجه الأفكار والأنظار إلى ما يأتي في دروس التفسير :

(يتبع)

دروس الدين، والجيل الجديد(١)

[٢]

في دروس التفسير

[١- بيان أن القرآن الحكيم هو الذي هدى السلف إلى الجمع بين مصالح الروح والجسد. فهم بعد أن سمت عقولهم بالتوحيد، وزكت نفوسهم بضروب الأخلاق والعبادات، عنوا أشدَّ العناية بالعلوم والفنون النافعة التي عدَّها الإسلام من الفروض، وأوجبها على الأمة إيجابًا لا هوادة فيه، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ١٠١] وهذا النظر علمي عملي ينتج أفضل النتائج والثمار. وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: الآية ١٣] وهذا التسخير تسخير تمكين وانتفاع واكتشاف واختراع. وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: الآية ٢٩] وهذا خطاب عام لهذه الأمة، يدعوهم ويوجه نظرهم إلى ما خلق تعالى في هذه الأرض من الكنوز والمعادن، ويرشدهم إلى الاستفادة منها](٢).

٢- بيان موافقة تعاليم القرآن وهدايته لمصالح البشر في كل زمان ومكان، وأن مثل هذه الآيات الكريمة السابقة هي التي أرشدت سلفنا الصالح إلى ما في السموات من أسرار ومنافع وما في الأرض من كنوز وذخائر، فارتقت عقولهم وأفكارهم بالعلوم الإلهية والفنون الصناعية ارتقاءً سادوا به الأرض وساسوا به العالم سياسة هي في نظر المطلعين على تاريخ الأمم القديمة والحديثة أفضل مثال العدل والرحمة. ثم بيان أن شقاء البشر الحاضر العام لأمم الحضارة وما فيها من

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٥٦- جمادى الثانية ١٣٦٦هـ.

(٢) تكرر ما بين المعقوفين في المقال السابق وفي هذا المقال، فناسب أن يوضع هنا فقط.

فوضى الآداب والاجتماع، لا يزول إلا باتباع هداية الدين.

٣- تطبيق ما في القرآن الحكيم من المواعظ والعبر على حال أهل هذا العصر، والإتيان بالشواهد والأمثال على ذلك، وبيان الفرق بين ماضي المسلمين وحاضرهم، وحجة القرآن الكريم عليهم.

وهذا كله من موضوع علم التفسير. تذكر هذه الآيات الكريمة بمناسباتها، وتفسر بالظاهر المتبادر منها، بأسلوب ينطبق على أذواق الطلاب وأفهامهم ويحملهم على العمل بها في أنفسهم وفي أمتهم.

في دروس التوحيد

مما يجب بيانه في دروس التوحيد قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية[١].

وهذا يبيِّنُ أنَّ العرب كانوا في جاهليتهم مؤمنين بوجود اللَّه تعالى، موحدين له في أفعاله من خلق ورزق، وإحياء وإماتة، وتصريف لجميع الأمور. وهذا هو المسمى: «توحيد الربوبية» ويستشهد لذلك بالآيات الكريمة، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨]، وكقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يُونس: الآية ٣١]. الآية، وكقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] الآيات.

وإنما كان شركهم في «توحيد الألوهية» أي: في توحيد العبادة، وهو أنهم لم يقصروا عبادتهم بأنواعها على مستحقِّها، وهو اللَّه وحده، كالدعاء،

(١) ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٠١.

والخوف والرجاء، والاستعانة والاستغاثة، والذبح والنذر؛ ليقربوهم إلى الله، كما زعموا، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] الآية. وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يُونس: الآية ١٨] الآية.

فرد عليهم هذا الزعم الباطل بهذه الآيات نفسها، وبالآيات السابقة في توحيد الربوبية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ [التّوبَة: الآية ٦٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ [يُونس: الآية ٣١] وأقام عليهم الحجة بما أقروه من انفراده تعالى بأفعال الربوبية على ما أنكروه من وجوب إفراده تعالى بالعبادة.

ومن صنيعهم أنهم كانوا في الشدائد يخلصون لله في الدعاء، كما نص علينا من شأنهم بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٥].



دروس الدين، والجيل الجديد[(١)]

[٣]

في دروس الفقه

١- تُشرح في دروس الفقه أركان الإسلام الخمسة التي وردت في حديث: « بني الإسلام على خمس » [(٢)]. ويُبيَّن معنى كلمة التوحيد التي هي ركن الدين وأساسه الأعظم- أي: لا إله إلا الله- وأنها مسقطة لجميع آلهتهم- أي: العرب قبل الإسلام- هادمة لأنواع عبادتهم، ومثبتة لعبادة اللّٰه وحده الذي وحدوه بربوبيته- أي: بأعماله- ولم يوحدوه بألوهيته- أي: بعبادتهم له-

فمعنى « لا إله »: نفيٌ لكلِّ معبودٍ في الوجود، وإبطالٌ لعبادته. وكلمة « إلا اللّٰه »: إثبات لعبادة المعبود بحق وحده، وهو اللّٰه تعالى.

ولو كان معناها: « لا خالق إلا اللّٰه » أو ما هو في معنى ذلك من أعمال الربوبية؛ كالرزق، والإحياء، والإماتة، لما استكبروا عن النطق بها؛ لأن هذه الأفعال لم يدَّعوها لآلهتهم. وقد تقدم بيان هذا في توجيهات التوحيد.

فيجب على الأساتذة أن يشرحوا هذه الحقيقة؛ لأنها أصل الأصول وحقيقة الحقائق.

٢- تبيان المقاصد الدينية والحكم الاجتماعية للصلاة والزكاة والحج والصيام، وتبيان فوائد العبادات في معترك الحياة العملي، والجهاد القومي.

فالصلاة الروحية البدنية التي هي فرضٌ عامٌّ على كلِّ مكلَّف تنهى عن الفحشاء، وأشد الفواحش والمنكرات فتكًا وهتكًا هي تلك الجيوش المعنوية التي

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٥٧- جمادى الثانية- ١٣٦٦هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي اللّٰه عنهما.

فتحت بلادُ الشرق لها عقولَها وجسومها وجيوبها ، كالخمر والميسر ،والزنا والربا ، والانتحار . فكثير ممن أضاع الصلاة واتبع الشهوات وقع في هذا التيار الذي أسلمه إلى الجنون أو المنون ، فكان ذلك من أشد المصائب على الوطن .

والصيام الذي يدعو إلى إمساك المعدة عن الطعام وسائر الأعضاء عن الآثام ، وصرف جميع القوى والمواهب فيما خلقت له ، يعلِّم الثبات على خلقٍ- أي : مبدأ- قويم لا محيد عنه . فالصائم الذي يغلب عقلُه شهوتَه ، ولا يخون دينه بالأكل نهارًا سرًّا أو علانية ، لا يمكن أن يخون اللهَ ورسولَه ويخون أمتَه .

والزكاة : إعطاءُ شيء معلوم من المال للفقراء والمساكين- الذين أقعدهم العجز عن العمل ، دون الكسالى المتسولين القادرين على الأكل من كسب أيديهم- وبقية الأصناف الثمانية في آية : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾

[التوبة: الآية ٦٠]

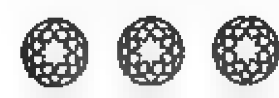
فإذا حُفِظَت الزكواتُ والوصايا لمستحقيها ، ووزَّعتْها عليهم جمعياتُ التعاون على البر والتقوى؛ ذوات الاختصاص بتمييز المستحقين من غيرهم ، كانت هذه أفضل طريقة تجمع بها الأموال من المحسنين؛ لإطعامهم وإيوائهم وتعليم أبنائهم .

والحج أعظم مؤتمر إسلامي حر ، وأكبر نقابة في الدنيا تبحث في شؤون المسلمين ومصالحهم ، وتوازن بين ماضيهم وحاضرهم ، وتدافع عن حقوقهم وحرياتهم ، وتؤلف بين شعوبهم وقبائلهم .

ثم هو فريضة الإسلام ، والركن الاجتماعي العام الذي يربط أفراد الأمة الإسلامية بعضهم ببعض ، ويشد أواصر التآخي والتراحم بينهم ، وينزع الضغن والحقد من نفوسهم فيصبحون بنعمة اللّه إخوانًا .

كلمة الختام

المعلمون ورثة الأنبياء في تعليمهم وأخلاقهم ، ومن شأن الأساتذة أن يكونوا من أكمل البشر وأفضلهم في آدابهم وأعمالهم ومعاملاتهم ، ويجب أن تتجلى فيهم مزايا العبادات المذكورة وفوائدها ، وأن يكونوا هم صورة كاملة لها ، فهم القدوة الصالحة التي ينشدها الطلاب والمدارس ، والمثلُ الصالحة تستملى من صفاتهم وأعمالهم ، لا من الكتب التي بين أيديهم فحسب . والرجاء في الأساتذة أيضًا أن يصحبوا طلابهم إلى المساجد ، ويكونوا أئمة لهم في بعض الصلوات ، ومؤتمين بهم في بعضها الآخر . ولا يرى الطلاب من عملهم مأخذًا لهم يتمسكون به- كعادة التدخين الضارة مثلًا- بل يجب أن يلاحظوا أنهم ليسوا أشخاصًا عاديين؛ لأنهم يربون أرواحًا ، ويصلحون إصلاحًا ، فبهم يقتدى ، وبهديهم يهتدى . وليذكروا قول المصلح الأعظم ﷺ : « من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .



(١) أخرجه مسلم (١٠١٧/١٥) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

دروس التوحيد والتأريخ[١]

إني- والذي نفسي بيده- لأعجب كلَّ العجب ممن يقفون على تأريخ الإسلام ، وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وممن يعلمونهما في المدارس ، ثم هم يغفلون عن قضية من أهم قضايا هذا التاريخ ، وأشدها ارتباطًا بعلم التوحيد ، وتأثيرًا في تهذيب النشء الإسلامي في عموم أقطار الدنيا ، وإنشائه صحيحَ العقل سليم الفطرة ، بعيدًا عن كل لوثة وثنية أو جاهلية .

حقًّا على من ألمَّ بالسيرة النبوية ، وشدَّ طرفًا من تاريخ الصدر الأول للإسلام ، أن يتفهم الحوادث الإسلامية الكبرى ، والمسائل الشرعية المهمة؛ ليتعرف منها كيف كان الصحابة ، رضوان اللَّه عليهم ، يتحاكمون إلى رسول اللَّه ﷺ في عهده . ثم كان يستفتي بعضُهم بعضًا عن كلٍّ ما حدث لهم من بعده .

وكل من أحاط بالسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين خبرًا ، وجرى عليها عملًا ، أنكر أشدَّ الإنكار ما يضادها من البدع والضلالات ، وضروب السخف والخرافات ، وتمسك بقول النبي ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »[٢] .

لو ربط معلمو التاريخ الإسلامي في أقطار الأرض علمَ التاريخ الإسلامي بالتوحيد- وهما متلازمان- ولقَّنوا ناشئة المسلمين عقائدَ الصدر الأول وأعمالهم حينما كانت تدهمهم الحوادث وتشتد بهم الخطوب؛ لصحت عقائد المعلمين ، ولما رأينا منهم من يميلون إلى شيء من الإلحاد أو التخريف ، بل لما رأينا العوام

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ٢٩٣- صفر- ١٣٤٩هـ.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٦، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي اللَّه عنه وتقدم تخريجه .

في البلدان الإسلامية يعكفون على طلب الحاجات من الأموات ، وإذًا لتم توحيد التربية العقلية والنفسية التي ينشدها المصلحون ، ويلوب عليها طلاب توحيد الثقافة العربية ولا يهتدون ، وكيف يهتدون وهم يهيمون في كل واد ، ويسلكون كل سبيل إلا سبيل الرشاد؟! فسبحان الذي خلق العباد!! .

وإني موردٌ طرفًا يسيرًا من أعمال الصحب الكرام ، لا سيما الخلفاء الراشدين الذين من تمسك بسنتهم نجا ، ومن شذ عنها شذ في النار ، « وستتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة في الجنة » . قيل : ومن هي يا رسول الله؟ قال : « ما عليه أنا وأصحابي »[1] .

بقي النبي- بأبي هو وأمي ﷺ- قبل الدَّفن ثلاثة أيام ، والنزاع قائم بين الصحب الكرام على أمر الخلافة ، حتى بايعوا أبا بكر رضي اللَّه عنه ، ولم يسألوا النبي ﷺ عمن هو الأحق بها بعده!! .

وكانت وقعة الجمل بين أحب نسائه إليه عائشة بنت الصديق رضي اللَّه عنهما ، وعلي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه ، ابن عمه وحامل ذريته ، وأبى السبطين الشهيدين ، وسُفكت دماءٌ غزيرة وعزيزة ، ولم يستفتوه في شيء قبل القتال ولا بعده ، وهو ﷺ دفين في بيت عائشة بين سمعهم وبصرهم!!

وجرت وقائع صفين بين علي ومعاوية ، وكانت أعظم هولًا وأشد فتكًا ، ولم ينقل أن أحدًا منهم استنجد بالنبي ، أو استغاث به ، أو سأله عن حكم هذه الحرب ، أو التي قبلها!!

وجمع القرآن الكريم في عهد الصديق ، ووقع الخلاف أولًا في جمعه ، ولم يستفتوه في ذلك ، وكانوا يسألون النبي ﷺ عن كل ما عرض لهم من الأمور؛

---

(١) أخرجه أحمد ١٠٢/٤- من حديث معاوية رضي اللَّه عنه ، وأخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي اللَّه عنهما . وصححه الألباني وانظر الصحيحة (٢٠٤) .

فصار يسأل بعضهم بعضًا، ولم يجيئوا إلى قبره فيسألوه عن شيء!!

وقال عمر رضي اللَّه عنه: اللهم كنا إذا أجدبنا نستسقي بنبيك محمد ﷺ فتسقينا، والآن نستسقي بعمه العباس[١]. فطلبوا الدعاء من عمه ولم يطلبوه منه كما كانوا يفعلون في حياته!!.

وقال عمر أيضًا: ثلاث مسائل وددت لو أني سألت رسول اللَّه ﷺ عنها[٢]. وذكر مسألة الكلالة، وإرث الجد مع الإخوة، وبابًا من أبواب الربا، وكان يأسف لعدم سؤال النبي عنها في حياته، ولكنه لم يسأله عنها بعد وفاته!!

وكانوا يضربون أكباد الإبل من الشام إلى المدينة المنورة؛ ليسألوا عائشة عن حديث سمعته من النبي ﷺ، فكانت تجيبهم، ولم يسألوه وهو صلوات اللَّه عليه مدفون في بيتها!!

ومضت القرون الثلاثة المفضلة، وكل طبقة كانت تسأل من فوقها وتستفتيهم، ولم يسألوا النبي ﷺ بعد وفاته عن شيء!!.

وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦] من سورة الفاتحة التي يقرأها في كل ركعة من ركعات الصلاة كل مسلم مكلف على وجه الأرض إرشادٌ لنا أن نطلب منه تعالى كلَّ ما نرجوه في دعائنا كفاحًا- بلا واسطة- والهداية المطلوبة في الآية هي أشرف ما يطلب وأعز ما ينال، فإذا فرض طلبها في الصلاة بلا واسطة، فما دونها أولى بالطلب والسؤال بلا واسطة!!

وهذا فخر الدين الرازي إمام علم الكلام في عصره يقرر توحيد العبادة على أحسن وجه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧١٠) من حديث أنس رضي اللَّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٨٨).

﴿دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦] ، قال في تفسيره[(١)] : هذه الأسئلة جاءت أجوبتها على ثلاثة أنواع ، فالأغلب فيها أنه تعالى لما حكى السؤال قال لمحمد : « قل » ، وفي سورة واحدة جاء الجواب « فقل » « قال » : أما الصورة الثالثة : وهي في هذه الآية . قال : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦] ، ولم يقل : قل إني قريب . فتدل على حال تعظيم الدعاء من وجوه :

الأول : كأنه تعالى قال : عبدي ، أنت إنما محتاج إلى الواسطة في غير وقت الدعاء ، أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك . اهـ .

أقول : هذه هي أعمال الصحابة ، رضوان اللَّه عليهم ، حينما هاجمتهم الخطوب ، واستمرت بينهم نيران الحروب ، ووقعت لهم مناظرات كالمناظرة التي جرت بين الخليفة الأول الصديق الأكبر وعمر رضي اللَّه عنهما في قتال مانعي الزكاة ، وكالخلاف الذي وقع في إرسال جيش أسامة بن زيد الذي عقد لواءه النبي ﷺ ليسير إلى بعض جهات الشام ، فلم يسألوا نبي اللَّه عن شيء من ذلك أحوج ما كانوا لسؤاله ، وأحرص ما كانوا على العمل بمقاله!!

وكان النبي ﷺ هو الذي يقسم بينهم الأعطيات والمغانم ، ويكون فيهم في الغزوات ، ويرسل منهم السرايا ، ولم يقع شيء من ذلك له بعد وفاته!!

والحاصل أن نبي اللَّه ﷺ كان مرجعهم في الدين والدنيا في حياته ، فصاروا يرجعون إلى ما عرفوا من سنته بعد وفاته . وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة ، ولكن مدرسي تاريخ المسلمين في الأمصار الإسلامية قد قصروا فيما يجب عليهم من البيان ، وفي عدم العناية بالجمع بين حوادث التاريخ ومسائل الدين ، والكتب الكلامية المذهبية المتداولة لم تبين العقائد فيها على قواعد الأدلة ، ووصف ما كان عليه

(١) تفسير الرازي (١/٧٧٩) .

في القرون المفضلة أهل هذه الملة، اللهم إلا الكتب والرسائل التوحيدية التي يتلقاها أبناء نجد على مشايخهم الأجلاء، والتي يطبعها ويوزعها في نجد وسائر الأمصار الإسلامية، إمام الموحدين وأكبر دعاة الدين الملك عبد العزيز آل سعود، أيده اللَّه بدوام توفيقه ونصره، وأمتع المسلمين بصالح أعماله وطول عمره، فهي نسيج وحدها في بناء العقائد على النصوص، والجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول على أفضل الوجوه، وهي حافلة بإيراد الشواهد التاريخية التي تكشف لك عما كان عليه النبي وصحبه.

ولكن من المؤسف أن يبقى مذهبهم- الذي هو مذهب السلف الصالح بعينه- مجهولًا إلى الآن لدى بعض الأفراد من بعد أن انتشرت كتبهم في عامة البلاد، وظهرت دعوتهم كالشمس ليس دونها سحاب، وتقلص في الأمصار الإسلامية ظلُّ العصبيات المذهبية والسياسية التي كانت مستحوذة على بعض النفوس.

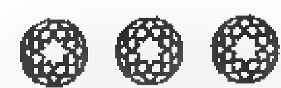
وأكتفي بذكر مثالين غريبين في هذا الباب:

أحدهما: أني كنت مرة في زيارة الأستاذ الكريم السيد حمد السنوسي الكبير- نزيل مكة المكرمة الآن- في دار الأمير سعيد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الشهير، وكان في زيارة حضرته طائفةٌ من أهل العلم. فجرى ذكر إخواننا النجديين، فأخذ بعضهم يعزو إليهم أشهر مفتريات خصومهم عليهم! ولما ذكرت لهم نبذة من عقائدهم الصحيحة المنشورة في مجموعة «الهدية السنية» الشهيرة، ومنها قولهم: والذي نعتقده أن رتبة نبينا محمد ﷺ هي أعلى مراتب المخلوقين على الإطلاق، وأنه حي في قبره حياة برزخية فوق حياة الشهداء... إلى آخر ما ذكرت. تعجبوا، وقال لي واحد من أهل العلم: يا فلان، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة! فغلبني الضحك، وقلت: لقد كانت الألسنة

والأقلام وهي تذيع بأنهم من صميم أهل السنة والجماعة، وأن ليس بيننا وبين معرفة ما هم عليه إلا مطالعة كتبهم أو مخالطة بعضهم.

الثاني: أن فاضلًا من كبار مشايخ مدينة حلب، ينشر الآن سلسلة مقالات في بعض صحفها تحت عنوان «جمع الكلمة مع إخواننا النجديين»، يتساءل فيها عن حقيقة مذهبهم، وتارة يحكي عنهم ما هم براء منهم ويرجو أن لا يصح فيهم ذلك، وتارة يعتذر عنهم، يحاول جعل الخلاف لفظيًا بينهم وبين غيرهم في أهم المسائل، يفعل كل ذلك حرصًا على جمع الكلمة. وأنا قد أوردت في مقالي هذا شيئًا من أعمال الصحب الكرام؛ ليعلم أنها هي عين مذهبهم، وأنهم لا يخرجون عن هدي النبي الأمين، ولا الخلفاء الراشدين. ولا يُصلحُ آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلح أوَّلها، كما قال مالك إمام دار الهجرة، رضي اللَّه عنه.

فإلى رجال الدين والتاريخ والعلم الصحيح أوجه كلمتي هذه؛ راجيًا أن يقرأوا العقائد الدينية بالمشاهد التاريخية؛ رحمةً بهذه الأمة، وحفظًا لجمع الكلمة، وليكون علم العقائد لدى الطالب كسائر العلوم التي يطغى[1] فيها العلم على العمل، ولكي لا تضيع ثمرة من دروس العقائد والتاريخ التي يقضي الطالب في دراستها زمنًا غير قليل. واللَّه هو الموفق والمعين.



(١) غير واضحة بالأصل ولعل المثبت هو الصواب.

اللغة العربية والشريعة الإسلامية[١]

لما كنت في مؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقد بمكة المكرمة عام ١٣٤٤هـ و١٩٢٦م بدعوة الإمام العادل جلالة الملك المفدى عبد العزيز آل سعود، أيده اللّٰه بروح من عنده، اقترحت يومئذ على المؤتمرين أن تكون اللغة العربية لغةً رسمية للمسلمين كافة، تدرَّس في جميع الأقطار الإسلامية؛ تأييدًا للوحدة الإسلامية، وإعزازًا للغة القرآن. فقبلَ المؤتمرون جميعًا هذا الاقتراح بمزيد الارتياح، وتم الإجماع على ذلك. وهل كان غير العرب لولا الإسلام، وحرصهم على فهم القرآن والعمل به، وعلى توحيد الثقافة بيننا وبينهم، وسيرهم على منهج واحد معنا؟! هل كانوا لولا ذلك كله يرضون بأن يكون العرب قومهم؟ وهل كانوا يفضلون هذه البلدان العربية على بلادهم، وقومنا على أقوامهم، والشريعة الإسلامية على سائر القوانين؟! اللهم لا!

ولقد دعا الداعون في الأقطار العربية إلى الوحدة العربية، وعقدت المؤتمرات في عواصم الممالك العربية لتأييدها وتحقيقها، وتبادَلَ الأجلَّاء الأعاظم ملوك العرب ورؤساء جمهورياتهم وحكوماتهم الرسائلَ والوفودَ في سبيلها، وأعلنت الصحف بلسان الأمة العربية شكرها واغتباطها، وعقدت المقالات الكثيرة حولها، وتم تأليف « جامعة الدول العربية » وللّٰه الحمد. إنما تحتاج هذه الجامعة العربية إلى قانون عام تتمشى عليه في سيرها، وتبلغ به هدفها الأسمى وسعادتها العظمى، وتعيش به ناعمة في ظلال النظام والسلام.

ولن تسعد أمة من الأمم ما لم يكن نظامها مستمدًّا من روحها متفقًا مع تاريخها محققًا لمرامها، وأنَّ لكل أمة منهاجًا تسير عليه وخصائصَ تحافظ

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٤٥- ربيع الأول- ١٣٦٦هـ.

عليها ، وأنَّ الأمة التي تأخذ قواعد الحياة وأصولها من غيرها- ولا تعتَبِر الفروقَ في الطباع والأخلاق ، ولا تأثير البيئات والأقاليم- لا يمكن أن تعيش لنفسها ، ولا أن تحتفظ بوجودها ، وأنَّ عندنا- معشر العرب- شريعةً عادلة موافقة لعقائدنا وأحوالنا الاجتماعية ، فعلينا أن نعمل بها ، فهي تقيم العدل وتحفظ الأمن . ولا تزال البلاد التي تعمل بهذه الشريعة- كهذه المملكة العربية السعودية ، وعلى رأسها جلالة المليك العربي العظيم عبد العزيز- هي أسعد حظًّا ، وأهنأ عيشًا من غيرها .

والسعادة في هذه البلاد تنبني على أصلين اثنين :

الأول : التربية الدينية التي هي أقوى مهتذب للنفس وزاجر عن الشر .

الثاني : اعتقاد أن كلًّا مأخوذ بذنبه ، وأن كلَّ من يقوم بما تحدِّثه به نفسُه من قتلٍ أو جرح يُنفَّذُ فيه مِثلُه في الحال ، وكم من نقمة أورثت نعمة ، وأنَّ القتل والقطع والجلد يراد منها إصلاح الفرد والمحافظة على المجموع .

والعجب كل العجب ممن يُكبِرُ أمرَ الجزاء ويغفلُ أو يُغضي عن السبب ، أو ينكر القصاص العادل ، ولا يعظم الذنب!! ليس في قصاص القاتل الذي يتعلق به الحق الشخصي والحق الإلهي والحق العام شيء منكر ، ولكنه في الجريمة التي أفضت إلى القصاص الذي أخذ المجرم بذنبه ، وكان فيه حياة البرآء وسلامتهم وإذعان القرابتين للحكم العادل ، وإزالة الوغر والضغن ، وكف الأذى والعدوان ، قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩] .

ثم إني أذكِّر شبابنا العربي الناهض بما للإسلام من أثر في وحدتنا العربية الموروثة؛ ليعرفوا له حقه ويقدروه قدره . وهل كانت فلسطين العربية تلاقي في هذا العهد كلَّ هذا التأييد والتشجيع من ملوك العرب وأمرائهم وزعمائهم ، ومن شعوبهم ودهمائهم لولا عاطفة الإسلام؟ بم صار العرب عربًا في تونس والجزائر

ومراكش وطرابلس الغرب ، وفي بلاد الأندلس من قبل؟! بل بماذا دخلت العروبة بلاد الهند والصين واليابان وممالك إيران وأفغان وتركستان؟! هل صار الملايين من هؤلاء وأولئك عربًا بالإلزام وبالتعليم العام ، أم بهداية الإسلام والقرآن؟! لا شك أنهم صاروا عربًا بهداية الإسلام والقرآن ، وهذا معنى قول جلالة الملك المعظم أيده اللَّه : « العرب عرب بعد الإسلام » .

وإليكم البيان :

لم يكد يسطع نور الإسلام في فجر القرن الثاني حتى امتدت أشعته فبلغت حدود الصين شرقًا ، وأقاصي بلاد الأندلس ومراكش غربًا ، ونهر اللوار شمالًا ، وسواحل المحيط الهندي جنوبًا . فدخلت أمم كثيرة في العروبة والإسلام- كما قدمنا- وصاروا عربًا دينًا ، وجنسًا ، وعبادة ، ومعاملة ، ولغة ، وعادة ، وصار لفظ العرب يطلق على جميع المسلمين من جميع الأجناس ، والإسلام هو الذي جعلهم أمة واحدة ، كما جاء في الكتاب المبين : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٢]

إنهم لم يصيروا عربًا ولا مسلمين بقوة الجند أو المال ، بل بما كان يتحلى أولئك الدعاة الأبطال من فضائل نفسية وآداب خليقة[١] واجتماعية ، وعدل شامل للرعية .

إلا أن تفضيل القومية العربية على غيرها لا يتحقق إلا بالقرآن؛ إذ هو الذي بسط سيادتها على العالم الإسلامي كله ، وهو الذي يلقي عليها الهيبة ، ويكسوها الجمال والجلال في نظر العالم أجمع .



(١) كذا ، ولعلها : خلقية .

اللغة العربية، والشريعة الإسلامية[1]

إنشاء مجلة للأحكام الشرعية، ومدرسة للفقه الإسلامي

[٢]

إن من أفضل ما يقوم به المفكرون في هذا العصر من أجل توحيد التشريع في هذه الممالك العربية المستقلة هو العناية بوضع مجلة للأحكام الشرعية، تسير على نهج مجلة الأحكام العدلية التي وضعت في عهد الدولة العثمانية عام ١٢٩٧- على أن لا تكون مثلها مقيدة بمذهب واحد- تبحث في المسائل الشرعية العصرية، وتضع لها ما يناسبها من الأحكام.

وقد قرأنا من عهد قريب ما رآه أمين سر الجامعة العربية العام، عبد الرحمن باشا عزام من إنشاء مدرسة الفقه الإسلامي باسم جامعة الدول العربية.

وإنما يتوقف النهوض بهذا العبء العظيم وتحقيق هذين المطلبين الخطيرين على تأليف لجنة من أكبر علماء هذا العصر، ممن تضلعوا من مورد الكتاب والسنة، وعرفوا مذاهب الأئمة، ووقفوا على كنه الزمن ونواميس العمران، ودرسوا قوانين الدول وحقوق الأمم، ومارسوا الشؤون القضائية والإدارية. ألا وإن عملهم هذا سيكون له فوائد عظيمة جدًّا:

منها: أنه يتبين به أن الإسلام دين السماحة والتيسير، توافق أحكامه مصالح البشر في كل زمان ومكان. ولا يخفى أن من قواعده المأخوذة من نصوصه الكثيرة: اليسر، ورفع الحرج والعسر، وأن الأمر إذا ضاق اتسع، وأن الضرورات تبيح المحظورات، فاستنباط الأحكام التي يدعو إليها الزمان من مآخذها وأدلتها يكون مبنيًا على أساس حفظ مصالح الأمة، ودرء المفاسد عنها.

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٤٨- ربيع الثاني- ١٣٦٦هـ.

ومنها : أن اعتماد ما كان أقرب دليلًا وأكثر ملائمة لحاجة العصر وطبيعة الأمة من مذاهب الأئمة يتبين به سعة الفقه الإسلامي ، وأن اختلاف علمائنا رحمة والأخذ من متنوع مذاهبهم نعمة .

ومنها : رد المزاعم القائلة بأن الإسلام لا يلتقي مع حاجة البشر ، ولا يبحث فيما يتجدد من شؤون الزمن ، وهل يصح الاقتصار على الكتب التي وضعت لغير زماننا في تدبير التجارة التي تغيرت تغيرًا مهما؟! وفي البيوع ، وعقد الشركات ، وإدارة المنافع العامة ، وترتيب العقوبات ، وجباية الأموال ، وإعداد ما يحفظ المجد ، ويعلي الشأن في السلم والحرب؟!

لا شك أن واجب العلماء هو مواجهة الحقائق[١] التي ظهرت في هذا العصر ، وبيان الحكم في جميع ما استحدث إلى اليوم ، على قاعدة جلب المصالح للأمة ، ودرء المفاسد عنها ، أي : أن تكون فتاوى العلماء الواقفين على أسرار التشريع- وكذا الزمن وحاجة الأمة- هادية إلى حفظ وحدتها وتنمية ثروتها ، ودفع عوادي الشر عنها ، مع إثبات أن ذلك هو الذي يقتضيه هدى الإسلام ، وترشد إليه آيات القرآن ، فردُّه ردٌّ لنصوص القرآن وتعطيل لأحكامه . وهذا هو الفقه العام في الإسلام ، وفقه الفروع والأحكام منبثق عنه ، أو هو جزء منه .

فالفقه بإطلاقه سداد في العلم ، ودقة في الفهم ، وإصابة في الحكم ، وهو الذي دعا به الرسول صلوات اللَّه عليه لابن عمه عبد اللَّه بن عباس بقوله : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل »[٢] . فكان حبرَ الأمة ، وترجمانَ القرآن .

وأما ما وضعه بعض الفقهاء في كتبهم وعصورهم من شروط وقيود لبعض

---

(١) في الأصل : « الحائق » .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣) ، ومسلم (٢٤٧٧) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

البيوع والعقود مما ليس فيه نص صحيح ولا قياس صريح ، فالناس غير ملزمين به؛ إذ إن لكل زمن عرفًا ومصالح وأهلًا . وقد قال الشهاب القرافي في قواعده : ومن جَهلِ المفتي جُمُودُه على النصوص في الكتب ، غير ملتفت إلى العرف .

فإلى إنشاء هذه المجلة الكبرى الشاملة لكل ما حدث إلى الآن من الوسائل التي تعامل بها الناس أجمع في أنحاء المعمور ، وإلى تفصيل ما نشأ عن هذه الوسائل من مسائل وأحكام فقهية ، وإلى تأسيس هذه المدرسة في الفقه الإسلامي ، ندعو أعلام الأمة وفقهاء العصر ، وبالله التوفيق .



الشريعة الإسلامية ومزاياها(١)

[٣]

ما أشدَّ حاجة الأمة التي تنشد وحدتها إلى علم الاجتماع الذي يهديها إلى سنن اللَّه تعالى في الوجود ، ودرسِ أسرار تقدم الممالك والشعوب ، واتقاء أسباب الفشل والحرمان .

استنبط السلف الصالح أيام حضارتهم من القرآن الكريم علومًا وفنونًا كثيرة ، جعلوها ذات أصول راسخة وقواعد محكمة ، فلو رُزق علمُ الاجتماع عندَهم حظَّ هاتيك العلوم ، واستنبطوا قواعده وفوائده من ذلك المعين الذي لا ينضب ماؤه ولا يبلى رواؤه ، وهو الكتاب المنزل الذي نصَّ في كثير من آياته الكريمة على السنن الإلهية الثابتة في الأفراد والأمم- اقتبس بعض ذلك العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته- لو فعلوا ذلك وجَرَوا على مقتضى تلك الأسس الثابتة ، والسنن الكونية التي لا تقبل التبديل ولا التحويل ، لما عَلِقَت بأصول مدنيَّتهم تلك الشوائبُ والأوضارُ ، وأفضت بملكهم وعظمتهم إلى الزوال .

الحقُّ أنَّ الأحكامَ السماويَّةَ الصحيحة ، والقضايا العقلية والعلمية الصريحة ، لم تُبن إلَّا على أمتن الأسس وأرسخ القواعد ، ولم تجيء إلَّا لتقرير الحقائق وتثبيتها ، وكيف يمكن أن يكون بينها تناقضٌ والذي أنزل الوحي وخلق العقل وفتح أبواب العلم هو واحد جلَّت حكمتُه؟!

فما على رجال النقل والعقل والعلم الصحيح إلا أن يُعنَوا بالتوفيق بينها ، فإن هذا أسلم لدينهم ودنياهم ، وأحفظ لمصالح البشر من الضياع والحرمان ، وأدعى أن يستفيد المتدينون من العلوم والفنون النافعة .

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٥٠- ربيع الثاني- ١٣٦٦هـ.

إن الحكم في الشريعة الإسلامية لله وحده على قاعدة العدل والمساواة بين الناس في الحقوق، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٠٥] ومن هذا النوع قصة المخزومية التي وردت في الصحيحين، وأنها لما سرقت أهمَّ قريشًا أمرُها، وقال الرسول صلوات الله عليه معاتبًا أسامة لما استشفع لها: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟! والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدَها»(١).

فهذه الحكومة هي المثل الكامل في حكومات الأرض، وهي التي جرى عليها الخلفاء الراشدون من بعدُ، وليس جلالة الملك الإمام عبد العزيز في هذا العصر إلَّا حافظًا لحدود الله، منفذًا لأحكامه العادلة في رعيته، وقد وجدوا فيها الأمان والاطمئنان على الأنفس والأموال.

وبعدُ، فإنَّ الحكومة في الإسلام هي روح الحقِّ الصريح. ومن مميزات الحكومة الإسلامية أنَّ قوانينها مبنيةٌ على النصفة والعدل: «لا ضرر ولا ضرار»(٢). أي: بالنفس ولا بالغير، بخلاف هذه القوانين التي تبيح كثيرًا من الضرر بالنفس والعقل والعرض والمال.

وإليكم المزايا الواضحة التي امتاز بها الشرع الإلهي على القوانين الوضعيَّة المدنية:

منها: أن القوانين البشرية التي يضعها أمثالنا لا تخلو من غلط أو شطط. ومن أمثاله: فتح أبواب الخمر والميسر والبغاء أمام الناس، وذلك مدد قوي في إحداث الجرائم، وزيادة المظالم، وتكثير السجون والمحاكم، بخلاف الشريعة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥، ٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) جاء هذا في حديث، أخرجه مالك ٢/٧٤٥ مرسلًا، وأخرجه أحمد ١/٣١٣، وابن ماجه (٢٣٤١) من حديث ابن عباس. وقد روي عن جماعة آخرين مرفوعًا. وانظر الإرواء (٨٩٦).

السماوية التي تدعو إلى إزالة ذلك كله: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده».. الحديث[١]. وكم الفرق بين إقراره وإنكاره.

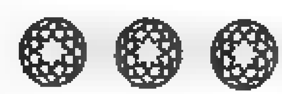
ومنها: أن الشرائع الإلهية تدعو إلى مدنية فاضلة لا فحش فيها ولا فسوق، بخلاف القوانين الوضعية.

ومنها: أن الشريعة الإلهية مصحوبة بقوة تنفيذية في قلب الإنسان ووازع نفسي يحمله على مراعاتها سرًّا وجهرًا، بخلاف هذه النظم الموضوعة.

ومنها: أن التمسك بالفضائل واجتثاث الرذائل هو الذي تدعو إليه الأديان، وهو الذي لا يختلف مهما اختلف الزمان والمكان وتغيرت الشعوب والأقوام.

هذا بابٌ فتحناه أمام مجلس الجامعة العربية الكريم؛ لتبنى هذه الوحدة على أمتن الأسس وأرسخ القواعد، ولتجدد المدنية الفاضلة مدنية الأخلاق، فالأخلاق حفاظ الأمة وعماد الدولة، وعرى الوحدة التي لا انفصام[٢] لها.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا



(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: «لا افصام».

حول «مجلة الأحكام الشرعية»(١)

قرأنا في العدد السابق من «أم القرى» الغراء تحت عنوان: (مجلة الأحكام الشرعية) تلك البشارة العظمى التي كان لها أحسن وقع وأكبر تأثير في نفس كل غيور على دينه محب لإصلاح أمته، حريص على مصالحها، راج لها أن تسير في مضمار التقدم والنجاح.

ألا وهي مجلة الأحكام الشرعية التي يفكِّر في إنشائها وإبرازها إلى حيِّز الوجود إمامُ العرب وناشر لواء التوحيد وتذكرة السلف الصالح جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، أيده الله بروح من عنده.

إن لهذه المجلة المزمع على إنشائها فوائدَ عظيمةً جدًّا:

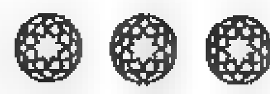
منها: أنها تبين أن الإسلام دينُ السماحة والتيسير توافقُ أحكامُه مصالحَ البشر في كل زمان ومكان، ولا يخفى أن من قواعده المأخوذة من نصوصه الكثيرة: اليسر، ودفع الحرج والعسر، وأن الأمر إذا ضاق اتسع، وأن الضرورات تبيح المحظورات. فاستنباط الأحكام التي يدعو إليها الزمان- من مآخذها وأدلتها- يكون مبنيًا على أساس جلب المصالح للأمة، ودرء المفاسد عنها.

ومنها: أن اعتماد ما كان أقرب دليلًا وأقوم قيلًا، وأكثر ملائمة لحاجة العصر وطبيعة الأمة من مذاهب الأئمة، يتبين به سعة الفقه الإسلامي، وأن اختلاف علمائنا رحمة والأخذَ من متنوِّع مذاهبهم نعمة.

ومنها: ردُّ المزاعم ونفي المفتريات القائلة بأن لأهل نجد مذهبًا خاصًّا بهم لا يشاركهم فيه غيرهم، أو أنهم ليسوا حنابلة المذهب، أو لا يحترمون مذاهب سائر الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٤٢- ربيع الأول سنة ١٣٤٦هـ.

ومنها : أنه إذا تعاون على تحرير هذه المجلة لجنةٌ مؤلفة من أكبر علماء العصر المتضلعين من مورد الكتاب والسنة ، العارفين بمذاهب الأئمة ، الواقفين على حاجة العصر وأسباب الرقي والتقدم ، الدارسين لقوانين الدول وحقوق الأمم ، الممارسين للشؤون القضائية والإدارية ، فلا شك أن عملهم هذا سيكون من أكبر مزايا هذا العصر ، وأفضل مآثر الإمام التي قدمها للعرب والإسلام .



كتاب «تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ﷺ»(١)

إن أفضل الحديث كلام اللّه تعالى، وخير الهدي هدي نبينا محمد ﷺ، وإن أقوى ما يلتمسه المسلمون من الوسائل لاستعادة مجدهم الباهر، ومدنيتهم الزاهرة، هو الرجوع إلى العمل بالكتاب والسنة والاقتباس من نورهما في عصرٍ غلبت فيه الأثرة، وركب الناس في سبيل شهواتهم وأطماعهم متنَ عمياء: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النّور: الآية ٤٠].

ألا وإن الأصلين الكريمين هما مستقر الحياة الطيبة للمسلمين، ومستودع النجاة من آفات الحياة المدنية وغوائلها.

كنَّا نجلس في حلقة محدث الشام الأستاذ الشيخ بدر الدين الشهير، وكان مما نتلقاه عنه رواية ودراية كتاب «منتخب كنز العمال» من كتب الحديث الجامعة، ولمَّا وقفنا على باب الاعتصام بالكتاب والسنة، قلت لأستاذنا: ألنا ثوابُ المعتصمين بهما بما نقرأه الآن؟ قال: نعم إذا قصدتم العمل. فسأله بعض الفضلاء متعجبًا: أو يُقرآن للعمل بهما؟! قال نعم. فقال ذلك الفاضل: جزاك اللّه عنا خيرًا، فواللّه إنا كنا نتلقى عن شيوخنا في الدروس: إنهما يقرآن للتبرك فحسب، كما نتلقى كلمة التوحيد. أو ما هذا معناه.

قلت: وهل فرَّق كلمتَنا ومزق وحدتنا وجعلنا حجة لخصومنا على ديننا إلَّا الإعراض عن هديهما، وعدم العمل بهما؟ وكيف يرجى التجديد لما اندرس من معالم هذه الأمة إذا قرئ القرآن وتليت السنة للتبرك لا للعمل؟ ومنزلُ الكتاب عزَّ شأنه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: الآية ١١].

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٥٥- في ١٣٤٦/٦/٨هـ.

« تيسير الوصول » هو الكتاب الذي اختصر به مؤلفه المحدث الزبيدي اليماني ، عبد الرحمن ابن الديبع[(١)] الشيباني ، « جامعَ الأصول الستة » للعلامة الشهير أبي السعادات ابن الأثير الجزري . والأصول الستة هي : صحيحا البخاري ومسلم ، وموطأ مالك ، وسنن أبي داود السجستاني ، وجامع أبي عيسى الترمذي ، وسنن أبي عبد الرحمن النسائي . وهي التي سارت بذكرها الركبان ، واشتهرت - بطبعها - متونًا وأسانيد ، وبما وضع عليها من شروح وتعاليق .

وهذا المختصر قد حذف الأسانيدَ ، واقتصر على إحدى الروايات ، أو أتمِّها فيما تكرر من الأحاديث ، وصدَّر كلَّ حديث باسم الصحابي الذي رواه ، وختمه بمن خرَّجه من الأئمة الستة ، وفسر كثيرًا من غريبه ، فوقع في أربعة أجزاء يبلغُ مجموعها نحو (١٤٠٠) صفحة بالقطع المتوسط .

وليت المؤلف إذ رتبه على حروف المعجم راعى ترتيب أبواب الفقه أيضًا؛ ليسلم من تقديم ما حقه التأخير ، وبالعكس؛ ككتاب الطهارة الذي ذكر في (ص٥٤ ج٣) وكتاب الصلاة الذي ذكر في (ص١٨٤ج٢) .

وقد عُني بتصحيحه ومقابلته على الأصول الستة والتعليق عليه صديقُنا العالم السلفي التقي ، الأستاذ الشيخ محمد حامد الفقي ، أحد علماء الأزهر الشريف ، فجاء الكتاب يانع الثمار داني القطوف ، عذب المورد سهل المنال . وقد طبع في « المطبعة السلفية » المشهورة بسرعة إنجازها وإتقانها ، على نفقة الحاج مصطفى محمد ، صاحب « المكتبة التجارية » .

فجزى اللّه الجميع عن دينهم وأمتهم خير الجزاء .



(١) في الأصل : « ابن الربيع » .

حركة التأليف والنشر

كتاب « الموفي في النحو الكوفي »[(١)]

كتب الأستاذ الشيخ محمد عبد الخالق عظيمة في « الموفي » وشرحه في « مجلة الحج » التي تصدر بمكة المكرمة نقدات، ومما قال في شرح كتاب الموفي : « وعرضَ لنا نصوصًا نحوية من كتب مختلفة، شرحت غوامضه، وأغنت قارئي الكتاب عن أن يتطلبها في مظانها » .

وقد وصف « الموفي وشرحه » بذلك أحسن وصف، واكتفى- على ما يظهر- بمراجعته دون غيره في تعليقاته عليه، وهذه هي :

قال الأستاذ : « وكم وددت أن يشير الأستاذ البيطار إلى المسائل الكثيرة التي اشتمل عليها « الموفي » وليست من اجتهاد الكوفيين وحدهم، بل هي مسائل اتفق عليها جميع النحويين ..» ثم قال : « وأكتفى بالإشارة إلى بعضها » .

أقول : إني اتبعت في ما كتبت قولَ المؤلف : أما بعد، فهذا كتاب نحو، وضعته على مذهب الأئمة الكوفيين[(٢)] ومصطلحاتهم؛ إذ وجدتها أهملت ... إلخ . فكان نظري مصروفًا إلى ما قاله المؤلف . والواقع أن في بعض المباحث التي أوردها اتفاقًا بين النحويين، ولكن لا في كلِّ ما تعقَّبَنَا به الأستاذُ عظيمة من المسائل الكثيرة التي اشتمل عليها الموفي، وقال عنها : وأكتفى بالإشارة إلى بعضها .

---

(١) مجلة الحج- العدد ٦، ١٠- ربيع الآخر- ١٣٧٢.
جاء في صدر المقال من أصل الصحيفة ما نصه :
اطلع فضيلة الأستاذ محمد بهجت البيطار عضو المجمع العلمي العربي بدمشق على المقال المنشور في عدد شعبان سنة ١٣٧١ من هذه المجلة للأستاذ محمد عبد الخالق عظيمة عن كتاب « الموفي في النحو الكوفي » الذي حققه الأستاذ البيطار، ونشره المجمع العلمي، فكتب فضيلته الرد الآتي، ونشره في عدد محرم ١٣٧٢ من مجلة المجمع العلمي العربي .

(٢) في الأصل : « الكوفين » .

وأنا الآن أشير إلى بعض ما أشار الأستاذ إليه، وقال: إنه متفق عليه- أي: بين المذهبين البصري والكوفي- واقتصر من ذلك كله على ما جاء في «الموفي» وتعليقًا عليه، من الخلاف الذي ذكرته- ناقلًا لا قائلًا- وأغفل ذكره الأستاذ أو جعله موضع وفاق.

وأول ما أذكره مما ادعى الاتفاق عليه بين النحويين: «مواضع تأنيث الفعل للفاعل، وتقديم الفاعل على المفعول» (ص٢٢) مكتفيًا بهذا القدر من دون نقد ولا نقل ولا تعليق!!.

أما أنا فإني نقلت الخلاف في كلتا المسألتين، كما نجده في الموفي وشرحه بالخلاف في التقديم والتأخير عن «حاشية الصبان» (٢- ٤٣) والخلاف في تأنيث الفعل من «المنار على التوضيح» (١/٢١١) انظر (ص: ٢١، ٢٢) من الموفي بشرحه.

قال: «وتقديم المبتدأ وحذفه».

نقلت عن الأنباري قوله: ذهب الكوفيون إلى أنه لا يجوز تقديم خبر المبتدأ عليه، مفردًا كان أو جملة، أي: خلافًا للبصريين. وأورد حجج كلٍّ من القولين على عادته (ص ٢٦) من «الموفي».

في بحث (المجرورات) في الموفي وشرحه (٤٩- ٥٢) لم يشر إلى الخلاف الوارد في صفحة (٥٠- ٥١) واكتفى بالإشارة إلى المتفق عليه في مبحث (الإضافة) وهو في باب (المجرورات)، وهل يكلف صاحب «الموفي» رحمه اللّٰه، وهو يؤلف في «النحو الكوفي» أو شارحه، أن ينص في كل باب من أبواب الكتاب على كل ما اتفقوا عليه، أو اختلفوا فيه؟!! حسب المؤلف أن تكون رسالته في «النحو الكوفي» ومصطلحات أهله في أبوابه، دون النظر في الجزئيات المتفق عليها، أو المختلف فيها؛ إذ إن هذا عمل آخر يحتاج إلى كتاب مستقل.

قال الأستاذ: «نداء ما فيه أل ص ٦٦».

قلت: فيه خلاف أوردت شواهده في نفس الصفحة.

قال: «الإستثناء المتصل والمنقطع والمفرغ».

قلت: هي قضايا برهانها معها- كما يقول المناطقة- وانظر الخلاف فيها معزوًا إلى أهله في (ص٧١- ٧٢).

قال: «كثير من شروط عمل المصدر محل اتفاق».

قلت: قد أشرنا إلى ما فيه الخلاف، وعلم منه الاتفاق فيما عداه.

قال: «فصل الضمير ومجيء نون الوقاية في بعض الأسماء».

قلت: ذكرنا الخلاف في فصل الضمير (ص٩٤- ٩٥).

قال: «نواصب المضارع ص ١١٤».

قلت: ذكرنا الخلاف في نفس الصفحة، والمذاهب في (ص ١١٥).

قال: «حروف الجر واستعمالها (١٣٦- ١٤٤)».

قلت: يا سبحان الله!! بل هي مملوءة بالخلاف، وقد ذكرناه، وعزوناه. انظر (ص ١٣٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤) فكيف أغفل الأستاذ ذكره؟!!.

قال: «مواضيع كسر همزة إن، وجواز الوجهين (ص ١٤٨) ... إلخ»

قلت: بل هي ملأى بالخلاف أيضًا، وانظره في بعض مواضع الكسر، وفي أعمالها إذا خففت من الثقيلة، وفي مدخولها أيضًا (١٤٨- ١٥١).

قال: «يشترط البصريون لزيادةِ مَنْ شرطين:

١- أن يسبقها نفي أو شبهه.

٢- تنكير مجرورها، ولم يشترط الأخفش الشرطين. أما الكوفيون، فلم يشترطوا الشرط الأول، واشترطوا- فقط- تنكير مجرورها .- من حقِّ «فقط» أن تؤخر، وأن يقال: واشترطوا تأخير مجرورها فقط. كما هو ظاهر- مستدلين

بقول العرب: قد كان من مطر».

قلت: جاء في «الرضى» (٢- ٣٠) ما نصه: والكوفيون والأخفش لا يشترطون ذلك؛ استدلالًا بقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] فـ«مَنْ» في خبر الإيجاب، وهي داخلة على المعرفة. اهـ

ولم نعد في حاجة إلى نقل تعليقة الأستاذ في هذه المسألة على الموفي وشرحه. من بعد أن نقلنا كلام الرضى بنصه، وهو مما لم يتيسر له الاطلاع عليه.

قال: «وأعتقد أن ذكر اسم المفعول هنا (ص١٨) سبق قلم! فهو إنما برفع نائب الفاعل»

قلت: إنما فسرت شبه الفعل، ومنه اسم المفعول الذي يرفع نائب الفاعل، وقد جاء تحت عنوان (المرفوعات): أما أبو الحسن- الأخفش الأوسط- فهو تلميذ سيبويه، وشيخه هو: أبو الخطاب الأخفش الأكبر، كما قال الأستاذ، ونحن نقلنا عبارة الصبان في حاشية (١- ٢١٥) ونصها: والأخافشة ثلاثة؛ لكن المراد عند الإطلاق أبو الحسن شيخ سيبويه، قاله الشيخ يحيى.

والظاهر أن الأستاذ قد أملى ما أملاه من ذاكرته وحفظه؛ إذ لم تر له عزوًا إلى صفحة أو جزء من كتاب بعينه، وعلى كلٍّ فله منا أعطر الشكر.



نظام «جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(١)]

قرأت في «أم القرى» الغراء مقالًا ضافيًا عنوانه: «حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» بقلم الأستاذ الجليل، والعلامة المتفنن، الشيخ عبد اللَّه آل بليهد رئيس قضاة الأقطار الحجازية في البلد الأمين، فرأيت فيه من ضروب النصح والتذكير، وأنواع الوعظ والإرشاد، ما يدعو إلى محاسبة النفس، ومراقبة الرب سبحانه وتعالى عند كل قول وعمل، وما يجدر بكل مسلم تصفحه وتدبره؛ ليتعظ به ويتذكر.

ولما كان الأستاذ المنوه بذكره أمرني بكتابة سلسلة فصول أو مقالات في هذا الموضوع؛ لتطبع وتوزع على جماعة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في البيت الحرام، وعلى غيرهم أيضًا، فتذكرهم بواجباتهم الدينية، وتدعوهم للمحافظة عليها، وعدم التفريط فيها، أو الغلو في شيء منها، امتثلت أمره، واقتبست هذه المقالات التالية- التي أشار علي صديقي الفاضل الشيخ يوسف ياسين بنشرها تباعًا في أم القرى- من كتاب «الحسبة» لشيخ الإسلام ابن تيمية رضي اللَّه عنه، ومما جادت به في الموضوع أقلام بعض الأعلام، ووضعت لها العناوين التي يراها القارئ الكريم في أعلاها، وليس لي فيها إلا حسن الاقتباس والترتيب، ومن اللَّه نستمد المعونة والتوفيق.

الاجتماع والتعاون وطاعة اللَّه ورسوله:

إن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون على جلب مصالحهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها؛ يجلبون بها المصلحة، وأمور

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٣- شعبان ١٣٤٥.

يجتنبونها؛ لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، والناهي عن تلك المفاسد.

وإذا كان لا بد من طاعة آمر وناه، فمعلوم أن دخول المرء في طاعة اللَّه ورسوله خير له: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٩]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الرعد: ١٣، ١٤].

جماع الدين أمر ونهي:

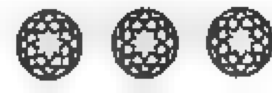
الأمر الذي بعث اللَّه به رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر، وهذا نعت النبي والمؤمنين، قال تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧]، وقال في وصف الأمة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: الآية ٧١] وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره.

المعاصي سبب المصائب والطاعة سبب النعمة:

من المعلوم- بما أرانا اللَّه من آياته في الآفاق وفي أنفسنا، وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، وأن الطاعة سبب النعمة، وإحسان العمل سبب لإحسان اللَّه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: الآية ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم- كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم فرعون- في الدنيا، وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة، ولهذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٠- ٣٣].



الباعث على إقامة
« جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »
وما يجب أن يتصفوا به[(١)]

قال داع إلى اللّه تعالى : إن أولى الأمور بأن تصرف العناية إلى ترتيب نظامه ، هو ما يتعلق به ثبات الدين ، وينعطف عليه صلاح المسلمين ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن فيه تثقيف الزائغين عن الحق ، وتأديب المنهمكين في الفسق ، وتقوية أعضاد الشرع وسواعدها ، وإجراء أعمال الدين على قوانينها وقواعدها .

وينبغي أن يكون متقلد هذه الأمور موصوفًا بالديانة ، معروفًا بالصيانة ، معرضًا عن مراصد الريب ، بعيدًا عن مواقف التهم والعيب ، لابسًا مدارع السداد ، سالكًا مناهج الرشاد ، وأن يكون الزهد شعاره ، والتقوى دثاره ، والعلم معلمه ، والدين مناره ، ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقيم حدود الشرع على موجب النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار ، من غير أن يتسور الحيطان ، ويتسلق الجدران ، ويرفع الحجب المسدولة ، ويكسر الأبواب المسدودة ، ويسلط أحدًا على دور المسلمين ، حتى يغيروا على أموالهم ، ويمدوا الأيدي إلى عوراتهم وأطفالهم ، ويظهروا ما أمر اللّه بستره وإخفائه ، ونهى عن إشاعته وإفشائه . اهـ .

وقال آخر : واعلم أن الناس قد أماتوا سننًا ، وأحيوا بدعًا ، وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعًا ، وأظلم منهم من أقرهم على أمرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فإن السكوت عن البدعة رضًا بمكانها ، وترك النهي عنها كالأمر بإتيانها ، ولم يأت بنا اللّه إلا ليعيد الدين قائمًا على أصوله ، صادعًا بحكم اللّه فيه

---

(١) صحيفة أم القرى– العدد ١١٤– في ١٥ شعبان ١٣٤٥.

وحكم رسوله . فيجب تصفح أحوال الناس في أمر دينهم الذي هو عصمة مالهم ، وأمر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فيبدأ أولًا بالنظر في العقائد؛ ليهدي فيها إلى سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي المقتفية لآثار السلف الصالح ، الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا ، وقالوا ربنا اللَّه ثم استقاموا ، ومن عداهم شعب دانوا أديانًا ، وعبدوا من الأهواء أوثانًا ، واتبعوا ما لم ينزل به اللَّه سلطانًا ، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمَّد: الآية ٣٠] .

العلم والرفق والصبر :

لا بد من العلم بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما ، ولا بد من العلم بحال المأمور والمنهي .

والرفق في ذلك مطلوب ، قال ﷺ : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا كان العنف في شيء إلا شانه »[١] . وقال : « إن اللَّه رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف »[٢] .

ولا بد أن يكون الداعي إلى اللَّه حليمًا صبورًا على الأذى ، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، ولهذا أمر اللَّه الرسل- وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- بالصبر ، كقوله لخاتم الرسل : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥] ، وقال : ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هُود: الآية ١١٥] .

فلا بد إذًا من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر . العلم قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والرفق معه ، والصبر بعده ، وإن كان كل من هذه

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) ، وأحمد ٢٠٦/٦ من حديث عائشة رضي اللَّه عنها ، بنحوه .
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها .

الثلاثة مستصحبًا في هذه الأحوال، وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف- ورووه مرفوعًا- ذكره أبو يعلى في المعتمد: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه»[1]. اهـ.

وظائف الجماعة بالإجمال:

هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الحكام والقضاة وأهل الديوان ونحوهم. وكثير من الأمور الدينية هو مشترك بين ولاة الأمور، فمن أدى فيه الواجب وجبت طاعته فيه.

فعلى المحتسب أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها، ويتعهد الأئمة والمؤذنين، فمن فرط منهم فيما يجب من حقوق الإمامة، أو خرج عن الأذان المشروع، ألزمه بذلك، واستعان فيما يعجز عنه بأولي الأمر، وكل مطاع يعين على ذلك.

(والجماعة) يأمرون بالجمعة والجماعة، وصدق الحديث، وأداء الأمانات، وينهون عن المنكرات من الكذب والخيانة، وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان، والغش في الصناعات، والبياعات، والديانات، ونحو ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١- ٥] وقال في قصة شعيب: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١- ١٨٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النّساء: الآية ١٠٧].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٣٧.

نظام «جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[١]

ما يدخل في المنكرات :

يدخل في المنكرات : ما نهى اللَّه عنه ورسوله من العقود المحرمة ، مثل عقود الربا والميسر ، وكذلك النجش- وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها- ومثل بيع الغرر ، ومثل أن يباع المماكس بسعر ، ويباع المسترسل الذي لا يماكس ، أو من هو جاهل بالسعر ، بأكثر من ذلك السعر ، وقد جاء بالحديث : «غبن المسترسل ربا»[٢] . ومثل الاحتكار لما يحتاج إليه الناس ، وفي الحديث : «الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون»[٣] .

التصدق بالطعام المغشوش :

إن الطعام المغشوش من الخبز والطبخ والشواء ، والجيد الذي خلط بالرديء ، وأظهر المشترى أنه جيد ، ونحو ذلك ، يتصدق به على الفقراء ، فإن ذلك من إتلافه ، وإذا كان عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه ، قد أتلف اللبن الذي شيب للبيع ، فلأن يجوز التصدق بذلك بطريق الأولى ، فإنه يحصل به عقوبة الغاش ، وزجره عن العود ، وعمر رضي اللَّه عنه أتلفه؛ لأنه كان يغني الناس بالعطاء .

الغش والتدليس في الديانات :

يجب إنكار الغش والتدليس في الديانات وإزالتها؛ مثل البدع المخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة ، من الأقوال والأفعال :

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٥- في شعبان سنة ١٣٤٥ .

(٢) أخرجه البيهقي ٣٤٩/٥ من حديث جابر وأنس وعلي ، والطبراني (٧٥٧٦) من حديث أبي أمامة . وقال الألباني في الضعيفة (٦٦٧) : ضعيف جدًّا .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٥٣) من حديث عمر . وضعفه الألباني .

مثل إظهار المكاء والتصدية- الصفير والتصفيق[١]- في مساجد المسلمين

ومثل سب جمهور الصحابة، وجمهور المسلمين، أو سب أئمة المسلمين ومشايخهم وولاة أمورهم المشهورين- عند عموم الأمة- بالخير.

ومثل التكذيب بأحاديث النبي ﷺ التي تلقاها أهل العلم بالقبول.

ومثل رواية الأحاديث الموضوعة المفتراة على رسول اللّٰه ﷺ، إلا إذا أريد التنبيه على وضعها.

ومثل الغلو في الدين؛ بأن ينزل البشر منزلة الإله.

ومثل تجويز الخروج عن شريعة النبي ﷺ.

ومثل الإلحاد في أسماء اللّٰه وآياته، وتحريف الكلم عن مواضعه، والتكذيب بقدر اللّٰه، ومعارضة أمره ونهيه بقضائه وقدره.

ومثل إظهار الخزعبلات السحرية، والشعبذة الطبيعية وغيرها التي يضاهى بها ما للأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات؛ ليصد بها عن سبيل اللّٰه، أو يظن بها الخير فيمن ليس من أهله.

وهذا باب واسع يطول وصفه. فمن ظهر منه شيء من هذه المنكرات، وجب منعه من ذلك، وعقوبته عليها إن لم يتب.

التشديد بالمحافظة على الصلوات

وأن من ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة

إن الصلاة هي أعرف المعروف من الأعمال، وهي عمود الإسلام، وأعظم شرائعه، وهي قرينة الشهادتين، وإنما فرضها اللّٰه ليلة المعراج، وخاطب بها الرسول بلا واسطة، لم يبعث بها رسولًا من الملائكة، وهي آخر ما وصى به

(١) في الأصل: «والتصديق».

النبي ﷺ أمته، وهي المخصوصة بالذكر في كتاب الله، تذكيرًا بعد تعميم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٠]، وقوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥] وهي المقرونة بالصبر وبالزكاة وبالنسك وبالجهاد في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: الآية ٤٥]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: الآية ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: الآية ١٦٢] وقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: الآية ٢٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النِّساء: ١٠٢- ١٠٣].

وأمرها أعظم من أن يحاط به، فالاعتناء بها يجب أن يكون فوق الإعتناء بجميع الأعمال، ولهذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: إن أهم أمركم عندي الصلاة، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة. رواه مالك وغيره(١).

يتبع



(١) أخرجه مالك ١/ ٦، ومن طريقه البيهقي ١/ ٤٤٥ من طريق نافع مولى عبد الله بن عمر أن عمر قال:... فذكره. وإسناده منقطع. وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٨٥).

نظام «جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(١)]

واجبات الشريعة التي هي حق للَّه تعالى :

واجبات الشريعة التي هي حق اللَّه تعالى ثلاثة أقسام :

١- عبادات ، كالصلاة والزكاة والصيام .

٢- عقوبات ، إما مقدرة ، وإما مفوضة .

٣- كفارات .

وكل واحد من أقسام الواجبات ينقسم إلى : بدني ، وإلى : مالي ، وإلى : مركب منهما

فالعبادات البدنية ، كالصلاة والصيام . والمالية ، كالزكاة . والمركبة ، كالحج .

والعقوبات البدنية ، كالقتل والقطع . والمالية ، كإتلاف أوعية الخمر . والمركبة ، كجلد السارق من غير حرز ، وتضعيف الغرم عليه .

الثواب والعقاب هما من جنس العمل :

الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قدر اللَّه وشرعه ، فإن هذا من العدل الذي تقوم به السماء والأرض ، كما قال تعالى : ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: الآية ١٤٩] ، وقال النبي ﷺ : «من لا يرحم لا يرحم»[(٢)] . وقال : «إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيبًا»[(٣)] .

ولهذا شرع قطع يد السارق؛ وشرع قطع يد المحارب ورجله ، وشرع القصاص في الدماء والأموال والأبشار .

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٦- في ٢٩ شعبان ١٣٤٥هـ .

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٧) ، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

فإذا أمكن أن تكون العقوبة من جنس المعصية ، كان ذلك هو المشروع بحسب الإمكان ، مثل ما روي عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه في شاهد الزور أنه أمر بإركابه دابة مقلوبة ، وتسويد وجهه ، فإنه لما قلب الحديث ، قلب وجهه ، ولما سود وجهه بالكذب ، سود وجهه .

الشروط التي يتحقق بها التصدي لإنكار المنكر :

الأول : كونه منكرا . ولفظ المنكر أعم من لفظ المعصية ، فإن من رأى صبيًا ، أو مجنونًا يشرب الخمر ، فعليه أن يمنعه منه ، وأن يريق الخمر ، مع أن ذلك ليس معصية في حقه .

الثاني : لا يختص المنكر بالكبائر ، بل كشف العورة في الحمام ، والخلوة بالأجنبية ، واتباع النظر للنسوة الأجنبيات ، كل ذلك من الصغائر ، ويجب النهي عنها .

الثالث : أن يكون المنكر ظاهرًا بغير تجسس ، فمن ستر معصية في داره ، وأغلق عليه بابه ، لا يجوز الدخول عليه بغير إذنه؛ لتعرف المعصية ، ولا أن يتجسس عليه ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: الآية ١٢] وكذا لو رؤي فاسق ، وتحت ذيله شيء ، لم يجز أن يكشف عنه .

الرابع : أن يكون- كونه منكرًا- معلومًا بغير اجتهاد ، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي ما هو من مجاري الاجتهاد ولا العكس .

(يتبع)



نظام « جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[(١)]

درجات القيام بالإنكار :

الأولى : تعريف المزجور أن ما يفعله منكر ، فإنه قد يقدم عليه بجهله .

الثانية : النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرًا ، فيخوف من جهة ، ويرغب بحكاية سيرة عباد الله المتقين ، وينظر إليه نظر المترحم عليه .

الثالث : التعنيف بالقول الغليظ ، وذلك عند العجز عن المنع بلطف ، وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام : ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٧] ولهذه الرتبة أدبان :

١- أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف .

٢- ألا ينطق إلا بالصدق ، ولا يسترسل فيه ، فيطيل لسانه بما لا يحتاج إليه ، بل يقتصر على قدر الحاجة .

الرابعة : التغيير باليد ، وذلك كإراقة الخمر ، وإتلاف المنكر المتمول ، أو دفعه عن محرم ، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع ، وأما الإراقة والإتلاف فإلى الولاة ومأذونيهم ، كالضرب والحبس .

آداب القائم بالأمر والنهي :

جملتها ثلاث صفات : العلم ، والورع ، وحسن الخلق .

أما العلم : فليعلم مواقع الأمر والنهي؛ ليقتصر على حد الشارع فيه .

وأما الورع : فليردعه عن مخالفة مأموره ، ولا يحمله على مجاوزة الحد

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٧- في ٨ رمضان- ١٣٤٥هـ .

المأذون به شرعًا لغرض من الأغراض، وليكون كلامًا مقبولًا، فإن الفاسق يهزأ به إذا أمر أو نهى، ويورث ذلك جراءة عليه.

وأما حسن الخلق: فليتمكن به من اللطف والرفق، وهو أصل الباب وأساسه. والعلم والورع لا يكفيان فيه، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه، ما لم يكن في الطبع قبول له بحسن الخلق.

وبوجود هذه الصفات الثلاث يصير الإرشاد من القربات، وبه تندفع المنكرات، وإن فقدت، لم يندفع المنكر.

المنكرات المألوفة في العادات

منكرات المساجد:

منها: إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود.

ومنها: قراءة القرآن ملحونة.

ومنها: كلام الوعاظ والقصاص الذين يمزجون بكلامهم الكذب والأضاليل والخرافات، فيجب الإنكار عليهم.

ومنها: التحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات. وكقيام السؤَّال وقراءتهم القرآن، وإنشادهم الأشعار، وما يجري مجراه، فكل ذلك منكر.

ومنها: دخول المجانين والصبيان، فيمنعون منه.

منكرات الأسواق:

من المنكرات المعتادة في الأسواق: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريت هذه السلعة مثلًا بعشرة، وربح فيها كذا- وكان كاذبًا- فهو فاسق، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بذلك، فإن سكت مراعاة لقلب البائع، كان شريكًا له في الخيانة، وعصى بسكوته، وكذا إذا علم به عيبًا، فيلزمه

أن ينبه المشتري عليه، وإلا كان راضيًا بضياع مال أخيه المسلم، وهو حرام. وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان.

منكرات الشوارع:

من المنكرات المعتادة فيها: وضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة، وإخراج الأجنحة، إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق.

ومنها: سَوقُ الدَّوابِّ وعليها الشوكُ.

ومنها: طرح القُمامةِ على جواد الطرق، وتبديد قشور البطيخ، أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر، وإرسال الماء من الميازيب، وطرح الثلج في الطريق، والكلب العقور على باب الدار.

منكرات الحمامات:

منها: كشف العورات، والنظر إليها، وكشفُ الدَّلاكِ الفخذَ وما تحت السرة، أو إدخال اليد تحت الإزار؛ فإنَّ مسَّ عورة الغير حرامٌ كالنظر إليها.

منكرات الضيافة:

منها: أن يكون الطعام حرامًا، أو الموضع مغصوبًا.

ومنها: أن يكون فيها من يتعاطى شرب الخمر.

ومنها: أن يكون فيها مضحك بالكذب والفحش.

وفي المال منكران: الإضاعة، والإسراف، كصرف المال إلى النائحة والمنكرات والدخان.



نظام «جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(١)]

المنكرات العامة :

واجب أن يكون في كل بلد وفي كل مسجد ومحلة من البلد ، فقيه يعلم الناس دينهم ، وواجب على كل فقيه- فرغ من فرض عينه ، وتفرغ لفرض الكفاية- أن يخرج إلى من يجاوره من أهل السواد والعرب ، ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، فإن قام بهذا الفرض واحد ، سقط الحرج عن الباقين .

وبالجملة : فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى- بعد الفراغ منهم- إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محلته ، ثم أهل بلده ، ثم إلى أهل السواد ، وهكذا إلى أقصى العالم . فإن قام به الأدنى ، سقط عن الأبعد ، وإلا حرج به كل قادر عليه؛ قريبًا كان أو بعيدًا .

إقامة الحدود من خصائص ولاة الأمور :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية ، فإن اللَّه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وإقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور ، وذلك يحصل بالعقوبة على ترك الواجبات وفعل المحرمات ، فمنها عقوبات مقدرة ، مثل جلد المفتري ثمانين ، وقطع السارق .ومنها عقوبات غير مقدرة قد تسمى التعزير ، وتختلف مقاديرها ، وصفاتها ، بحسب كبر الذنوب وصغرها ، وبحسب حال المذنب ، وبحسب حال الذنب في قلته وكثرته .

وإقامة الحدود ، وتنفيذ العقوبات والتعازير؛ طبقًا لنصوص الشرع الشريف ، وقواعده ، هي من خصائص جلالة الملك الإمام ، ومن يوليه من القضاة والحكام .

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٨ في ١٥ رمضان ١٣٤٥هـ .

ووظائف الجماعة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بحسب التفصيل الذي تقدم ، فمن خالف وعاند ردوه إلى ولاة الأمور؛ ليؤخذ بذنبه ، ويكون عبرة لغيره ، أو يتوب إلى ربه توبة نصوحًا .

ونسأل اللَّه تعالى أن يوفق المسلمين إلى ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ، ويجمع كلمتهم على ما يعلي شأنهم ، وسلام على المرسلين ، والحمد للَّه رب العالمين .



الأخلاق والواجبات[١]

«إلى النشء الحجازي الكريم»

يقول علماء التربية والاجتماع: إن التربية ثلاثة أنواع؛ تربية الجسم، تربية العقل، تربية الخلق. وقد اتفقوا على أن تربية الخلق هي الغرض الأسمى والغاية المثلى من فن التربية.

إن الأمة إذا عنيت بتهذيب أخلاقها، وأضافت إليها التربيتين: الجسمية، والعقلية، استطاعت أن تقوم بواجباتها نحو نفسها، وأن تخدم سائر الأمم الأخرى.

ولنضرب لك مثلًا لذلك: الأمة العربية في عصورها الذهبية، فقد قال عنها الحكيم المؤرخ الإفرنسي (غوستاف لوبون): ما وجد التاريخ فاتحًا أرحم ولا أعدل من العرب.

أي؛ لأن أخلاقهم الإسلامية تأمرهم بالعدل بين جميع من يظلهم سلطان الإسلام، والإحسان إلى الجميع.

والأمة إذا تجردت عن الأخلاق هبطت إنسانيتها إلى الدركات السفلى، بل كانت جائحة عظمى، وطامة كبرى على نفسها، وعلى المجتمع الإنساني، تهد من أركانه، وتنقض من عمرانه، مهما ارتقت جسمًا وعقلًا.

إذا كانت المدنية الحديثة- التي غرت كثيرًا من شبابنا بزخارفها- سخرت من الأوهام والأهواء- كما يقولون- وسبحت بطياراتها في أجواء[٢] الفضاء، وغاصت بغواصاتها في قعور البحور، وأتت من ضروب الإبداع والاختراع بما

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٩- ٢٢رمضان- ١٣٤٥هـ.

(٢) في الأصل: «أجواز».

يقضي بالعجب العجاب ، ويكون آية لأولي الألباب ، فإنها هي التي سفكت بأطماعها دماء ملايين البشر في أقطار الأرض ، وأهلكت بحروبها الحرث والنسل ، وشلت الأيدي العاملة في الصناعة والزراعة والتجارة ، وسطت على الأمم المستضعفة؛ فأذاقتهم أنواع العذاب ، واستعبدتهم وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا!!

ذلك بأن هذه المدنية قد عريت من لباس الحق والعدل والأخلاق ، كما قال الحكيم الاجتماعي الإنكليزي هربرت سبنسر : محي الحق من عقول أهل أوربا ، واستحوذت عليها الأفكار المادية ، فذهبت بالفضيلة .

وأمير الشعر في هذا العصر يقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت وإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ما أحوجنا نحن معشر العرب المسلمين اليوم إلى تربية جسمية عقلية ، تتكون مع تربيتنا الخلقية ، لنستعيد بها عهد السلف الصالح ، ومحلنا الممتاز بين الأمم أجمع .

إن تربيتنا الخلقية لا تزال بحمد اللّٰه تعالى على اتصال وشبه بتربية أجدادنا العرب ، ولنا الآن أن نباهي أرقى الممالك والأمم بأنا نعيش في هذه الجزيرة العربية بهناء ورخاء وأمن عام شامل للأنفس والأموال والأعراض ، لا تكاد تجد له نظيرًا في أرقى الأمم مدنية وعمرانًا . ولا شك أن ذلك ثمرة التربية الأخلاقية التي أرشدنا إليها القرآن ، وبينتها لنا سنة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام .

أمامنا الآن كتاب « الأخلاق والواجبات » الذي ألفه العالم الإسلامي الكبير ، والكاتب الاجتماعي الشهير ، الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ، أحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق الشام

وهو من أفضل الأمثلة للأخلاق الإسلامية الراقية ، والتربية العربية العالية ، قد اشتمل على مباحث نافعة في القرآن والحديث ، وتمهيد مفيد في مكانة

الأخلاق، ثم تكلم على الواجبات، فقسمها إلى أربعة أقسام: الواجبات الشخصية، الواجبات العائلية، الواجبات الاجتماعية، الواجبات المدنية.

وفي كل منها مباحث حيوية أخلاقية، قد فسرت فيها آيات كريمة، وأحاديث شريفة، بقلم الأستاذ «المغربي» البليغ، وأسلوبه الشهي الجذاب. وقد ختم الكتاب بإيراد طائفة من الآيات والأحاديث للاستظهار، وهي تتضمن ألوانًا مختلفة من الأخلاق والواجبات، ينتفع الطلاب بما وعته من ضروب الحكمة، وأساليب البلاغة، كما قال المؤلف.

وإني مورد شذرتين من هذا السفر النفيس؛ ليتعرف بهما القراء الكرام قيمته، وليرى مثل الأخ صاحب «خواطر مصرحة»- التي علق عليها إلى الآن بإمضاء: قارئ، كاتب، فاضل، بسبع مقالات انتقادية، نشرها في «أم القرى» الغراء،- قلت: ليرى كيف أن الحكمة تتنزل على عقول الشيوخ ذوي اللحى والعمائم وأفهامهم، وكيف أن البلاغة تتفجر من ينابيع ألسنتهم وأقلامهم.

قال- أمتع المولى به- تحت عنوان «الأمل واليأس» (ص٧٣):

علمت مما ذكرناه في بحث «الصبر والشجاعة» ما لهما من الفضل والمزية، والأثر البين في حياة البشر، ونجاح مساعيهم أفرادًا ومجتمعين، وقد بقي أن تعلم أن الصبر والشجاعة والثبات في الأعمال لا يحييها في نفس المرء إلا «الأمل» ولا يميتها إلا «اليأس».

كن آملًا فأنت شجاع صبور ثابت، وكن يائسًا فأنت جبان جزوع مضطرب.

«الأمل» قبس من نور يمشي أمامك في مسارب الحياة، أما «اليأس» فسدفة[1] من حلك الظلام تتكاثف أمام عينيك، فتعمي عليك السبل، وتسد في

(١) السدْفة: الظلمة، والسَّدَف، محركة: الصبح، وإقباله، وسواد الليل، كالسُّدفة: (القاموس المحيط»: (سدف).

وجهك أبواب النجاح .

الأمل روح العمل ، وكل عمل لا يتخلله أمل كان كالجسد الذي ليس فيه روح ، فسرعان ما ينحل ويدركه الفساد .

فكيف لا يكون الأمل إذًا من أكبر الفضائل النفسية ، وأعظم الواجبات الشخصية؟ وأن من طلب من نفسه الجلد والثبات في العظائم ، ولحين اشتداد الأهوال والمصائب ، وهو يائس قانط ، كان كمن يزاول عملًا بيد مشلولة ، أو يرفع ثقلًا بعتلة -مخل- غير مستندة على نقطة ارتكاز .

ومن ثم شدد القرآن الحكيم في النهي عن اليأس ، وجعله من سمات الجاحدين ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: الآية ٨٧] .

وقال في بحث « الرحمة والشفقة » تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة : ٣٣، ٣٤] (ص١٤١) :

لم يذمه على عدم إطعام المسكين ، بل على كونه لا يحض غيره من الأغنياء على إطعامهم ، ومدِّ يدِ الإسعاف إليهم . وفي هذا النص دلالة على أنه يجب على أبناء الوطن أن يتداعوا إلى العناية بفقرائهم ، وتدارك الأسباب التي تخفف البؤس عنهم؛ مِنْ مثل تأسيس ملاجئ لعجزتهم ، ومستشفيات لمرضاهم ، وكتاتيب لأطفالهم . وتخصيص الطعام بالذكر اتفاقي كما مر ، وإلَّا فإن الشرع يحض على إيصال الخير إليهم بمختلف الوسائل . وإن حض أبناء الوطن بعضهم بعضًا على ما ذكرنا من ضروب العناية بالفقراء والمساكين ، قد يستلزم انقطاع أفراد منهم لهذا العمل وتوفرهم عليه ، ومن هنا تنشأ « الجمعيات الخيرية » و« جمعيات البر والإحسان » و« جمعيات التعاون » .

ومن أكبر ما يساعد على تأليف هذه الجمعيات بين الأقوام المسلمين :

وجوب الزكاة عليهم، فإذا أخرجت كما أنزلت، كان منها رؤوس أموال طائلة تدير[1] ملاجئ ومستشفيات وكتاتيب ومعامل خاصة بالفقراء وأولادهم.

وإذا أضفنا إلى أموال الزكاة أموال الأوقاف وارتفاع عقاراتها- هو ريعها ودخلها. ونقول اليوم: إيرادها- مما هو مرصد لأعمال البر والإحسان وضروب الخير، واستثمر كل ذلك بحسب أصول فنِّ الاقتصاد الحديث، لا يبعد أن يحدث من وراء هذا جميعه انقلابٌ عظيم في الطوائف الإسلامية، وإصلاح كبير في هيآتهم الاجتماعية.

والكتاب كله على هذا النمط البديع، فنحن نثني على المؤلف الكبير أطيب الثناء، ونحث الخطباء والواعظين وكل من شدا أدبًا في الحجاز وغيره على مطالعة هذا الكتاب الكريم.



(١) في الأصل: «تدبر».

السعي والتوكل على الله[١]

« لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو[٢] خماصًا ، وتروح بطانًا »[٣] [حديث شريف] .

كنت أفهم من هذا الحديث الشريف أيام الطلب والتحصيل : أن النبي ﷺ جعل لنا الطير مضرب مثل في تبكيره إلى التماس رزقه ، وتنقله من شجرة إلى شجرة ، ومن ثمرة إلى ثمرة ، حتى يعود في العشي وهو شبعان ريان .

فلو أنا معشر البشر أخذنا نسعى في طلب الرزق كل يوم مبكرين ، وأقبلنا على عملنا بهمة ونشاط ، كما يفعل الطير ، لما عدنا في المساء إلا حامدين شاكرين . وإن لنا من الوسائل والأسباب ما ليس للطير ، فهو إنما يسعى بباعث الحس والغريزة والإلهام ، ونحن إنما نسعى ورائدنا العقل ، ودليلنا العلم ، وهادينا الفطرة والدين .

ولكن جدَّ لي الآن في فهم هذا الحديث النبوي معنى آخر؛ هو أبدع وأوسع من المعنى الأول ، وأنا لم أستفده من دراستي لعلم الطير وخصائصه ، وإنما استفدته في مرضي ، وأنا طريح الفراش في البيت ، أنظر إلى سقف « الديوان » فأرى في طرفيه- شرقًا وغربًا- عشين متقابلين ، وفي كل منهما عصفور وعصفورة ، ينطلقان من وكرهما قبل طلوع الشمس من كل يوم ، انطلاق السهم ، ثم يعودان بعد دقيقتين أو ثلاث ، وقد حملا في أفواههما المفتوحة جزءًا يسيرًا من الثمار ، من أدنى شجرة من البستان الأدنى إلينا ، فإذا ما أفرغا ذلك في

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٦٦- شعبان ١٣٦٦هـ.

(٢) جاء في هامش الصحيفة ما نصه : « الغدو : سير أول النهار نقيض الرواح ، أي تغدو بكرة وهي جياع ، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف ، وقيل : أصل الرواح أن يكون بعد الزوال » .

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٣٠، والترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر . وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٠) .

أفواه أفراخهما ، عادا إلى مثلها وأطعما أفراخهما بالترتيب ، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص عنه ، ثم بعد كل خمس نقلات يهبط أحدهما إلى أرض الدار ، ويحمل في منقاره ماء ويسقي الأفراخ بمثل ترتيب الطعام . ورأينا الأب أصبر من الأم على الاستمرار في الطيران ابتغاء الرزق ، فهو يطير إلى أصيل النهار بلا انقطاع ، بخلاف الأم فإنها وقت الظهيرة تأخذ نصيبها من الراحة ، وتنقطع عن السعي نحو ساعة . ومن الغريب هذا النظام العجيب ، وهو أنهما إذا استبقا إلى عشهما ، وسبق أحدهما الآخر إليه ، أنه يهبط على المدخل ويطعم صغاره ، وينتظره الآخر على قضيب من حديد مركوز في أعلى قوس الديوان ، حتى إذا طار جاء الآخر بطعامه وصنع صنيع الأول .

وأغرب من ذلك أن الفجوتين المتقابلتين هما مطاران للأفرخ ، فلا تسمع منهما غير خفق الأجنحة من دون أن ترى الطيور ، ولكن هذا التدريب وهذه التجاريب لا تكون إلا بزعامة الطائرين الماهرين وهما : الأب والأم . وفي هذين المطارين عدة أفراخ تدرب في كل يوم على الطيران . ولما قوى كبير الأفراخ ، وتتابع خفق أجنحته ، آنس من نفسه قوة على الطيران مستقلًا ، بعد أن تدرب وجرب كإخوته تحت رعاية أبويه ، فإذا بنا نراه يخفق بأجنحته خفقًا شديدًا قويًا فعل الطائرة بمحركاتها ، ثم يهبط إلى الأرض ، ويقفز من مكان إلى مكان ، ولكنه لا يقوى على الارتفاع إلى مكانه ، وكلما حاول الوصول أدركه الإعياء فهبط ، ولما رأى ذلك أبواه ومعلماه خافا عليه منا ، وهو يطير من حولنا ، وكاد يجن جنونهما ، وأخذا يرسلان زقزقات شجية متواترة يدعوانه بها إلى النهوض بعد الهبوط ، ولكنَّ النُغَيرَ خارت قواه ، فلم يسعنا إلا أن أخذناه بأيدينا ورفعناه إلى السطح ، فاطمأنا عليه ، وسكت عنهما الغضب ، ولم نعد نسمع لهما رِكزًا .

وهكذا بقية الأفراخ كانت تتمرن في مطاريها على الطيران بإشراف كبيريها ، ثم

طرن جميعًا، وأخلين المطار! فسبحان المنعم اللهم القائل: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠].

فهذا المثل المضروب في الطير من حِكَمِ النبوة الروائع، ومن العظاة الجوامع:

١- فهو يدعو إلى التبكير في الابتغاء من فضل الله، وكم من أناس يأتيهم رزقهم مبكرين، وغيرهم نيام!! أو هم في غفلة عن ذلك!!

٢- مواصلة السعي والعمل في النهار بلا فتور أو انقطاع، كما تفعل الطير.

٣- ينفق الساعي من كسبه وجدِّه على عياله وأطفاله، ولا يكون من المسرفين على أنفسهم، ولا من المبذرين الذين هم إخوان الشياطين.

٤- يباشر الوالدان قبل كل شيء تربيةَ الصغار بنفسيهما، وتعليمهم، وتعويدهم العادات الحسنة- كما علمت من الطير- ثم يرسلانهم إلى المعلمين والمربين.

٥- التوكل على الله حق التوكل لا يتم إلَّا من بعد الأخذ بالأسباب، والتماس الرزق، وإلا فهو تسوُّلٌ لا توكُّلٌ، وما ينبغي أن يكون الطير أعلم من الإنسان بسنن الله تعالى! والجمع بين الكسب والتوكل على أحسن الوجوه وأفضلها، والله أعلم.



حجيج بيت اللّه الحرام(١)

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٧]، وقال عز شأنه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمـرَان: الآية ٩٧].

فلا عجب إذا لبّى المسلمون هذا النداء، واستجابوا للّه وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ويبث روح المودة والوئام فيهم، ويقيهم خزي التقاطع، وفشل التنازع.

وقد أخذ المسلمون في هذا العام، يفدون ألوفًا مؤلفة على البلد الحرام، عاصمة الإسلام، ومهوى أفئدة بنيه. ولئن تناءت بلادهم، وتنوعت لغاتهم، وتعددت أجناسهم، فقد جمعتهم راية القرآن، ووحّدتهم كلمةُ الإسلام: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣].

اللّه أكبر ما أجلَّ رؤية الحجيج محرمين وملبِّين! وما أجمل لباس الإحرام الأبيض، الذي يشف عن بياض القلب، ويكشف عن سلامة الطوية والصدر! وللّه درهم طائفين، وعاكفين، وراكعين، وساجدين، وساعين بين الصفا والمروة من شعائر اللّه، ومتعارفين متعاطفين في بيت اللّه، ومجتمعين في دروس العلم والإرشاد مستمعين ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٥]

جعل اللّه البيت العتيق مثابة للناس وأمنًا، وإنك لتجد من الأمن- الذي جدَّده

(١) أم القرى- العدد ١٠٩- رجب- ١٣٤٥هـ.

الإمام العادل عبد العزيز آل السعود أيده الله- ما يذكرك بعهد الخلفاء الراشدين ، والملوك العادلين ، وحسبك أن زوّار مسجد الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم ، يشدون الرحال إليه الآن زرافات ووحدانًا ، ولو ذهبت امرأة وحدها ، لكانت آمنة على نفسها ومالها وعرضها .

وهذه السيارات التي تطوي البيد طيًا ، وتحمل وفود الحج من ساحل جُدة إلى مكة ، كل يوم بكرة وعشيا ، قد قرّبت البعيدَ وخفّفت المشقة ، لا سيما على العاجز والضعيف ، وصار الراكب من جُدة إلى مكة يصل في ساعتين من بعد ما كان يطوي في الطريق مرحلتين ، ويركب من مكة إلى المدينة في بضع عشرة ساعة ، بعد ما كان يسير في الطريق بضعة عشر يومًا بلياليها ، فبشرى لوفود بيت اللّه تعالى ، بشراهم اليوم .



الواجبات الاجتماعية(١)

العالم منقسم في نظر الإسلام من حيث الواجبات الاجتماعية إلى أربعة أقسام :

الأول : المسلمون بعضهم مع بعض .

الثاني : المسلمون مع أبناء الملل السماوية الذين يشتركون معهم في القانون المدني والوطني .

الثالث : الأقوام والأمم والحكومات التي بينها وبين الحكومة الإسلامية عهد أو ميثاق ، واتفاق على الروابط العامة بين الحكومتين .

الرابع : الأقوام المصارحون بالعداء للحكومة الإسلامية ، المعبر عنهم بالمحاربين .

ولنتكلم الآن على الواجبات الاجتماعية لكلٍ من هذه الأقسام الأربعة .

المسلمون : بُعث النبيُّ ﷺ ، وأهل الأرض يومئذ ، كما قال علي بن أبي طالب ، كرم اللّٰه وجهه : ملل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، وطوائف متشتتة ، بين مُشبِّهٍ للّٰه بخلقه ، أو مُلحدٍ في اسمه ، أو مشير إلى غيره ، ضُلَّالٌ في حيرة ، وخابطون في فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستنزلتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى في زلزال من الأمر ، وبلاء من الجهل .

أقول : فلما جاء الإسلام هداهم إلى توحيد اللّٰه تعالي ، وجَمَعَ كلمتَهم ، وألَّفَ بين قلوبهم ، ونهاهم عن التفرق فقال : ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣] . ووصفهم بقوله : ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: الآية ٢٩] . وأمرهم بقوله : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المَائدة: الآية ٢] فتمت للأمة العربية بهذه التعاليم السماوية وحدةٌ بعد فُرقةٍ ، وكثرةٌ

(١) مجلة الحج- ربيع الأول- ١٣٧٦هـ .

بعد قلَّة، وقوة بعد ضعف، وكان لهم بعد ذلك العداءِ المستمرِّ، والقتالِ المستحر، وحدةٌ عربيةٌ إسلامية لم يسبق لها نظير في التاريخ.

المسلمون وأهل الأديان السماوية:

قرر الإسلام في معاملة الأمم التي يضمُّها تحت رايته حقوقًا تضمنُ لهم الحريةَ في ديانتهم، والفسحةَ في إجراء أحكامها بينهم، وإقامة شعائرهم بإدارة مستقلَّة.

فلا سبيل لأولي الأمر إلى تعطيل شعيرة من شعائرهم، ولا يدخل في فصل نوازلهم الخاصة، إلَّا إن تراضوا بالمحاكمة أمام محكمتنا، فنحكم بينهم على قاعدة العدل والمساواة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: الآية ٤٢]

وإبقاء الرعية على شرائعهم وعوائدهم منظر[١] من مناظر السياسة العالية، وباب من أبواب العدالة السامية.

والأصل في كل مملكة أن حق الولاية الشرعية يكون في يدها دون غيرها، بحيث تَفصِلُ المحاكمُ التابعةُ لها عن جميع من تُقِلُّهم أرض الوطن؛ سواء كان النزاع متعلقًا بالجرائم، أو الأموال، أو الأحوال الشخصية. ولكن عملًا بحرية الأديان والمعتقدات، قُيِّدَت هذه الولاية، وانحصر سلطانها في الأمور الدنيوية، وأصبح كل إنسان حرًّا في أحواله الدينية وما يتبعها.

معاملة المعاهدين أو غير المحاربين:

واجبات المعاهدين علينا الوفاءُ لهم بالعهد، وعدمُ نقضه، إلَّا إذا هم بدأوا بذلك، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٧].

---

(١) في الأصل: «ينظر».

إن وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم، وتحريم الخيانة فيهما- سرًا أو جهرًا- كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية، من أحكام الإسلام القطعية، والآيات في ذلك متعددة محكمة، لا تدع مجالًا لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة، وعدِّه قُصاصةَ ورقٍ عند إمكان نقضه بالحيلة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النّحل: الآية ٩١] الآية. جمع بين الأمر بالإيفاء بها والنهي عن نقضها، بل أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النّحل: الآية ٩٢]، ومنها أن وصف المؤمنين الأبرار بقوله في آية البر: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] وبلَغَ من تأكيد الوفاء بالعهود، أن اللَّه تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غيرَ الخاضعينَ لحكمنا عن المعاهدين لنا من غيرهم، كما قال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٢] فهل يوجد وفاء بالعهود أعظم من هذا؟!

المحاربون:

الحروب التي كانت في صدر الإسلام تتوقف معرفتُها: أهي حربُ دفاعٍ، أم حربُ عدوان؟ على معرفة أسبابها والغرضِ منها. وهذا متوقف على درس طبيعة الإسلام وسياسته العالية، ومقاصده السامية.

وقد قلت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٥] كلمةً من محاضرةٍ جاء فيها:

القتل منه ما هو حسمٌ لمادة الفساد، وضمانٌ لحياة الأفراد، كقتل القصاص ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩] ومنه ما هو غرامي أو جنائي، كقتل الانتحار، والتردي من فوق الجبال، وإلقاء النفس في أعماق البحار، وكقتل الأخذ بالثأر أو الاعتداء، وقتل النساء أو البنات المعتدى على

عفافهن، وترك الزناة البغاة من الرجال يسرحون ويمرحون، ولو أجري القصاص العادل من النوعين لبطل الزنى وقتلُ النفس بغير حق، ولعاش الناس آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم. وهذه الحوادث في الصحف اليومية، وفي المسارح العمومية ودور السينما، لا تحصى كثرة.

أما فعل هذه المشاهد في الأخلاق، فكفعل الجراثيم في الأجساد أو أشد. ومن أنواع القتل ما هو طمع وجشع، أو استعباد واستذلال.

وأين هذه الأهداف القاصرة- أو الخاسرة- من الهدف الإسلامي الأسمى في القتال والجهاد لإعلاء كلمة الله؛ أي: لنصرة الحق على الباطل، والفضيلة علي الرذيلة، والتوحيد على الوثنية. ويؤيد ذلك قوله تعالى، خطابًا للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] فالثبات من أسباب النصر والظفر، وذكر الله قوة معنوية تثبِّتُ القلوبَ من جهة، وتبعثُ فيها الرحمةَ من ناحية أخرى، فالذاكر لله لا يقاتل ابتداء ولا اعتداء، ولا يقاتل من لا يقاتِل؛ كالنساء، والصبيان، والشيوخ، والمرضى، ومن ألقى السلاح وكف عن الحرب.

وإذن فالقتال مشروع في الإسلام للدفاع عن النفس والأوطان، ولحماية الإرشاد والدعوة، لا لإقامة الدين بالسيف والقوة، كما يظن الغِرُّ الجاهلُ، أو يقول العدو المتحامل.

وذكر الله هو الذي جعل العرب أعدل الأمم وأرحمهم، كما قال فيلسوف التاريخ غوستاف لوبون: ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب.

أيها العرب، أيها المسلمون:

هذه الجزائر بعد فلسطين، وهي أرض العرب والمسلمين، يقوم فيها العدو الفاجر، فيقاتل أهلها عليها، ويدعي أنها جزء من أرض وطنه.

وقد أجمعت كلمة الأمة على أن العدو إذا دخل بلادنا فاتحًا ، صار الجهاد فرضًا عينيًّا على كل فرد من الأفراد . وقد قامت فئة من أهل الجزائر الأسود البواسل ، يذودون عن ديارهم ، ويحافظون على نسائهم وأطفالهم ، ويقاتلون أعداءهم ، وهم يبلغون أضعاف المجاهدين عددًا وعدة . تآمرت عليهم قوى الشر والاستعمار بجميع معدات القتال برًّا وبحرًا وجوًّا ، فثبتوا لهم وانتصروا عليهم ، ونهض العرب والمسلمون لمعاونة إخوانهم المجاهدين .

وهذا أسبوع الجزائر وتبرعاته ، دلَّ على تضامن الأمة وتعاونها على تأييد الحق ، ودفع الباطل :

فإن قلتمُ قد يغلبُ الحقَّ باطلٌ نقول لكم لا يغلبُ الحقَّ باطلُ
الحق يعلو ولا يُعلى عليه فمَنْ ناواه ، كانت جنودُ اللّه منتصره

وقال تعالى : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: الآية ٢١] وبيَّن سبحانه كيف نحافظ على استقلالنا بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: الآية ٤١] .



التربية الاجتماعية في عهد الإسلام(١)(٢)

[١]

الحمد للَّه وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعدُ : فلقد علم علماء التاريخ ما كان في العالم القديم من توارث حقِّ الوصاية على النوع البشري في تصوراته ، وأحكامه العقلية ، واعتقاداته الدينية .

وكانت الفوضى في الأمة العربية سائدة ، والأمن في بلادهم- قبل الإسلام- مختلًا . الفرد يفرغ جهده في الفرد ، والجماعة يشتد عدوانها على الجماعة ، ويعدون ذلك كلَّه أثرَ نخوةٍ أصابوا به من المحز من معنى الحرية!! أرأيت كيف قال شاعرهم يفتخر بما يأخذه من حمية الجاهلية :

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم على القوم لم أنصر أخي وهو يُظلَم

أما قول رسول اللَّه ﷺ ، كما في الصحيح : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا »(٣) . فغير مراد منه المعنى الذي قصده الشاعر من الاعتصاب مطلقًا ، حقًّا أو باطلًا ، بل كشف النبي ﷺ عن مراده بنفسه حين قالوا له : هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ فقال : « تأخذ فوق يده »(٤) . والمعنى : تحجزه وتقيم صدره عن الظلم ، ولا جرم أن وقايته من العقوبات نوع من النصر والإعانة .

ثم إن هذه الجملة : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » . أول من تكلم بها جندب بن العنبر ، وأراد بها ما اعتاد من الحمية الجاهلية ، فأقرَّ النبيُّ الجملةَ ،

(١) ورد في الصحيفة ما نصه : محاضرة ألقاها فضيلة الأستاذ في المعهد العلمي السعودي ومدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة وقد اختص بها مجلة المنهل .

(٢) مجلة المنهل- العدد ٣/٦- ربيع الأول- ١٣٦٥هـ .

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) من حديث أنس .

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) من حديث أنس .

ولكن نقلها عن موردها الأول، وحملها على معنى اجتماعي يجعلها في جملة الإرشادات الإسلامية.

نأخذ الآن ببيان القواعد الأساسية لهذه التربية الاجتماعية، وهي نوعان: حقوق وواجبات.

فحرية العقل، وحرية النفس، وحرية العلم؛ هي من حقوق الإنسان التي أعلنها الإسلام.

والواجبات الشخصية، والواجبات المنزلية (أو العائلية)، والواجبات الاجتماعية، من تعاليم الإسلام.

وأني أتكلم على هذين النوعين من الحقوق والواجبات بقدر ما يتسع له وقت المحاضرة، وإن كان كل واحد منها يحتاج إلى محاضرة مستقلة.

حرية العقل

منيت هذه المزية الكبرى في الإنسان- مزية العقل- بمن يسيطر عليها، ويمنعها من تأدية وظائفها- حسبما استعدت له- من أقدم الأيام، حتى جاء الإسلام بحرية العقل وإطلاق العنان له؛ لينظر في هذا الكون نظر اعتبار، ويستكنه ما أودع في خزائنه من الحقائق والأسرار، قال عز من قائل: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ١٠١] وهذا النظر علمي عملي ينتج أفضل النتائج والثمار.

وقد دلت الآية على أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قد فتحوا للناس أبواب البحث والنظر في العلوم الكونية، وقد وجه القرآن الكريم أنظارنا إلى آثاره تعالى في الكون؛ تذكيرًا بالنعمة، وحفزًا للفكرة، لا تقريرًا لقواعد الطبيعة، ولا إلزامًا لاعتقاد خاص بالخليقة، كما قال بعض الحكماء. وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل. وانظر كيف يقرع بالدليل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ

إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢] . ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٩١] .

فالإسلام في هذه الدعوة إلى وحدانية اللّٰه لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفكري- وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي- فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغش بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس اللسان بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة الفكر بصيحة آلهية .



حرية العلم[١]

إن نسبة العلم إلى القوة العاقلة؛ كنسبة الغذاء إلى القوة الجسدية . وقد سطر التاريخ عداء العالم القديم للعلم . جاء في دائرة معارف لاروس : « أمَّا هم- يعني الأقدمين- فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التي تقتل بأثمارها بني آدم » .

وقد جاء الإسلام وحرر العلم من القيود التي كان يرسف بها ، وأعلن أنه يجب أن يكون محبوبًا مطلوبًا ، لا عدوًّا مطرودًا . فتح الإسلامُ للعقول أبوابَ العلوم بأسرها ، والمعارف بجملتها . قال تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣] ، وقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها »[٢] .

قال حكيم : « إلام أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين؟ فتح عمرو بن العاص مصر ، واستولى بجيشه على الإسكندرية بعد لحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية ، وتسع سنوات في رواية أخرى ، والإسلام في طلوع فجره ، وتفتح نوره

فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي ، كان في بدء أمره ملاحًا يعبُرُ الناس بسفينته ، وكان يميل إلى العلم بطبيعته ، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكراتهم .

ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم ، وهو ابن أربعين سنة ، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم ، وقد أحسن من العلم فنونًا كثيرة حتى عُدَّ من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته .

---

(١) مجلة المنهل- ربيع الأول- ١٣٦٥هـ .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧) ، وابن ماجه (٤١٦٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، بنحوه . وقال الألباني : ضعيف جدًّا .

يقول كثير من مؤرخي الأوربيين، ومؤرخي المسلمين: إن عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه، ووقعت بينهما صلة ظهر أمرها واشتهر، حتى قال أحد الفلاسفة الغربيين: إن المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة والرأي العالي، فبمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي، أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع».

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق، وأدخلوهم في أعمالهم، ولم يمنعهم الدين من استعمالهم، حتى كان دفاترهم بالرومية في سوريا ولم تُغيَّر بالعربية إلَّا بعد عشرات السنين، فاحتكت الأفكار بالأفكار، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع.

يقول الفيلسوف غوستاف لوبون: «إن العرب أول من علَّم العالمَ كيف تتفقُ حريَّةُ الفكر مع استقامة الدين».

ويقول فيلسوف آخر: «إن العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم- وكانت ميتة بين دفات الدفاتر، مقبورة بين جدران المقابر، أو مخزونة في بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن، لا حظ للإنسانية منها سوى النظر إليها- صارت عند العرب حياة الآداب وغذاء الأرواح، وروح الثروة وقوام الصنعة، ومهمازًا للقوى البشرية يسوقها إلى كمالها الذي أعدت له، وليس في الأوربيين من درس التاريخ وحكَّم العقلَ ثم ينكر أن الفضل في إخراج أوروبا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم، وفي تعليمها كيف تنظر، وكيف تفكر؟ وفي معرفتها أنَّ التجربةَ والمشاهدةَ هما الأصلان اللذان بُني عليهما العلم- إنما هو للمسلمين وآدابهم، ومعارفهم التي حملوها إليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا عليهم!!.

للبحث صلة.

التربية الاجتماعية في عهد الإسلام[1]

[٢]

حرية النفس

من سبر أغوار الأمم قبل الإسلام، ولا سيما الأمة العربية في عصر الجاهلية، عرف كيف كان استبداد القوي بالضعيف وهضمه لحقوقه.

كان الوضيع منهم يضطر إلى الانتساب إلى غير أبيه، والاستنجاد بغير معشره وذويه؛ حفظًا لحقه وإبقاءً على شرفه، حتى جاء الإسلام يدك معالم الاستبداد، ويهدم صروح الاستعباد، وينتصف للضعيف من القوي، وينتصر للمظلوم من الظالم، ويبين أن الناس خلقوا للتعارف والتعاون على الخير والاشتراك في الأعمال النافعة، وأن لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلَّا بالتقوى، قال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] فأسقط جل شأنه بهذه الآية الكريمة سيطرةَ أيِّ نفسٍ على غيرها من النفوس، إلَّا ما يُستحصل به حقٌّ أو يقام به حدٌّ، وانمحى به كلُّ فضل يدعى بأصالة محتد، أو وفرة غنى، أو انتساب إلى قبيلة أو لقب علمي أو ديني لا يفيد صاحبُه الناسَ بعلمه أو دينه.

لم يكن أمر الإسلام قاصرًا على نصرة المظلوم ....[2] فحسب، بل سعى كل السعي في تخليص الرقيق من أسر العبودية والانتقال به إلى فضاء الحرية، كما قال أحد الباحثين:

---

(١) مجلة المنهل- ربيع الآخر ٤/٦- ١٣٦٥هـ.

(٢) مقدار كلمتين غير واضحة.

إن العتق من أفخر ما يفتخر به الإسلام ، فإن شريعتنا المحمدية قد سعت في تقويض[١] دعائم الاسترقاق وتدمير معالمه . ولكن كيف العمل؟ هل كان من الموافق المبادرة بتحريم أمرٍ امتزجت به عوائد العالم كله منذ ما وجد الاجتماع الإنساني ، وتوالت عليه الأيام والأعوام والشهور والدهور؟! ألا إن ذلك يجر وراءه- بلا شك- انقلابًا عظيمًا في نظام الاجتماع ، وفتنة كبيرة في نفوس الأمم والأقوام؛ فلهذا جاءت شريعة الإسلام من طريق آخر ، تزول أمامه الصعوبات ، وتُذلَّلُ العقبات ، بدلًا من تهييج العقول وإثارة الخواطر والأفكار بإلغاء الاسترقاق مرةً واحدة ، فخوطب المسلمون بأن يتقربوا إلى اللَّه بإعتاق العبيد المساكين في ظروف كثيرة وأحوال متنوعة ، وحث النبي ﷺ كثيرًا على السعي نوالَ هذه الغاية الجليلة ، ولذلك جاءت قواعد العتق في غاية السعة ونهاية اليسر ، بحيث يتسنى دائمًا للرقيق أن يجد فيها طريقًا يساعده على الخلاص من الاستعباد إذا طلب ذلك ، بل ولو لم يطلبه .

وقال أحد علماء الإفرنج : أما الاسترقاق فلا حاجة لنا بإطالة القول علي المبادئ الحقة الصحيحة التي قررها القرآن الشريف بشأنه ، فإن فك الرقبة هو من أفضل الأعمال لدى المولى عز وجل ، وأجمل القربات لطلب الغفران عن ارتكاب السيئات . والدول الإسلامية هي أول من ينكر ويحرم هذه التجارة القبيحة الشنعاء .

وقال العلامة غوستاف لوبون في كتابه « تمدن العرب » : إن لفظة الرق إذا ذكرت أمام الأوربي الذي اعتاد تلاوة الروايات الأمريكية المؤلفة منذ نحو ٣٠ سنة من الزمان ورَدَ على خاطره استعمالُ أولئك المثقلين بالسلاسل ، المكبلين بالأغلال ، المسوقين بضرب السياط ، الذين لا يكاد يكون غذاؤهم كافيًا لسد رمقهم ، وليس لهم من المساكن إلا حبس مظلم .

---

(١) في الأصل : « تقويم » .

التربية الاجتماعية في عهد الإسلام[1]

[٣]

الواجبات الشخصية والمنزلية

مما ورد في شأن إصلاح الرجل نفسه وأسرته معًا هذا الخطابُ الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التّحْريم: الآية ٦] وإنما تكون هذه الوقاية من النار بتصحيح الاعتقاد، وتطهير النفس من الأوهام، وتهذيبها بالعلم الصحيح، وتزكيتها بالعمل الصالح، وحفظها من التلف؛ بمراعاة قانون حفظ الصحة في الحياة، ذلك بأن الأعمال لا تقوم إلا بها، ولا تنبني إلا عليها، ومن هنا قالوا: حفظ الأبدان مقدَّمٌ على حفظ الأديان.

ومما يجب على ربِّ الأسرة إصلاحُ شأنها من جهة التربية والتعليم. والآية الكريمة في شأن الأزواج ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٨] جامعة للأمرين- أي: التربية والتعليم- على طريق الإيجاز، بل لا يوجد في أرقى الشرائع القديمة والحديثة قانون أعدل ولا أجمع منها، إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، ولم تعين هذه الحقوق والواجبات؛ لأنها تتبع العرف، وتختلف باختلاف الطبقات والشرائع والعادات، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة؛ إذ لابد لكل جماعة أو أسرة من نظام، ولابد لكل نظام من رئيس منفِّذ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه؛ لأن له من القدرة على الرعاية والحماية والكسب والإنفاق ما ليس لها، وهذا هو المراد من الآية الكريمة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النِّساء: الآية ٣٤].

(١) مجلة المنهل- جمادى الآخرة- ١٣٦٥هـ.

لكنَّ هذه الرئاسة، رئاسة شورية لا استبدادية، ودليلها من القرآن قوله تعالى في شأن الزوجين وطفلهما الرضيع وفطامه: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٣]. فهذا نص صريح في إقامة سنَّةِ الشورى بين أعضاء الأسرة الواحدة.

وقد أجمع الباحثون في سنن العمران ورقي الإنسان على أن التربية القويمة والتعليم الصحيح هما الوسيلة العظمى لارتقاء الأمة في معارج الحضارة، وبلوغها ما تطمح إليه من الآمال الكبار، لذلك كان من أهم واجبات الأمة- التي تجعل هذا الهدف الأسمى والسعادة العظمى نصبَ عينيها- أن تكل أمر أبنائها وتعليمهم إلى من يَطبَعُون في فطرة الناشئ أصولَ الفضائل وآدابَ الشريعة، ويُهذِّبون عواطفَه ويرقون شعوره. أما إذا وسد أمر التعليم إلى غير ناصح ولا أمين، ألمَّ بمزاج الأمة ما يُضعفه، ويُنمِّي جراثيمَ الداء فيه؛ فتزداد الأمة مرضًا، حتى تكون حرَضًا، أو تكون من الهالكين.

التربية الدينية عمادُ الفضائل، والمعلمون خلفاء الرسل في تعليمهم وأخلاقهم «كاد المعلم أن يكون رسولًا»

فمن شأنهم أن يكونوا من أكمل البشر وأفضلهم، فهم القدوة الصالحة التي ينشدها الطلاب والمدارس، والمثل العليا تُستملَى من صفاتهم وأعمالهم، لا من الكتب التي يدَرِّسونها فحسب. ويجب أن لا يرى الطلابُ عليهم مآخذَ يتمسَّكون بها؛ إذ بهم يقتدى، وبهديهم يهتدى، وليذكروا قولَ المصلح الأعظم ﷺ: «من سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1].

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

الواجبات الاجتماعية

العالم منقسم في نظر الإسلام من حيث الواجبات الاجتماعية إلى أربعة أقسام:

الأول: المسلمون بعضهم مع بعض.

الثاني: المسلمون مع أبناء الملل السماوية الذين يشتركون معهم في القانون المدني والوطني.

الثالث: الأقوام والأمم والحكومات التي بينها وبين الحكومة الإسلامية عهد أو ميثاق واتفاق على الروابط العامة بين الحكومتين.

الرابع: الأقوام المصارحون بالعداء للحكومة الإسلامية، المعبر عنهم بالحربية.

ولنتكلم الآن على الواجبات الاجتماعية لكلٍّ من هذه الأقسام الأربعة:

المسلمون:

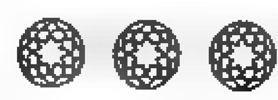
بُعث النبي ﷺ وأهلُ الأرض يومئذ كما قال علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه: ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطوائف متشتتة، بين مُشبِّهٍ للّه بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره، ضُلَّال في حيرة، وخابِطُون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء واستنزلتهم الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل.

أقول: فلما جاء الإسلام هداهم إلى توحيد اللّه تعالى، وجمَعَ كلمتهم، وألَّفَ بين قلوبهم، ونهاهم عن التفرُّق فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣] ووصفهم بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: الآية ٢٩] وأمرهم بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المَائدَة: الآية ٢].

فتمت للأمة العربية بهذه التعاليم السماوية وحدةٌ بعد فُرقةٍ ، وكثرةٌ بعد قِلَّةٍ ، وقوةٌ بعد ضعف ، وكان لهم بعد ذلك العداءِ المستمرِّ والقتالِ المستحر وحدةٌ عربية إسلامية لم يسبق لها نظير في التأريخ .

ووضعت الأحكام في الإسلام على شكل التكافؤ ، وأديرت سياستها على قطب المساواة ، فلا فضل فيها لشريف على وضيع ، ولا امتياز لملك على سوقي ، والعقوبة الموضوعة على صعلوك الأمة هي المحمولة على سيدها بدون فارق ، فلو ادعى أمير المؤمنين على أدنى الناس درهمًا واحدًا لم يقض له باستحقاقه إلَّا بشهادة عادلة . وهذا المعنى عام في جملة الشريعة وتفاصيلها .

ومن أدلة المساواة : قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠] أخذت هذا الآية بيد المستضعفين من الناس ، وأوقفتهم في مرتقى أولي القوة جنبًا إلى جنب؛ إذ المعروف في الأخوة اتحادُهم في النسب ، وهو يقتضي عدم تفاضلهم وتمايزهم في الحقوق ، فالآية وإن دلت على التواد والتراحم من جهة ، لا تخلو من الدلالة على المساواة من جهة ثانية .



التربية الاجتماعية في عهد الإسلام[(١)]

[٤]

المسلمون وأهل الأديان السماوية

قرر الإسلام في معاملة الأمم التي يضمها تحت رايته حقوقًا تضمن لهم الحرية في ديانتهم، والفسحةَ في إجراء أحكامها بينهم، وإقامةِ شعائرها بإرادة مستقلة.

فلا سبيل لأولي الأمر إلى تعطيل شعيرة من شعائرهم، ولا يدخل في فصل نوازلهم الخاصة، إلَّا[(٢)] إن تراضوا عن المحاكمة أمامها، فتحكم بينهم على قاعدة العدل والمساواة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: الآية ٤٢]

وإبقاء الرعية على شرائعهم وعوائدهم منظرٌ من مناظر السياسة العالية، وباب من أبواب العدالة السامية.

الأصلُ في كلِّ مملكةٍ أنَّ حقَّ الولايةِ الشرعية يكونُ في يدها دون سواها، بحيثُ تفصلُ المحاكِمُ التابعةُ لها في جميع مَن تُقلُّهم أرضُ الوطن، سواءًا كان النزاعُ متعلِقًا بالجرائم، أو الأموال، أو الأحوال الشخصية، ولكن عملًا بحريَّة الأديان والمعتقدات قُيِّدت هذه الولايةُ وانحصر سلطانُها في الأمور الدنيوية، وأصبح كلُّ إنسانٍ حرًّا في أحواله الدينية وما يتبعها.

تنظر إلى أبواب الشريعة، فتبصر في جملتها أحكامًا كثيرة مبنية على التسامح مع غير المحاربين! تطالع أبواب الهبة، والوقف، والوصية، فتستفيد من أحكامها

---

(١) مجلة المنهل- العدد ٦ /٧- رجب- ١٣٦٥هـ.

(٢) في الأصل: «إلى».

أنَّ الإسلام لم يقتصر على إباحة معاملتهم بمعاوضة، بل أجاز للمسلم أن يهب جانبًا من ماله أو يوقفه أو يوصي لغير المسلم!

أمر الإسلام بالعدل والإحسان في معاملتهم، والرفق بضعيفهم، وسدِّ غلَّة فقيرهم، وحرَّم الاعتداءَ عليهم، ولو بكلمةِ سوء، أو غيبةٍ في عرض أحدهم.

وحكى ابن حزم في «مراتب الإجماع»: أنَّ من كان في الذمَّة، وجاء أهلُ الحربِ إلى بلادنا يقصدونه، وجبَ علينا أن نخرج لقتالهم بالسلاح، ونموت دون ذلك؛ صونًا لهم.

معاملة المعاهدين أو غير المحاربين

واجبات المعاهَدين علينا الوفاءُ لهم بالعهد وعدمُ نقضه، إلَّا إذا هم بدأوا بذلك، قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٧].

إنَّ وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم، وتحريمَ الخيانة فيهما سرًّا وجهرًا كتحريم الخيانة في كلِّ أمانة مادية أو معنوية، من أحكام الإسلام القطعية، والآيات في ذلك متعددة محكمة، لا تدع مجالًا لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقتَ القوة وعَدِّه قُصَاصَةَ ورَقٍ عند إمكان نقضه بالحيلة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: الآية ٩١] الآية. جمع بين الأمر بالإيفاء بها، والنهي عن نقضها، ثم أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل: الآية ٩٢].

ومنها: أنه وصف المؤمنين الأبرار بقوله في آية البر: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: الآية ١٧٧] وبلغ من تأكيد الوفاء بالعهود أنَّ اللَّه تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غيرَ الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من غيرهم،

كما قال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] فهل يوجد وفاء بالعهود أعظم من هذا.

الإسلام يبيح البر والإقساط إلى من لم يناصبنا العداء، ولم يطمع منا بأرض ولا احتلال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٨].

يجب أن يُقصدَ بمعاهدات الصلح والسلام بين الأمم الإصلاحُ والعدلُ والمساواة، فتُبنى على الإخلاص دون الدَخَلِ- أي: الغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه- أي: لا لأجل أمة هي أربى نفعًا، وأكثر عددًا وجمعًا من الأمة الأخرى، وهو واقع في بعض معاهدات هذا الزمان.

ومن عجائب القرآن أن كشفه ونهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النّحل: الآية ٩٢]

والمعنى: لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها، كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد قوةِ إبرامِه نقضَ أنكاث، وهو جمع نِكثٍ- بالكسر- ما نُقِضَ ليُغزل مرةً أخرى، حال كونكم تتخذون عهودكم دخلًا بينكم؛ لأجل أن تكون أمةٌ هي أربى وأزيد رجالًا، وأكثر ربحًا ومالًا، وأقوى أسنة ونضالًا، من أمة أخرى. (من «المنار» بتصرف واختصار).

وهو يشبه اتفاق الذئب مع الأغنام، أو الأوصياء الجائرين على الضعاف الأيتام، وهو مما لا يجيزه الإسلام؛ ولمثله شرع القتال والدفاع على حدِّ قول القائل:

ولست بمطراب إذا شبَّت الوغى ولكن إذا ما أُدعَ للشرِّ أركب



التربية الاجتماعية في عهد الإسلام(١)

[٥]

المحاربون

الحروب التي كانت في صدر الإسلام تتوقف معرفتها- أهي حرب دفاع أم حرب عدوان؟- على معرفة أسبابها والغرض منها ، وهذا متوقف على درس طبيعة الإسلام ، وسياسته العالية ، ومقاصده السامية . وقد قلت في تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٥] كلمةً من محاضرةٍ ، نشرتها مجلة التربية والتعليم ، أو المعلمون والمعلمات ، جاء فيها :

القتل؛ منه ما هو حسم لمادة الفساد ، وضمان لحياة الأفراد ، كقتل القصاص ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩] . ومنه : ما هو غرامي أو جنائي ، كقتل الانتحار ، والتردي من فوق الجبال ، وإلقاء النفس في أعماق البحار ، وكقتل الأخذ بالثأر ، أو الاعتداء . وحوادثه في الصحف اليومية ، وفي المسارح العمومية ، ودور السينما الصامتة والناطقة ، لا تحصى كثرة . أما فعل هذه المشاهد في الأخلاق ، فكفعل الجراثيم في الأجساد أو أشد! .

ومن أنواع القتال ما هو طمع وجشع ، أو استعباد واستذلال .

وأما الاقتتال الجاهلي قبل الإسلام ، فهو حروب أهلية داخلية ، فيه إضعاف للأمة ، وتفريق لوحدتها ، وهدٌّ لقواها . ومنهم من كان يصرح بأنه يشهد الوغي لا لغرض سوى شهود اللذات ، أو اليأس من الحياة ، كقول طرفة في معلقته .

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى … وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تستطع دفع منيتي … فدعني أبادرها بما ملكت يدي

---

(١) مجلة المنهل- العدد ٦ /٨- شعبان- ١٣٦٥هـ .

وأين هذه الأهداف القاصرة- أو الخاسرة- من الهدف الإسلامي الأسمى في القتال ، وهو الجهاد لإعلاء كلمة اللّه ، أي : لنصرة الحق على الباطل ، والفضيلة علي الرذيلة ، والتوحيد على الوثنية . ويؤيد ذلك قوله تعالى؛ خطابًا للمؤمنين : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] فالثبات من أسباب النصر والظفر ، وذكر اللّه قوة معنوية تُثبِّتُ القلوب من جهةٍ ، وتبعثُ فيها الرحمة من ناحية أخرى . فالذاكر للّه لا يقاتل ابتداء ولا اعتداء ، ولا يقاتِل من لا يقاتِل؛ كالنساء ، والصبيان ، والشيوخ ، والمرضى ، ومن ألقى السلام ، وكفَّ عن الحرب .

وإذًا فالقتال مشروع في الإسلام للدفاع عن الأنفس والأوطان ، ولحماية الإرشاد والدعوة ، لا لإقامة الدين بالسيف والقوة ، كما يظنُّ الغِرُّ الجاهلُ ، أو يقولُ العدوُّ المتحامل .

وذكر اللّه هو الذي جعل العرب أعدل الأمم وأرحمهم ، كما قال فيلسوف التأريخ كوستاف لوبون : ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب .

قال بعض الأعلام : من تصفح القرآن وجده يتضمن تعاليم روحية ، وتعاليم زمنية ، منها ما يمارس وقت السلم ، ومنها ما يراعى حين الحرب ، ولكن ترتيب هذه التعاليم في القرآن ليس على نسق ترتيب مواد القوانين الوضعية ، وإنما روعي فيه أسلوب آخر ، منظور فيه إلى كيفية طروء الحوادث ، وتجدد الوقائع ، ولاعتبارات تشريعية أخرى .

فإذا لاحظتم أن للدين الإسلامي وجهةً حربيةً ماديةً ، حكمتم- بالضرورة- أن لها طبيعةً تلائم هذه الحالةَ ، مثل تقوية الرابطة بين المسلمين ، وحثهم على الانكماش في مقاومة عدوهم ، وعدم الائتمام للمخالفين ، وإساءة الظن بهم ، والتعزز عليهم أحيانًا ، في نظير ذلك مما تستدعيه حالة المحاجزة والمناجزة .

وكما كان لهذه الحالة المادية طبيعتها ، كان أيضًا للحالة الروحية طبيعتها ، ولحالة السلم طبيعتها مِنْ مثل التوادِّ والتراحم ، والتناصف وحسن المعاملة ، ولين العشرة ، وتبادل الثقة بين المسلمين وغيرهم؛ لأجل أن تصان المصالح القومية ، وتجتلب المنافع العمومية .

الإسلام علَّم أتباعه- في غير وقت الحرب- أن يكونوا ملائكةَ خير وطهر وإخلاص وفضيلة وأمانة . حسبك أن تكون كلمة السلام شعارهم الخاص ، فيحيِّي بعضهم بعضًا بها كلما اجتمعوا أو تفرقوا أو تلاقوا؛ وما ذاك إلا لأجل أن يكون للسلام المنزلة العليا في بلادهم ، والتأثير العميق في نفوسهم .

وبعد تقرير هذه القواعد وإسنادها إلى أصولها ، يجب أن نلقي نظرة عامة على حالة التربية الاجتماعية في هذا العصر ، وقبله بعصور ، فعندها يتضح الناظر(١) أنَّ ضعف هذه التربية ناشئ عن عدم تطبيق هذه القواعد والأصول .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نختم الكلام بكلمة لحكيم رباني يوجه بها هذه الأمة العربية إلى هدفها الأسمى وسعادتها العظمى ، فيقول :

لا أطيل عليك بحثًا ، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ، ولكني أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل . أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيعت بعد المنعة ، وتبيَّنْ أسبابَ نهوضها الأول حتى تتبينَ مضاربَ الخللِ وجراثيمَ العلل! فقد يكون ما جمَعَ كلمتَها ، وأنهضَ همم آحادها ، ولحَمَ ما بين أفرادها ، وصعَدَ بها إلى مكانةٍ تُشرف منها على رؤوس الأمم وتسوسهم ، وهي في مقامها بدقيق حكمتها ، إنما هو دينٌ قويمُ الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر

(١) كذا ، ولعلها : « للناظر » .

للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من اجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعتُها، ولها وردت وعنها صدرت، فما تراه من عارضِ خللِها وهبوطِها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول، ونبذها ظهريًّا، وحدوث بدع ليست منها في شيء؛ أقامها المعتقدون مقامَ الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين، وعما أتى لأجله، وما أعدته الحكمة الإلهية له! حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر، وعبارات تقرأ، فتكون هذه المحدثات حجابًا بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحيانًا بين جوانحها!!.

فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب، وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة، وجمع الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة؛ لأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفيٌّ من محبةٍ، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشئونهم، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة شانها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وخالف فيها نظامَ الوجود، فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسًا، ولا يكسبها إلا تعسًا.

هل تعجب– أيها السامع– من قولي: إن الأصول الدينية الحقة، المبرأة عن محدثات البدع، تنشئ للأمم قوةَ الإتحاد، وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف

على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسع دائرة المعارف ، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية؟! إنْ عجبت ، إنَّ عجبي من عجبك أشد .

هل نسيت تاريخ الأمة العربية ، وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، وإتيان الدنايا والمنكرات؟! حتى إذا جاءها الدين فوحدها ، وقواها وهذبها ، ونور عقولها ، وقوَّم أخلاقها ، وسدد أحكامها ، فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف!

وقد شهد لنا بذلك فيلسوفٌ من أعلم مؤرخي الأوربيين وأصدقهم لهجة ، وهو « كوستاف لوبون » حيث قال : ما وجد التأريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب . وقد نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها[1] في التمسك بأصول دينها .



(١) في الأصل : « ومدينتها » .

حول صدور المرسوم الملكي الكريم[١]
بمنع دخول الخمر إلى المملكة العربية السعودية

اللهم لك الحمد، ومنك العون، وعلى نبيك ورسولك أزكى الصلاة والسلام.

أما بعد؛ فإن المملكة العربية السعودية، وفيها مهد الإسلام، ومبعث الدعوة، ومنشأ الرسالة، هي مطاف أنظار المسلمين كافة، فما يظهر فيها من خير، وما يتم فيها من إصلاح، يفوح شذى عرفه في سائر الأقطار الإسلامية، فيكون له أجمل وقع في نفس كل مسلم غيور على دينه وأمته.

وإن أولى الأمور بأن تصرف العناية إلى ترتيب نظامه، هو ما يتعلق به ثبات الدين، ويترتب عليه صلاح المسلمين، ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن فيه تثقيف الزائغين عن الحق، وتأديب المنهمكين في الفسق، وتقوية أواصر الشرع، وإجراء أعمال الدين على قواعدها وأصولها.

وقد قرأنا ذلك المرسوم الملكي الكريم رقم (٧٩) المؤرخ في طليعة هذا العام (عام ١٣٧٢هـ) بمنع دخول الخمور إلى المملكة العربية السعودية، فابتهجت بذلك القلوب، وتهللت الوجوه، وافترت الثغور، ولهجت الألسنة بالدعاء لجلالة إمام أهل التوحيد، وفخر الدعاة إلى اللّٰه تعالى، الملك عبد العزيز آل السعود، أيده اللّٰه بروح من عنده. فلا عجب إذا لبَّى أبناءُ المملكة هذا النداء، واستجابوا لما يحييهم حياة طيبة، ويحفظ ثروتهم وصحتهم وقوتهم، ويقيهم مصارع السوء وسوء المنقلب، بل لا عجب أن يستجيب المسلمون في المشارق والمغارب إلى دعوة الإمام عبد العزيز- أثابه اللّٰه أفضل الثواب وأجزله- وهو الآمر

(١) مجلة الحج- رجب- ١٣٧٢هـ.

بتلك المقاصد، والناهي عن تلك المفاسد.

هذا وقد سأل أحد الفضلاء في ديار الشام: أيجوز بيعُ العنب لمن يعصِره خمرًا؟ فأجبت بما ورد من أحاديث النهي عن ذلك، وهذا نص الجواب، وباللَّه المستعان:

أخرج الترمذي[١] من حديث أنس أن النبي صلوات اللَّه عليه وعلى آله وسلم أتاه جبريل فقال: «يا محمد إن اللَّه لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وشاربها، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها». وأشار إلى كل معاون عليها، ومساعد فيها. وفي رواية: «وآكل ثمنها».

وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس، وابن عمر أيضًا، عن النبي ﷺ[٢]، وعن أبي هريرة عند أبي داود[٣]، وعن ابن عباس عند ابن حبان[٤]، وعن ابن مسعود عند الحاكم[٥]، وعن بريدة عند الطبراني في «الأوسط»[٦] من طريق محمد بن أحمد بن أبي خيثمة، بلفظ: «ومن حبس العنب أيام القطاف حتى يبيعه من يهودي، أو نصراني، أو ممن يتخذه خمرًا، فقد تقحم النار علي بصيرة». أي: دخلها على معرفة بسبب دخولها، والعياذ باللَّه، حسنه الحافظ ابن حجر في «بلوغ المرام»[٧] وأخرجه البيهقي[٨] بزيادة: «أو ممن يعلم أن يتخذه خمرًا».

---

(١) أخرجه الترمذي (١٢٩٥). وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد ١/٣١٦، ٢/٩٧ من حديث ابن عباس، وابن عمر رضي اللَّه عنهم.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٤٨٥).

(٤) أخرجه ابن حبان (٥٣٥٦).

(٥) المستدرك (٤/١٤٥) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما، ولم نجده من حديث ابن مسعود.

(٦) المعجم الأوسط (٥٣٥٦).

(٧) بلوغ المرام ص١٤٧.

دل الحديث الأول على لعن الخمرة نفسها ، ولعن تسعة أصناف من الناس معها ، وهو يتناول كل من ساعد عليها ورضي بها . واستدلوا به على تحريم بيع العصير ممن يتخذه خمرًا ، وتحريم كل بيع أعان على معصية؛ قياسًا على ذلك .

وأما الحديث الثاني؛ حديث بريدة رضي اللَّه عنه ، فهو نص صريح في السؤال ، وهو تحريم بيع العنب ممن يتخذه خمرًا؛ لترتيب الوعيد الشديد على من باع العنب إلى من يتخذه خمرًا . وقوله : « حبس العنب » ، وقوله : « أو ممن يعلم أن يتخذه خمرًا » . يدلان على اعتبار القصد والتعمد للبيع إلى من يتخذه خمرًا ، ولا خلاف في التحريم مع ذلك ، وهو موضوع الفتوى .

وروى ابن بطة بإسناده عن محمد بن سيرين أنَّ قيِّما كان لسعد بن أبي وقاص في أرض له ، أخبره عن عنب له أنه لا يصلح زبيبًا ، ولا يصلح أن يباع إلَّا لمن يعصره ، فأمر بقلعه ، وقال : بئس الشيخ أنا إنْ بعتُ الخمرَ[1] .

وهكذا الحكم في كل ما قُصد به الحرام ، كبيع السلاح في الفتنة ، أو لأهل الحرب ، أو لقطاع الطريق ، وكبيع اليانسون لمن يتخذه خمرًا ، وبيع الأمة للغناء ، أو إجارتها لذلك ، فهو حرام . راجع « المغني مع الشرح الكبير » (٤/٤٠) و« نيل الأوطار » (٥/٢٥٠) .

وقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] .

أيها المسلمون ، إن اللَّه تعالى يأمركم أن تنفقوا على من تلزمكم نفقته من أولادكم ونسائكم وغيرهم ، وأن تخرجوا زكاة أموالكم ، وتتصدقوا على فقرائكم

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٦٢٠) .
(٢) أخرجه أحمد في العلل ٣/٤٥ من وجه أخر (٤٠٩٨) .

من طيبات ما كسبت أيديكم ، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لكم من الأرض ، فقد أمركم بالإنفاق من طيب المال وجيده ، ونهاكم : ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] أي : لا تعدِلوا عن الطيب المستجاد ، ولا عن المال الحلال ، وتقصِدوا إلى النوع الرديء ، ولا إلى المال الحرام ، فتجعلوا نفقتكم وصدقتكم منه ، ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢] واعلموا أن اللَّه تعالى غني عن نفقاتكم وصدقاتكم ، وإنما يأمركم بالطيب الخالص منها؛ ليزيدكم من فضله ، ويضاعفها لكم أضعافًا كثيرة .

ثم قال تعالى : ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨] أي : أن الشيطان هو الذي يخيِّل إليكم بوسوسته الفقرَ وسوءَ الحال ، إذا اقتصرتم على الحلال في نفقة العيال وغير العيال ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨] : بالبخل وبالمعاصي ، والمآثم والمحارم؛ من ذلك : أنه يأمركم بحبس العنب عن الآكلين ، وحمله إلى الخمَّارين والشاربين ، ويعدكم على ذلك الثروةَ والغنى ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨] يعدكم بالسعادتين؛ الغنى عن الناس في الدنيا ، ومغفرته ورضوانه في الآخرة . ووعدُ اللَّه أحقُّ وأصدقُ ، فما عند اللَّه خيرٌ وأبقى .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩٠، ٩١] .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

[الأنفال : ٢٤، ٢٥] .

المرأة العربية في صدر الإسلام[١]

كان تعلم العلم الديني في عهد النبوة عامًا للكبار والصغار والذكور والإناث ، فكان النساء يتدارسن القرآن ويروين الأحاديث ، ويحافظن على العبادات ويصلين صفوفًا في المساجد ، ويستمعن الخطب والمواعظ ، ويحضرن صلاة العيدين في المصلى العام ، ويسافرن لأداء فريضة الحج والعمرة ، بل كُنَّ أيضًا يشهدن الحروبَ ويهيئنَ للمجاهدين الطعامَ ، ويسقينهم الماء ، ويغسلن الثياب ، ويُضمِّدن الجروح ، ويشتركن في الجهاد أحيانًا .

نعم إنَّ الشريعة لم توجب على المرأة حضورَ الجمعة والجماعة إيجابًا ، ولم تفرض عليها القتال مع الرجال وحماية الديار والدفاع عن الحق بالقوة ، وإنما خصَّت الرجالَ بذلك كلِّه؛ لأن للمرأة من نظامها الفطري واختصاصها المنزلي ما يعوقُها عن مشاركة الرجال في كلِّ حينٍ بمثل هذه الأعمال ، ومن أكبر موانعها : الحمل ، والولادة ، وحضانة الأطفال ، وإعدادهم رجالًا للمستقبل ، وإدارة شؤون المنزل .

وأما عملها الإسلامي في الجهاد فيظهر بمثل ما قامت به في وقعة أُحُدٍ بطلةُ الحروب والوقائع العربية الإسلامية ، الصحابيةُ الجليلة أمُّ عمارة نسيبةُ بنت كعبٍ المازنية الأنصارية الشهيرة .

وإليكم الحوارَ الذي دار بينها وبين أمِّ سعدٍ بنتِ سعدِ بن الربيع :

قالت أم سعد : دخلت علي أمِّ عمارة ، فقلت : يا خالة ، أخبريني خبرَك . قالت : خرجتُ أوَّل النهار ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعي سِقاءٌ فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو في أصحابه ، والدولةُ والريحُ للمسلمين . فلما

(١) مجلة الحج- رجب- ١٣٦٦هـ .

انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول اللَّه ﷺ فكنت أباشرُ القتال، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلُصتِ الجِراحُ إليَّ. فرأيتُ على عاتقها جُرحًا أجوفَ له غورٌ، فقلت: من أصابكِ بهذا؟ قالت: ابنُ قميئة[1]، اقمأه الله- أذلَّه وأصغره- لمَّا ولَّى الناسُ عن رسول اللَّه أقبلَ يقول: دلُّوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا. فاعترضتُ له أنا ومصعب بن عمير، وأُناس ممن ثبَت مع رسول اللَّه، فضربني هذه الضربة، ولكني ضربته على ذلك ضربات، ولكنَّ عدو اللَّه كانَ عليه درعان[2].

وقد أثنى الرسول على شجاعتها فقال: «ما التفَتُّ يومَ أُحُدٍ يمينًا ولا شمالًا إلَّا ورأيتها تقاتل دوني»[3].

شهدتْ بيعة الرضوان، ثم شهدتْ وقعة اليمامة، فقاتلت حتى قطعت يدُها، جُرحت اثنتي عشرة جِراحة، وكانت فوق ذلك كله محدثة جليلة، روى عنها ابنُها[4] عبَّاد بن تميم، ومولاتها ليلى، وعكرمة، والحارث بن كعب، وأم سعد. وحديثها في كتب السنن الأربعة[5].

وبمثل ما قامت به أيضًا خولةُ أختُ ضرار بن الأزور الكندي، التي كانت أشجع نساء العرب في عصرها، وكانت تُشبَّه بخالد بن الوليد في حملاته، بل ظنَّها أناس في بعض وقائعها خالدًا، بل خالد نفسه كان معجبًا بفرط شجاعتها، وما ظهر من خلالها وشمائلها، ولها أخبار كثيرة في فتوح الشام.

ومما حدَّث به ابن هشام وغيره: أنه لما أُسرَ أخوها ضرارُ بن الأزور في وقعة أجنادين، سار خالد بن الوليد رضي اللَّه عنه في طليعةٍ من جنده لاستنقاذه، فبينا

---

(١) في الأصل: «قمئة».
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٤١٣.
(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ٤١٥.
(٤) في تهذيب الكمال ١٥/ ٣٧٢: روى عنها: .... وابن ابنها عباد بن تميم.
(٥) انظر تحفة الأشراف ١٥/ ٧٠ (١٨٣٣٥- ١٨٣٣٧)، وتهذيب الكمال ٣٥/ ٣١٥، ٣٧٢.

هو في الطريق مرَّ به فارسٌ معتَقِلٌ رمحَه ، لا يبين منه إلَّا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على ما وراءه ، فلما نظره خالد ، قال : ليت شعري من هذا الفارس؟! وايم اللَّه ، إنه لفارس . ثم اتبعه خالد ، والناس من ورائه ، حتى أدرك جندَ الروم فحمل عليهم وأمعن في صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم حتى زعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم ، فلم تكن غيرُ جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطَّخٌ بالدماء ، وقد قتَل رجالًا وجندًا أبطالًا ، ثم عرضَ نفسه للموت ثانية فاخترق صفوف القوم غيرَ مكترثٍ . وخامر المسلمين من القلق والإشفاق عليه شيءٌ كثير ، وظنه أناسٌ خالدًا ، حتى إذا قدم خالد ، قال له رافع بن عميرة : مَن الفارس الذي تقدَّم أمامك ، فلقد بذل نفسه ومهجته؟! فقال خالد : واللَّه لأنا أشدُّ إنكارًا وإعجابًا؛ لما ظهر من خلاله وشمائله!! وبينا القومُ في حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخيل تعدو في أثره ، وكلما اقترب أحدٌ منه ألوى عليه ، فانهل رمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ورَفْعَ لثامه ، وناشده ذلك خالد- وهو أمير القوم وقائدهم- فلم يحر جوابًا . فلما أكثر خالد ، أجابه وهو ملثم فقال : أيها الأمير ، إني لم أُعرض عنك إلا حياءً منك؛ لأنك أميرٌ جليل ، وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور ، وإنما حملني على ذلك أني محترقة الكبد ، زائدة الكمد . فقال خالد : من أنت؟ قالت : أنا خولة بنت الأزور ، كنت مع نساء من قومي ، فأتاني آت بأن أخي أسير ، فركبت وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة ، وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم .

كان لوحي اللَّه المعجز سلطانٌ على روح المسلمة ووجدانها ، وكان إيمانها عدَّتَها في جميع الأمور وعتادَها ، فهو يُفرغُ على قلبها نعمةَ الصبر والثبات في جميع المهمات والملمات ، ويعدها بالجزاء الأوفى في دار الرضوان ، وقد استبان لك الفرق الآن بين حاليها في صدر الإسلام ، وما هي عليه في هذا الزمان .

المسلمات في القرن الرابع عشر[١]

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٣٢].

لما كانت الأمة في فجر نهضتها وعنفوان حياتها ، تمنت المرأة أن تشاطر الرجال القتال ، فقد روي عن مجاهد أنَّ أمَّ سلمة زوج النبي ﷺ قالت : يا رسول اللّه يغزو الرجال ولا نغزوا ، وإنما لنا نصف الميراث؟! فنزلت الآية : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّساء: الآية ٣٢][٢].

أراد اللّه تعالى أن يختص كل واحد من النوعين بما تقتضيه فطرته ، وتعين عليه بنيتُه ، فكان نصيبُ الرجال العملَ الخارجي ، وكان نصيب المرأة العملَ المنزلي . فتوزيع الأعمال بين الزوجين مراعى فيه نظام الفطرة ، أو « قانون الطبيعة » كما يقولون . والحقوق والواجبات متبادلة بينهما ، فما من عمل يعمله الرجل خارج المنزل إلَّا وللمرأة عمل يقابله في الداخل ، لكنه خُصَّ بالسعي والكسب والحماية ، وخُصَّت بالحمل والولادة والحضانة . فتشبُّه النساء بالرجال في الأعمال الكسبيَّة ، كتشبه الرجال بالنساء في الزينة ، كلاهما مفسد لنظام الفطرة ، هادم لبناء الأسرة ، معطل لحياة الجنسين الداخلية والخارجية ، ومن أسوأ نتائجه ما يراه الناس في الصحف المنتشرة ، والمجلات المصورة ، من الفساد العام البادي في الأزقة والشوارع ، والنوادي والمجتمعات ، والمصايف والملاهي ، والفنادق والحمامات البحرية ، وفي كل مكان يجتمع فيه المخنثون من الرجال ، والمسترجلات من النساء .

---

(١) مجلة الحج- ٢/١شعبان- ١٣٦٦هـ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ١٥٦، والطبري في تفسيره ٨/ ٢٦٢.

وقد وردت أحاديث في النهي عن تشبه النساء بالرجال، والرجال بالنساء، والوعيد الشديد على فعله[١]. وقد قال النبي صلوات الله عليه في المترجلات: «أخرجوهن من بيوتكم»[٢]. وروى البيهقي[٣] أن أبا بكر أخرج مخنثًا، وعمر أخرج واحدًا.

والسبب في ذلك كله ظاهر، وهو أن للمرأة أعمالًا منزلية خاصة بها، شاغلة لها عن مشاركة الرجال في أعماله، وهي الزوجية والأمومة والرضاع، وحضانة الأطفال، وتدبير المنزل، ولها الرئاسة في جميع الأعمال الداخلية، وللرجل عمله الخارجي الشاق، وهو الكسب والإنفاق، وحماية الديار، وبذل النفس والمال في سبيل الله.

النساء ربات البيوت، ومربيات الأطفال، بل هن أميرات لداخلِ ومعاقلِ المنازل، وما زلن أقرب إلى الفطرة، وأعف من الرجل، وأبعد عن كل مسكر وميسر، وسائر أنواع المفاسد؛ لمزايا من طريقة تربيتهن، يحاول بعضهُن نبذَها.

وللمرأة الحق بأمر الرجل بالمعروف ونهيه عن المنكر، وتطهير بيتها من جراثيم الفساد التي يحاول الرجل الأثيم أن يلقح بها أطفاله وعياله، فتفتك بهم عاجلًا أو آجلًا، كما فتكت به من قبل. فعلى النساء أن يحذرن كل الحذر، وأن يعلمن حقَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يذكُرن الآيةَ الكريمة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: الآية ٧١]. فقد أعطت هذه الآية الكريمة الحقَّ للرجال والنساء على السواء، ويدل في هذا إنكارهم حتى على الخلفاء والأمراء والرؤساء

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «أخرجوهم من بيوتكم».

(٣) السنن الكبير ٨/ ٢٢٤.

والزعماء، وقد كان النساء يعلمن هذا ويعملن به كالرجال.

إن أمر المرأة لعجيب في التأريخين القديم والحديث، فمنهم من عبدَها، ومنهم من وأَدَها، ولكنَّ الإسلامَ هو الذي أنزلها المنزلة اللائقة بها، فهو قد منحها حقوقها، وعرَّفها واجباتها، وآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٨] لا يوجد في الدنيا قانون أعدل ولا أجمع منها؛ إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، وخصت الرجلَ بدرجة الرئاسة الشوريَّة،- لا الاستبدادية- إذ لا بد لكل جماعة أو أسرة من نظام، ولا بد لكل نظام من رئيس منفذ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه.

فالإسلام لم يستعبد المرأة كما فعلت الأمم السابقة، ولم يقلب نظام الطبيعة ليجعل منها رجلًا ثانيًا كما فعلت الأمم الحديثة المتمدنة؛ فقد تخلَّى عنها الأب والأخ والزوج والابن- عندهم- ودفعوها جميعًا في تيار العمل واللهو خارج المنزل، فاختلَّ نظامُ البيوت، ولا نزال نسمع الشكوى المُرَّةِ في الإذاعات العامة- المَرَّةَ بعدَ المَرَّةِ- من تقوض دعائم الأسرة والوطن.

زعموا أن الإسلام قد هضمها حقَّها في الميراث!! أوَ لا يذكرُ هؤلاء أنَّ مهرَها وإرثَها وكسبَها لها، وأنها تتصرف في أموالها كيف شاءت، وهل تملك المرأة الحديثة من مال زوجها أو من مال نفسها من التصرف المطلق ما تملكه المرأة المسلمة؟! كلا، إنها لا تملك حق التصرف في مالها نفسِه إلا بإذنِ زوجها.

إصلاح الأمة بإصلاح الأسرة:

البيوت مؤلفة من نساء ورجال وبنين وبنات، والرجل هو المسؤول عن زوجه وولده وسائر من يتصل به، وفي الحديث الصحيح: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣، ٢٤٠٩)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فيجب على الرجل أن يأخذ نفسَه وولَدَه بأدب الدِّين، والدِّينُ هو جماعُ الفضائل والآداب، فإنْ كان الرجل جاهلًا أو ضعيفًا لا يستطيع أن يعلَم بنفسِه، ولا أن يكون قدوةً صالحةً لغيره، فعليه أن يستعين على ذلك بعلماء الأمة الأبرار، وهم العاملون الأطهار، لا أن يركن إلى التقاليد التي هي أشدُّ ما يفسد حياتنا الفردية والاجتماعية.

وعلى العلماء- الذين هم ورثة الأنبياء- أن يقوموا بواجب التهذيب والتعليم، وأن تقوم بذلك المدارس أيضًا.

أما إذا كان الرجل فاسقًا، وحاولَ أنْ يُدخلَ الإثمَ في بيته، ويلوِّثَ طهارته وطهارة زوجه وولده، فما على المحصنات في البيوت والأولاد البررة إلَّا أن يأخذوا حذرهم، ويتعاونوا جميعًا على نصحه ومنعه؛ عملًا بالآية الكريمة ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المَائدة: الآية ٢] ومتى صلحت الأفراد صلحت الجماعات، ومتى صلحت الأسرة صلحت الأمة. والله الموفق والمعين.



السفور والحجاب(١)

ضمَّنا مجلسٌ مباركٌ بعد حجٍّ هذا العام في دار صديقِنا الأستاذ الجليل الشيخ محمد نصيف بجُدَّة، وأخذنا نتحدث بعد الطعام في شؤون العصر وأحواله، وتطوُّرِ نسائه ورجاله، وكان أحدُ المدعوِّين معنا الأستاذ محمد أسد، الذي كان أسلم في برلين على يد صديق له مسلم هندي، ونطق بالشهادتين بحضور شاهدين، وكان ذلك منذ نحو أربعين سنة؛ إذ كانت رحلته الأولى إلى الشرق سنة ١٩٢٢

وقبل أن أدخل في موضوع السفور والحجاب أصِفُ الأستاذ محمد أسد وصفًا موجزًا يدل على قوة إيمانه وسلامة وجدانه:

كان جدُّه لأمِّه صيرفيًّا ثريًّا، ذا أملاك واسعة، وأمَّا جدُّه لأبيه فقد كان حاخامًا في عاصمة مقاطعة بوكوفينا التي كانت نمسوية وقتئذ. وقد نظر محمد أسد في الأديان السماوية نظر استقلال واستدلال، فرأى اليهودية تُفضِّلُ جنسَها على سائر بني الإنسان، وتُسمِّي نفسها: شعب اللَّه المختار، ورأى المسيحيةَ أقربَ إلى العدل في نظرتها العامة الشاملة للبشر، ولكنها تفصِلُ بين الروح والجسد. ولمَّا درس الإسلام دراسة واسعة رآه أعمَّ وأشمل منهما، أو هو مكمِّل لهما؛ إذ جمع بين مصالح الروح والجسد معًا.

قال الأستاذ أسد: وبرغم أنني من أصلٍ يهودي، فقد كنت أحمل من البدء مقاومة شديدة للصهيونية. وجرى له حوار شديد مع زعيمها الدكتور حاييم في القدس، جعل بها أشدَّ مزاعم خصم العرب من الوجهات القومية والتاريخية والوطنية هباءًا منثورًا، ونصر اللَّه حقَّ محمد أسد على باطل ذلك العدو الألد.

(١) مجلة الحج- ربيع الأول- ١٣٨٢هـ.

عكف أسد على دراسة الإسلام من كتبه، فبدا له أنه منهاجٌ للسلوك الشخصي والاجتماعي، ورجَّحه على كتب العهدين؛ بأنه ليس فيه محاباة لشعب معين، وبأن الروح والجسد فيه كانا بمثابة وجهي تأمين للحياة الإنسانية التي أبدعها اللَّه.

وكان اشتهر بمقالاته عن الشرق وأهله اشتهارًا عظيمًا، وأخذ من بعدُ يشرح حقائق الإسلام، وأنه دين إنساني عام، فدعا إليه ورغَّب فيه.

حج مرارًا كثيرة، وشغَفَت قلبَه تلك الشعائر والمنازل، ولسان حاله ينشد قول القائل:

لك يا منازل في القلوب منازل ....

وصف المسلمين في الحجِّ والثَّجِّ كأنك تراهم، وختم حديثه معبرًا عن إيمانه وإذعانه بقوله: «من وسط هذه الوديان، انبثق أعظمُ دين في تأريخ الإنسان».

كان تفضل صديقُنا أسد، فأهدى إليَّ كتابه «الطريق إلى مكة» الذي نقله إلى العربية الأستاذ عفيف البعلبكي، وكتب عليه عبارة الإهداء وأولها: إلى أقدم أصدقائي في العالم الإسلامي محمد بهجة البيطار، مع ودي الخالص وتقديري.

وإنما وصفني بأني أقدم أصدقائه لأني صحبته في مكة المكرمة عام ١٩٢٧م ثم لقيته في دمشق ولبنان، فلم تزدني معرفتي به إلَّا إعجابًا بإيمانه، وبحبه الخالص للعروبة والإسلام.

جرى في هذا المجتمع الكريم في دار الأستاذ نصيف بحثُ السفور والحجاب، فقال الأخ أسد: ليس في القرآن حجاب.

فعجب الحاضرون من هذا القول، وأوردت أنا آية الخمار من سورة النور وآية الجلباب من سورة الأحزاب، فأمَّا الآية التي في سورة النور ففيها: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النُّور: الآية ٣١] الآية، والخُمُرُ: جمعُ

خِمَار، وهو ما يستر الرأس. والجُيوبُ: جمع جيب، وهو فتحة في أعلى الجلباب يبدو منه بعض الصدر. وأما آية الأحزاب فهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩] الآية. والجلابيب: جمع جلباب، وهو الثوب الذي يستر جميع البدن.

فالآيتان صريحتان في تغطية الرأس وستر البدن.

فسكت أسد ولم يُجِب بشيء. قلت: ولعل قصده أن آية الحجاب هي ما نزل في شأن نساء النبي ﷺ من سورة الأحزاب أيضًا: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣] ففي هذه الآية الحجاب وعدم الاختلاط.

هذا وإنَّ مسألة السفور والحجاب، وما يتبعها من اختلاط مفسِدٍ للجنسين، أو محافظةٍ على الفضيلة وعلى الأحساب والأنساب، من المسائل الكبرى التي عمَّت العالم كلَّه. والأخ أسد في ديار الغرب داع إلى الإسلام مرغِّبٌ في محاسنه ومزاياه، والعالم النسائي في الغرب يلبسن في الغالب اللباس الكاشف عن الصدر والظهر والسواعد والركب، ويشاركن الرجال في كل المجتمعات، وهذا هو الذي أخرج المرأة عن طور أنوثتها ووظيفتها وأثارها على طبيعتها وشريعتها، وهو الذي أفضى إلى اختلاط النساء بالرجال في المراقص والملاهي، والاشتراك معهم في المفاسد والمهالك، كمعاقرة المسكر، ولعب الميسر، والتجرد، والسباحة في الحمامات المشتركة. أمَا لهذه الفوضى العامة من علاج، ولا تدبير؟! ومن هم أساة الجراح، وأطباءُ الإنسانية والأرواح؟! ألا إنهم هم المربون والمعلمون.

المعلمون هم ورثة الأنبياء- عليهم السلام- في التعليم والتوجيه، فيجب أن يكونوا القدوة الصالحة في سلوكهم وآدابهم، والمثل العليا تستملى من صفاتهم وأعمالهم، لا من الكتب التي بين أيديهم فحسب؛ إذ ليسوا هم أشخاصًا

عاديين، بل إنهم هم الذين يوجهون جيل المستقبل من ذكور وإناث، فبأساتذتهم يقتدون، وبهديهم يهتدون.

ونعود بعد هذا إلى بحث المرأة في الزمنين البعيد والجديد، فنرى من الناس من عبَدَها ومنهم وأَدَها، ولكنَّ الإسلام هو الذي أنزلها المنزلة اللائقة بها، فهو قد منحها حقوقها، وعرفها واجباتها، وآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٨] لا يوجد في الدنيا قانون أعدل ولا أجمع منها؛ إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة الشورية- لا الاستبدادية- إذ لا بد لكل جماعة أو أسرة من نظام، ولا بد لكل نظام من رئيس منفذ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه.

فالإسلام لم يستعبد المرأة كما فعلت الأمم السابقة، ولم يقلب نظام الطبيعة ليجعل منها رجلًا ثانيًا كما فعلت الأمم الحديثة المتمدنة، فقد تخلى عنها الأب والأخ والزوج والابن، ودفعوها جميعًا في تيار العمل واللهو خارج المنزل، فاختل نظام البيوت، ولا نزال نسمع الشكاوى المرة من تقوض دعائم الأسرة.

أما مسألة تغطية وجه النساء عن غير المحارم، وهي التي أشار إليها صديقنا الأستاذ أسد، فما هي من أصول الشريعة، ولكنها لسدِّ الذريعة؛ ذريعة الفساد، فقد كان النساء يصلين في المساجد، ويستمعن الخطب والمواعظ وهنَّ مكشوفات الوجوه والكفَّين، وكذلك الحال في الحج والعمرة، وكن يشهدن الحروب، ويضمدن الجروح، ويواسين المرضى، ومنهن من اشتركن مع الرجال في القتال في عهد الرسول وبعده، كما كان في واقعتي أحد واليرموك، وقد أجمع المسلمون على شرعية كشف الوجه للضرورة، وعند أمن الفتنة، وهذا هو حال الراهبات في جميع العصور والأمصار.

❁❁❁

حياة شيخ الإسلام[1]
« أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي »

[١]

تمهيد

ليس في وسعي أن أحيط وصفًا بمواهب شيخ الإسلام وعلّامة الشرق الإمام أحمد المعروف بابن تيمية الحراني الدمشقي ، ذلك الإمام الذي طبّق الأرض في عصره علمًا وإسلامًا ، وملأ الكون صدعًا بالحق وجهادًا ، ولقد سارت بعلومه الركبان في كل مكان ، وعطر أريج شمائله وأعماله أردان الكون .

في أرض دمشق غُرِست شجرةُ الإصلاح بيد ابن تيمية فأثمرت ونضجت ، ومن سمائها سطعت شمس السنة الغراء فأضاءت وعمَّت ، ومن بين جوانبها سُمعت صيحةُ الحقِّ ، ففزعت جيوش البدع والأوهام .

ليس من قصدي أن أذكر كلَّ ما قيل في ترجمة هذا النابغة الكبير ، فهو كما قال المؤرخ الشهير الذهبي : أعظم من أن يصفه كلمي ، أو ينبه على شأوه قلمي ، فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن توضع في مجلدين[2] . اهـ .

وإنما القصد أن نقتبس من نور هديه وإصلاحه ما ينير لنا طريق السير إلى الحق ، ويمحو ظلمات الباطل والشك ، ويعرِّفنا بقدر هذا الإمام ، الذي كان من أكبر مفاخر العرب والإسلام .

مولده ومنشؤه وتحصيله ومؤلفاته

قال العلامة صاحب « جلاء العينين » : في تاريخ مؤرخ الإسلام الحافظ

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٥١- ١٣٤٦.

(٢) انظر العقود الدرية ص٤٠ لابن عبد الهادي .

الذهبي الشافعي، وتاريخ الحافظ ابن حجر العسقلاني شارح البخاري، وتاريخ الحافظ ابن كثير، وتاريخ «فوات الوفيات» للفاضل الكتبي، وتاريخ العالم ابن العماد المسمى «بشذرات الذهب»، وتاريخ الشيخ عمر بن الوردي وغيرهم:

هو شيخ الإسلام، وحافظ الأنام، المجتهد في الأحكام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي.

وفي «تاريخ إربل»(١) أنَّ جدَّه سُئل عن اسم «تيمية» فأجاب: أنَّ جدَّه حجَّ، وكانت امرأته حاملًا، فلما كان بتيماء- بلدة قرب تبوك- رأى جارية حسنة الوجه قد خرجت من خباء، فلما رجع وجد امرأته قد وضعت جارية، فلما رفعوها إليه، قال: يا تيميَّة، يا تيميَّة. يعني: أنها تشبه التي رآها بتَيماء فسُمِّي بها. اهـ.

وفي «فوات الوفيات» للعلامة محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤: وقال ابن النجار: ذُكر لنا أن محمدًا هذا- أي: الجد الأعلي لابن تيمية- كانت أمه تسمَّى: تيمية. وكانت واعظة، فنسب إليها وعُرف بها. اهـ.

وقد ولد بحرَّان(٢) يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم به والده وبأخويه عند استيلاء التتار على البلاد إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة، فأخذ الفقه والأصول عن والده، وسمع عن خلق كثيرين، منهم الشيخ شمس الدين، والشيخ زين الدين بن المنجا، والمجد ابن عساكر، وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه، وعُني بالحديث وسمع الكتب الستة والمسند مرات، وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه، وأحكم

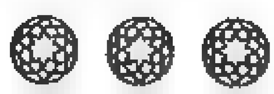
---

(١) تاريخ إربل ١/ ٩٧.

(٢) ورد في هامش الصحيفة ما نصه: «حران: بلدة قرب أورفة من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وتعد الآن من بلاد الأناضول».

أصول الفقه ، والفرائض ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، وغير ذلك من سائر العلوم ، ونظر في الكلام والفلسفة ، وبرز في ذلك على أهله ، ورد على رؤسائهم وأكابرهم ، ومهر في هذه الفضائل ، وتأهل للفتوى وللتدريس ، وله دون العشرين سنة ، وتضلع في علم الحديث وحَفِظَه حتى قالوا : إنَّ كلَّ حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث . وأمده اللّه تعالى بكثرة الكتب ، وسرعة الحفظ ، وقوة الإدراك والفهم ، وبطء النسيان ، حتى قال غير واحد : إنه لم يكن يحفظ شيئًا فينساه .

وألَّف في أغلب العلوم التأليفات العديدة ، وصنف التصانيف المفيدة في التفسير ، والفقه ، والأصول ، والحديث ، والكلام ، والردود على الفرق الضالة والمبتدعة ، وله الفتاوى المفصلة ، وحل المسائل المعضلة ، وقد ذكر طائفة من مؤلفاته ، وعُدَّ منها كتاب : « بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » أربع مجلدات ، « وإثبات المعاد » ، وكتاب : « ثبوت النبوات عقلًا ونقلًا » ، وكتاب : « الرد على الحلولية والاتحادية » ، وكتاب : « الدرة المضية في فتاوى ابن تيمية » ، وكتاب « إصلاح الراعي والرعية » . ثم قال الذهبي : وما أُبعد أنَّ تصانيفَه إلى الآن تبلغُ خمسمائة مجلَّد . اهـ .



حياة شيخ الإسلام[١]

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[٢]

وقال الحافظ الناقد أبو عبد اللَّه شمس الدين الذهبي : نشأ- يعني الشيخ تقي الدين رحمه اللَّه- في تصوُّنٍ تامٍّ وعفاف ، وتأله وتعبد ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره ، ويناظر ويُفحِمُ الكبار ، ويأتي بما يتحيَّر منه أعيان البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت ، وأكبَّ على الاشتغال ، ومات والده- وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم- فدرَّس بعده بوظائفه ، وله إحدى وعشرون سنة ، واشتهر أمْرُه وبعُدَ صيتُه في العالم .

أخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجُمع على كرسيٍ من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم ، وكان يورد الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وكان آيةً من الذكاء وسرعة الإدراك ، رأسًا في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف ، بحرًا في النقليات ، هو في زمانه فريد عصره علمًا وزهدًا ، وشجاعة وسخاء ، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر ، وكثرة تصانيف ، وقرأ وحصَّل وبرع في الحديث والفقه ، وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة ، وتقدم في علم التفسير والأصول ، وجميع علوم الإسلام أصولها وفروعها ، ودقيقها وجليلها ..- إلى أن قال- : وكان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، وقلَّ أن يتكلم في مسألة إلَّا ويذكر فيها أقوالَ المذاهب الأربعة . اهـ .

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٥٢- في ١٣٤٦/٦/١٦هـ .

ثناء الأئمة عليه

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه «الكواكب الدرية» الذي ألفه في مناقب الإمام ابن تيمية[١] :

قد أكثر أئمة الإسلام من الثناء على هذا الإمام ، كالحافظ المزي ، وابن دقيق العيد ، وأبي حيان النحوي ، والحافظ ابن سيِّد الناس ، والعلامة كمال الدين ابن الزملكاني ، والحافظ الذهبي ، وغيرهم من أئمة العلماء .

قال جمال الدين أبو الحجاج المزي عن ابن تيمية : ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال القاضي أبو الفتح ابن دقيق العيد : لمَّا اجتمعت بابن تيمية رأيتُ رجلًا كلُّ العلوم بين عينيه ، يأخذ ما يريد ، ويدع ما يريد ، وقلت له : ما كنت أظن أن اللَّه يخلق مثلك .

وقال الشيخ إبراهيم الرقي[٢] : الشيخ تقي الدين يؤخذ عنه ويُقلَّدُ في العلوم ، فإن طال عمره ملأ الأرض علمًا ، وهو على الحق ، ولا بد من أن يعاديه الناس؛ لأنه وارث علم النبوة .

وقال القاضي أبو عبد اللَّه بن الحريري : إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو؟!

وقال أبو حيان شيخ النحاة لمَّا اجتمع بابن تيمية : ما رأت عيناي مثله ، ثم مدحه أبو حيان على البديهة في المجلس ، وقال :

لما أتينا تقيَّ الدِّين لاحَ لنا ... داعٍ إلى اللَّه فردٌ[٣] ما له وِزَرُ

---

(١) انظر الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية ص٤٤ للعلامة مرعي الكرمي .

(٢) ورد في هامش الصحيفة ما نصه : «الرقة : من أراضي الدير ، وهي تابعة لحلب» .

(٣) في الأصل : «فردًا» .

على محيَّاه من سِيما الأُولى صحِبوا خيرَ البريَّةِ نورٌ دونَه القمرُ
حَبرٌ تسربَلَ منه دهرُه حِبَرًا بحرٌ تقاذف من أمواجِه الدُّرَرُ
قامَ ابنُ تيميَّةٍ في نَصرِ شِرعتِنا مقامَ سيِّدِ تيم إذ عصَت مُضَرُ
وأظهر الحقَّ إذ آثارُه دَرَسَتْ وأخمد الشرَّ إذ طارت له شررُ
كُنَّا نحدَّثُ عن حَبرٍ يجيء فها أنت الإمامُ الذي قد كان ينتظرُ

وقال العلامة الزملكاني ، أحد أئمة الأعلام : لقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين ، وقد ألان اللَّه له العلوم كما ألان لداود الحديد ، كان إذا سئل عن فنٍّ من العلم ظنَّ الرائي والسامعُ أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله!!

إلى أن قال :

ماذا يقول الواصفون له وصفاتُه جلَّت عن الحصرِ
هو حجَّةٌ للَّه قاهرةٌ هو بيننا أعجُوبةُ الدَّهر
هو آيةٌ في الخلق ظاهرةٌ أنوارُها أربت على الفَجرِ [(١)]

وقال الشيخ الإمام القدوة الزاهد عماد الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي عنه : أنموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرُهم ، ونسيت الأمَّةُ حذوَهم وسبيلَهم ، فكان في دارس نهجِهم سالكًا ، ولأعِنَّةِ[(٢)] قواعدِهم مالكًا .

وقال في ذيل الصفحة الرابعة من كتاب « القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي » : ومما وجد في كتابٍ كتبه قاضي القضاة أبو الحسن السُّبكيُّ إلى الحافظ الذهبي ، في حق الشيخ تقي الدين ما صورته :

---

(١) انظر ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٢٠.

(٢) الأعنة : جمع العنان ، وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة ، وهو طاقان مستويان . « المعجم الوسيط » .

وأما قول سيدي في الشيخ ، فالمملوكُ متحقِّقٌ كِبَرَ قدرِه ، وزخَارةَ بحرِه ، وتوسُّعَه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرطَ ذكائه واجتهاده ، وبلوغَه في كلٍّ من ذلك المبلغَ الذي يتجاوز الوصف . والمملوكُ يقول ذلك دائمًا ، وقدرُهُ في نفسي أكبرُ من ذلك وأجلُّ ، مع ما جمع اللَّه له من الورع والزهادة والديانة ، ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه ، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان ، بل من أزمان . انتهى .



حياة شيخ الإسلام[1]

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[٣]

زهـــدُه وإيثـارُه

قال الحافظ ابن فضل اللَّه العمري : كان يجيئه من المال كلَّ سنةٍ ما لا يكاد يُحصى ، فينفقُه جميعَه آلافًا ومئين ، لا يلتمس منه درهمًا بيده ، ولا ينفقه في حاجته ، بل إذا كان لم يقدِر ، يعمدُ إلى شيء من لباسه فيدفعه إلى السائل ، وهذا مشهور عند الناس من حاله .

حكى من يوثق به أنه قال : كنت يومًا جالسًا بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية رضي اللَّه عنه ، فجاء إنسان فسلم عليه ، فرآه الشيخ محتاجًا إلى ما يعتم به ، فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل فقطعها نصفين ، واعتمَّ بنصفها ودفع النصف الآخر لذلك الرجل ، ولم يحتشم للحاضرين عنده .

وحدَّث من يوثق به : أن الشيخ رضي اللَّه عنه ، كان مارًا في بعض الأزقة ، فدعا له بعض الفقراء ، وعرف الشيخُ حاجتَه ، ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه ، فنزع ثوبًا على جلده ودفعه إليه ، وقال : بعه بما تيسر وأنفقه ، واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة .

شجاعةُ الإمام وغيرتُه على دينه وأمَّتِه

أحببت أن أورد بعض أعمال هذا الإمام العظيم العمومية ، وخدمته لدينه وأمته؛ ليعلم أن رجل الدين الحقيقي هو الذي يعمل للمصلحة العامة ، وأنَّ من هان عليه وطنُه وأمَّتُه فقد هان عليه دينُه ، ولي كلمة في منشأ الجفاء بين بعض رجال الدين ورجال الدنيا ، وأنه ليس سببه العلوم الدينية ولا العلوم الكونية ،

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٥٤- في١٣٤٦هـ .

وأذكر ما لعله يكون حاسمًا لداء التقاطع ، وموجبًا لتضافر الجميع على خدمة المصلحة العامة ، وهو الفصل الذي سأذكره وأختم به المحاضرة .

أراد ملِك الكرج أن يفتك بسكَّان دمشق من المسلمين ، ويَسبي ذراريهم ونساءَهم ، فبذل للسلطان غازان- وهو أول من أسلم من ملوك المغول أو التتر- أموالًا طائلة على أن يمكِّنَهم منهم ، فلما اتصل الخبر بالإمام قام من فوره ، وانتدب رجالًا من الوجوه والكبراء وذوي الأحلام الرجيحة . وإليك خلاصة ما جرى بإخبار من كان حاضرًا ، ولا ينبئك مثل خبير :

قال في « الكواكب الدرية » : قال الشيخ كمال الدين بن الأنجا- قدس اللَّه روحه- : كنت حاضرًا مع الشيخ ، فجعل يحدِّثُ السلطان بقول اللَّه ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان ، ويقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته ، مصغ لما يقول ، شاخص إليه لا يعرض عنه ، وأن السلطان من شدة ما أوقع اللَّه له في قلبه من المحبة والهيبة سأل : من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله ، ولا أثبت قلبًا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحد منه!! فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل .

فقال الشيخ للترجمان : قل للغازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون- على ما بلغنا- فغزوتنا ، وأبوك وجدُّك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت ، ثم خرج من بين يديه معززًا مكرمًا[1] .

بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين ، فبلَّغه اللَّه تعالى ما أراده ، وكان أيضًا سببًا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردِّهم على أهليهم ، وحفظ حريمهم ، وكان يقول : لن يخاف الرجل غير اللَّه إلَّا لمرضٍ في قلبه .

---

(١) انظر الأعلام العلية ١/ ٧٠ للإمام أبي حفص عمر بن علي البزار .

حياة شيخ الإسلام[1]

أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي

[٤]

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس أنهم لما حضروا مجلس غازان، قُدِّم لهم طعامٌ فأكلوا منه إلَّا ابن تيمية، فقيل: لِمَ لَم تأكل؟ فقال: كيف آكل مِن طعامك وكلُّه مما نهبتم من أغنام الناس، طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس!!

ثم إن غازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كنت تعلم أنما قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا وجاهد في سبيلك فأنْ تؤيده وتنصره، وإن كان للمِلك والدنيا والتكاثر فأنْ تفعل به وتصنع.

وقد ذكر العلامة الكتبي في «فوات الوفيات» من شجاعة الإمام: أنه شكا إليه إنسان من قطلوبك الكبير وظلمه له، وكان المذكور فيه جبروتٌ وأخذُ أموال الناس واغتصابُها- وحكاياته في ذلك مشهورة- فدخل عليه الشيخ وتكلم معه. فقال له قطلوبك: أنا كنت أريد أن أجيء إليك؛ لأنك عالم زاهد- يعني يستهزئ به- فقال له: موسى كان خيرًا مني، وفرعون كان شرًّا منك، وقد كان موسى يجيء إلى باب فرعون كلَّ يومٍ ثلاث مرات، ويعرض عليه الإيمان!

ومن شجاعته وزهده ما حكاه في «الكواكب» قال: لما وشوا به إلى السلطان الأعظم الملك الناصر لدين اللَّه، وأحضره بين يديه، قال من جملة كلامه: إنني أُخبرتُ أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذُ الملك!! فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت، وصوت عال سمعه كثير ممن

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٥٥- جمادى الثانية- ١٣٤٦هـ.

حضر : أنا أفعل ذلك؟! واللّه إنَّ ملكك وملك المَغَل[١] لا يساوي عندي فلسًا . فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته بما أوقع اللّه له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك واللّه لصادق ، وإن الذي وشى بك إليّ لكاذب ، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقى إليه في حقه من الأقاويل الزورِ والبهتان ممن ظاهرُ حاله العدالة ، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة .

نصح الإمام لسرجوان ملك قبرص ودفاعه عن جميع من كان يظلهم سلطان الإسلام على السواء

من مساعيه المشكورة في خدمة عموم أبناء الملل السماوية : سعيه في إطلاق أسارى المسلمين والنصارى واليهود على السواء ، وإصراره على ذلك . ولم يرض بإطلاق المسلمين فحسب ، وإنما فعل ذلك عملًا بقواعد دينه العام ، الذي يوجب المساواة في الحقوق والأحكام بين جميع من يظلُّهم سلطانُ الإسلام .

وإليك شذرة مما كتبه في « الرسالة القبرصية »[٢] خطابًا لسرجوان ملك قبرص ، قال رحمه اللّه :

نحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع اللّه لكم خير الدنيا والآخرة ، فإنَّ أعظمَ ما عُبدَ اللهُ به نصيحةُ خلقِه ، وبذلك بعث اللّه الأنبياء والمرسلين ، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ، فإنه لا بد للعبد من لقاء اللّه ، ولا بد أن اللّه يحاسب عبده كما قال تعالى : ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ

---

(١) المغل : هم المغول : قوم من أطراف الصين يسكنون جبال طمغاج من الصين ، ملكوا أكثر المعمور من الأرض ظلمًا وعتوا فأكثروا فيها الفساد في نحو سنة ٦١٦هـ انظر : « البداية والنهاية » ٨٦/١٣ فما بعدها .

(٢) في هامش الأصل : (ص١٢) ، والرسالة مطبوعة بمطبعة المؤيد بمصر سنة ١٣١٩هـ .

﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٦] .

إلى أن قال :

وقد عرف النصارى كلُّهم أني لمَّا خاطبت التتار في إطلاق الأسرى وأطلقهم غازان وقطلوشاه ، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين ، قال لي : لكنْ معَنَا نصارى أخذناهم من القدس فهؤلاء لا يُطلقون . فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فإنَّا نَفْتَكُّهُمْ ، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة ، وأطلقنا من النصارى من شاء اللَّه . فهذا عملنا وإحساننا ، والجزاء على اللَّه . وكذلك السبي الذي بين أيدينا من النصارى؛ ليعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم . كما أوصانا خاتم النبيين[١] .



(١) في هامش الاصل ما نصه : (حاشية) سألني بحّاثة من فضلاء النصارى في سورية عن فتوى لشيخ الإسلام في قتل المارونيين؟ فأجبت بأني ما أعرف له فتوى في ذلك ، ولكنني أعرف له سعيه في فكِّ أسرى المسلمين والنصارى على السواء ، وكيف يعقل أن يأمر شيخ الإسلام بما ينهى عنه دينه؟ وعلى فرض وقوع ذلك منه فإنما يعقل في أناس قد خانوا الأوطان ، وباعوها من الأجنبي بأبخس الأثمان ، كما هو واقع في زماننا هذا!! وليت شعري ماذا تفعل أمم الغرب اليوم فيمن يخون وطنه منهم؟!! . (البيطار) .

حياة شيخ الإسلام(١)
«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»
[٥]
محن الإمام ابن تيمية ونبذة من عقيدته «الحموية»

دلَّنا التأريخ على أنَّ كبار الرجال لا يسلمون من حسدٍ وعداء ، فقد نال أئمةَ الهدى والإصلاح في عصورهم من أذى الخصوم أنواعٌ منوعةٌ ، فثبتوا على الحقِّ وصبروا على ما أوذوا ، وكان لهم في من سبقهم من الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم ، أسوةٌ حسنة . والإمام ابن تيمية هو وارث علم النبوة ، وناشر هدي الرسول صلى اللَّه عليه وآله وسلم ومجددُ عهد السلف الصالح رضي اللَّه عنهم ، ورافعُ لواء الحق ، ومحارب البدع والأهواء ، فكان من المتوقع أن ينتصب له الخصوم ويتقولوا عليه الأقاويل ، ويعزو إليه ما هو منه براء : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢] .

ومن عجيب أمر خصومه أنْ ينسبوا إليه القولَ بالتجسيم ، وهو قد وقف حياته على ردِّه وإبطاله وتفنيد أمثاله من المزاعم والمفتريات في آيات الصفات .

قال في «الكواكب» : وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه قد امتحن بمحن ، وخاض فيه أقوام ونسبوه للبدع والتجسيم ، وهو من ذلك بريء ، فأوَّلُ محنته- كما نقله الثقات- في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة بسبب عقيدته «الحموية الكبرى» ، وهو جواب سؤال وردَ من «حَمَاه» فوضعها ما بين الظهر والعصر في ستِّ كراريس بقطع نصف البلدي ، فجرى له بسبب تأليفها أمورٌ ومحن؛ حيث رجَّح مذهبَ السلف على مذهب المتكلمين وشنع عليهم .

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٥٦- جمادى الثانية- ١٣٤٦هـ .

فمن بعض قوله في مقدمتها : ما قال الله سبحانه ورسولُه ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، هو الواجبُ على جميع الخلق في هذا الباب وفي غيره ، ومن المحال أن يكون خير أمة وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب ، زائدين فيه أو ناقصين عنه ، ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة- القرنُ الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم- كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين

إلى أن قال : ظنُّوا أن طريقة السلف هي مجرَّدُ الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين ، وأنَّ طريقة الخلف هي استخراجُ معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

قال : فهذا الظن الفاسد أوجبه اعتقادٌ أنهم كانوا أمِّيين ، بمنزلة الصالحين من العامة ، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنو لدقيق العلم الإلهي ، وأنَّ الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله!! كيف يكون هؤلاء المتأخرون ، لا سيما والإشارة بالخلف إلى ضربٍ من المتكلمين الذين كثر في باب الدِّين اضطرابُهم ، وغلُظ عن معرفة الله حجابُهم ، وأخبر الواقفُ على نهاية إقدامِهم بما انتهى إليه من مرامُهم ، حيث يقول بعض أئمتهم :

لعمري لقد طفتُ المعاهدَ كلَّها وسيَّرتُ طرفي بين تلك المعالمِ
فلم أر إلَّا واضعًا كفَّ حائرٍ على ذقَنٍ أو قارعًا سنَّ نادم

وأقرُّوا على أنفسهم بما قالوه- متمثلين به أو منشئين له- فيما صنَّفوه من كتبهم ، مثل قول بعض رؤسائهم :

نهاية إقدام العقولِ عِقالُ وغاية سعي العالمين ضلالُ
وأرواحُنا في وحشةٍ من جسومِنا وحاصل دنيانا أذىً ووبالُ

ولم نستفدْ من بحثِنا طولَ عمرِنا سوى أنْ جمعنا فيه قيلَ وقالوا

ويقول آخر منهم: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تَشفي عليلًا، ولا تُروي غليلًا، ورأيت أقربَ الطرق طريقةُ القرآن؛ اقرأ في الإثبات: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: الآية ١٠]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥] وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠] ومن جرَّب مثلَ تجربتي عرف مثل معرفتي.

ويقول الآخر منهم: لقد خضتُ البحر الخِضَم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي. اهـ.



حياة شيخ الإسلام(١)

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[٦]

مناظرته رحمه اللَّه

كان شيخ الإسلام، يرجِّحُ في أمر المعتقد مذهبَ السلف الصالح، ويعضُّ عليه بالنواجذ، ويحاولُ إرجاعَ الناس إليه بكل الوسائل، ويرى رأيَ إمامِ دار الهجرة مالك بن أنس رضي اللَّه عنه من أنه : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. وهو رأيُ كلِّ حكيم عليم بداءِ الأمة ودوائها قديمًا وحديثًا. والناظر في كتبه ومناظراته وفتاويه وردوده يتضح له أنَّه كان رحمه اللَّه شديدَ الانتصار لمذهب السلف، والدفاع عنه بالحجج العقلية والنقلية.

وقد عُقِدَتْ له من جراء ذلك عدَّةُ مناظرات في مصر والشام، كان معظمها يحوم حول هذه القضية، وقد كان سُئل أن يكتبَ المناظرات الثلاث التي جرت له في الشام، فكتبها. وإني أنقل منها المناظرةَ الثانية من كتاب «غاية الأماني» للعلامة أبي المعالي السيد محمود شكري الألوسي الشهير؛ لتكون مثالًا من مناظراته.

قال رحمه اللَّه تعالى :

أما بعد، فقد سُئلتُ غيرَ مرَّة أن أكتب ما حضرني ذكرُه مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة في أمر الاعتقاد، بمقتضى ما ورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد لمَّا سعى إليه قومٌ من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد.

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٥٨ في ١٣٤٦/٦/٢٩هـ.

فأمر الأميرُ بجمع القضاة الأربعة ، قضاة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد ، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة .

فقال لي : هذا المجلس عُقِدَ لك ، فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك ، وعمَّا كتبتَ به إلى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد ، وأظنه قال : وأن أجمع القضاة والفقهاء ويتباحثون في ذلك .

فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ، ولا عمَّن هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن اللَّه ورسوله ﷺ ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فما كان في القرآن ، وجب اعتقاده .

(يتبع)



حياة شيخ الإسلام[(١)]

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[٧]

تابع : مناظرته رحمه اللَّه

وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم . وأما الكتب فما كتبت إلى أحد ابتداءً أدعو به إلى شيء من ذلك ، ولكني كتبت أجوبة أجبت بها من سألني من أهل الديار المصرية وغيرهم ، وكان قد بلغني أنه زُوِّرَ عليَّ كتابٌ إلى الأمير ركن الدين الجاشنكير أستاذ ذي السلطان يتضمن ذكرَ عقيدة محرَّفة ، ولم أعلم بحقيقته ، لكنْ علمتُ أنَّه مكذوب .

وكان يرِدُ عليّ من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد ، فأجبته بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة .

فقال : نريدُ أن تكتب لنا عقيدتَك . فقلت : اكتبوا .

فأمر الشيخُ كمالَ الدين أن يكتبَ ، فكتب له جملَ الاعتقاد في أبواب الصفات ، والقدر ، ومسائل الإيمان ، والوعيد ، والإمامة ، والتفضيل ، وهو : أنَّ اعتقادَ أهل السنة والجماعة؛ الإيمان بما وصف اللَّه به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل . وأن القرآن كلام اللَّه غير مخلوق؛ منه بدأ وإليه يعود . والإيمانُ بأنَّ اللَّه خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وأنه ما شاء اللَّه كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ، ونهى عن المعصية وكرهها ، والعبد فاعل حقيقةً واللَّه خالقٌ فعلَه ، وأن الإيمان والدين قول وعمل يزيد وينقص .

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٥٩- رجب- ١٣٤٦هـ .

وأنْ لا نكفرَ أحدًا من أهل القبلة بالذنوب ، ولا نخلدَ في النار من أهل الإيمان أحدًا ، وأنَّ الخلفاء بعد رسول اللَّه ﷺ : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي .

ثم قلت للأمير والحاضرين : أنا أعلم أن أقوامًا يكذبون عليّ كما قد كذبوا غير مرة ، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون : كتم بعضه أو داهن وداري . فأنا أحضر عقيدةً مكتوبةً من نحو سبع سنين قبلَ أن يجيء التترُ إلى الشام . وقلت قبل حضورها كلامًا قد بَعُدَ عهدي به ، وغضِبتُ غضبًا شديدًا ، لكن أذكر أني قلت : أنا أعلم أن أقوامًا كذبوا عليّ وقالوا للسلطان أشياء . وتكلمت بكلام احتجت إليه مثل أن قلت : من قام بالإسلام أوقات الحاجة[1] غيري؟ ومن الذي أوضح دلائله وبيَّنه وجاهد أعداءه ، وأقامه لما مال ، حين تخلى عنه كلُّ أحد ، ولا أحد ينطق بمحجته ، ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهرًا الحجة مجاهدًا عنه مرغبًا فيه؟ .

فإذا كان هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ فكيف يصنعون بغيري . ولو أن يهوديًا طلب من السلطان الإنصافَ لوجب عليه أن ينصفه ، وأنا قد أعفو عن حقي وقد لا أعفو ، بل أطلب الإنصاف منه ، وأن يحضر هؤلاء الذين يكذبون؛ ليكافأوا على افترائهم . وقلت كلامًا أطول من هذا الجنس لكن بعُد عهدي به .

فأشار الأمير إلى كاتب الدَّرَج محي الدين أن يكتب ذلك .

وقلت أيضًا : كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه .

ثم قُرِئت العقيدةُ في الجلسة ، فاعترض بعضُهم على مسائل منها ، فأجاب الشيخ عنها ، وكتبت هذه المناظرة الأولى بنحو ثمان صفحات .

ثم قال شيخ الإسلام عليه الرحمة :

(**فصل**) : فلما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشر رجب ، وقد

---

(١) في الأصل : « الحجة » .

أحضروا أكبر شيوخهم ممن لم يكن حاضرًا ذلك المجلس، وأحضروا معهم زيادة: صفي الدين الهندي، وقالوا: هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام.

وبحثوا فيما بينهم، واتفقوا وتواطئوا[١]، وحضروا بقوة واستعداد للمخاطب الذي هو المسؤول والمجيب والمناظر!! فلما اجتمعنا وقد أحضرتُ ما كتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة الذي طلبوا تأخيره إلى اليوم، حمدتُ اللَّه بخطبة الحاجة؛ خطبة ابن مسعود رضي اللَّه عنه.

ثم قلت: إن اللَّه تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف، ونهانا عن الفرقة والاختلاف، وقال لنا في القرآن: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٩]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٥]، ربنا واحد، وكتابنا واحد، ونبينا واحد، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين، وهو متفق عليه بين السلف، فإن وافق الجماعةُ فالحمد للَّه، وإلَّا فمن خالفني بعد ذلك كشفتُ الأسرار، وهتكت الأستار، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول، وأنا أذهبُ إلى سلطان الوقت على البريد وأعرِّفُه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس، فإن للسِّلم كلامًا، وللحرب كلامًا.

وقلت: لا شك أن الناس يتنازعون؛ يقول هذا: أنا حنبلي. ويقول هذا: أنا أشعري. ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها، وأنا قد أحضرت ما يبين اتفاق المذاهب فيما ذكرته، وأحضرت كتاب «تبيين كذب

---

(١) في الأصل: «وتعاطوا».

المفتري فيما ينسب إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري » ، رضي اللّٰه عنه ، تأليف الحافظ أبي القاسم ابن عساكر ، رحمه اللّٰه ، وقلت : لم يصنف في أخبار الأشعري المحمودة كتاب مثل هذا ، وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه « الإبانة » .

فلما انتهيت إلى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن معنى المعتزلة؟ فقلت : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملِّي ، وهو أول اختلاف حدث في الملة : هل هو كافر ، أو مؤمن؟ فقالت الخوارج : إنه كافر . وقالت الجماعة : إنه مؤمن . وقالت طائفة : نقول : هو فاسق؛ لا مؤمن ولا كافر ، ننزِّله منزلةً بين المنزلتين ، وخلدوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه ، رحمه اللّٰه تعالى ، فسُمُّوا معتزلة .

قال الشيخ الكبير بجبته وردائه : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام ، وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ، ثم خلف بعد موته عطاء بن واصل .

وبعد أن رد الإمامُ عليه خطأه ، قال : قلت : الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون وبعدها في أواخر المائة الثانية ، وأما المعتزلة فقد كانوا قبل ذلك بكثير من زمن عمرو بن عبيد بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية ، ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ، ولا تنازعوا فيها ، وإنما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعيد .

فقال : هذا ذكره الشهرستاني في كتاب « الملل والنحل » .

فقلت : الشهرستاني ذكره في اسم المتكلمين لمَ سُمُّوا متكلمين؟ لم يذكره في اسم المعتزلة ، والأمير إنما سأل عن اسم المعتزلة . وأنكر الحاضرون عليه ، وقالوا : غلطت .

وقلت في ضمن كلامٍ : أنا أعلمُ كلَّ بدعة حدثت في الإسلام ، وأوَّلَ من ابتدعها ، وما كان سبب ابتداعها ، وأيضًا فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكمين ، فإن المتكلمين كانوا يسمون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام ، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء : إنه متكلم . ويصفونه بالكلام ، ولم يكن الناس اختلفوا في .. (يتبع)



حياة شيخ الإسلام[1]

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي

[٨]

تابع : مناظرته رحمه اللّٰه

... ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام ، وقلت أنا وغيري : إنما هو واصل بن عطاء . أي : لا عطاء بن واصل ، كما ذكره المعترض .

قلت : وواصل لم يكن بعد موت عمرو بن عبيد ، وإنما كان قرينه ، وقد روي أن واصلًا تكلم مرة بكلام ، فقال عمرو بن عبيد : لو بعث نبيًّا ما كان يتكلم بأحسن من هذا . وفصاحته مشهورة ، حتى قيل : إنه كان ألثغ ، وكان يحترز عن الراء ، حتى قيل له : أمر أمير المؤمنين أن يحفر بئر . فقال : أوعز القائد أن يقلب قليب .

ولما انتهى الكلام إلى ما قاله الأشعري . قال الشيخ المقدم فيهم : لا ريب أن الإمام أحمد إمام عظيم القدر من أكبر أئمة الإسلام ، لكن قد انتسب إليه أناس ابتدعوا أشياء .

فقلت : أما هذا فحقٌّ ، وليس هذا من خصائص أحمد ، بل ما من إمام إلا وقد انتسب إليه أقوام هو منهم بريء ، وقد انتسب إلى مالك أناس مالكٌ بريء منهم ، وانتسب إلى أبي حنيفة أناسٌ هو بريء منهم ، وقد انتسب إلى موسى عليه السلام أناسٌ هو منهم بريء ، وانتسب إلى عيسى عليه السلام أناس هو منهم بريء ، وقد انتسب إلى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم . ونبينا ﷺ قد انتسب إليه من القرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف الملحدة والمنافقين مَن هو بريء منهم .

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٦٠- رجب ١٣٤٦هـ.

قال وذكر في كلامه : أنه انتسب إلى أحمد من الحشويَّة والمشبِّهة ، ونحو هذا الكلام .

فقلت : المشبِّهةُ والمجسِّمةُ في غير أصحاب الإمام أحمد أكثر منهم فيهم .

وبعد أن عدَّ أصنافهم من غير الحنابلة ، قال : وتكلمت على لفظ الحشوية- ما أدرى جوابًا عن سؤال الأمير أو غيره ، أو غير جواب- فقلت : هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة ، فإنهم يسمُّونَ الجماعةَ والسوادَ الأعظمَ : الحشوَ. قال : وحشو الناس هم : عموم الناس وجمهورهم ، وهم غير الأعيان المتميزين . يقولون : هذا من حشو الناس . كما يقال هذا من جمهورهم . وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد ، قال- أي عمرو- : وكان عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه حشويًّا .

وقلت- لا أدري في المجلس الأول أو الثاني- : أول من قال إنَّ اللّه جسمٌ هشامُ بن الحكم . قلت لهذا الشيخ : مَنْ في أصحاب الإمام أحمد رحمه اللّه حشويٌّ بالمعنى الذي تريده؟! : الأثرم ، أبو داود ، المرُّوذي ، الخلّال ، أبو بكر عبد العزيز ، أبو الحسن التميمي ، ابن حامد ، القاضي أبو يعلي ، أبو الخطاب ، ابن عقيل؟! ورفعت صوتي ، وقلت : سمهم ، قل لي من هم ، من هم؟! أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطلُ الشريعة وتندرس معالم الدين؟! كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون : إنَّ القرآن القديم هو أصواتُ القارئين ، ومدادُ الكاتبين ، وإنَّ الصوت والمداد قديمٌ أزلي!! من قال هذا؟ وفي أيِّ كتاب وجد هذا عنهم؟! قل لي . وكما نَقَل عنهم أنَّ اللّه لا يُرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمةِ التي نقلها .

وأخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم ، وأن فيه من العقل والدين ما يستحق أن يعامل بموجبه .

حياة شيخ الإسلام[1]

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[٩]

تابع: مناظرته رحمه اللَّه

وأَمرتُ بقراءة العقيدةِ جميعِها عليه، فإنه لم يكن حاضرًا في المجلس الأول، وإنما أحضروه في الثاني؛ انتصارًا.

وحدثني الثقة عنه- بعد خروجه من المجلس- أنه اجتمع به وقال له: أخبرني عن هذا المجلس، فقال: ما لفلان ذنب، ولا لي، فإن الأمير سأل عن شيء فأجابه عنه، فظننته سأل عن شيء آخر. وقال: قلت: أنتم ما لكم على الرجل اعتراض، فإنه نصر ترك التأويل، وأنتم تنصرون قول التأويل، وهما قولان للأشعري. وقال: أنا أختار قولَ ترك التأويل. وأخرج وصيته التي أوصى بها، وفيها: قولي: تركُ التأويل.

قال الحاكي له: فقلت له: بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس، لمَّا أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة: لا تكتبوا عني نفيًا ولا إثباتًا، فلِمَ ذلك؟ قال: لوجهين:

أحدهما: أني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الأول.

الثاني: لأن أصحابي طلبوني؛ لينتصروا بي، فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم، فسكتُّ عن الطائفتين. اهـ باختصار قليل.

اعتقال شيخ الإسلام في مصر والشام وسببه

في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ وقع بدمشق محنة للشيخ الإمام تقي الدين ابن

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٦١- في ١٣٤٦/٧/٢٠هـ.

تيمية، وكان الشروع فيها من أول الشهر، وكان سببها ترجيحَه مذهبَ السلف في الصفات على مذهب المتكلمين، وكان قبل ذلك بقليل أنكر أمر المنجِّمين.

ثم عقدت له عدة مجالس للمناظرة في مصر والشام، وحبس في القطرين. وقد ذكرنا في الفصل السابق إحدى تلك المناظرات.

ونقل العلامة صاحب «جلاء العينين»[(١)] عن الحافظ ابن كثير قال: وأكثر ما نالوا منه- أي أعداؤه- الحبس، مع أنه لم ينقطع في بحث، لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه، كما سيأتي. انتهى.

قيل: ومن جملة أسباب حبسه خوفهم أنه ربما يدعي ويطلب الإمارة، فلقي أعداؤه عليه طريقًا من ذلك، فحسَّنوا للأمراء حبسَه؛ لسدِّ تلك المسالك.

حاله في معتقله، ووفاته في قلعة دمشق

ذكر صاحب «الكواكب»: أن الشيخ لما سُجن في مصر بحبس القضاة بحارة الديلم، صار الحبسُ بالاشتغال بالعلم والدين خيرًا من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس، وصار خلق من المحابيس إذا أُطلِقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المتردِّدون إليه، حتى صار السجن يمتلئ بهم.

ولما ورد أمرٌ بسجنه بقلعة دمشق أظهر السرور بذلك، وقال: إني كنت منتظرًا ذلك، وهذا فيه خير عظيم.

ونقل عنه وارث علومه العلامة الشهير شمس الدين محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية- الذي حبس بقلعة دمشق معه- في كتابه «الكلم الطيب والعمل الصالح»[(٢)]. أنه قال: ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتني وبستاني

(١) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص ٢٠، وانظر البداية والنهاية ١٤/ ٣٤.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٦٧.

في صدري ، أين ذهبت فهي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة . وكان يقول في مجلسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكرَ هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ، ونحو هذا.. وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء اللّه . وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل وصلَ إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: الآية ١٣] وعلم اللّه ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف ، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشًا ، وأشرحهم صدرًا ، وأقواهم قلبًا ، وأسلمهم نفسًا ، تلوح نضرة النعيم على وجهه . وكنا إذا اشتدَّ بنا الخوف ، وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه فما هو إلَّا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها في العمل فأقام من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم عليها والمسابقة إليها . وكان بعض العارفين يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . اهـ .

وكان دخوله لقلعة دمشق سادس شعبان سنة ٧٢٦ وما زال مقيمًا في قاعتها إلى أن كانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨.



حياة شيخ الإسلام[1]
«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»
[١٠]

الاحتفال بالصلاة على شيخ الإسلام ودفنه

دخلت جنازة الإمام جامع بني أمية ، وصلي عليه عقب صلاة الظهر ، ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه إلَّا حضر لذلك ، حتى غُلِّقت الأسواقُ بدمشق ، وعُطِّلت معايشُها حينئذ ، وحصل للناس بمصابه أمرٌ شغلَهم عن غالب أمورهم وأسبابهم ، وخرج الأمراء والرؤساء ، والعلماء والفقهاء ، والأتراك والأجناد ، والرجال والنساء والصبيان ، من الخواص والعوام

قال بعض من حضر : ولم يتخلَّف فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته ، فاختفوا بين الناس خوفا على أنفسهم ، بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس .

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه أنهم يزيدون على خمسمائة ألف . وحضرها نساء كثير بحيث حزرن بخمسة عشر ألفا . قال أهل التأريخ : لم يسمع بجنازة تمثل هذا الجمع إلَّا جنازة الإمام أحمد بن حنبل

قال الدارقطني : سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول : سمعت عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل يقول : سمعت أبي يقول : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : أنه حزر الحزارون المصلين على جنازة أحمد ، فبلغ العدد بحزرهم ألف ألف وسبعمائة ألف سوى الذين كانوا في السفن .

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٦٢- في ٢٧/٧/ ١٣٤٦هـ.

ثم حُمِلت جنازة الشيخ إلى قبره في مقبرة الصوفية[١] فوضع. وقد جاء الملك شمس الدين الوزير- ولم يكن حاضرا قبل ذلك- فصلى عليه أيضا ومن معه من الأمراء والكبراء ومن شاء اللَّه من الناس

ثم دفن وقت العصر إلى جانب أخيه الشيخ حمال الإسلام شرف الدين. اهـ من «الكواكب» باختصار

خلاصة أعماله رحمه اللَّه

ننقل من «فوات الوفيات» خلاصة أعماله التي طار بها ذكره في البلاد، وعرفه بها القاصي والداني من العباد، وهو قد نقلها من كتاب «تذكرة الحفاظ» للشيخ الإمام الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي.

وقد آثرت نقلها؛ لتكون فهرسا لأعمال شيخ الإسلام من سنة ٦٩٨ إلى سنة ٧٢٨ وهي سنة وفاته، يرجع إليه أو إلى تفصيل محتوياته في الكتب المبسوطة من أحب:

قال شمس الدين بن عبد الهادي رحمه اللَّه: قلت: أملى شيخنا المسألة المعروفة بالحموية سنة ٩٨ في قعدة بين الظهر والعصر، وهو جواب سؤال ورد من حماه في الصفات، وجرى له بسبب ذلك محنة، ونصره اللَّه وأذل أعداءه، وما حصل له بعد ذلك إلى حين وفاته من الأمور والمحن والتنقلات يحتاج إلى عدة مجلدات. وذلك كقيامه في نوبة غازان سنة ٦٩٩ وقيامه بأعباء الأمر بنفسه واجتماعه هو بنائبه قطلو شاه وبولاي، وإقسامه وجرأته على المغول، وعظيم جهاده، وفعله الخير من إنفاق الأموال وإطعام الطعام ودفن الموتى.

ثم توجهه- بعد ذلك بعام- إلى الديار المصرية، وسوقه على البريد إليها في

(١) في هامش الأصل: هي الآن بين الكلية الطبية ومستشفى الغرباء غربي دمشق، وقبره هناك معروف.

جمعة لما قدم التتار إلى أطراف البلاد ، واشتد الأمر بالبلاد الشامية ، واجتماعه بأركان الدولة ، واستصراخه بهم ، وحضهم على الجهاد ، ، وإخباره لهم بما أعد اللَّه لهم وللمجاهدين من الثواب ، وإبدائهم له العذر في رجوعهم ، وتعظيمهم له ، وتردد الأعيان إلى زيارته ، واجتماع ابن دقيق العيد به ، وسماعه كلامه ، وثنائه عليه الثناء العظيم .

ثم توجهه- بعد أيام- إلى دمشق واشتغاله بالاهتمام لجهاد التتار ، وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم ، وقيامه في وقعة شقحب المشهورة سنة ٧٠٢ واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب الحلِّ والعقد وأعيان الأمراء ، وتحريضه لهم على الجهاد ، وموعظته لهم ، وما ظهر في هذه الوقعة من إجابة دعائه ، وعظيم جهاده ، وقوة إيمانه ، وشدة نصحه للإسلام ، وفرط شجاعته .

ثم توجهه بعد ذلك- في آخر سنة أربع- لقتال الكسروانيين(١) وجهادهم واستئصال شأفتهم .

ثم مناظرته للمخالفبن- في سنة خمس- في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنه الأقرم ، وظهوره عليهم بالحجة والبيان ، ورجوعهم إلى قوله طائعين ومكرهين .

ثم توجهه بعد ذلك- في السنة المذكورة- إلى الديار المصرية في صحبة قاضي الشافعية ، وعُقِدَ له مجلس حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة

ثم حبسه بالجب بقلعة الجبل ومعه اخواه سنة ونصفًا ، ثم خروجه بعد ذلك وعقدُ مجلس له لخصومتهم ، وظهوره عليهم .

ثم إقرائه للعلم وبثه ونشره .

---

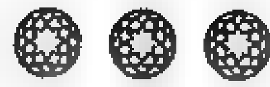
(١) في هامش الأصل : المراد بالكسروانيين : طوائف من الباطنية استحال توحيدهم إلى وثنية ، وقد مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

ثم عقد مجلس له- في شوال سنة ٧- لكلامه في الاتحادية وطعنه .

ثم الأمر بتسفيره إلى الشام على البريد ، ثم الأمر برده من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفًا ، وتعليمه أهل الحبس ما يحتاجون إليه من أمور الدين ، ثم إخراجه منه ، وتوجهه إلى الإسكندرية ، وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر يدخل إليه من شاء .

ثم توجهه إلى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس حفل فيه القضاة .

يتبع



حياة شيخ الإسلام[(١)]

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[١١]

تابع :

وأعيان الأمراء، وإكرامه له إكرامًا عظيمًا، ومشاورته له في قتل بعض أعدائه، وامتناع الشيخ من ذلك، وجعله كلَّ من آذاه في حِلٍّ.

ثم سكناه بالقاهرة، وعوده إلى نشر العلوم ونفع الخلق، وما جرى بعد ذلك من قضية البكري وغيرها.

ثم توجهه بعد ذلك إلى الشام صحبة المنصور؛ قاصدًا العراق بعد غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع، وتوجهه في طريقه إلى بيت المقدس

ثم ملازمته بعد ذلك بدمشق؛ لنشر العلوم، وتصنيف الكتب، وإفتاء الخلق، إلى أن تكلم في مسألة الحلف بالطلاق، وأشار عليه بعض القضاة بترك الإفتاء بها في سنة ثماني عشرة، فقبل إشارته، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى فيها، ثم عاد الشيخ إلى الإفتاء بها، وقال: لا يسعني كتمان العلم. وبقي كذلك مدة إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، ثم أخرج ورجع إلى عادته من الاشتغال والتعليم، ولم يزل كذلك إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شدِّ الرِّحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، كان قد أجاب به من نحو عشرين سنة، فشنعوا عليه بسبب ذلك، وكبرت القضية، وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة، فأخليت له قاعة حسنة وأجري إليها الماء، وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، وأقبل في هذه المدة على

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٦٣- ١٣٤٦هـ.

العبادة ، والتلاوة ، وتصنيف الكتب ، والرد على المخالفين ، وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة ونكت دقيقة ومعان لطيفة ، وأوضح مواضع كثيرة التبست على خلق من المفسرين . وكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة ، وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الأمر إلى أن مُنع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا له دواة ولا قلمًا ولا ورقة ، وكتب عقيب ذلك بفحم . يقول : إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم ، وبقي أشهر على ذلك ، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين .



حياة شيخ الإسلام[1]

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[١٢]

بعض تلاميذ شيخ الإسلام الأعلام

نذكر تراجم طائفة من تلاميذ شيخ الإسلام الأعلام الذين كانوا من بعده من أشهر رجال الإسلام، بما خلَّفوا من الآثار التي طار ذكرها في الأمصار، وانتفع بها أبناء الأعصار.

فمنهم: أشهر تلاميذه ووارث علومه، العالم الرباني شيخ الإسلام الثاني، شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، صاحب الآثار الكثيرة المحررة، الذي حبس مع الشيخ في قلعة دمشق، ولم يفرج عنه إلَّا بعد موت الشيخ. وقال عنه القاضي برهان الدين الزرعي: ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه.

ومنهم: الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين أبو عبد اللَّه محمد الذهبي صاحب «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» وغيره. قال عنه العلامة الشيخ تاج الدين السبكي في «طبقاته الكبرى»[2]: كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها.

ومنهم: الحافظ الكبير عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري ثم الدمشقي. قال عنه ابن حبيب: انتهت إليه رئاسة العلم في التأريخ والحديث والتفسير. ومن تصانيفه التأريخ المسمى: «بالبداية والنهاية»، و«طبقات الشافعية» وغيرهما.

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٦٤- في ١٣٤٦/٨/١١هـ.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٩/ ١٠١.

ومنهم: الحافظ شمس الدين أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، عدَّه الذهبي في «طبقات الحفاظ». وقد عدَّ له ابن رجب في طبقاته ما يزيد على سبعين مصنفًا، وتوفي وعمره أربعون سنة أو أقل.

ومنهم: قاضي القضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين، المشهور بقاضي الجبل، قرأ على الشيخ تقي الدين ابن تيمية عدة تصنيفات في علوم شتى، وبالغ ابن رافع، وابن حبيب في مدحه، وله اختيارات في المذهب. ومن شعره اللطيف قوله:

الصالحية جنة والصالحون بها أقاموا ... فعلى الديار وأهلها مني التحية والسلام

ومنهم: زين الدين عمر الشهير بابن الوردي، له تصانيف في النحو والأدب والتصوف والتاريخ. وقد أطنب في ترجمة شيخ الإسلام في تاريخه ومن نظمه:

سبحان من سخَّر لي حاسدي ... يُحدِثُ لي في غيبتي ذكرا
لا أكره الغيبة من حاسدٍ ... يفيدني الشهرة والأجرا

ومنهم: زين الدين أبو حفص عمر الحراني. ولي نيابة الحكم، وقال: لم أقض قضية إلَّا وأعددت لها الجواب بين يدي اللَّه تعالى.

ومنهم: شمس الدين أبو عبد اللَّه محمد بن مفلح. قال أبو البقاء السبكي: ما رأت عيناي أفقه منه. وقال ابن القيم: ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح[1]. وقال ابن كثير: وله مصنفات كثيرة، منها على «المقنع» نحو ثلاثين مجلدًا، وعلى «المنتقى» وكتاب «الفروع» أربع مجلدات، وله كتاب في أصول الفقه، و«الآداب الشرعية» الكبرى، والوسطى، والصغرى.

(١) ينظر شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ١٩٨، ١٩٩.

أبيات من مراثيه

لقد نُظم في رثاء الإمام المترجَم وذِكرِ أعماله ومآثره قصائدُ غُرٌّ، ذكر طائفةً منها صاحبُ «الكواكب». وقد اخترنا أبياتًا منها نذكرها أنموذجًا لما قاله فيه بعض واصفيه.

قال القاضي الإمام شهاب الدين أبو العباس ابن فضل اللّٰه العمري من قصيدة طويلة:

مِثلُ ابنِ تيميَّةٍ تَرضَى حواسدُه ... بحبسه ولَكَم في حبسِه غدروا
مِثلُ ابنِ تيميَّةٍ في السجنِ معتقلٌ ... والسجنُ كالغِمدِ وهو الصارِمُ الذَّكَرُ
مثلُ ابنِ تيميَّةٍ يُرمَى بكلِّ أذىً ... وليس يُجلَى قذىً منه ولا نظرُ
مثلُ ابنِ تيميَّةٍ تَذوَى خمائلُه ... وليس يُلقطُ من أفنانِه الزهرُ
مثلُ ابنِ تيميَّةٍ شمسٌ تغيبُ سدىً ... وما ترقُّ بها الآصالُ والبُكُرُ
مثلُ ابن تيميةٍ يمضي وما عبقَتْ ... بمسكِه العاطرِ الأردانُ والطُّرُرُ

ومنها في حُسَّاده ومناوئيه:

هل فيهمُ صادعٌ للحقِّ مِقوَلُهُ ... أو خائضٌ للوغى والحربُ تستعرُ
رمى إلى نحرِ غازان مواجَهةً ... سهامُه من دعاءٍ عونُه القدرُ
بتَلِّ راهطَ والأعداءُ قد غُلِبوا ... على الشآم وطالَ الشرُّ والشررُ

ومن قصيدة للعلامة أبي حفص عمر بن الوردي عليه الرحمة[1]:

تقي الدِّين ذو ورع وعلم ... خروق المعضلات به تُخاطُ
توفي وهو مسجونٌ فريدٌ ... وليس له إلى الدنيا انبساطُ
ولو حضروه حين قضَى لألفَوا ... ملائكةَ النعيم به أحاطُوا

(١) انظر العقود الدرية ص٥٢٣، والوافي بالوفيات للصفدي، ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية.

قضَى نحْبًا وليس له قرينٌ ولا لنظيره لُفَّ القِماط[١]

ثم قال :

فيا للّه ما قد ضَمَّ لحدٌ ويا للّه ما غطَّى البلاطُ
هُمُ حسدوه لمَّا لم ينالُوا مناقبَه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طريقته كُسَالى ولكن في أذاه لهم نشاطُ
وحبسُ الدُرِّ في الأصداف فخرٌ وعند الشيخ بالسجن اغتباط

إلى أن قال :

ألم يك فيكمو رجلٌ رشيدٌ يرى سجنَ الإمامِ فيُستشَاطُ
إمامٌ لا وِلايـةَ كان يرجو ولا وقفٌ عليه ولا رباطُ
ولا جاراكمُ في كسبِ مالٍ ولم يُعهد له بكمُ اختلاطُ
ففيمَ سجنتموهُ وغظتُموه أما لجزا أذيَّته اشتراطُ
وسجنُ الشيخ لا يرضاه مثلي ففيه لقدر مثلِكمُ انحطاطُ
أما واللّه لولا كتمُ سرِّي وصرف[٢] الشر لانحلَّ الرِّباط
وكنتُ أقولُ ما عندي ولكِنْ لأهل العلم ما حَسُنَ اشتطاطُ
فما أحدٌ إلى الإنصاف يدعو وكلٌّ في هواه له انخراطُ
سيظهر قصدُكم يا حابسيه ويهنيكمُ[٣] إذا نُصب الصراط !!
فها هو مات عنكم واسترحتم فعاطُوا ما أردتم أن تعاطوا
وحُلُّوا واعقِدُوا من غير ردٍّ عليكم وانطوى ذاك البساطُ

يتبع

(١) القمَّاط : صانع القمط . وهو الحبل ونحوه يقمط به ، وخرقةٌ عريضة يلف بها المولود . (المعجم الوسيط » . (قمط) .
(٢) كذا ، وفي العقود ، وجلاء العينين : « وخوف » .
(٣) كذا وفي العقود الدرية : « ونيتكم » . وفي جلاء العينين : « ونبئكم » .

حياة شيخ الإسلام[1]

«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[١٣]

ومن قصيدة للشيخ الإمام محمد العراقي الجزيري :

يا طليقَ اللسان في كلِّ فنٍّ فلقد شرُفت بكَ العلياءُ
إن تكن مِتَّ فالعلوم التي أحيـ ـيتَ من بعد موتها أحياءُ

ومنها :

أنت صخر الوجود في كلِّ أرضٍ والبرايا جميعُها الخنساءُ

ومنها :

قسمًا بالإله لو أنصف الدهرُ لأضحى في كلِّ بيتٍ عَزاءُ

ومن قصيدة للشيخ الإمام زين الدين عمر بن الحسام الشبلي رحمه اللَّه :

سل عنه غازانَ وسل أمراءَه لما أتوا بطلائع الأُسراءِ
والمُغْلَ قد ملكوا البلادَ وأهلها كم فكَّ من عانٍ[2] بغير عناء

وللفاضل برهان الدين ولد شهاب الدين التبريزي الحنفي عليهما الرحمة :

فمن جاهد الأعداء في الدين مثلُه ومن سلَّ سيفَ العزم في وجه غازان

ومنها :

وما ضرَّه إن طال في السجن مكثُه إذا كان في نُسُكٍ وطاعةِ رحمان

هذا قليل من كثير من مواهب هذا الإمام الكبير وأعماله التي حملتها أكفُّ الرياح إلى كل جمع ، وطيَّرتها بعاطر ريحها إلى كل سمع ، وكتبتها أشعةُ الشمس

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٦٦- ١٣٤٦هـ .

(٢) في الأصل «قد من عان» . والمثبت من العقود الدرية ص ٥١٢.

بمداد النور على صفحات الوجود، فكانت عظةً بالغة، وسطورًا باقية يهتدي بسناها أبناءُ العصور.

حياة الرجال العاملين وغيرهم

أيها السادة:

إن هذه الأرض التي نعيش فوق ظهرها ليست دارَ خلود، ولكنها ميدانٌ واسعُ المدى متنائي الأطراف، أوجده الحكيم المبدع، وجعل ما على وجهه زينةً له، ثم سخَّره للسلائل البشرية، ودفعهم للعمل فيه، ومكنهم من ذلك بما أودع فيهم من القوى الظاهرة والباطنة، ثم هو ينشئهم النشأة الآخرة، فينبئهم بما كانوا يعملون: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: الآية ٣٦].

وأما ما يعترضهم في سبيلهم من لذائذَ وآلامٍ، فأهل البصيرة والعزم منهم يعلمون أنَّ ذاك اختبارٌ وتمحيص، فاللذائذُ تعزِّز فيهم عاطفةَ الشكر وهي لا تتحققُ إلا بالبذل، والآلام تقوِّي فيهم ملَكة الصبر وهي التي تكون سببَ الثبات على الحقِّ واحتمالِ الأذى في سبيله. فإذا زكت نفس العامل وصلح عمله، ذهب إلى دار السعادة مَلَكًا طاهرًا، وقد ترك في الدنيا من بعده أثرًا خالدًا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢١].

ففريق من الناس قد أدركوا أن اللَّه تعالى قد استخلفهم في الأرض ليعمروها، ويقيموا السنن الإلهية فيها من عدل شامل وعلم نافع وعمل صالح، وقد كان لأولئك الخلفاء الكرام في كل جيل من المآثر العظيمة ما عطَّر الكونَ بشذاه، وما خلَّد ذكر أصحابه على صفحاته، فآثارهم كشجرةٍ طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لا تقوى على اجتثاثها من فوق الأرض يدُ الأيام.

وفريق اتخذوا أنفسهم معولًا للتخريب ، فهم يحاولون هدمَ بناء المجتمع الإنساني المرصوص ، فهؤلاء هم شرُّ الناس وعارُ الإنسانية وشنارُها .

وفريق ثالث ليس له أثر يذكر ، ولا عمل يشكر ، فهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ، وهؤلاء هم الذين تُنسى أسماؤهم بعد ذهاب أشخاصهم ، ولا يبقى لهم في صفحة الوجود عينٌ ولا أثر .



حياة شيخ الإسلام[١]
«أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي»

[١٤]

إن من موجبات الأسف، ومدميات القلوب أنْ نرى في أمتنا العربية مَنْ قُطِّعت الروابطُ بيننا وبينهم تقطيعًا، فانقلبوا يمشون في أرضنا أعداء ألداء، وقد كانوا بالأمس الأخوة الأوفياء؛ ذلك بأنهم فقدوا كلَّ مميزاتهم الملِّية والقوميَّة من دينٍ ولغة وتقاليد وجنسية، تلك المقومات التي لا بقاء لأمة على وجه الأرض- معتصمة بحبل وحدتها، مستمسكة بعرى وطنيتها- بدونها. ولمَّا فقدوا حلقةَ الاتصال التي تربطهم بنا- وبسلفهم أيضًا- صاروا شرًّا من الأعداء.

إن تعجب فعجبٌ قولُ بعض المتفرنجين الجاهلين: يجب أن يبقى الدين محصورًا في المعابد، ما كان لرجال الدين أن يتداخلوا في المسائل العمومية!! ويعدُّ ذلك بعضُ المتدينين الجامدين قضيةً مسلَّمةً، فيُدعى إلى المشاركة في عمل خيري عمومي، يوجب عليه الدين أن يشترك في مثله فيقولُ: أنا لا أشتغل فيما لا يعنيني!!! وقد فات هذا وذاك أن القيام بالمشاريع العامة النافعة مِنَ الدين، وأنَّ حبَّ الوطن- بالعمل لخيره وخير أهله- من الإيمان. أو لم[٢] يروا كيف اجتمع الدين والوطنية في شخص الإمام ابن تيمية، فدفعاه للدفاع عن وطنه، والذود عن حوضه بالحجة والبرهان، أو القلم واللسان تارة، وبالسيف والسنان تارة أخرى؟!!

جمودُ فريقٍ من علماء الدين والدنيا؛ كلٌّ على ما عنده! وعدم نظره فيما عند

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١٧١ في ١٣٤٦/٩/٢٩هـ.

(٢) في الأصل: «وألم».

الآخر! أورث كُلًّا منهما بعدًا وجفاءً، وسبَّبَ للسلسلة الواحدة في بعض حلقاتها فكًا وانقطاعًا.

لو نظر كل فريق منهم فيما عند الآخر، لقويت الروابط والصلات بين الفريقين الأخوين جدًّا، ولكانت خدمة الوطن أكبر تأثيرًا وأعز نصيرًا. والذي أبرز الصحيفتين الدينية والكونية، وأقام كلًّا منهما مشيرًا إليه ودالًا عليه، هو واحدٌ جلَّت حكمته، جعل الأولى منهما وحيًا معجزًا، والثانية خلقًا معجزًا.

أعرف شابًا أديبَ النفس زكيَّ القلب، درس في مدرسةٍ نحو ١٠ سنين، فكان يتلقى المسائل الدينية بغير أدلتها المفصلة، والعلوم الكونية بأدلتها الحسية، فخيل إليه أن الأولى عدوةٌ للثانية، وأن العلم الصحيح والعقل الرجيح يقضيان بأنهما ضدان لا يجتمعان!! لقيته قبل تركه المدرسة بزمن يسير، فأزلت له كلَّ ما كان ينقدح في صدره من شُبهٍ وشكوك، وفارقته ولسانُ حاله يردِّد قولَ القائل:

رجعنا لك اللهم فاقبل رجوعنا وقلِّب قلوبًا طالَ إعراضُها عنكَ

لو أتيح لرجال هذه الأمة الأمناء المخلصين أن يتضافروا كلُّهم على خدمتها من الجهة التي توقظ شعورها وتنمِّيه، وتزيدها فيهم حبًّا وإخلاصًا، لكانت الخدمة أجلَّ وأقوى.

وبعدُ، فقد دبَّ روحٌ في جثمان هذه الأمة- ولا يزال ضعيفًا- وشعور في عامتنا- ولا يزال خفيفًا- ولكنَّه فاتحة دور جديد، وطليعة مستقبل سعيد، والرجاء في اللَّه عظيمٌ أن يكون برقُ هذه الآمال ثابتًا، وفجرُ الأماني صادقًا.

ونختم هذه المحاضرة بقول شاعر العراق الرصافي:

لئن كنتَ يا فجرَ الأمانيِّ صادقًا بوعدٍ فحيا اللهُ طلعتك الغرَّا

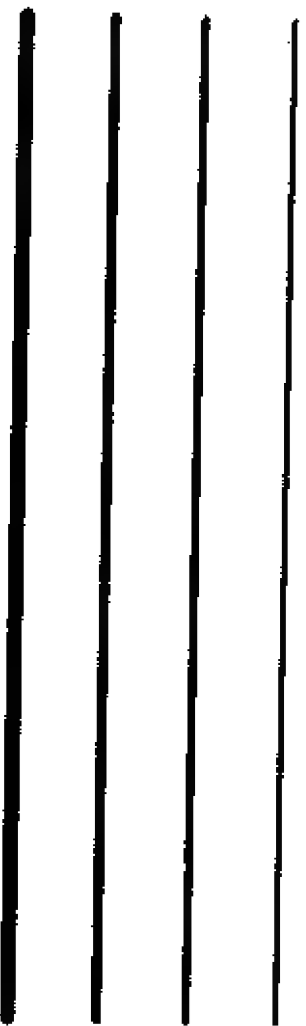


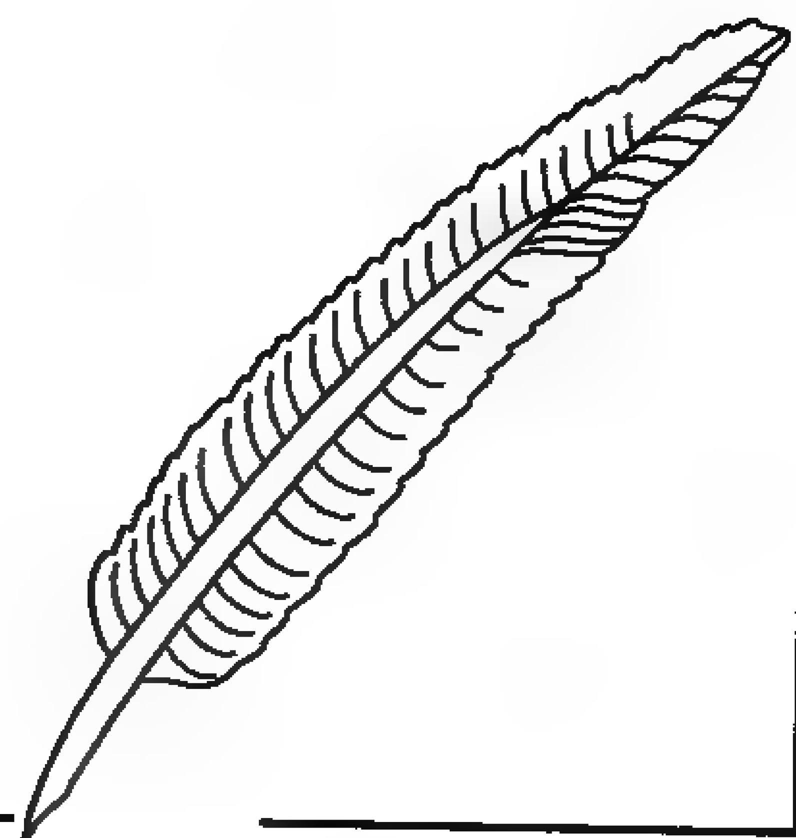


مقالات الشيخ

سليمان بن حمدان رحمه الله

١٣٢٢هـ - ١٣٩٧هـ





مقالات الشيخ سليمان بن حمدان(١)

توحيد الألوهية(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد اللَّه على توفيقه وتسديده، ونشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له

---

(١) هو العلامة الفقيه الشيخ سليمان بن عبد الرحمن بن محمد آل حمدان.
ولد في مدينة المجمعة عام ١٣٢٢هـ، فنشأ فيها في حضانة والده الذي عني به عناية خاصة حيث أدخله الكتاب الذي تعلم فيه مبادئ القراءة والكتابة ثم حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وهو في صباه.
ثم شرع في طلب العلم بهمة ونشاط فأخذ عن عدد كبير من أهل العلم في وقته، منهم: الشيخ عبد اللَّه بن عبد اللطيف آل الشيخ، والشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى، والشيخ حمد بن فارس، والشيخ سعد بن عتيق، والشيخ سليمان بن سحمان، والشيخ عبد اللَّه العنقري
من أعماله: أنهولي قضاء المحكمة المستعجلة في الطائف، وعُيِّنَ إمامًا وخطيبًا لمسجد ابن عباس رضي اللَّه عنهما في الطائف،ووَلِيَ القضاء في المدينة النبوية،وعُيِّنَ إمامًا وخطيبًا ومدرسًا في المسجد النبوي، ومدرسًا فيه، ثمنقل إلى مكة حيث عُيِّن قاضيًا في المحكمة المستعجلة، وعضوًا في رئاسة القضاء، كماتولى القضاء بالمجمعة عام ١٣٦٤هـ، حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٣٦٩هـ، ثم أقام باقي حياته في مكة شرفها اللَّه.
وقدتولى التدريس في المسجد الحرام.
تتلمذ عليه عدد من أهل العلم منهم: الشيخ صالح بن محمد الزغيبي، والشيخ إبراهيم البسام، والشيخ عبد المحسن المانع، والشيخ عبد اللَّه خياط، والشيخ حمود التويجري، وغيرهم.
تميز الشيخ سليمان- رحمه اللَّه- بجودة الخط وحسنه، وكان عنده عناية بنسخ الكتب، وجمع المخطوطات وقد نسخ الكثير منها.
له من المؤلفات: «الأجوبة الحسان على أسئلة مرشد باكستان»، «أدلة النصوص المصدقة في رد الأكاذيب الملفقة»، «بيان الحجج والأدلة»، «الدر النضيد على أبواب كتاب التوحيد».
توفي في مدينة الطائف، في الثاني عشر من شهر شعبان عام ١٣٩٧هـ، وصُلِّي عليه في مسجد ابن عباس، ودفن في الطائف. ولم يخلف ذرية- رحمه اللَّه تعالى-. انظر ترجمته في «علماء نجد» (٢٩٥/٢)، ومقدمة المحقق لكتاب «الدر النضيد على أبواب كتاب التوحيد».

(٢) صحيفة أم القرى- العدد ٧٣٠ في ١٧ شوال ١٣٥٧هـ. =

إقرارًا بتوحيده، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله أفضل خلقه وصفوة عبيده، ونصلي ونسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين خصوا من القول بسديده، ومن الفضل بمزيده.

أما بعدُ: فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة» ثلاثًا. قالوا: لمن يا رسول اللَّه؟ قال: «للَّه ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١].

وهذا من جوامع الكلم الذي أوتيه ﷺ، ويدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان الواردة في حديث جبريل عليه السلام، ويدخل فيها جميع الواجبات والمستحبات.

إذا علم هذا؛ فمن أعظم النصيحة الواردة في هذا الحديث الشريف وواجبها: بيان أول الواجبات، وأوكد المفروضات، وهو توحيد خالق البريات، وفاطر الأرض والسموات، وتقديمه على غيره من باب الأهم على المهم؛ ليكون الإنسان على بصيرة من أمره في هذا الأصل الأصيل، وما ينافيه أو ينافي كماله الواجب؛ حيث قد عم الجهل بذلك، وكثر الإعراض عنه، مع أنه لا حياة للقلوب إلا بتوحيد خالقها، ولا نجاة إلا بمعرفته وتحقيقه. وأهله هم الآمنون من عذاب اللَّه، الفائزون بثوابه.

وهو ينقسم إلى ثلاثة أنواع: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وقد قُررت الأنواع الثلاثة بأدلتها في الكتاب والسنة أحسن تقرير، ووضِّحت

= وجاء في أصل الصحيفة ما نصه: «ننشر فيما يلي نص المحاضرة الدينية القيمة التي ألقاها حضرة الشيخ سليمان الحمدان في دار جمعية الإسعاف الخيري يوم الأحد الماضي، وقد سمعها جمهور كبير من ذوي الفضل والعلم».

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي اللَّه عنه.

أعظمَ توضيح :

فأما توحيد الألوهية: فهو توحيد العبادة، ويعرف أيضًا بتوحيد القصد والطلب والإرادة. ومن أجل هذا النوع من التوحيد خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: الآية ٥٦] واللام في «ليعبدون» لام التعليل وليست لام الصيرورة والعاقبة. ومعنى يعبدون: يوحدون. لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: الآية ٣١] وقال ابن عباس رضي اللّٰه عنهما: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد[1]. وكذا قال عكرمة.

فعبادة اللّٰه وحده لا شريك له هي أصل الدين، وهو التوحيد الذي بعث اللّٰه به الرسل، وأنزل به الكتب، فقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: الآية ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] ففي هذه الآيات الكريمة وغيرها مما هو في معناها الدليل الواضح على أن الإلهية هي العبادة.

إذا تبين هذا؛ فالعبادة في اللغة: من الذل. يقال: بعير معبد، وطريق معبد: إذا كان مذللًا.

وأما في الشرع؛ فعرفها الفقهاء بقولهم: العبادة ما أمر اللّٰه به شرعًا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي.

وعرفها طائفة بأنها: كمال الحب مع كمال الخضوع.

وقال أبو العباس أحمد ابن تيمية قدس اللّٰه روحه: العبادة: اسم جامع لكل ما

(١) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٧١.

يحبه اللّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[١].

وأصلها: تجريد الإخلاص للّه تعالى، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ.

ومدارها على الخضوع والمحبة؛ فلا تكون المحبة المنفردة عن الخضوع عبادة، ولا الخضوع بلا محبة عبادة. فمن خضع لإنسان مع بغضه له لم يكن عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما يحب الإنسان ولده وصديقه.

وهي أنواع كثيرة منقسمة على القلب، واللسان، والبدن، والمال.

فمنها: الإسلام وهو رأسها، والإيمان، والإحسان، والدعاء وهو مخها، والركوع، والسجود، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواعها. فالدين كله داخل في مسمى العبادة.

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على اشتراط الإخلاص في جميعها، وأن اللّه لا يقبل منها إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه.

وحقيقة الإخلاص: أن يخلص العبد للّه تعالى في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته؛ فهذا هو حقيقة الإسلام الذي قال اللّه فيه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥]. وهو ملة إبراهيم التي أمر اللّه بها عباده في قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٥]. والتي وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، وأخبر أن من رغب عنها فقد سفه نفسه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٤٩ وما بعدها.

إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣٣].

وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها تنفي الإلهية التي هي العبادة عما سوى اللّٰه تعالى نفيًا مطلقًا، وتثبتها للّٰه وحده لا شريك له، ولهذا سميت: كلمة الإخلاص، وكلمة التوحيد، وكلمة التقوى، والعروة الوثقى، والكلمة الطيبة. فهي أفضل الكلام، ومفتاح دار السلام، والفارق بين الكفر والإسلام، وعليها نصبت القبلة وأسست الملة. ومن أجلها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار، ومن أجلها جردت سيوف الجهاد، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد وولي وطريد، فهي سر الخلق والأمر.

قال الوزير أبو المظفر ابن هبيرة رحمه اللّٰه: شهادة أن لا إله إلا اللّٰه تقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بأن لا إله إلا اللّٰه، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: الآية ١٩].

قال: واسم اللّٰه مرتفع بعد «إلا» من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله؛ فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب للّٰه تعالى، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن باللّٰه.

وقال ابن القيم رحمه اللّٰه تعالى ما معناه(١): إن دلالة: «لا إله إلا اللّٰه» على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا: «اللّٰه إله»... قال: ولا يستريب أحد في

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٥٦٥.

هذا البتة . انتهى .

وأما معنى « الإله » : فأجمع أئمة اللغة على أنه إله بمعنى مألوه ، أي : معبود . وعلى هذا جميع المفسرين وشراح الحديث والفقه ، فكلهم يفسرون الإله بالمعبود .

وقال الإمام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه اللَّه[١] : الإله هو المعبود المطاع؛ فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية المحبة ، المخضوع له غاية الخضوع .

وقال شمس الدين ابن القيم رحمه اللَّه تعالى[٢] : الإله هو الذي تألهه القلوب محبةً وإجلالًا ، وإنابة وإكرامًا ، وتعظيمًا وذلًّا وخضوعًا ، وخوفًا ورجاء ، وتوكلًا عليه ، وسؤالًا له منه ، ودعاء له ، لا يصلح ذلك كله إلا للَّه . فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله : « لا إله إلا اللَّه » ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك . انتهى .

وقد غلط بعض أئمة المتكلمين في معنى الإله غلطًا فاحشًا ، فظن أن معناه : القادر على الاختراع ، وأن الألوهية هي القدرة على ذلك ، وأن من أقر بأن اللَّه هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا الله!

وهذا وإن كان لابد منه في صحة توحيد العبد وهو المراد بتوحيد الربوبية ، إلا أن هذا ليس هو معنى الإله والإلهية ، وهذه زلة عظيمة ممن قالها توقع من اعتقد ذلك في الجهل بأصل الدين الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، وتجعله لا

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٤٩.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٢٧.

يفرق بين ما أمر اللَّه به من توحيد العبادة ، وبين ما يعتقده مشركو العرب؛ فإنهم مقرون بتوحيد الربوبية ، وهو اعترافهم بأن اللَّه خالق الأشياء وموجدها على غير مثال سبق ، وأنه الرزاق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور ، فقال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: الآية ٩] ، وقال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٨٧] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآية ٣١] ، وقال تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾

[المؤمنون : ٨٤- ٨٨] .

فإذا كانوا مع هذا الإقرار مشركين؛ لامتناعهم عن الإقرار بشهادة أن لا إله إلا اللَّه ، دلك ذلك على أن معنى الإله والإلهية أمرٌ سوى القدرة على الاختراع ، وعلمتَ أن مشركي العرب عرفوا من معنى ذلك ما لم يعرفه هذا المتكلم .

إذا علم هذا ، فمن صرف شيئًا من العبادة التي تقدم بيانها لغير اللَّه جل وعلا فقد أشرك في عبادة اللَّه تعالى ذلك الغير ، سواء كان ملكًا ، أو نبيًّا ، أو وليًّا ، أو جنيًّا ، أو شجرًا ، أو حجرًا ، أو قبرًا ، أو مشهدًا ، أو بقعة ، أو غير ذلك .

واللَّه تعالى قد أخبرنا في كتابه أنه لا يغفر لمن أشرك به في عبادته غيره ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ

أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٦] وهذا خبر لابد من وقوع مخبره. فلا أعظم إثمًا، ولا أضل ممن أشرك بربه وخالقه في عبادته، ولذا حرم اللَّه عليه الجنة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المَائدة: الآية ٧٢]

فالشرك أعظم المحرمات، ولذا قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمَان: الآية ١٣]. فهو أظلم الظلم، وأبطل الباطل، وأمحل المحال، وأسفه السفه؛ لأنه هضم لجناب الربوبية، وتنقص للألهية، وسوء ظن برب العالمين سبحانه، فلذا كان غير داخل تحت المغفرة إلا بالتوبة منه والإقلاع عنه.



محاضرة في التوحيد[(١)]

أما توحيد الربوبية : فهو الإقرار بأن اللّه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لأمور عباده وحده لا شريك له .

والمشركون قبل مبعث النبي ﷺ مقرون بهذا ، لم ينكره منهم أحد ، ولم يدَّعوا شيئًا من ذلك لآلهتهم التي كانوا يعبدونها ، وإنما قصدوا من عبادتهم لها القربة والشفاعة عند اللّه تعالى ، والرسل إنما أرسلت ، وأنزلت الكتب؛ لتقرير هذا النوع من التوحيد ، والأمر بإخلاص الدين للّه وحده ، والنهي عن التشريك في العبادة . والقرآن الكريم قد أبدى في تقرير هذا وأعاد ، وأكثر من الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره- من كونه تعالى خالقهم ورازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم- على ما أنكروه من إفراده تعالى بالعبادة ، كقوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٨٧] ، وقوله : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآية ٣١] وغيرها من الآيات التي يحتج تعالى عليهم فيها باعترافهم بوحدانية ربوبيته على وحدانية ألوهيته ، ويقرر مقام الألوهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية؛ وما ذاك إلا لأن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ لأن المعبود لابد أن يكون مدركًا للنفع والضر ، ومن يملك النفع والضر فهو المستحق للعبادة . فمن أثبت العبادة لأحد فقد أثبت له الربوبية ، ومن أثبت الربوبية لأحد فقد أوجب له العبادة .

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ٧٣٧- في ٧- ذي الحجة- ١٣٥٧هـ .
وجاء في أصل الصحيفة ما نصه : « ننشر فيها المحاضرة النفيسة التي ألقاها الشيخ سليمان الحمدان بدار جمعية الإسعاف ليلة الاثنين الماضي » .

إذا علم هذا فالشرك في الربوبية نحو أن يجعل لغير اللَّه تعالى معه شيئًا من التدبير ، كما قال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سَبَأ: الآية ٢٢] فبين تعالى أنهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالًا ، ولا يشركون في شيء من ذلك ، ولا يعينونه على ملكه تعالى وتقدس . فمن لم يكن مالكًا ولا شريكًا ولا عونًا فقد انقطعت علاقته .

وذكر بعض العلماء(١) أن الشرك في الربوبية نوعان :

أحدهما : شرك التعطيل ، كشرك فرعون ، والذي حاج إبراهيم في ربه ، ومنه شرك طائفة ابن عربي ، ومنه شرك من عطل أسماء الرب سبحانه وأوصافه من غلاة الجهمية ، ومنه شرك من جعل مع اللَّه إلهًا آخر ولم يعطل ربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة .

الثاني : الشرك في أسمائه تعالى وصفاته ، ومنه تشبيه الخالق بالمخلوق كمن يقول : يده كيدي . وهو شرك المشبهة . انتهى .

ومن الشرك في الربوبية نسبة التصرف في الكون وتدبير أمر العالم إلى بعض الأشخاص ، كما يدعيه بعض الجهلة في القطب أو الغوث ونحوهما من الدعاوى الباطلة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه(٢) : والقائلون بهذه الأمور منهم من ينسب إلى أحد هؤلاء ما لا تجوز نسبته إلى أحد من البشر! مثل دعوى بعضهم أن الغوث أو القطب هو الذي يمد أهل الأرض في هداهم ونصرهم ورزقهم ، وأن هذا لا يصل إلى أحد إلا بواسطة نزوله على ذلك الشخص ، وهذا باطل بإجماع

(١) هو الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه اللَّه . انظره في « الدرر السنية » (٣٠٧/٢) .
(٢) منهاج السنة النبوية ١/ ٩٥.

المسلمين ، وهو من جنس قول النصارى في الباب . وكذلك ما يدعيه بعضهم من أن الواحد من هؤلاء يعلم كل ولي لله كان أو يكون؛ اسمه واسم أبيه ومنزلته من اللَّه ، ونحو ذلك من المقالات الباطلة التي تتضمن أن الواحد من البشر يشارك اللَّه في خصائصه ، مثل أنه بكل شيء عليم ، أو على كل شيء قدير ، ونحو ذلك ، كما يقوله بعضهم في النبي ﷺ ، وفي شيوخه : أن علم أحدهم ينطبق على علم اللَّه ، وقدرته منطبقة على قدرة اللَّه ، فيعلم ما يعلمه اللَّه ، ويقدر على ما يقدر اللَّه عليه ، تعالى اللَّه .

وأما توحيد الأسماء والصفات : فهو توحيد المعرفة والإثبات ، وهو أشرف أنواع التوحيد لشرف معلومه .

وقد زلت في هذا الباب أقدام وضلت فيه أفهام ، وما سلم من ذلك إلا من اعتصم بكتاب ربه وسنة نبيه ، ولم يحكم عقله فيما يثبته أو ينفيه في حق خالقه ومعبوده ، وهم أهل السنة والجماعة

فقولهم الذي يقولون وعقيدتهم التي بها في هذا يدينون : إثبات[1] أسماء اللَّه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه ، وأخبر بها رسوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة ، وإجراؤها على ظاهرها ، واعتقاد أنها حق حقيقة؛ إثباتًا بلا تمثيل ، وتنزيهًا بلا تعطيل .

فلا يمثلون صفاته تعالى بصفات خلقه ، ولا ينفون ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسمائه وآياته ، بل مذهبهم فيها بين التعطيل والتمثيل ، قول بين قولين ، وهدي بين ضلالتين؛ تمسكًا منهم بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: الآية ١١] .

(١) «إثبات» ليست في الأصل ، وأثبتت لدلالة السياق .

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١- ٤]، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠].

وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: الآية ٣]، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: الآية ٥٩]، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: الآية ١٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣]. وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥]، وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: الآية ٥٤]، وقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ﴾ [المائدة: الآية ١١٩]. وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: الآية ٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣]، وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ

وَلَعَنَهُۥ﴾ [النِّساء: الآية ٩٣]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمَّد: الآية ٢٨]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبَة: الآية ٤٦]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: الآية ٣]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٨]، وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٧]، وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨]، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: الآية ٧٥]، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧].



المحاضرة الدينية(١)

[٢]

وقوله : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُّور: الآية ٤٨] ، وقوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: الآية ٣٩] ، وقوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: الآية ١] ، وقوله : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزّخرف: الآية ٨٠] ، وقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العَلق: الآية ١٤] ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٥٠] ، وقوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن: الآية ٧٨] ، وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٦٥] ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: الآية ٤] ، وقوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرة: الآية ٢٢] ، وقوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥] ، وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٤] في ستة مواضع من كتابه : في الأعراف ، ويونس ، والرعد ، والفرقان ، والسجدة ، والحديد . وقوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] ، وقوله : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٨] ، وقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠] ، وقوله : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧] ، وقوله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ [الملك: ١٦، ١٧] ، وقوله :

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ٧٣٨ في ١٤- ذي الحجة- ١٣٥٧هـ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: الآية ٧] ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٨] ، وقوله : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤] ، وقوله : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٣] ، وقوله : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٠] ، وقوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التّوبَة: الآية ٦] ، وقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] ، وقوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يُونس: الآية ٢٦] ، وقوله : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٥] ، وقوله : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفَتْح: الآية ١٥] وقوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ﴾ [النّحل: الآية ٧٤] ، وقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٢] وما في معناها من الآيات الكريمة .

واتباعًا منهم لما صح عن النبي ﷺ من قوله : « إن للّه تسعة وتسعين اسمًا؛ مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » . متفق عليه[1] ، وقوله في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد في مسنده[2] وفيه : « أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » . الحديث ، وقوله : « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .
(٢) أخرجه أحمد ٣٩١/١ من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه .

التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين واغنني من الفقر » . رواه مسلم[(١)] ، وقوله ﷺ : يقول اللَّه تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .الحديث . رواه البخاري[(٢)] . وقوله ﷺ : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » . متفق عليه[(٣)] ، وقوله : « للَّه أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته ..» . الحديث . متفق عليه[(٤)] ، وقوله : « يضحك اللَّه إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر ، كلاهما يدخل الجنة » . متفق عليه[(٥)] ، وقوله : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد . حتى يضع رب العزة فيها قدمه » ، وفي رواية : « عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط » . متفق عليه[(٦)] ، وقوله : « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء » . رواه البخاري[(٧)] ، وقوله للجارية : « أين الله؟ » قالت : في السماء . قال : « من أنا؟ » . قالت : أنت رسول اللَّه . قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » . رواه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، وكذا مسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه .

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٢٦) ، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٦) أخرجه البخاري (٤٨٤٨- ٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦، ٢٨٤٨) من حديث أبي هريرة ، وأنس بن مالك رضي اللَّه عنهما .

(٧) أخرجه البخاري (٤٣٥١) ، وكذا مسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه .

مسلم[١] ، وقوله في رقية المريض : « ربنا اللّٰه الذي في السماء ، تقدس اسمك ، أمرك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك علي هذا الوجع » رواه أبو داود[٢] ، وقوله : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن اللّٰه قِبل وجهه ، فلا يبصق قبل وجهه ، ولا عن يمينه ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه[٣] » . متفق عليه[٤] ، وقوله لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر : « أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إنما تدعون سميعًا قريبًا ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » . متفق عليه[٥] ، وقوله : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته » . الحديث متفق عليه[٦] ، فشبه الرؤية بالرؤية ، وإن لم يكن المرئي مشابهًا للمرئى . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وأما أقوال أئمة السلف وقدوة الخلف فأكثر من أن تحصر ، ولكن نشير إلى شيء منها :

قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي اللّٰه عنه في كتاب « الفقه

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي اللّٰه عنه .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) من حديث أبي الدرداء رضي اللّٰه عنه . وقال الألباني في ضعيف الجامع (١٢٢٠٠) : ضعيف جدًّا .

(٣) في الأصل : « ولا عن يساره ، ولا تحت قدمه » .

(٤) كذا بالأصل ، والحديث أخرجه البخاري (٤٠٦، ٤١٣)، ومسلم (٥٤٧، ٥٥١) من حديث ابن عمر ، وأنس رضي اللّٰه عنهم ، لكن بلفظ : « ولا عن يمينه ولكن عن يساره - وفي لفظ : شماله - أو تحت قدمه - وفي لفظ : اليسرى » وجاء هذا المعنى من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي اللّٰه عنهما .

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٩٢) ، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري .

(٦) أخرجه البخاري (٥٥٤، ٤٨٥١) ، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد اللّٰه رضي اللّٰه عنه .

الأكبر» : ما ذكره اللَّه تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس ، فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته؛ لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفته بلا كيف ، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته تعالى بلا كيف .

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمه اللَّه تعالى : اتفق الفقهاء كلهم من الشرق إلى الغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول اللَّه ﷺ في صفات الرب عز وجل من غير تفسير ولا تشبيه ، فمن فسر شيئًا من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة؛ فإنهم لم يشبهوا ولم يفسروا ، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة ، فمن قال بقول جهم فارق الجماعة .

وروى أبو بكر الخلال في كتاب «السنة» عن الوليد بن مسلم قال : سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات؟ فقالوا : أمروها كما جاءت . وفي رواية ، فقالوا : أمروها كما جاءت بلا كيف . فقولهم رضي اللَّه عنهم : أمروها كما جاءت ، رد على المعطلة . وقولهم : بلا كيف ، رد على الممثلة .

وقال يحيى بن يحيى : كنا عند مالك بن أنس رضي اللَّه عنه فجاء رجل فقال : يا أبا عبد اللَّه : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥] . كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعًا . فأمر به أن يخرج .

فهكذا تكون أجوبة الأئمة ، فإن هذا الجواب من هذا الإمام في الاستواء على اختصاره قد شفي وكفى ، وهو صالح لأن يجاب به كل مبتدع في سؤاله عن

الكيفية في جميع مسائل الصفات مثل: النزول غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وهكذا في سائر الصفات.

وقال يوسف[(١)] بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي رضي اللَّه عنه يقول: للَّه أسماء وصفات لا يسع أحدًا ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر. فنثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: الآية ١١].

وقال الإمام أحمد رضي اللَّه عنه: لا يوصف اللَّه إلا بما وصف به نفسه، أو وصف به رسوله، لا نتجاوز القرآن والحديث.

ونعلم أن ما وصف اللَّه به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتيقن أن اللَّه سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وكل ما أوجب نقصًا أو حدوثًا فإن اللَّه منزه عنه حقيقة.

وقال الإمام أبو عمر ابن عبد البر رحمه اللَّه: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في القرآن والسنة والإيمان بها كلها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع: الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج، فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة، ويزعم أن من أقر بها شبه. وهم عند من أقر بها نافون

---

(١) كذا، والصواب: «يونس». انظر تهذيب الكمال ٣٢/ ٥١٣، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي ومناقبه- كما في فتح الباري ١٣/ ٤١٨.

للمعبود! والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب اللَّه وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة(١).

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه اللَّه تعالى في رسالته في «الغنية عن الكلام وأهله»(٢): فأما ما سألت عنه من الصفات، وما جاء منها في الكتاب والسنة؟ فإن مذهب السلف إثباتها وإجرؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها. وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته اللَّه، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين، ودين اللَّه تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه.

والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، ويحتذى في ذلك حذوه ومثله، فإذا كان معلومًا أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: يد، وسمع، وبصر، وما أشبهها، فإنما هي صفات أثبتها اللَّه لنفسه، ولسنا نقول: إن معنى اليد: القوة، أو النعمة. ولا معنى السمع والبصر: العلم. ولا نقول: إنَها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إنما وجب القول بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها، وورد نفي التشبيه عنها؛ لأن اللَّه ليس كمثله شيء. وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات. انتهى.

فهذا الذي ذكرناه عن هؤلاء الأئمة هو معتقد السلف الصالح؛ أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وهو إجراء النصوص على ظاهرها بلا تكييف، لا يتجاوزون القرآن والحديث، ولم يقل أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولا أنه

---

(١) التمهيد ٧/ ١٤٥.

(٢) الغنية عن الكلام وأهله ص٧٥- ٧٦.

يلزم من إثباتها التشبيه . وهم أعلم الأمة بهذا الشأن نفيًا وإثباتًا ، وأتقاها وأشدها تعظيمًا للَّه وتنزيهًا له عما لا يليق بجلاله . فلم يردوا المعاني المفهومة من الكتاب والسنة بالشبهات؛ فيكون ذلك من تحريف الكلم عن مواضعه ، ولم يقولوا بأنها ألفاظ لا تعقل معانيها ولا يعرف المراد منها؛ فيكون ذلك مشابهة للذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، بل هي عندهم آيات بينات وأحاديث واضحات دالة على أشرف المعاني وأجلها . قد اطمأنت بذلك قلوبهم ، وسكنت إليه نفوسهم؛ فأنسوا من صفات ربهم ونعوت جلاله بما استوحش منه الجاهلون المعطلون ، وسكنت قلوبهم إلى ما نفر منه الجاحدون والمتأولون؛ لعلمهم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته ، فلم يعطلوا ، ولم يمثلوا ، ولم يؤولوا الاستواء بالاستيلاء ، واليد بالقدرة أو النعمة ، والنزول بنزول الأمر ، ونحوها من التأويلات التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان .

وهذا الذي ذكرناه هو الذي ندين اللَّه به في هذا الباب ونرضاه عقيدة . واللَّه الموفق سبحانه .



شهر رمضان[١]

نهنئكم معشر المسلمين بهذا الشهر المبارك والموسم العظيم الذي هو مضمار السباق والتنافس في الأعمال الصالحة المقربة إلى اللّٰه تعالى، ونسأله حسن الختام.

ثم اعلموا أن صوم هذا الشهر أحد أركان الإسلام ودعائمه، ولا يخفى ما ورد فيه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فيجب على الإنسان أن يصونه عن اللغو والرفث، والغيبة والنميمة، وسائر الكلام المحرم؛ لئلا يبطل ثوابه من حيث لا يشعر، ولا يخرج من عهدة الوجوب.

فهو عبادة ناهيك بها من عبادة؛ تكف الناس عن شهواتها، وتخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين، فإن النفس متى خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البهايم، فإذا تركت شهواتها للّٰه ضيقت مجاري الشيطان وصارت قريبة من اللّٰه بترك عاداتها وشهواتها؛ محبة له وإيثارًا لمرضاته وتقربًا إليه.

فالصائم يدع أعظم الأشياء ملائمة لنفسه من الطعام والشراب والجماع من أجل ربه، فهو عبادة ولا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة للّٰه، وهذا معنى كون الصوم له تبارك وتعالى، وبهذا فسر النبي ﷺ هذه الإضافة في الحديث فقال: «يقول اللّٰه تعالى: كل عمل ابن آدم يضاعف؛ الحسنة بعشر أمثالها، قال اللّٰه: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي»[٢].

حتى أن الصائم ليتصور بصورة من لا حاجة له في الدنيا إلا في تحصيل رضا اللّٰه، وأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة التي تكسر الشهوة وتقمع النفس

---

(١) صحيفة أم القرى- العدد ١١٨- الجمعة ١٥ / رمضان- ١٣٤٥هـ.

(٢) أخرجه مسلم (١١٥١/٦٤) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه، بلفظ: «يدع شهوته وطعامه».

الأمارة بالسوء، وتحيي القلب وتفرحه، وتزهد في الدنيا وشهواتها، وترغب فيما عند اللَّه، وتذكر الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم، وأنهم قد أخذوا بنصيب من عيشهم فتعطف قلوبهم عليهم، ويعلمون قدر ما هم فيه من نعم اللَّه فيزدادون له شكرًا.

وبالجملة فعون الصوم على تقوى اللَّه أمر مشهود، فما استعان أحد على تقوى اللَّه وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم. فهو شاهد لمن شرعه وأمر به بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه إنما شرعه إحسانًا إلى عباده ورحمة بهم ولطفًا بهم، لا بخلًا عليهم برزقه، ولا مجرد تكليف وتعذيب خال من الحكمة والمصلحة كما يظن ذلك من لا علم عنده، بل هو غاية الحكمة والرحمة والمصلحة.

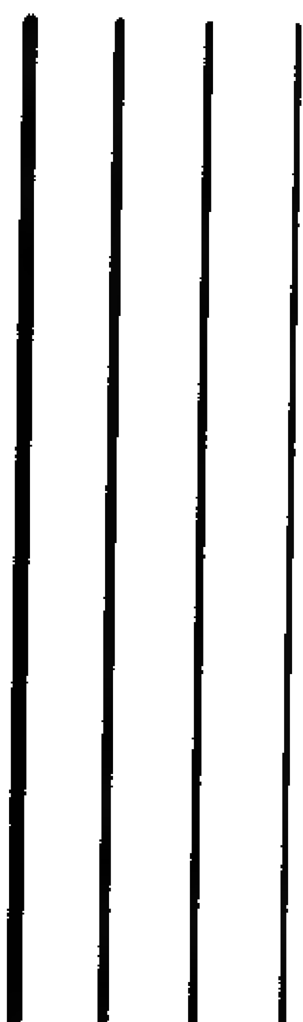
نسأل اللَّه تعالى أن يجعل حظنا من شهرنا موفورًا، وأن يعصمنا من الخطايا والزلل، إنه جواد كريم، وصلى اللَّه على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

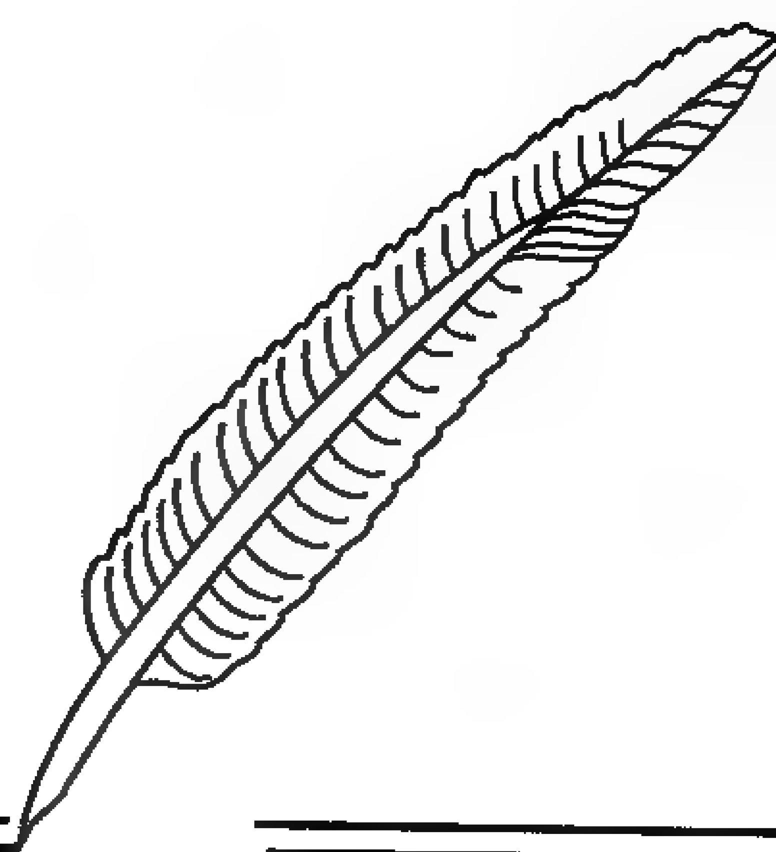




مقالات الشيخ
عبد اللَّه بن عبد الرحمن
ابن عبد اللطيف رحمه الله

١٣١٠هـ - ١٣٩٧هـ





مقالات الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد اللطيف(١)

نداء إلى الجهاد في سبيل الله (٢)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد فإنني بمناسبة المشهد العظيم الذي عقد بمدينة الرياض، يسرني أن أعبر عن شعوري، وأوجه كلمتي هذه لجمهور المسلمين والمواطنين؛ حكومة وشعبًا، وفي المقدمة صاحب السمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء فيصل المعظم؛ حثًا على الجهاد في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: الآية ٧] وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد اللطيف بنعبد الرحمن بن حسنبن محمد بن عبد الوهاب.
ولد عام ١٣١٠هـ، ونشأ في بيت علم ودعوة، ودرس في الكُتّاب في صغره فحفظ الكثير من القرآن، ثم بدأ الطلب عند بعض العلماء وواصل طلب العلم والدعوة بعد ذلك.
ومن العلماء الذين درس عليهم: أبوه الشيخ عبد الرحمن، وعمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وعمه الشيخ محمد بن عبد اللطيف، وابن عمه الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، والشيخ سعد بن عتيق وغيرهم.
كان من كبار العلماء المقربين من ابن عمه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وكان نائبًا له في شؤون المساجد واختبار أئمة الجوامع والمساجد والمؤذنين، كما كان نائبًا له في خُطب الجمعة في الجامع الكبير بالرياض ومشرفًا على إلقاء الكلمات الوعظية والإرشادية فيه.
كما كان عضوًا أو رئيسًا لوفد العلماء الشرعي الدعوي الذي ذهب إلى دولة قطر لمدة ثلاث سنين تقريبًا لنشر مزيد من العلم الشرعي في قطر ومساجدها.
توفي في الرياض سنة ١٣٩٧هـ تقريبًا.

(٢) صحيفة القصيم- العدد (١٦١).

بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٠]، وقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصّف: الآية ٤].

وقال النبي ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»[١]. «وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري»[٢].

فيا أيها المسلمون، أوصيكم بتقوى الله، كما في حديث العرباض بن سارية: قال رسول الله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة»[٣]. لولاة الأمور. وفي حديث آخر: «والنصح لمن ولاه الله أمركم»[٤].

فدل على أن السمع والطاعة لولي أمر المسلمين وإمامهم واجبة، وبيعته أمانة في أعناق المسلمين، ولقد علمتم ما حدث وما يحدث من الدعايات المضللة التي فرقت صفوف المسلمين قديمًا وحديثًا.

والجدير بالذكر ما حدث في زماننا هذا من القلاقل بسبب دعاية الشيوعية والدول الغربية التي تسعى في هدم الإسلام وإثارة الفتن بين المسلمين في كافة الشعوب العربية على أيدي عملائهم من الحكام والزعماء الذين يدعون الإسلام، والإسلام بريء منهم، وخاصة حكام مصر بزعامة الخوان الأثيم عبدالناصر، وهم منحلون من الدين والأخلاق، منحرفون عن الشريعة المحمدية إلى الشيوعية

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٨، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٥٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد ٤/١٢٦، وأبو داود (٤٦٠٧). وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

الحمراء النابذة لعبادة الخلاق ، نسوا الله فنسيهم ، اشتغلوا بتضليل الخلق بفعل المنكرات واستباحة المحرمات ومعادات رب الأرض والسماوات ، وأنفقوا أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فلم ينالوا إلا الخيبة والخسار . وهذه سنة الله في الذين خلوا من قبلهم ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦]

أيها المسلمون ، جاهدوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، وإذا استنفرتم فانفروا؛ دفاعًا عن دين الإسلام ، ودفاعًا عن الوطن ، وعن مقدسات الإسلام .

واعلموا أن النبي ﷺ قال : « رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله »[١] .

وقال ﷺ : « من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق »[٢] .

وإنني استنصركم على أعداء الله المعتدين على حدود المسلمين واستباحة حرماتهم؛ لنصد عدوانهم ، كلنا نسير جميعًا صفًا واحدًا : الأمراء الكرام ، والعلماء الأعلام ، وأهل الجهاد الأقدمين ، والجيش العربي المخلص الأمين ، والحرس الوطني ذا الصدق والأمانة ، وعامة طبقات الشعب وشبابه المثقف الذي قامت الحكومة السنية بواجبه ووجهته لصالحه وصالح شعبه حتى نضج وصاروا رجال الحاضر والمستقبل ، نسير تحت راية الإسلام ، يتقدمنا ولي العهد الميمون ، مهللين شعارنا : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

وأوصيكم بما وصى الله به عباده المؤمنين بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

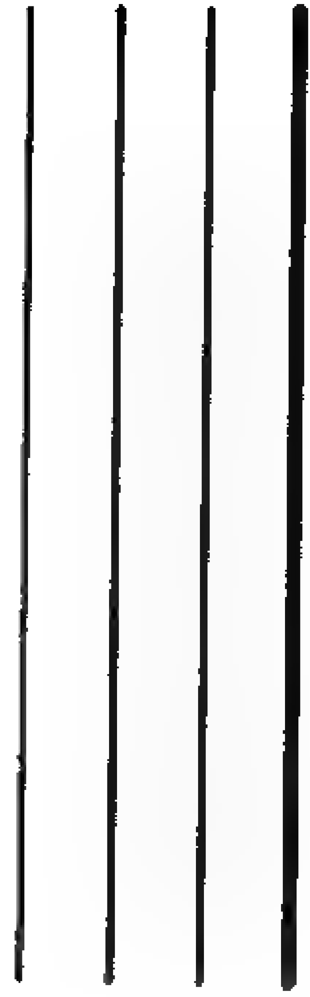
(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٧٦١) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأخرجه ابن حبان (٣٦١) ، والطبراني (١٦٥١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه . وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٣١) : ضعيف جدًا .

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

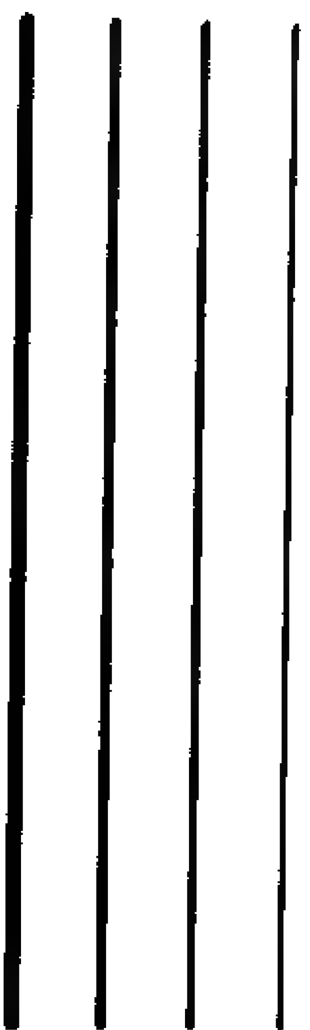
ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمران: الآية ٢٠٠]، واستعينوا باللّٰه، وحافظوا على أوامر اللّٰه ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

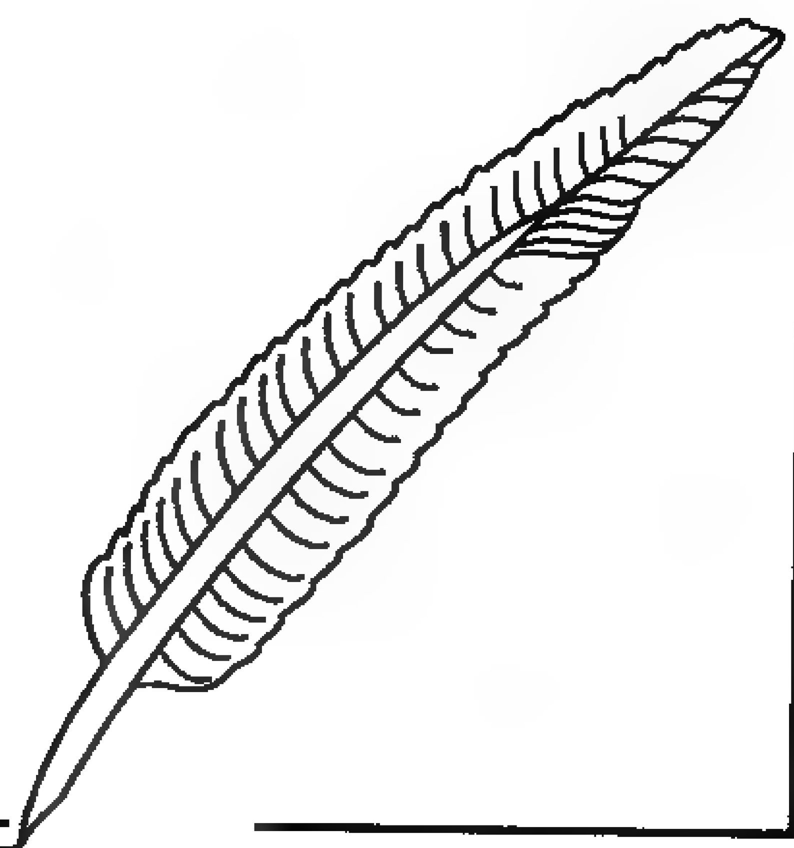
وإنني أوجه إليكم هذه الكلمة تحريضًا لكم على القيام بما أوجب اللّٰه علينا من الجهاد في سبيله وصد عدوان المعتدين أعداء اللّٰه ورسوله .. والسلام عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته.





مقالات الشيخ
عبد الرحمن الدوسري رحمه الله
١٣٣٢ هـ - ١٣٩٩هـ





مقالات الشيخ عبد الرحمن الدوسري(١)

(١) هو الشيخ الداعية عبد الرحمن بن محمد بن خلف بن عبد اللّٰه الفهد آل نادر الدوسري من قبيلة الدواسر ومن أسرة هم أمراء بلد السليل.

ولد في مدينة البحرين عام ١٣٣٢ هـ، وسافر به والده إلى الكويت، نشأ في بيئة صالحة محافظة وفي محلة من حارات الكويت تدعى محلة (المرقاب)، أكثر أهلها عمارٌ للمساجد، نقادٌ للأخلاق، يحرض بعضهم بعضًا على الخير والفضيلة، فلذلك يسيطر الحياء عليهم أجمعين ونشأ بها ودرس وتعلم ما شاء اللّٰه.

طلب العلم في المدرسة المباركية، ولم يخرج منها إلا وهو حافظ للثلاثة الأصول مع بعض شرحها، وحافظ للدرة المضيئة، والرحبية والبرهانية في الفرائض، ومنظومة الآداب، وقصائد كثيرة متنوعة، وحفظ من متون الفقه دليل الطالب، إلى جانب حفظه للقرآن الكريم. كما حفظ جملة من أحاديث منتقى الأخبار. ودرس السيرة النبوية، وطرفًا من التاريخ، وحفظ شيئًا كثيرًا من الكافية الشافية لابن القيم، ثم بعد خروجه من هذه المدرسة- المباركة في زمنها- درس الفقه والتوحيد على الشيخ عبداللّٰه بن خلف الدحيان، وعلى الشيخ صالح بن عبد الرحمن الدويش، كما أخذ عن الشيخ العلامة قاسم بن مهيزعوغيرهم.

كان مولعًا بكتب البحث والمناظرة والردود مما صار له الأثر القوي في تكوينه العلمي والروحي.

وقد صار له نشاط في نشر العلم والتوعية في الكويت وبعدما انتقل إلى المملكة وذلك بإلقاء المواعظ والمحاضرات المتوالية في المساجد والمدارس والأسواق، ويعطي كل موقف حقه الملائم له، وكانت الأسئلة تنهال عليه فيجيب على بعضها شفهيًا في وقته مهما طالت، ويكتب باقي الأجوبة في الصحف عند ضيق الوقت عن الإجابة الشفهية.

وله نشاط في تدعيم العلم وخدمة الدين بشراء مجموعات كبيرة من الكتب وتوزيعها على حسابه الخاص على مكتبات المدارس والجامعات وغيرها من المكتبات العامة الهامة، كل ذلك يحتسبه للّٰه.

وكان رحمه اللّٰه يشترك في الندوات التي تعقد في المساجد ومبنى التلفزيون، وكان له مشاركة في إذاعة القرآن الكريم من الرياض حيث يذاع له كل يوم من تفسير القرآن العظيم حلقة باسم «مع التفسير».

أخذ عنه العلم تلامذة كثيرون منهم في الكويت الشيخ أحمد بن غنام الرشيد، والشيخ راشد بن فرحان، ومنهم في المملكة الشيخ أحمد بن عبد العزيز الحصين، والشيخ سليمان بن حمد اليحيى، والشيخ سليمان بن محمد الشبانة وغيرهم. =

نقد من الكويت[1]

[١]

من المؤسف جدًّا أن يندفع أدباؤنا في التقليد الأعمى الذي هو وصمة عار في حكم الشرع والعقل، وأن يجاروا أصحاب الأقلام الرخيصة فيما يحبذونه من أعمال المغرضين، بل يجاروا الأقلام المؤممة التي تجري بما يخالف الوعي والضمير، وتدنس الحقائق بتغيير الأسماء؛ فتسمي بوادر النظم الشيوعية: «اشتراكية عربية»؛ لكسب عواطف البسطاء، وطلاء الفاسد بدهن براق لا يلبث أن يكشف ما تحته من مخازي العيوب عن قريب، فترى الأدباء يشاركون البسطاء في عواطفهم، ويسلمون عقولهم إلى أرباب تلك الأقلام الرخيصة الآنفة الذكر؛ ناسين أو غافلين أن اللّٰه حرم عليهم تعطيل عقولهم وانصياعهم لما يقذف به الغير انصياع الأنعام، وأن لكل بلاد ظروفها وملابساتها وطابعها الخاص.

ثم إنهم أيضًا ناسين أو مغفلين أن انجرافهم مع التيار تقليدًا لكل مغرض ومصبوغ هو إضاعة لما تتمتع به أمتهم من حرية الشريعة في سائر الأعمال والميادين، وانخراط في حبال أعداء اللّٰه وأعدائهم؛ يجرونهم حيث شاءوا، وخروج من رحمة اللّٰه وسماحة شريعته إلى تعسف طغاة البشر؛ اغترارًا بالأسماء البراقة! كأنهم لا يعلمون أن الأسماء لا تغير شيئًا من المعاني، أو لا يعلمون بما

= له من المؤلفات عدد غير قليل منها: «صفوة الآثار والمفاهيم»، «الأجوبة المفيدة»، «الجواهر البهية»، «الجواب المفيد»، «النفاق»، «التربية في الإسلام» وغيرها، وله ردود ومقالات في المجلات والصحف.

توفي رحمه اللّٰه في يوم الأحد ١٣٩٩/١١/١٦هـ وصلي عليه في المسجد الجامع الكبير بالرياض.

انظر ترجمته في «علماء نجد» (١٦٣/٣)، «المبتدأ والخبر» (٢١٨/٢).

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٠٠)- ١٣ / ٦ / ١٣٨١هـ.

يكتبه ويتفوه به أدعياء العروبة المحبوبين المحببين من تقديس طغاة الشيوعية وإجلالهم واحدًا بعد واحد ، وأن ما قام به بعض الولاة لا يعدو أن يكون بداية لنظم أولئك الطغاة كبداية الحروف الأبجدية!

ومن قرأ كتاب « ثورة وبناء » رأى بأم عينيه ما يحمله كتاب القوم من تعظيم أولئك الطغاة أعداء اللّٰه ودينه وعباده المؤمنين ، أمثال : كارل ماركس اليهودي ، انجلز ، ولينين اليهودي ، وستالين؛ الجزارين الجلّادين الذين أهلكوا ملايين المسلمين في سبيل نصرة مبدئهم ، ويزعمون أنهم أنصار السلام أعداء الاستعمار!! فهل عمل الاستعمار عُشر معشار ما عملوا؟! ومع ذلك يجرؤ عربي كبير ، أو (كبير في منصبه ، دخيل بعروبته) معرض عن تعاليم ملته بقوله : « إن العرب يحملون الإعجاب والولاء لأقطاب الشيوعية؛ للينين وستالين »!! .

فهل يتفوه بذلك عن رضا واقتناع وفرح بإعدام الملايين من المسلمين الذين دفنوا بعضهم وهم أحياء ، كما دلت على ذلك التقارير الرسمية؟! أم عن غير مبالاة بالمسلمين؛ لأنهم غير عرب ، وغير العرب لا يقام لهم وزنٌ عند أمثاله ، فلا يبالي بهم في أي وادٍ هلكوا ، أو لأنهم(١) مسلمون؟! كما لم يبالوا بالملايين التي أهلكها « نهرو »؛ إذ يلقبونه بلقب لا يجوز إلا للأنبياء والمرسلين؟!

فعلى الكاتب الأديب « القباع » أن يعرف قيمته الإنسانية التي اختارها اللّٰه له قبل كل شيء ، فلا ينصاع لما يقذف به أولئك ، وأن يعرف واجبه أمام اللّٰه ورسوله من حسن التصرف فيما أورثه من الكتاب ، والنصح للّٰه ورسوله ، وعدم التقديم بين يديهما في أي شيء ، وأن لا يغتر بالمظاهر وزخارف الأقاويل ، بل ينظر إلى الحقائق والنتائج السيئة التي اضطرت الشعوب المبتلاة بها إلى جعل الانتفاضة منها نصب عينيها متى سمحت لها الفرصة .

---

(١) في الأصل : « لو أنهم » .

وإني إذ أكتب ما أكتب لا أقصد تبرير الأديب أمير اللواء سعيد الكردي فيما يقوله على العموم، فإنما أبدي أسفي أولًا على اندفاعكم بغرور نحو مزاعم أناس حتى أقلامهم مؤممة، ولو انقلبت بهم الحال لنقضوا ما قالوا وسخروا بما عمل بهم!

كما إني أعجب من إقحامك الدين الإسلامي في أوضاعهم وهم لم يرفعوا به رأسًا، ولم يلتفتوا إلى أحكامه، بل تركوا الاتسام به حتى في دستورهم كأنه وصمة عار!! وعذرهم في ذلك أوهى من بيت العنكبوت، بل هو جبن وضعف نفس واتباع لخطوات الشيطان، وعدم تقدير للرحمن وتنكر لرسالته بدلًا من حملها والاقتداء بصاحبها.

فلا أرى منك أن يرخص قلمك وتستعمله باسم الإسلام في خدمة من لم يرفع به رأسًا، ولم يجعله حكمًا في ورد ولا صدر. والإسلام يجب أن يكون رأسًا ومصدرًا لكل شيء، لا أن يجعل على حد قول الشاعر:

مثل التليل يرى في مؤخر الكفل

عياذًا بالله من ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعَام: الآية ١١٤].

ولو أنهم حكموا بدين الله لطاردوا القمار والخمور أعظم من مطاردتهم للمخدرات، وقضوا على الربا بدلًا من أن يأكلوه ويوكلوه، وطهروا الأخلاق بغرس الفضيلة وتحريم اللهو والمجون، وسد الملاهي والمسارح بدلًا من تشجيعها وتعليم الرقص واختلاط الجنسين في المدارس.

أهذه تربية من يراد منهم الوقوف بوجه الصهيونية ودحرها؟! وهل إسباغ الألقاب ومنحها لكل ملحد وماجن وملحدة وفاجرة من نصرة دين الله في شيء؟! أو هي من معاني عروبتهم التي سيكونون بها مرفوعي الرؤوس من..!

وإلى ..! : ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٨] .

ثانيًا : زعمك التفريق بين الشيوعية والاشتراكية العربية؛ اغترارًا منك باسمها! فإن كانت الأسماء تغير المعاني ، وأن مجرد تسمية الشيء عربيًّا يكسبه القبول عندكم فتسمي الخمر عربية والدعارة عربية كما سميت الخليعات : فاتنات عربيات تقدميات .. وليقض بعض الشخصيات سهرته طيلة بعض ليالي رمضان المبارك كأنه متعبد في بيت من بيوت الله؟!

لقد أوضحنا لك أن الاشتراكية مشتقاة من الشيوعية ، وأنها كبداية الحروف ، ومنشؤها معروف ، وأن ما لا يعلن منها أكثر مما يعلن ، وأن الشعوب ستجني ثمارها المريرة؛ لأن انتزاع الشيء من صاحبه الذي ابتكره وأنفق عليه كسب يمينه وعرق جبينه وكان بموارده ومصادره خبيرًا ونشاطه فيه فوق كل نشاط ، سيجري منه رد الفعل بإيكاله إلى دعي للمعرفة وهو جاهل مركب ، ولا يستطيع أن يبذل معشار ما يبذله صاحبه ، فيجنون النقص في الإنتاج ، والهون في التصميم ، والرعونة في الإبداع ، كما جرى فعلًا ، وسيجري أضعافه .

ولكن من المصيبة قلب الحقائق وجعل الهزيمة انتصارًا والفاقة غنًى والبؤس نعيمًا والشقاوة سعادة والخسارة ربحًا ... إلخ . فأنى يبصر ذلك المصبوغون المقلدون؟

ثالثًا : تصديقك بأكذوبة المغرضين من أن اشتراكيتهم تؤمن بالفرد وتستهدف احترامه ، وتتيح له أن يكون مثريًا .. إلى آخر تمويههم .

فكيف يكون قولهم صحيحًا يلج في عقلك مع تقييده والتحجير عليه ، وإغلاق المشاعر دونه ، والاحتيال على تقليم أظافره ، واستلاب ثروته بكل وسيلة حتى في تبديل صورة النقد أو فئته ، وسيطرة(١) الحكومة على جميع مرافق

(١) تكررت : « وسيطرت » في الأصل.

الحياة؟ فكيف يصح له أن ينمو؟ وكيف تجود عزيمته أو قريحته بشيء؟!

يا أخي، ما قولهم إلا تهويش وتظليل ولعب على العواطف، وجناية على العقول! نعيذك باللَّه من أن تكون فريسة لهم أو صنيعة.

إنها جناية على الفطرة التي فطر اللَّه الخلق عليها، والتي يؤيدها استقراء أحوال الناس في كل بلد ينعم فيه بنعمة الله؛ إذ كم من فقير أصبح في برهة يسيرة غنيًا، وكم من عامل أصبح تاجرًا أو صاحب معمل كامل.

أما عملهم هذا فإنه يجعل العامل عاملًا حتى الموت، ويحجر على الغني الموارد، ويسد عليه النوافذ، ويقتص ثروته من أطرافها حتى يفقره؛ فيكون من العجزة، إذ لا يقدر على العمل.

وقد أثبتت التجارب- من أقدم العصور إلى أحدثها- أن أصحاب الثروات الانقلابية بلا أساس ديني لا يمكنهم أن يصيبوا الهدف الأسمى ويحققوا العدالة بالقسطاس المستقيم؛ لأنهم إما أن يكونوا قد نشأوا في الطبقات البائسة وصاروا منتصرين لها، وعلى كلا الأمرين ينظرون بحكم أحوالهم إلى جميع المسائل والمشاكل نظرة المنكوبين، فيفقدون العدالة؛ لأنهم يعطفون على طبقة ويوالونها، ويرمقون الطبقة الأخرى بعين الغضب والازدراء ويعادونها! فيكون إنصافهم لطبقة على حساب طبقة، وكسبهم مودتها يفقدهم مودة الأخرى، وكلما تفكروا في علاج حاسم لإصلاح المجتمع ورفع العسف والجور جاءوا بداءٍ أشدَّ من ذلك العلاج جورًا وعسفًا.

فلا يمكن تطهير القلوب وتزكية النفوس من أمراض الحقد والعداء والانتقام إلا بسلوك ما رسمه اللَّه على لسان رسوله ﷺ من حرية العمل والاكتساب، ومساعدة المستحق من بيت المال، لا على حساب الآخرين، فطرائق الرسول وورثته الصادقين المخلصين لا يشوبها شيء من العواطف الشخصية ونوازع

القلوب، مهما اضطهدوا في رسالتهم وأوذوا في سبيل اللَّه، بخلاف أصحاب الثورات الانقلابية الأخرى الذين لا يحكمون بدين اللَّه، ولا تعمر ضمائرهم بالتقوى الصحيحة، وصدق اللَّه، ومن أصدق من اللَّه قيلًا؛ إذ يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس: الآية ٣٢]. فلم يجعل بينهما طرفًا ثالثًا، بل حصر الضلال حصرًا في جميع ما خالف تنزيله.



نقد من الكويت[1]

[٢]

رابعًا : استدلالك أيها « القباع » بغير تبصر في قانون : « من أين لك هذا؟ » مريد له أن يكون على العموم في كل شيء! مع أن هذا القانون لم يطبق في بلاد الاشتراكية العربية المزعومة على عمومه كما سنوضحه

يا أخي؛ إن هذا القانون مخصوص فيمن ولي شيئا من أمور الدولة ، وقد سنه الخليفة الثاني؛ استنادًا إلى قصة الأزدي مع الرسول ﷺ فهل تريد تعميم هذا على التاجر والمتسبب الساعي لجلب الأموال من كل مصدر؛ اندفاعًا وتقليدًا منك للمغرضين الأفاكين الذين يصمونهم بالاستغلال !

كيف تقبل إفكهم وربك العزيز ذم في كتابه الـ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ [المَائدة: الآية ٤١] الـ ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٤١]؟

كيف عزب عن بالك أن التاجر والمتسبب ينتفع منه الألوف أو مئات الألوف حسب نشاطه؛ لأنه باستيراده الأموال تنتفع منه المصانع بجميع ما فيها ، وينتفع منه العمال في ميناء التحميل وميناء التنزيل ، وتنتفع منه السفن والقوارب هنا وهناك ، ومصالح الأرصفة ، وأصحاب المخازن في كل مكان ، والعمال حملة الأموال في تنقلها وجميع وسائط النقل ، ثم ينتفع منه سائر الباعة القاعدين والمتجولين ، وأصحاب الحرف الأخرى من طاحن وخابز وخياط وصانع وما إلى ذلك .

هذا التاجر الممدوح على لسان محمد ﷺ ولسان كل كريم ، والموصوف بأنه مرزوق ، وأنه كالمهدى إلينا ، يصفه اللؤماء أصحاب الغل والحسد والأغراض الدنيئة بأنه مستغل! ثم يجيء من تغلب عليه سلامة الصدور كأمثال

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٠١)- ١٣٨١/٦/٢٠هـ.

هذا الكاتب فيقلد أولئك دون تصويب النظر إلى المعقول والمحسوس! فهلا نظرت أيها الكاتب في أسعار بلادك- كثيرة الرسوم- وقارنتها مع غيرها من البلاد التي تتعشق نظمها؛ لتعرف الرخص الناتج من تشجيع التجار بدلًا من الضغط عليهم، وتدرك فضل اللَّه في الحرية التي تريد انتزاعها!

باللَّه عليك هذا الرخص الذي تتمتع به المملكة بين سائر البلاد، من هو المنتفع به؟ أهو فقيرها، أو فقراء غيرها؟

وهل الذي لا يربح في أكثر ما يجلبه أكثر من ٤٪ أربعة بالمائة، أو خمسة، يوصف بالاستغلال؟ وهذا الربح الذي قلَّ أن يحصله بسبب المنافسة تدفعه الدول فيما بينها ربحًا على القروض، وكلما ازدادت التجارة حرية وتشجيعًا كثر التزاحم والتنافس على التوريد والتصنيع، مما يجعل بعض الأموال يباع بخسارة، أو بربح زهيد، فتتوفر المنفعة للفقير: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٥٠].

ولو علمت- أو ذكرت- ما تمتعت به بلادك أثناء الحرب الماضية من رخاء وسعادة؛ ضد ما قاسته البلاد الأخرى من بؤس ومسغبة بسبب القيود والتحجير، لما جرى قلمك بما جرى به إن كنت حرًا منصفًا.

خامسًا: استدلالك المبهم بالأثر المطلق الذي قيده الشرع وأبان تخصيصه، وهو أن الناس شركاء في الماء، والنار، والكلأ. وهذا مخصوص بالآثار بما ليس بمملوك، وحكم رسول اللَّه ﷺ للزبير على الأنصاري في حبس الماء مشهور[١] لا يمكن دفعه. أما الكلأ الذي تنبته السماء فلا يجوز لأحد تحجيره وحماه، سوى ما يضطر الإمام منه لدواب الجهاد.

(١) في الأصل: «مشهو». والحديث أخرجه البخاري (٢٣٥٩، ٢٣٦٠)، ومسلم (٢٣٥٧) من حديث عبد اللَّه بن الزبير رضي اللَّه عنه.

وإذا قرر الشارع شركة في مباح لم يسبق إليه مستحق فليس معناه تعميم الاشتراكية والتأميم في سائر المملوكات، وإلا فما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٨]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٢٩]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المَائدة: الآية ١]. وقوله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس» فقيل له: وإن كان شيئا يسيرا؟ فقال ﷺ: «وإن كان قضيبًا من أراك»(١). وقوله ﷺ: «من اغتصب شبرًا من الأرض، طوقه من سبع أرضين»(٢). وقوله: «لعن اللّه من غير منار الأرض»(٣). أي: حدودها ليختلس منها. فكيف بالمنتزع لها قهرًا عن عمد وعدوان؟.

وفي الصحاح والمسانيد أحاديث كثيرة حاملة لغضب اللّه ولعنته بشتى الأنواع والأساليب والتأميم الذي يصادم هذه النصوص ويناقضها، لا يجوز.

وما لا يناقضها تتبع فيه المصلحة طردًا وعكسًا، بحيث لا ينشأ منها، أو يترتب عليها مفسدة، فإن درء المفاسد في حكم الشرع أولى من جلب المصالح، والضرر لا يزول بضرر آخر، كما هو منصوص.

وقد قرر الأصوليون بأن التمسك بالمظاهر والمجملات والعموميات مع إطراح النصوص التي تؤولها أو تبينها أو تخصصها زيغ وضلال، يكون صاحبه خابطًا في عمياء لا يهتدي إلى الصواب فيها.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٧) من حديث أبي أمامة رضي اللّه عنه، بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٠، ١٦١٢) من حديث عائشة وسعيد بن زيد رضي اللّه عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي رضي اللّه عنه.

فحذار- أيها الكاتب اللبيب- من استغلال المبهم من النصوص؛ انتصارًا لمذهب أو محبوب، وعليك أن تتساءل في نفسك عما يسمى بـ« الاشتراكية العربية » التي تؤيدها، هل هي حرمت الربا بتاتًا، بحيث لا تأكله ولا توكله؟ وهل هي قضت على الرشوة والتلاعب بالمقدرات؟ وهل طبقت قانون « من أين لك هذا؟ » على كل من وكل إليه شيء؟! بل انظر نظرة عامة إلى جميع الاشتراكية العالمية، هل حاسبت الموكول إليهم شراء الضمائر لما أخفقوا؟ هل أخفقوا لأنهم دفعوا الجمع الكبير، أو لأنهم دفعوا البعض وابتلعوا الآخر؟ وكيف يحصل تطبيق هذا القانون بين الدول العصرية التي تخصص المبالغ الضخمة لمكاتب الدعاية والتحري، وحبك المؤامرات والتخريب؟

كلا لا يحصل تطبيق هذا القانون إلا في محيط نقي معمور بالتقوى، كمحيط أبي بكر وعمر.

ثم عليك أن تتساءل عن زكوات ما تنتجه الأراضي في البلاد المقصودة من قمح وشعير وذرة وفول وعسل وقطن وسائر الثمار مما زكاته العشر؛ لأنه يسقى من الأنهار بلا كلفة: كيف لم تدفع للفقير دفعًا صحيحًا كي يرتفع عنه البؤس؛ لأنها عشرة في المائة ١٠٪، يتكون منها مبلغ عظيم كاف لإعانته. فإننا نرى الدول التي تتبجح بالاشتراكية تأخذ الضرائب المتفاوتة على الأراضي الزراعية دون أن تدفع للفقير منها شيئًا، فأين هم وما يدعون؟! ثم أين المحاسبة في الزكاة على المكتنزين الذين لا تخفى ثروتهم على الدول بسبب البنوك، وبسبب كون النقد أوراقًا مرقمة؟

يا أخي؛ إن ما يقاسيه بعض المحيط العربي من السوء هو من إضاعة أركان الدين، والتعويل على أحكام الكفر، وإضاعة الشريعة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: الآية ١٨].

ولا يجوز لك- يا أخي- أن تنسى ما ذكره التاريخ من الأوقاف التي لم يجد فيها المتصدق من يقبل صدقته.

أما ما زعمت من مظهر بؤس مطبق على أجزاء كبيرة من الوطن العربي؛ طالبًا من ولاة الأمور أن يتيحوا التنفس لطبقاته!

فزعمك هذا فيه من المغالاة ما الله به عليم؛ لأن البؤس الصحيح لا يوجد في غير ما ذكرناه ممن أضاعوا الشريعة، واضطرهم الواقع أن يدفعوا حتى للعربي الداخل لبلادهم بطاقة مكتوب فيها: «لا يجوز له العمل بأجر ولا بغير أجر». أما بلادك فإنها تعيش عشرات الآلاف الكثيرة من أبناء سوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن، ومصر، والسودان، والصومال، واليمن، وحضرموت، وعمان، وغيرهم من لاجئي البلاد الشيوعية وجزر الهند الشرقية، ولا يوجد أحد منكم عالة على غيره في الخارج.

وأحيطك علمًا بأن التكلم عن البؤس والتظلم من الأوضاع هو خطة عملاء الشيوعية في البلاد المتدينة، وقد دبت إليك هذه الأفكار، وانشرح لها صدرك من حيث لا تشعر! فالحذار الحذار من أن يكسبوك ويخسرك الذي رباك بالعلم وأنشأك على الفضيلة.

أما احتياجات الشعب المسلم فتتلخص في أمور:

منها: تشغيل المحتاج.

ومنها: الضرب بيد حديدية على الربا، والقضاء عليها.

ومنها: تعقب مكتنزي الأموال، ومحاسبتهم على زكاتها عشرات السنين؛ ليضطروا إلى تشغيلها، فينشط العمل وتزداد الحركة، ويؤخذ منهم الحق بطريقة عادلة.

❁❁❁

نقد من الكويت(١)

[٣]

ولا يصعب التعقيب على حكومات هذا الوقت .

ومنها : تشجيع التجارة والصناعة بإعداد القرض الحسن ، وتهيئة البنوك لسائر أنواع الشركة والعقود الشرعية .

ومنها : تنشيط الزراعة بتعبيد الطرق فيما بين المدن والحقول ليسهل توزيع الإنتاج ، وبذل المساعدة في حمل بعض المحصولات مجانًا من الحكومة ، لا سيما النوع الذي ينخفض سعره ، ومنع استيراد ما يزاحم المنتوجات المحلية ، وشراء بعض المحصولات التي يخسر بها المزارع بزيادة نافعة مشجعة ، وتشجيع أصحاب الدواجن بما يقتضيه الأمر ، والعمل على إنماء الثروة الحيوانية بدون تراخ في تطويرها أو علاجها ، ومنع ذبح الأنثى من الحيوان بتاتًا حتى لو لم تكن حبلى ، وتهيئة وسائل الري والحرث للبادية .

ومنها : صيانة الثروة الوطنية بحظر البذخ والمشروبات التي تنفق فيها الأموال الطائلة من ثروة الشعب وعرقه ، كالدخان ، والكوكاكولا ، والبيبسي ، وما يضاهيه من سائر المشروبات التي يبتز أهلها الأجانب ثروة الشعب وعرق الكادحين . وكذا منع المعتصرات الخارجية ليحصل التشجيع على اعتصار الفواكه الوطنية .

فبذلك يحصل تكاتف القوى واستغلال الفرص وحسن الاقتصاد .

وحبذا لو تساءلت مع إخوانك- إن سمحت لكم أدمغتكم- عن الأموال العظيمة التي تصرف في الأعياد الرسمية والمراسيم الشكلية المتكررة في أكثر

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٠٢) في ١٣٨١/٦/٢٧هـ.

الشهور لدى بعض الدول ، والتي يحصل بها من التلاعب في كل منطقة ما اللَّه به عليم ، مع ما ينفق أيضًا في الهياكل والتماثيل وتشييد أضرحة المحبوبين ، مما لو صرف في المشاريع النافعة لارتفع مستوى الشعوب ارتفاعًا محسوسًا ، وما لو عمله غيرهم لصاحوا عليه ، وسخروا الأقلام للحمل عليه .

فنرجو منك حسن النظر وأن لا تكون إمعة ، ونحن في غنى عن شحذ التقاليد والنظم الأجنبية . ويجب أن نرجع إلى ديننا الغني الهادي ، ونجني من قطوفه الدانية التي أورثها لنا فقهاؤنا الأبرار ، والتي لو طبقنا العمل بها لكنا أسوة صالحة ومثالًا يحتذى .

أما ختامك مقالتك المعنونة بـ « المفهوم الحقيقي للنقد » أنك « ترحب بالنقد البناء الهادف ، وتستنكر الآراء التي تعرف ماذا تعني؟ وماذا تخفي وراء سطورها؟ » .

فلا يغب عن بالك أن غيرك يقول في كلامك مثل ما تقوله عن كلام النقاد ، لا سيما المؤمنون باللَّه المحتكمون إلى تنزيله ، فاحذر أن ترمي الناس بالحجارة .

أما ما رميتهم به من زعم عرقلة سير الأمة وتشويه أراء الشباب! فاعلم أن الأمة- وإن سارت في التيه والضلال- فسيعرقل سيرها ما رسمه كل طاغوت وصفه اللَّه بأنه ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٧] لا النقاد الذين عرضت بهم .

أما الشباب ، فإذا لم يكن من شباب محمد ﷺ مستنيرًا بسنته متفانيًا في حمل دعوته ، فسيبتلى بما ابتلي به غيره من خدمة كل مغرضٍ ودجالٍ ، وتقديس كل شخص يلعب بعواطفهم ، ويقذف به ذات اليمين وذات الشمال . فماذا بعد الحق إلا الضلال .

واعلم أن كل بناء لا يؤسس على تقوى من اللَّه ورضوان ، فهو الذي على شفا

جرف هار ، تذوقت منه الأمم الأمرين ، وعجت إذاعاتهم وصحفهم بالخلافات والحروب الباردة التي ستنقلب إلى جحيم مستعر

أما قولك بأنك تكرر المائة بعد المليون مرة بأن أي تشريع متنافي في قواعده وأصوله مع أوضاعنا الإسلامية فهو بلا شك باطل بل مرفوض من الأساس .

فلنا معك عليه جواب خاص سنوافيك به إن شاء اللّٰه .. فإلى اللقاء .. والسلام .



نقد من الكويت[١]

[٤]

أكل هذا انضباع أيها الأديب القباع؟!

لقد تكلمنا- فيما مضى- ردًّا على فرية ما يسمى بـ : « الاشتراكية العربية » التي ما هي إلا زبالة شيوعية افتمَّها « تيتو » وقلده في افتمامها بعضُ من ابتلاه اللَّه بمركب نقص واستعباد فكري ، فاستهوته الشياطين ، كما هي سننه في خلقه جل وعلا؛ إذ نص على ذلك بقوله : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٣٦، ٣٧] ، وقوله تعالى : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٥]

فكل من عشيت عيناه عن هدي اللَّه وإقامة حدوده فيما شرع قيض اللَّه له قرناء من شياطين الجن والإنس ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٥] .

ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوا ما رسمه خدينهم اليهودي « كارل ماركس » .

فيا لها من عروبة يتبجحون بها صباح مساء! تاللَّه إن العروبة التي تترسم خطا اليهود كـ : داروين ، وفرويد ، وكارل ماركس ، وتعرض عن هدي نبيها ، إنها عروبة كاذبة خاطئة .

ولقد كتب غيرنا في رد هذه الفرية بأوسع مما كتبنا وأكمل ، وبينوا بالأدلة أن هذه الاشتراكية النينوية المصبوغة باسم العروبة إفكًا وتضليلًا هي أخطر على الفرد من الشيوعية النهائية الكاملة؛ لأنها تستهدف ضرره دون أن توليه أي رعاية ، وأنها

(١) صحيفة القصيم- العدد(١١٠)- السنة الثالثة- ١٣٨١هـ .

هي الاستغلال بعينه، والتسلط الفاتك؛ إذ تنحصر بسببها جميع موارد الثروة والأعمال بيد السلطات العليا التي لا تسأل عما تفعل.

وإني لا أعلق على كلام أناس هم أدرى مني بأساليب الشيوعية اللينينية والاشتراكية الماركسية، وما فيهما من كفر وإلحاد وظلم وفساد. ولكني أحب تنبيه الأديب «القباع» والقراء الكرام إلى شيئين:

أحدهما: أن ادعاء المتسلطين على تنفيذ تلك الاشتراكية وأنصارهم من المضبوعين بأن اشتراكيتهم تحترم ملكية الفرد وتستهدف مصالحه، ما هو إلا إفك صُراح يكذبه ويهدمه نفس قانونهم الذي أصدروه على الملكية الفردية من الضريبة التصاعدية. وهذه طريقة معلمهم وطاغوتهم الكبير «كارل ماركس» اليهودي المقدس في كتاب «العربي العريب، ثورة وبناء» حيث نص ذلك اليهودي في مبادئ تطبيق الاشتراكية على وجوب إفناء الملكية الفردية بالضريبة التصاعدية؛ لتصل الحكومة بها إلى إلغاء «الحياة إلى المفصلة»، هكذا قاله نابش الشيوعية «كارل ماركس» في صحيفة (٢٦) من كتابه الذي سماه بـ«المسألة اليهودية» طبع دار الكشاف في بيروت.

ونفس هذه الطريقة التي أوجبها اليهودي فيما رسمه لصالح اليهود، قد أعلنوها في مصر من جملة تطبيقهم لنظمهم الاشتراكية!

فكيف يخدع «القباع» ويغش قرَّاءه في البند الأول من مناقشته مع اللواء سعيد الكردي؟ زاعمًا مخالفة اشتراكيته للاشتراكية الشيوعية، وهي مستقاة من إناء واحد، بل على الأصح من بلوط يهودي واحد، والبرامج السارية لتطبيقها تكذبه فيما يقول، فما قوله- الاشتراكية «التي سميت له عربية» بأنها تؤمن بملكية الفرد وتستهدف احترامه وتتيح له ما يتناسب مع مجهوده من الإثراء... إلخ- إلا تقليدًا لمزاعم المغررين في صحفهم دون التفات إلى الحقيقة المرة

المنصوص على تطبيقها من الضريبة التصاعدية الماحقة، ومن معاني القيود التي تشل حركته، وتعطل طاقاته، وتسد عليه المنافذ والمشارع.

مرحى .. مرحى لهذا الإيمان بحريته وإتاحة الفرصة لإثرائه المعقول!.

ما هذا إلا مشاقة لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزّخرف: الآية ٣٢]

يا للغش والمكر!! كيف يستحسن التحجير على حرية الاكتساب والتملك والتصنيع وتصادر الأموال من أهلها، وتوضع عليهم الضرائب التصاعدية؟ تمشيًا مع خطة اليهودي الآنف الذكر! فهل هذه الضرائب، على ربحه الضئيل، الذي لا يحصله إلا من وسخ الحكومة، أو على رأس ماله وما يملك؟

وهل الضرائب الفادحة التصاعدية على تركة الميت تبقي ثروة لليتامى والأرامل؟ يا للعقول وزيغة الأذهان!!

تريد أيها القباع من أمير اللواء الكردي أن يفتح قلبه لهذا النور الذي جاءكم به اليهودي؟! وأن لا يصر على الخطأ فيرفضه؟! عجيب هذا الاندفاع!

حرام عليكم- معشر الأمة عمومًا والشباب خصوصًا- تسليم عقولكم إلى من يلعب بعواطفكم ويتاجر بها. إن اللَّه أوجب عليكم أن تزنوا جميع ما يرد عليكم من الأقوال والقوانين بميزان النقل والعقل الصريح الخالي من العواطف، والخالص من شبهات الأوهام، وأن تزنوها أيضًا بأعمال صاحبها، وتربطوا بعضها ببعض من ناحية القول والعمل.

ومن هنا يتجه ثاني الشيئين؛ وهو: أن ما طبل له أدعياء الاشتراكية وزمروا من الإصلاح الزراعي، قد اعترفوا بأنه تجربة لمَّا حالفهم الفشل! وأخذ بعض المسؤولين يصرح بأن أعمال التأميم الأخيرة هي تجربة أيضًا؛ وذلك لتبرير القفزة

الثانية إلى الشيوعية الكاملة ، أو أفظع منها!!

وها هي أحوال الفلاحين المؤسفة كشفت لنا أمرًا فظيعًا ، وهو أنهم كلفوا الفلاح المعدم الذي يحصل على بضع من الأفدنة بأجرة لتلك الأرض يصعب على الفلاح دفعها ، فقد أعلن خبر الحجز على ١٢٠٠ عائلة موزع عليهم ٦٠٠٠ فدان ، لكل عائلة خمسة أفدنة ، لما عجزت عن دفع الأجرة المفروضة ، فاتهمتهم بالتبديد! اللَّه أكبر!! تبديد الخيرات والكنوز العظيمة!! ثم أعلنت الصحف نبأ تأجيل الحجز إلى ستة شهور!!

وهذه منة عظيمة تتبجح بها « الأهرام » بتاريخ ٤ /٦١/١٢م؛ زاعمة أن هذا التأجيل ينتفع منه ١٢٠٠ عائلة بكفر البطيخ .

ويأبى اللَّه إلا أن يظهر كل شيء ويكشفه على حقيقته ، فهل فرض الأجرة على مثل هذه العائلات البائسة يعد من التكافل الاجتماعي والاشتراكية المحمودة التي يعتبرونها لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؟! وهل يجوز في تشريع صحيح أو معقول صريح فرض أجرة مضاعفة مضمونة الحصول على فلاح يتعرض حرثه للنقص والآفات ، حتى إذا عجز عن التسديد اتهموه بالتبديد ، فحجزوا عليه وروعوه وفجعوا أهله وأحبابه ، وأشمتوا به أعدائه؟!

أهذا مبلغهم من الاشتراكية الماركسية التي يسعون لتركيزها ، ويهاجمون كل من يبتعد عنها مؤثرًا شريعة رب العالمين؟!

إن الفلاح لا يتحمل أكثر مما فرضه اللَّه لمصلحته ومصلحة أمته من الزكاة التي لا يستقر حتم وجوبها عليه حتى يكدس إنتاج ثمرته في البيدر أو المصطاح أو الجرين ، أي : بعدما يتحقق وجودها سالمة من النقص خالصة من الشوائب ، فهنالك يؤخذ منها العشر فيما سقي بلا كلفة كالأنهار ، أو نصفه فيما سقي بكلفة كآبار ، أو ثلاثة أرباع العشر فيما بين ذلك .

وترد هذه الزكاة لفقراء منطقته، وذلك بعدما يترك له الربع أو الثلث، بحيث لا يكمل منه النصاب عند قصوره إن كان آكلًا له.

هذه هي رحمة الشرع التي يتمتع بها الفلاح في البلاد العربية المحكومة بشرع اللَّه، والتي يريد «القباع» من حكامه أن يتيحوا لغليانه أن يتنفس ويعبر عن تفاعلاته الممثلة في مظهر البؤس المطبق! مرحى لهذه الأدمغة.. مرحى لهذا التقليد!

كأنك أيها «القباع» تكتب ما كتبت لغير أبناء هذا القرن الذين يشاهدون الأزمة عند الفلاح في العمال، بحيث يتعطل زرعه أو بعله مدة طويلة لا يجد من يحصده ويذروه ويدرسه، وقد يضطر حينًا إلى إعطاء النصف لمن يحصده ويصفيه، وذلك قبل أن تتوفر آلات الحراثة الحديثة، فأين البؤساء من ذلك؟

ليست شعري، ما الذي يستخفي وراء هذه الأساليب الغامضة الرنانة؟ ولمصلحة من يسعى لتشويه آراء الشباب؟

يا أخي، إن البؤس المطبق يتمثل في البلاد التي ذكرنا لك طرفًا من مآل إصلاحها الزراعي، والتي يتأوه بها ٢٦٢٢ مدرس وناظر لقرار فصلهم في شهر مايو القادم، وراتبهم ثلاث جنيهات في الشهر، يخصم منها أجرة الأتوبيس، فلا يبقى لهم في اليوم أكثر من ستة قروش أو سبعة، وهم حاصلون على المؤهلات التربوية والشهادات الكافية! وفصلهم هو بمناسبة إغلاق ٤٣٧ مدرسة أهلية خيرية لم تخضع- طبعًا- للتوجيه الحكومي.

وهذا العدد الضخم البائس من الطبقة الراقية قد تكلم عن مصيره محمد التابعي بتاريخ ٢٣ جمادى الأول ٢ نوفمبر ٦١م بجريدة «الأخبار»!

فهذا البؤس في البلاد التي تتعشق نظمها أيها «القباع» وحكومتها تنفق- حسب تقريرها- ٤٢ بالمائة من أصل الميزانية لأمن الدولة، يخصم منه ١٤

للأمن والتسلح .. فالباقي لمن؟! وفيما سوى ذلك يصرف في عشرات الأعياد والتماثيل مئات الملايين، ومعظم الصحف اللبنانية أثرت على حسابهم! والشعب يتقلب من بؤس إلى بؤس!!

فهلَّا سلكت أيها الأديب طريق العقل فصبرت عشر سنين لنرى ما يؤول إليه أمر هذه الاشتراكية المزعومة ، ثم تحكم لها أو عليها ، وتدعو إليها أو إلى نبذها؟

أسفًا على شباب خرجوا من عبودية اللّٰه إلى عبادة الأشخاص بتعلقهم بهم في حل المشاكل ، وتقبل ما يصدر منهم دون تعقل؛ إما لحاجة في صدورهم أو عمًى في بصيرتهم أو كلا الأمرين .

أسفًا على أبناء رجال التوحيد الذين تعاونوا مع حكامهم على تكوين وحدة حقيقية بين بضع شعوب من العرب ، فتألفت بعد التنافر ، وتوحدت بعد الفرقة المشينة ، وشبعت بعد الجوع ، وأمنت بعد الخوف ، دون إظهار ضجة أو منة على سائر العرب بهذه الوحدة .

كيف لا نأسف إذا رأينا من أبناء هؤلاء من يطغى قلمه ويتطرف لما فيه الخطر على وحدته وكيانه؟ .. كيانه الذي قبل الجهود الدينية التي بذلها إمامُ الدعوة لم يكن شيئًا مرموقًا؛ بحيث إذا فتش في الخارطات الدولية قبل ثلاثة قرون لم يجد لبلاده رسمًا! فلما برزت الآن أحسن بروز وأينعت ثمرتها أخذ يعمل من غير شعور لصالح كل مغرض ، يريد ابتلاعها ممن عمل على تكوينها؛ اغترارًا بالوصمات الفاجرة والدعايات الصادرة ممن شقيت بهم شعوبهم أعظم شقاء ، بحيث لو حصل لهم التنفس والخلاص لجاشت صدورهم ، وزفرت بما تشتكي منه الآذان .

وعجيب أمر هؤلاء! كيف عموا وصموا عن عواقب حوادث ١٤ تموز التي ندم غالب أهلها على استجابتهم للصيحات المغررة؛ لما جرى فيها من الفجائع

الدموية والقطيعة الأخوية ، والنكصة بالعرب إلى ما لا يعلم مداه إلا الله؟! أين عقولهم من الاعتبار؟ . فالسعيد من وعظ بغيره .. أم يعتبرون ما جرى نصرًا ، كما صوره العدو الذي هو في ثوب صديق؟! .. وإلى اللقاء فيما وعدناك به أيها الأديب « القباع » .



نقد من الكويت(١)

[٥]

يؤسفني أيها الأديب « القباع » أن كثيرًا ممن غلبت عاطفتهم العربيةُ الاسميةُ على عقيدتهم الدينيةِ لضعفها استمرأوا المضغ بالباطل ، وأخذوا يلوكون ما نعقت به طغاة الشيوعية منذ مدة طويلة؛ تخبيطًا للأذهان وتلبيسًا على عميان البصائر ممن أعماهم انصياعهم لحكم الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به ، فأخرجهم من نور هداية اللَّه إلى ظلمات بعضها فوق بعض ، كما هي عادة الطواغيت يخرجون كل من قلدهم من نور هداية اللَّه إلى ما خلق فيه من ظلمة الطبع ، وظلمة الجهل بالوحي ، وظلمة الهوى ، ويصدونهم عن الدخول في أي منفذ من منافذ نور الهداية بحجة الرجعية والتبعية والتخلف! ويوهمونهم بأنهم الركب المتحرر السائر لصالح الحياة! وهم يوقعونهم في ظلمات تميتهم موتًا معنويًا أفظع من الموت الحسي ، ويخرجونهم من تبعية اللَّه ورسوله إلى تبعية شياطين الإنس من كل يهودي وزنديق .

وقد أخبرنا اللَّه عن كتابه العزيز أنه ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيًّا .

والقلب الحي هو الذي عقل عن اللَّه واستعذب تنزيله ، فأذعن له وانقاد بتوحيده وتحقيق متابعته ، والإعراض عما سواه ، فلم يأله أحدًا باتباع تشريعات فيجعله ندًّا من دون اللَّه .

والقلب الميت المظلم هو الذي لم يعقل عن اللَّه وحيه ، ولا انقاد لحكمه ورسوله ، بل يتأله ما يهواه قلبه من محبوب يتعلق به لكثرة مدحه ودعاويه ، فينقاد لأوامره ويجعله ندًّا من دون اللَّه ، بل يعامله معاملة لا يحظى بها منه رب

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١١٥) في ١٣٨١/١٠/٨هـ.

العالمين، ويلهج بذكره ما لا يلهج بذكر الله، كما هو الشاهد من حال من تربى على عبادة الأشخاص ومبادئهم فانصبغ بصبغة الوطنية الأوربية الكافرة.

فهذا الجنس من الناس وصفهم الله بأنهم ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النّحل: الآية ٢١]، وأنهم في ظلمات لا يخرجون منها، فالظلمة مستولية عليهم من جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة ترى الحق باطلًا والباطل حقًّا، والرشد غيًّا والفساد صلاحًا، وأعمالهم مظلمة يتقلبون بها من سوءٍ إلى أسوأ، وأقوالهم مظلمة يكتنفها التعقيد والتلبيس، كمقالات صاحبنا وأضرابه، هداهم الله. وأحوالهم كلها مظلمة، وتنتقل من ظلمة إلى ظلمة أشد وأخطر، كما تراها أيها القارئ الكريم.

فالمجتمع الدولي والعربي اليوم يتخبط في فتنة عمياء، وحرب باردة ستنقلب إلى جحيم مستعر، وكلما أحدثوا ثورة أو فتنة انقلبت عليهم سوءًا وفضيحة، وخسر بها معهم كل ما انقاد لدعايتهم، ولكنهم مع ذلك يغالطون ويلجون في الخصومة، ويصفون الهزيمة نصرًا والظلمة الحالكة نورًا، كما وصفوا عصر الكفر والظلم والإلحاد والفسق والفجور بأنه عصر النور، كأنهم عصر عمر بن الخطاب أو هارون الرشيد!! فقلوبهم معكوسة ممسوخة، يرون الشيء على خلاف حقيقته، فيسمون العهارة والخلاعة تقدمًا وحضارة ورقيًا ومدنية! ويسمون ما يستوردونه من مبادئ اليهود والملاحدة تطورًا وتقاليد وطنية اشتراكية عربية! وما إلى ذلك. فينتصر لهم المضبوعون الذين عميت بصيرتهم بإعراضهم عن الله، أو من غلبت عليهم سلامة صدره كالقباع! فيقولون: إن هذا لا يخالف الإسلام!! كأنهم التفتوا إلى الإسلام في يوم من الأيام، اللهم إلا للمجادلة: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزّخرف: الآية ٥٨].

فهم يتمسحون به عند الحاجة؛ خداعًا للسواد الأعظم من المجاورين الذين يريدونهم أن يرتموا في جحيمهم، وبعد انتهاء حاجتهم يرفسون الإسلام ويصبون

جام غضبهم عليه ، بل في نفس الوقت : هل رضوا بالإسلام دينًا للدولة وعملوا بشرائعه وقبلوه ككل لا يتجزأ؟ أو لم يعولوا عليه إلا لتغطيته باطلهم؟ وكأنهم نسوا ما صرحوا به من قريب ومن بعيد من تقديس اليهود طغاة الشيوعية « كارل ماركس ، انجلز ولينين وستالين »

والنداء الصريح المتكرر بقبول مذاهبهم وإعلان عدالتها ، وأن ثورتهم العربية تترسم خطى أولئك! كأن اللّٰه ترك عروبتهم صفر اليدين من كل هدى وعدالة! والعجيب أنهم لم يلجئوا إلى إلصاق باطلهم بالإسلام إلا بعد اندحارهم في سوريا! ولعل القراء الكرام يذكرون أنهم في أول إعلانهم تطبيقها في ٢٣ يوليو منعهم كبرياؤهم من اللجوء إلى الإسلام والتعويل عليه فيها ، واقتصروا على صب جام غضبهم على الدين وأهله ، ووصفوهم بكل نقيصة ، فلما أذاقهم اللّٰه الهزيمة ببعض ما عملوا رجعوا إلى من تحت حوافر الحصان وسنابك الخيل من العلماء؛ ليموهوا على الناس بما يصدره بعضهم تحت تأثير الخوف من الفتاوى التي تستحق إبدال تائها بـ « سين »؛ لأن الفتوى الصادرة تحت تأثير خوف أو غاية؛ من المناسب إبدال « تائها » ، وإلا فكيف يفتي قوم يعتبرون الإسلام عدوًا لهم وعيبًا يكتنف قوميتهم ، كما صرحت به أكبر جريدة[1] قومية معتمدة بتاريخ ٦١/٢/١٠.

ولو أنهم يريدون الإفتاء بالحق والرجوع إلى الإسلام لوجهوا السؤال إلى عموم العلماء الذين خارج سلطتهم ويستطيعون الكلام بحرية ، لا سيما موسم الحج الذي يحضره علماء كثيرون من سائر أنحاء الأرض؛ لينظروا إلى إجماعهم في هذه المسألة الخطيرة

أما مصدر الفتاوى المشار إليها ، فلو سألناهم : كيف يفتون لقوم رفضوا كتاب اللّٰه حتى في المسائل الاجتماعية التي لا تمت إلى السياسة بصلة؟ ماذا

(١) في الأصل : « جريمة ».

يكون جوابهم؟

ولو قلنا: إن سورة «النور» التي ابتدأها الله بقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النُّور: الآية ١]. وقد أفتيتم لمن أعلن رفضها عمليًا- والفعل أقوى من القول- وهزأوا بمن يحتج بها شفاهيًا وكتابيًّا بصحافتهم الفاجرة وقوانينهم الكافرة، فجمعوا في رفضها بين القول والعمل، فكيف يجري لسان عالم أو قلمه بالفتيا لهؤلاء؟ ماذا يجيب المفتي؟ بل كيف يفتي لقوم سمحت دولتهم واتسعت بلادهم لصحف تنادي بإنكار الله جهرة؟ وإنكار البعث والحساب، والقول علنًا: إن كل شيء تكوَّن من الذرَّة ويعود إليها! وجامعاتهم يدرس فيها كتاب الدكتور الذي ينفي الوحي المحمدي، ونظرية «داروين» اليهودي المناقضة للقرآن!

فهلَّا فكر المفتون لمن يفتون؟ كي لا يفتوا لمن ابتغى غير الله حكمًا فألغى المحاكم الشرعية حتى في المهم من الأحوال الشخصية بجرة قلم لم يجرأ المستعمر عليها، ولا يفتون لمن بدل سورة «النور» بنظريات «فرويد» اليهودي! اللهم إلا إن كانوا مسخرين. ففتاويهم يجوز إبدال «تائها»

واعذروني معشر القراء الكرام، فلا حاجة إلى سلوكهم الإيهام والتضليل وإقحام الإسلام- اللبن الخالص- بمبادئ اليهود والملاحدة الشيوعيين التي هي قيح ودم وصديد.

ولو رجع المفتون المغرر بهم إلى فلسفات الاشتراكية الباطلة ومعتقداتها المناقضة للإسلام والمعادية له أعظم عداء لما أقدموا على أي فتوى تقحم الإسلام فيها أو تقربه منها، ولو نشرت أبدانهم بالمناشير، إن كان عندهم تقوى تكسبهم نور البصيرة.

أما المستفتي الذي يخادع الله والذين آمنوا فلو عمل بالإسلام كله وطبق

أحكامه لاستغنى عن نظم الغير، بل كان الغير محتاجًا إليه، ويذعن له الشرق والغرب بدلًا من أن يخسر العرب ويخسر نفسه عند رب قائم بالقسط سيصب عليه سوط عذاب، حسب ما تقتضيه حكمته في خلقه جل وعلا.

هذا وإن الإسلام أوجب على ولاة الأمور من أهله تيسير وسائل العمل والمعيشة للفقراء، وجعل ظلم الأجير أجره من الكبائر، وربط بين أهله برباط الأخوة الدينية والمحبة في اللّٰه الجالبة للشفقة والإيثار؛ طمعًا فيما عند اللّٰه. وندب أهله إلى تسخير ما في السموات والأرض، وما في أجوائهما من دابة ومادة.

وقد ذكرت في تفسيري الذي سيطبع أوله- إنشاء الله- في «الوجه الثالث والثمانين» من مدلول العبادة: أن اللّٰه لا يرضى لعباده أن يفرطوا بنصيبهم من مقومات الحياة الدنيا، شأن أهل القصور والدردشة الذين أضاعوا طاقاتهم ومواهبهم وأفسحوا المجال لغيرهم يتقوى ويعيث في الأرض فسادًا؛ إذ لا بد للمؤمن من خوض معركة الحياة وتسخير كل مادة واكتساب ما أمكن منها بالطرق المباحة؛ ليتمكن من أداء رسالته في الحياة، ويتماسك كيانه مع إخوته المؤمنين؛ فتكون لهم اليد الطولى التي يقدرون بها على الصلاح والإصلاح في الأرض؛ لأن ما في الدنيا من المقومات المادية العظيمة سلاح خطير، إذا سبق إليه أهل الضلال وظفروا به كان وسيلة فعالة للتحكم في الناس وإفساد دينهم ودنياهم، كما جرى فعلًا.

ثم بعد التوضيح ذكرت في «الوجه الرابع والثمانين» ما ملخصه: لا يجوز لعبد اللّٰه أن يجعل الدنيا غاية الغايات، ولكن يخوض معاركها ويكدح فيها ليتخذها وسيلة للغايات الكريمة التي جعلها اللّٰه من شعب الإيمان، وأوجب عليه أن يعمر بها أرضه ويطهرها من الظلم والفساد، وينجي أهلها من كل فتنة، ويرفع

مستواهم عن الفقر والمسكنة، ويغذيهم بالعلم النافع المصلح لأخلاقهم وعقائدهم المقوي لعزائمهم، وأن لا يبخل في الدفاع عن معتقداته ومقدساته بنفس ولا مال؛ ليحقق الرجولة والدين والإخلاص.

أما من استمسك بالحياة وحرص على المادة لغير ذلك فهو نذل طبعًا كافر شرعًا، ومن ثَمَّ أكثر اللَّه في كتابه العزيز وصف الدنيا بأنها متاع؛ ليجعل قيمة المال تنزل من مقام السيطرة على النفوس والاستحواذ على الأفئدة إلى مقام آخر سامٍ يكون فيه مركب الإيمان حافلًا بألوان القوة المادية جميعها، وبألوان القوة الروحية، لكنه لا يسخر الثانية للأولى، بل يسخر الأولى للثانية، وأن لا يكون الحق عنده للقوة، بل يجعل القوة أداة لنصرة الحق؛ إذ في الوقت الذي تغلب فيه المادة على الروح يكون الأمن في الدنيا مهددًا بالخطر لتعذر الاتفاق على المطامع وتجسم الأنانية، فيذهب أمن الحياة بذلك.. إلى آخر ما قلت.

وذكرت فيما بين «الوجه الستين» إلى «الخامس عشر بعد المائة» أغلب ما تقتضيه عبودية العالمين من التضامن والتكافل الاجتماعي الصحيح المرتكز على الإيمان بالغيب والذي يتنافس فيه المؤمنون؛ مسابقة إلى جنة عرضها السموات والأرض، ليس بالمعنى الذي يريده الملاحدة والمطبوعون بآراء الشيوعية من الأفكار التي ...[1] أن تنتهي بالظلم إلى ظلم من نوع آخر؛ فتؤكل الناس أموالهم بينهم بالباطل، أو تضيق عليهم المسالك وتسد أبواب المنافسة التي بها تقوى الحركات وتكثر المعائش، أو تأخذ أموال الأغنياء بحجة الفقراء، ثم لا يحصِّل الفقراء إلا «حمى التيفود»، وإنما تكون النتيجة من ذلك بث الحقد والتحاسد بين طبقات الشعب، وإلهاب الغيظ في صدورهم بما يلقيه عليهم كل طاغية من تسمية الغني على الإطلاق: عدو الشعب. والتاجر الجالب للأموال النافع لشتى

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

الطبقات: عدو الشعب. ومنشئ المصنع المشغل للأيدي: عدو الشعب.. وهكذا.

ثم نرى الأديب القباع يستعجل قومه بالعذاب؛ زاعمًا أن ما جرى: هو تلبية لاحتياجات شعبنا! ناسيًا أن الشعب أن لو عمل بما أنزل إليه من ربه على لسان نبيه لسعد بنفسه وأسعد العالم جميعًا. ولكنه شعب جعلته طغاته في مصر يعلن للناس أنه منسلخ من آيات ربه التي أكرمه بها، ومتطفل على كل قلوط يهودي وشجرة حنظلية بدلًا من أن يكون منقذًا لعموم البشرية بهداية اللّٰه التي اختاره لحملها.

وليت شعري لو أن الذي تبنى الاشتراكية الشيوعية حاكم غير جمال، هل يقف الكاتب وأضرابه هذا الموقف المبرر، أو يغضبون عليها لأنها صدرت ممن لم يخضع لسلطان محبوبهم؟

الأولى للكاتب أن يحاسب نفسه، ويناقش ضميره نحو ربه تعالى؛ كيلا يكون متخذًا محبوبه ندًا من دون اللّٰه مشركًا له مع اللّٰه باتباع خططه دون عرضها على وحي اللّٰه، وأن ينظر من سماهم الرئيس المحبب: أعداء الشعب. ومن سكت عنهم أو قدسهم!

فالرئيس لم يسم باعة الخمور أعداء الشعب، ولا أهل المسارح والمراقص، بل يقدسهم ويمنح الراقصات ألقابًا وجوائز مع ابتزازهم لأموال الشعب وإفسادهم أخلاقه، كما أغفل أصحاب مدراس الشيطان؛ أهل السنماءات فلم يجعلهم أعداء الشعب، وكما أغفل أهل الصحف الخليعة الكافرة المركزة للكفر والفسوق! فهل أعداء الشعب إلا أعداء اللّٰه ورسوله؟ أم عندكم ميزان غير هذا؟ افتح عينيك.. وإلى اللقاء.

يتبع.



نقد من الكويت[1]

[٦]

نعم ، افتح قلبك أيها الأديب « القباع » بدلًا من أن تطلب من المجاهد؛ أمير اللواء سعيد أن يفتح قلبه ، ابدأ بنفسك وافتح قلبك متجردًا عن الهوى والعاطفة ، حاصرًا محبتك لرب العالمين ، كافرًا بما سواه ، جاعلًا إمامك الوحيد المفدى كتاب اللَّه ، الذي أنزله ذكرًا لك وشرفًا أيما شرف ، وسنة نبيك ﷺ المبينة للقرآن . هنالك افتح قلبك وعينك متجردًا عن حمية الشيطان ، وارجع البصر لترى بنور اللَّه تهافت الأشخاص على قلوط الشيوعية وتناقضهم في مزاعمهم ، وعدم اتزانهم في أعمالهم ، وسوء تصرفهم فيما ولوا ، وتبديدهم الأموال في سبيل تركيز شخصيتهم وإفسادهم القلوب بعضها على بعض ، ونقمتهم الصلفة الهوجاء على من يخالفهم في الرأي ، وإثقالهم بلادهم بديون كثيرة هائلة متكررة لجهات مختلفة يصعب سدادها في قرن كامل؛ لأنها تتضاعف فيه مرارًا من جهة الفائدة ، ومن جهة استمرارها أيضًا؛ إذ قلَّ أن يمضي شهر أو شهران دون أن تسمع باستدانتهم مبلغًا من جهة ، بحيث صاروا كالقمَّار الذي يستدين حتى من الأوغاد مما لو عمل غيرهم بعض هذا لصاحوا عليه ورموه بالتبعية والعمالة . ولم يحولوا ببعض هذه المبالغ مجرى نهر الأردن الذي كان تحت أيديهم ٤٤ شهرًا ليقطعوا أمنية إسرائيل بدلًا من الصياح المضلل الفارغ وجمال التبعية على الغير ، على الرغم من أن تكاليفه لا تزيد عن المبالغ التي تنفق على صحف مأجورة ، ويشرى بها ضمائر ، ولم يطبقوا الاشتراكية التي يلصقونها بالإسلام من تلك الأموال مع واردات الدولة ، فيكون إشراكهم المزعوم للعمال من بيت المال ، بدلًا من

(١) صحيفة القصيم- العدد (١١٧) ٢١/١٠/١٣٨١هـ.

اجتياح أموال الشعب، وإلهاب الحقد فيما بينهم. إن من تجرد عن العواطف لا يخفى عليه الزيف..

يا أخي، أمعن النظر فيما يلعبه عليهم السيد الجديد حول السد العالي، وكيف لم يكف ٩٠٠ مليون روبل المستدانة منه لإنجاز المرحلة الثانية؟ وكيف توقف؟ وكيف قرر الإعادة بديون جديدة وأمد جديد؟ وتأمل في المبالغ التي يبتلعها عشرات الآلاف من الروس الذين دخلوا البلاد العزيزة بحجة الفن، حسبما ذكرته الصحف.

أمعن النظر في كلمة «الفن» ماذا تتطلب؟ وكيف يبتز بها أضخم الأموال؟ كذلك الآلات وقطع الغيار التي فيها الحيص والبيص؟ لتدرك بعض الحوافز والدوافع على مصادرة الأموال.

تعمق في واقع القوم قبل أن توليهم ثقتك وتشرح صدرك لما يشرعونه فتتجنى على الإسلام بإقحامه فيه، وهم لم يرفعوا به رأسًا إلا عند الجدل، بل يعلنون براءتهم منه وبراءته منهم، كما هو منصوص في فلسفات قوميتهم، أو فسفساتها

أيها الكاتب؛ راقب اللّه ولا تجعل في قلبك فراغًا لغيره، فضلًا من أن تشغله بمحبة غيره، ولا تحرك قلمك إلا في ذات اللّه، واضرب بسيوف الوحي المحمدية كل من حاد عنها واستهان بها وطلب الهدى في منهج الحياة من غيرها. وذكر المتساهلين في تطبيق بعض الشريعة أو فروعها بالحكمة والموعظة الحسنة. ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: الآية ٦٣]. واحذر أن تفرط لمن فرط في جنب اللّه وأخذ يلعب بالعواطف، ويجني على العقول.

واعلم أنك محظوظ بمن يداريك، فلا تتطلع إلى من لا يداريك، واتعظ بعواقب واقعة «تموز» فالسعيد من وعظ بغيره.

هذه نصيحتي لك ولأبناء التوحيد عامة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾

[المَائدة: الآية ٢]. على صحافات من هو أبعد منهم عن شرع اللَّه وحكمه، بل عن دينه الحنيف ووحيه الشريف، فإن كل واحد منكم مطالب بإقامة وجهه للَّه حنيفًا، منحرفًا عن جميع ما سواه بحب أو تعظيم.

والعمل واجب على جميع الأمة، وخصوصًا العلماء والكُتاب وذوي الوجاهة على مواصلة التناصح مع المسؤولين، وتوجيههم لإقامة الشريعة والتنافس في الأعمال الصالحة والمشاريع النافعة، والأخذ بنواصيهم إلى الخير بدلًا من أن يقدس بعضهم تقديسًا أعمى، وتجعل خططه الأثيمة من الدين، ويبخس البعض الآخر حقه فتدفن طيباته وتجعل هفواته على المجهر.

إن الذي يريد النصح للعروبة ويعمل لخيرها يصارحها كصراحة الرسول ﷺ، ويلهب حماسها بتوحيد الألوهية الذي جاء به؛ إذ هو من ورثته وحملة دعوته، فيعمل على تقويم اعوجاجها على ضوء الوحي المحمدي، ويناقش المسؤولين أولًا على ما يعلنونه ويفرضون تشريعه، ويعملون على إغراء الناس عليه، ثم يتدرج إلى ما وراء ذلك بالطرق المجدية والأساليب المؤثرة؛ ليحقق النصح المطلوب شرعًا، ويكون عاملًا لخير العرب صدقًا.

ولا بدَّ للمسلم أن يسلك هذا المسلك؛ ليحقق إخلاصه لربه واتباعه لنبيه، وصدقه مع قومه، ويكون هواه تبعًا لما جاء به نبيه ﷺ لا لما يهواه محبوبه من أي طاغية، فيكون هنا مشركًا.

ولذا نطلب من الكاتب الأديب أن يفتح قلبه ويرجع البصر لينظر مدى الغش والبخس في تسمية رئيسه المحبب للتجار وأصحاب المصانع: أعداء الشعب. وهم الذين عمروا البلاد بنشاطهم ومجهودهم، وأشغلوا الأيدي العاملة، ليس في مصر فقط، بل في كثير من الآفاق بقوة حركتهم استيرادًا وتصديرًا، وينظر مدى إفكه وتضليله؛ إذ يرميهم بالعامة وهم تحت حوافر الحصان تحصي عليهم

الجاسوسية أنفاسهم .

وكيف يعزوا انفصال سوريا إلى الشركة الخماسية المقطوعة الصلة ، العزلاء من السلاح ، كأن الجنود المجندة من رجال المباحث نائمين ، فلينظر الكاتب أن الكذب يعود على صاحبه بالخزي؛ إذ كيف تنجح هذه الشركة في أعظم انقلاب يقصي دولة تزعم العظمة من قارة إلى قارة أخرى بسرعة فائقة ، فالحكومة التي تطردها شركة ليست جديرة بقيادة الأمة جمعاء ، والذود عن حياضها ، وطرد المعتدي من أي نهر أو بقعة .

فهذه الفرية يلزم منها تكذيب جميع ما زعموه ويزعمونه ، وأنه لا يرجى من هذه الدولة المقصاة صد عدوان إسرائيلي أو غيره . ودلالة الالتزام تقتضي ذلك من مدلول ما تفوهت تلك الدولة عن سبب هزيمتها في سوريا ، وسبب لجوئها إلى مصادرة أموال الناس .

فإذا قالوا : هذا اللازم باطل . قلنا لهم : فالملزوم أيضًا باطل ، فإما أن ندينكم بما نطقت ألسنتكم وجرت به أقلامكم . وإما أن تكذبوا قولكم وتنقضوا ما أبرمتم ، وترجعوا إلى الحق والصدق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: الآية ٣٢] .

ولا تجعلوا من غضبة سوريا ذريعة لأكل أموال الناس بالباطل ، فالحقيقة أن الجيش بمجموعه وأفراده هم أبناء الشعب؛ يغضبون لغضبه ويتألمون لآلامه ، وكلما اتصل أحدهم بأقاربه وذويه همسوا إليه بطلب الإنقاذ والخلاص . وحيث إن حكام القاهرة يعلمون ذلك فقد عملوا الاحتياطات التامة المشددة بين الجيش ، وحرموا تحليق الطائرات الحربية ليلًا ، ومنعوا تزويدها بالوقود ، وسيطروا على العيارات النارية عن الجيش ، فدعواهم أن الاستعمار يستظل وراء أهل الإقطاع والأموال كذب وتضليل؛ لأن الثراء يجلب الخوف والجبن ، ولا يستطيع

صاحبه الممالاة ضد الحكومة؛ خوفًا على ثروته، ولا يقوم بالثورات إلا الجيش والمعدومون الذين لا يخافون على شيء، وأهل الأموال هم الذين تبرعوا لقوميتكم البعيدة عن الدين بعشرات الملايين في كل مكان. فمقابلتكم السيئة لهم هل هي لؤم أو كرم؟ ورميكم لهم بعمالة الاستعمار أعظم فرية يكشفها مسارعتهم إلى التبرعات، ومساندتكم في الملمات، والعملاء المهادنون للاستعمار هم اليهود والنصارى؛ إخوانكم في العروبة على حد قولكم! وفعلكم برغبتكم عن ملة إبراهيم من أجلهم؛ إذ لم تنطلق الإذاعات لصالح الإنكليز في حادث الاعتداء إلا من بيوتهم، لا من بيت مسلم غني، ولم يكن ضابط مسلم ينتمي إلى أسرة غنية أو يخدم رغباتها، وإنما لكونه غير مسلم.

فعلى الكاتب أن يناقش الأشياء على ضوء الحقائق والملابسات دون تقديس مصدرها والاندفاع معه أو الانضباع به؛ إذ في إذاعتهم برنامج «من فمك أدينك»، فهلاّ استعمل كاتبنا هذه الخطة وأدان المفتري من نطق فمه، بدلًا من أن ينصبغ به فيستعجل قومه بالعذاب طالبًا منهم أن يسلكوا ما سلك أولئك الذين نسوا حظًا مما ذكروا به؟

فهلّا أيقن الكاتب بقول ربه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٣]. فتعقب الأفعال المناقضة للأقوال، وأمعن النظر في سوء نتائج ما فعلوه، ولاحظ ما تنشره صحفهم فيضًا من غيظ، وقليلًا من كثير؟

وكيف يطمئن الكاتب إلى أقوالهم مع ما يبثونه من الكذب ضد بلاده؛ الكذب الصراح المكشوف الذي يكفي منه قولهم عن الميزانية بخلاف الواقع كثيرًا، وقلبهم الحقائق في إضراب عمال المطابع وإهانتهم السعوديين؛ ترويجًا لهذه الأكذوبة، وقلبهم الحقيقة وتشويهها حول طلب حكومتكم مساواة حجاجهم بسائر حجاج العالم، واستغلالهم حوادث لبنان بشتى الأكاذيب

المتناقضة التي يجري بعض نقضها على ألسنتهم، وبعضها ينقضه الواقع.

أيرضى الكاتب القباع وأضرابه أن يكونوا ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المَائدة: الآية ٤١] أي: قابلون للكذب ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٤١]؟ أليس من واجبهم تكذيب المفتري، والوقوف من كل ما يعمل ويذاع موقف الحذر والريبة حتى يستبين أمره ويتضح نفعه أو ضرره؛ امتثالًا لقول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٦]. وقوله: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٧١]؟ أم هذا مجرد انصياع واندفاع يؤول إلى الشرك، بنص قول المصطفى ﷺ.

إن الواجب على الكاتب وكل كاتب ألا يخرس لسانه ويجف قلمه عن تنفيذ الكذب ضد دينه وبلاده إن كان مخلصًا لربه، ناصحًا لقومه، بل يتصدى لردع المفترين وتفنيد باطلهم بدلًا من أن يطلب من قومه الانصياع لخطوات المفترين الذين نبذوا رسالات اللّٰه وصدفوا عن آياته ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٧].

أيحسب الكاتب وأمثاله أن مهمتهم في هذه الحياة الاندفاع مع التيار ومسايرة الركب حيث سار، كما هو تعبير طغاة هذا القرن في مسمى التحرر؟ فهذه خطة مخالفة لمقصود اللّٰه من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

إن مهمة المسلم المؤمن حقًّا بما جاء به محمد ﷺ هو دفع التيار والوقوف بوجهه مستعينًا باللّٰه متوكلًا عليه، آخذًا بالأسباب متبِعًا كلَّ سبب سببًا، وأن يسيِّر الركب البشري لا أن يسايره بل يسيره بما أمره اللّٰه به، ويعتبر نفسه خليفة اللّٰه مسؤولًا عما يجري في أرضه من كفر وظلم وفساد، فيسعى لإصلاحه ويعمل جاهدًا، ويناقش كل طاغية فيما أحدث ويحدث، ويحث حكامه وسائر أقرانه على هذا كله؛ ليحقق خيرية هذه الأمة وينقذها من الخسران المحتم في سورة

العصر . فيناقش تلامذة الافرنج الذين ابتلينا بترأسهم علينا واستيرادهم مبادئ الغير على وصماتهم الفاجرة لأناس واستباغهم[(١)] القداسة على أناس آخرين .

كيف يجعل التاجر عدوًا للشعب؟ وصاحب المصنع عدوًا للشعب؟ ومؤسسي الشركات أعداءً للشعب؟ وهم الذين عملوا على إعاشته وتشغيله، وعمَّروا البلاد، ورفعوا شأنها بالتصدير والتوريد وانتفع منهم معظم الطبقات .

هؤلاء هم صفوة الشعب وزهرته وأحبابه، يجب تشجيهم كي يحصل التنافس فيكثر التشغيل وترتفع الأجور ويسعد الشعب . لا أن تهدر كرامتهم فتقتل روح المنافسة التي بها عمار الكون .

والحاكم الذي يرحم العمال صدقًا ويريد منفعة الفقراء يضيف إلى أسهم الشركات رؤوس أموال من بيت المال الذي هو حق الشعب فيجعل ربحه لهم، فينفعهم من مالهم الحقيقي الذي يلعب به هو، لا من مال الآخرين، كما اقترحه العلامة الشيخ الدواليبي .

فيا حضرة الكاتب؛ أي قلب للحقائق أعظم من هذا الذي هضمته وتقبلته بسكوتك؟

والواجب عليك رد الإفك وبيان أعداء الشعب العاملين على إفساد أخلاقه وقتل معنوية أبنائه وإفساد عقيدتهم

فأعداء الشعب لا يخفون عليك إذا رجعت بصرك وحررت عقلك من عبودية المحبوب

أعداء الشعب : باعة الخمور الذين سمح لهم المحبوب بإغراء الناس عليها ونشر الدعاية لهم بأنوار النيون في الشوارع والمحطات .

أعداء الشعب : هم أصحاب المعامل التي تنتجها وتستوردها وتبتز بها أموال

---

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب : « واصطباغهم » .

الشعب لإفساد عقولهم وتفتيت أعصابهم وإفساد أخلاقهم.

وعدو الشعب: هو الذي يأخذ الرسوم على الخمور وحوانيتها ليحمي أهلها.

أعداء الشعب: هم أصحاب الملاهي والمسارح والمراقص التي تبتز خير الشعب وأمواله بمختلف وسائل الخبث، والتي تبث لها الصحف الفاجرة دعايات سافرة تحت حماية الحكومة المحبوبة، وتغري النساء ضعيفات العقول بالإعلان عن زوجة الرئيس المحبوب في «البانيه- المرقص» كما نشرتها «المصور» بالقلم العريض والصورة المفضوحة في عدد آخر ديسمبر عام ٦٠م.

أعداء الشعب: هم أصحاب مدارس الشيطان الذين ينشرون الأقلام السينمائية التي رفضتها روسيا، فضلًا عن الهند، ويبتزون بها أموال الشعب.

فيا أيها الكاتب؛ احمد للّه على ما في بلادك. هذه العروبة التي حققت أصالتها وصلابتها بإعراضها عن دينها ونبذها لكتاب ربها، والتي لا تلتفت للإسلام إلا عند الخصام! ينشر على شاشات مسارحها، ما هو مجرَّمٌ في أعظم بلاد الإلحاد والوثنية، وتريد من قومك اتباع خطواتهم فيما يشرعون!

وأيضًا فأعداء الشعب: أصحاب الجرائم الذين يبارك القانون في جرائمهم؛ ذلك القانون الكافر الخليع المستورد من سيدتهم المربية فرنسا، والذي عدلته إيطاليا ويوغسلافيا واستساغته العروبة الأصيلة! التي لم ينزل عليها اللّه حكمًا عربيًّا!!.

يا للخزي، لو أنهم يدركون معنى الخزي! هم في أغلال الاستعمار الثقافي وأرجاسه ويصيحون عليه إفكًا وتضليلًا ليوجدوا لهم نصيرًا من أبناء التوحيد كصاحبنا نوَّرَ اللّه بصيرته!

ثم أيضًا أعداء الشعب: هم أصحاب الصحف الخليعة الفاجرة المفسدة المضللة التي تغرس الكفر والرذيلة وتحميها الحكومة وتعمل على إيصالها لكل

بيت بما تسديه لها من التسهيلات وتسد عنها الشكايات ، فاكتسبت بذلك حصانة وانتشارًا ، وهي أعدى عدو مفسد للعقائد مخرب للبيوت ، ومع ذلك يضفى عليها ثوب القداسة ، كما يضفى على العاهرات الراقصات المغنيات! وتسدى إليهن الألقاب والمنح الجزيلة ، وهن أعداء الشعب . كم أفقرن من مولع بسماعهن ومغازلتهن؟

فعلى الكاتب أن ينتبه للدجل فيكشفه للناس ويفضح أهله بدلًا من أن ينشرح صدره له فيساعد على التضليل عدوه الذي يبدو في زي صديق بما يجدده للأمة من الشعارات التي يهدر بها ويخضع لها العروبة دون أن يخضع هو لها .

وليعلم الكاتب أن الأمة إذا لم تتخلص من الأعداء الذين ذكرناهم فهنيئًا لإسرائيل وكل متربص؛ إذ هؤلاء هم الذين يخدمون العدو بالقضاء على أخلاق الشعب وإفساد عقيدته حتى تتحطم معنويته .

أما الشعارات الجديدة الأخرى من : إرادة الشعب ، وحرية الشعب . فهي الكذب الصراح والتهريج الباطل المفضوح ، فالشعب مسير كالقطعان لم تحفظ له إرادة ولا كرامة ، وإنما يلعب عليه ، ويصفق لكل مجدود ساعده الحظ . ولو عثر صفقوا لمن بعده وانقلب تسبيحهم له لعنات عليه استحقها أو لم يستحقها .

فهذا واقع الشعوب بعد إعراضها عن اللَّه واتباعها خطوات الشيطان .. وإلى اللقاء فيما وعدناك به ، حسبما قررته في الإسلام الذي أرجو أن يشرح اللَّه صدرك لنظمه وتعاليمه ، ولا يجعل في قلبك فراغًا لما سواه ، واللَّه يتولى الصالحين .

يتبع



نقد من الكويت(١)

[٧]

أهذا اندفاع أم انضباع؟

في معرض تحبيب «القباع» لمبادئ الشيوعية المسماة «اشتراكية»، واستعجاله قومه بعذابها يقول ما نصه: «وأكرر للمرة المائة بعد المليون بأن أي تشريع يتنافى في قواعده وأصوله مع أوضاعنا الإسلامية فهو بلا شك عمل باطل، بل ومرفوض من الأساس»

وبما أن الكاتب قد ركز هذه القاعدة أساسًا لموضوع البحث في المفهوم الاشتراكي الذي انصبغ به ذهنه فقد استرسلت معه في البحث والمناظرة؛ مؤملًا به الأمل الطيب راجيًا له حسن الإنابة. وقد ذكرت في أوائل المناظرة عطفًا على كلامه: أن الإسلام يجب أن يكون رأسًا ومصدرًا لكل شيء- أيها القباع»- لا أن تخضع نصوصه وأحكامه لأغراض محترفي السياسة في كل مكان، فيكون على حد قول الشاعر: «مثل التليل يرى في مؤخر الكفل»

والآن نذكر الكاتب بأن هذه القاعدة التي ركزها وزعم أنه كررها «للمرة المائة بعد المليون» ينتقض بها جميع ما عول عليه من أفكار إلحادية استعمارية مستوردة قاست منها الأمة العربية خاصة والإسلامية عامة صنوف البلاء والوبال.

فيا أيها الكاتب؛ بما أني أتهمك بالصدق فيما زعمت تكراره من رفض كل ما يتنافى مع الإسلام، فإني أسألك بالله الحي القيوم: هل القوميات من روح الإسلام وأصوله، أو تتنافي مع قواعده وأصله الأصيل على طول الخط؟

ومن الذي سعى ويسعى منذ فجر الإسلام إلى تاريخنا لنبش كل قومية وإيجاد

(١) صحيفة القصيم، العدد (١٣٥) في ٧ ربيع أول ١٣٨٢هـ.

كل عصبية سوى اليهود وأذنابهم الذين اتخذهم القوميون إخوة لهم في الشيطان، وجعلوهم أندادًا من دون اللَّه، استسلموا لأفكارهم ما لم يستسلموه لرب العالمين، وانقادوا لمخططاتهم ما لم ينقادوه للنبي العربي ﷺ؟ أليس الذي حاول تفكيك صفوف الأنصار وبعثرة النضال الإسلامي من أول وهلة هم اليهود الذين أوغروا صدور الأنصار بتذكار يوم «بعاث» وغيره، فاستدرك النبي ﷺ الأمر، وأنزل اللَّه تعالى عليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٠] .. إلى أن قال: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣]

ولما فشلوا في إيجادها على وجه صريح عملوا على إظهارها بصور وألوان شتى حسبما يناسب البيئات والأوضاع، واستغلوا لفيفًا من الحاقدين الجاهلين بمقاصد الشريعة ومدلول الشهادتين، حتى أنهم يظهرونها تارة باسم مذهب، وتارة باسم أسرة .. وهكذا حتى حان الوقت لإظهارها على وجهها؛ تكيف بأسماء محببة براقة، كعجل بني إسرائيل المذهب المزخرف! وذلك في أواخر وقت الأتراك حيث بدأوا بهم فأغروهم بنصرة القومية الطورانية؛ ليقطعوا صلتهم بالعرب المربوطة بحبل الإسلام، فيسهل عليهم إثارة نعرة العرب لقوميتهم، حيث تحفزوا لها من جراء ما لاقوه من عنت القومية الطورانية، وقد وقع ذلك فعلًا.

كما أغروا أهل فارس بالقومية «الآرية» الإيرانية، وهكذا حتى إنهم الآن يبذلون جهدهم لتطوير القوميات في الهند وإزاحة أهله عما هم عليه من المعتقدات الدينية؛ لأنهم يعلمون أن كل قومية مهما بلغت لا تستطيع الوقوف بوجه المبادئ المستوردة والأخلاق الرذيلة، بل على العكس يتخذ منها وسيلة

لترويج كل مبدأ هدام وخلق ذميم ، كما جرى فعلًا ويجري في ميدان القومية من الشعارات الشيوعية والديمقراطية والتعاونية ، أو أكذوبة « وحدة الهدف » التي هي من أخطر الأسلحة الشيوعية وأعظم إفكهم ودجلهم ، وها قد تبناها بعض أقطاب القوم عن جهل أو تجاهل مما سنكشف زيفها ونوضح استمالتها بطرق منطقية إن شاء اللَّه .

والمقصود هنا أن نبين للكاتب والقراء الكرام عدة أمور :

أحدها : أن القومية ليست من الإسلام ولا أهله في ورد ولا صدر ، وإنما هي من مبتكرات اليهود وإخراج النصارى وجميع رؤساء فلسفاتها من النصارى الذين يزعمون النصرانية وهم ملاحدة أخدان لليهود ، بل من الصهاينة سرًا- والعياذ بالله- وما راجت في بلاد الشرق الإسلامي واعتنقتها بعض أبنائه إلا لحاجات في الصدور؛ اتخذوا من اسم القومية وشعاراتها المحببة إلى المغفلين وسائل لترويج باطلهم وقضاء مآربهم .

وأظن أني لا أحتاج مع الكاتب والقراء الكرام إلى تدليل على ذلك؛ لأن قصة نبش القومية من مرقدها مشهور ، والمراجع التي تفضح أهلها كثيرة غصت بها المكاتب . وليس عند القوم من حجة سوى صيرورة أمرهم إلى تقديس أشخاص جعلوهم موضع الثقة واتخذوهم أربابًا من دون اللَّه ، وعند الخوف من هزيمة الخصام يلجئون إلى ثروة الإسلام الزاخرة التي لا يلتفتون إليها إلا مكرًا ، فيحرفوا الكلم عن مواضعه ويجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، ويفسروا معاني القرآن على وفق أغراضهم ، ويرموا المسلمين بسوء فهم نصوص الإسلام ، كأن نصوص الوحي طلاسم وأحاجي لا يحلها إلا المبرز في الوثنية والإلحاد ، أو من باع ضميره على محترفي السياسة بثمن بخس واشترى الحياة بالآخرة فبئس ما يشترون .

إن القومية وليدة الاستعمار، ارتضعت بألبان اليهود والصهاينة وكل ملحد أثيم، وإنها أعظم جناية على الإسلام والمسلمين؛ لأن فيها نقضًا للميثاق الإسلامي الذي يربط العربي بالأعجمي والمشرقي بالمغربي، كما أوجبه اللَّه. وإنها أشد خطرا على المسلمين من كل ملة؛ لأنها من الأمراض الباطنية السارية المحدثة للفتنة والقاضية على كل فضيلة. وأي مرض باطني أفتك من مرض الشبهات والشهوات التي يحملها معتنقوا هذه الفرية العظيمة؟! ولا أدل على ذلك من معاداة أهلها للمسلمين وغمطهم، ومصافاة كل طاغية ينكل بهم، وانعدام كل أثر من آثار الغيرة على الإسلام، ومحاولتهم بكل جد طمس آثار الإسلام والمسلمين حتى من التاريخ؛ تجدهم في تواريخهم الحديثة يبدلون زحف الإسلام بزحف العرب، وغزو المسلمين بغزو العرب، وفتح المسلمين بفتح العرب، وحضارة المسلمين بحضارة العرب، وهكذا!! حتى ما يروى من عدل الخليفة عمر الفاروق ما يسمونه «عدل العرب»! ليلهبوا حماس الشباب بنعرة عصبية ليس فيها شيء من روح الدين.

وتجد مناهجهم في التربية مناهج الكفرة الذين وصفهم اللَّه بأنهم ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمَّد: الآية ١٢].

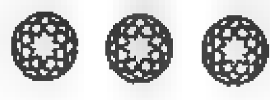
وتجد أيضًا فلاسفة القوميين وكتابهم يصفون المسلمين في مصاف المستعمر والصهاينة، كأن الصهاينة نبتوا على حساب المسلمين ولم ينبتوا على حساب القومية التي هي ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٦].

تلك القومية التي في كل عقد من السنين تجدها تشتق مذهبًا هدامًا، أو تتأله شخصًا من الأشخاص تجعله ندًا من دون الله؛ صورته تحتل مكانًا عاليًا من الحب والتعظيم الذي لا يجوز إلا للَّه، ويتقبل أهلها ما يشرعه من النظم والقوانين

المخالفة لما أنزل على محمد ﷺ ويستحلون ما أحله لهم؛ أقروه من الديانة التي يحمونها حسب قوانينهم الفاجرة المستوردة من فرنسا وغيرها! فأي عبادة للأشخاص أعظم من هذا؟ وهل عملهم هذا أقل شركًا وكفرًا مما وصفه النبي ﷺ لعدي بن حاتم في حديثه المشهور؟

ومع ذلك يغالطون ويتبجحون .. بأنهم لا يعبدون الأشخاص .. فأي عبادة أعظم من هذا؟!

إن على « القباع » أن يرجع البصر ثم يرجع البصر في الحالة التي اغتر بها ووافاه حبها على فراغ فتمكن من قلبه ، وليعلم أن حب اللّٰه الذي هو أوجب واجب على الإنسان إذ عمر القلب وسبق إليه شغله ومنعه من أن يغزوه غيره ، وأن المضبوعين بفتنة القومية لو امتلأت قلوبهم بحب اللّٰه وتعظيمه وحب رسوله وتعظيمه ما أغراها شيء من فتنة شياطين الإنس وطواغيتها .. وإلى اللقاء .



نقد من الكويت[(١)]

[٨]

أكل هذا اندفاع أو انضباع؟

ذلك أن محبة اللَّه توجب على أحبابه أن لا يحبوا إلا ما أحبه اللَّه من قول وعمل، ولا يتبنوا أي مبدأ أو فكرة مخالفة للملة الحنيفية، ولا يوالوا أي شخص إلا إذا رأوه حاملًا لواء دين اللَّه الذي افترض إقامته في الأرض، وأوجب على أهله بذل النفس والنفيس لتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ورأوه آخذًا كتاب اللَّه بقوة لا يستمد أي حكم من الأحكام في سائر الميادين إلا منه ومما فسره النبي ﷺ له من أحاديثه.

ومن كان على خلاف ذلك، فإن محبة اللَّه توجب على أهلها بغضه ومعاداته ومنابذته كائنًا من كان، ولا يلتمسوا له المعاذير وهم يعلمون شأن الصحابة مع مخالفيهم ومجاوريهم من الدول العظام الذين نسبة حالهم معهم أعظم من نسبة حالنا مع دول اليوم، ولكن الفارق الصحيح فيما بيننا وبينهم هو قوة الإيمان وعظيم المحبة التي جعلتهم لا يستجيبون إلا للَّه، والتي ألهبت في قلوبهم بغض أعدائه والتقرب إليه بجهادهم، وجعلتهم لا يلذ لهم عيش ولا يطيب لهم مقام إلا بعد قمع المفترين عليه وأطرهم على الحق أطرًا وهم صاغرون.

فهؤلاء لو اعتزوا بعروبتهم كان اعتزازهم صحيحًا؛ لأنهم حملوا الكتاب الذي أنزله اللَّه ذكرًا لهم، وطهروا به الأرض من الكفر والفساد، فانتشرت لغتهم بذلك ما بين الخافقين.

أما المتشدقون بعروبة كاذبة خاطئة فهم أبعد الناس عن الحق والحقيقة، ولا

---

(١) القصيم- العدد (١٣٨) في ٢٨ ربيع أول- ١٣٨٢هـ.

يجوز وصفهم حتى بما اتسموا به من العروبة؛ لأنهم نبذوا رسالتها ورفضوا كتابها وحاربوا أهلها من أول وهلة ، واتبعوا خطوات أعداء اللَّه وأعدائها من كل مدع للنصرانية وهو خبيث ملحد يترسم خطى الصهاينة والشيوعية في سياسته واقتصاده وثقافته وسائر أحكامه .

وقد بينا في الأمر الأول منافاة جميع القوميات للإسلام ، وأنها من مبتكرات اليهود وإخراج ملاحدة النصارى ، وبينا في ثاني الأمور أنها وليدة الاستعمار وارتضعت بلبان أفراخه وأخدانه من كل ماسوني أو شيوعي ، وأنها مسخ للإسلام وأعظم ضرر عليه؛ لما يسلكه أهلها من مخططات أعدائه في كل مكان .

وثالثها : أن المتشدقين بالقومية والحاملين لها في كل مكان لم يرفعوا بالإسلام رأسًا ، ولم يعملوا لحمل رايته أو يسعوا لنشره أو يهتموا بتبليغ رسالة ربهم إلى الأمم المتعطشة لدين يقيها من الضلال ويحميها من الفساد والانحلال ، بل عصوا رسالة ربهم وأعرضوا عنها بكل وقاحة وسلكوا :

الأمر الرابع : وهو جرأتهم على اللَّه بمناداتهم بالقومية والجنس والوطنية ، وإقرارهم المفترى على اللَّه بتأييد ما ادعاه من دين مكذوب أو شريعة منسوخة ، والسماح له بنشر مفترياته على حساب دين اللَّه . بل ملئوا الدنيا ضجيجًا وعجيجًا لإعادة الناس إلى وثنية جديدة أفظع من الوثنية الأولى باسم تلك القومية التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان ، بل أنزل وحيه على خلافها ، فكأنهم- والعياذ بالله- قالوا للَّه : إن العصر عصر القوميات ، لا عصر كتابك! ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فهو المقبول ، وهو العامل لخير العرب! أما دينك الذي ارتضيته ورفضت سواه فهو الجالب للطائفية المنافي للوحدة!! .

هكذا صرحوا ببعض ذلك قولًا ، وببعضه فعلًا ، والفعل أقوى بيانًا من القول . فاللَّه تعالى يثبت الهدى والوحدة بتحقيق الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ قولًا

وعملًا؛ إذ يقول: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٢]. ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ [البقرة: الآية ١٣٧]، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: الآية ١٧٦]، ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: الآية ٩].

فانظر كيف حصر اللّٰه الهدى والوحدة بالإيمان به واتباع ما أنزل، وحصر الشقاق فيمن أعرض عن كتابه.

والقوميون من طغاة وأتباع يكذبون رب العرش العظيم جهرًا على عمد بصريح أقوالهم وخبيث أفعالهم؛ زاعمين أنهم سيحصلون بمخالفة اللّٰه ومشاقته على وحدة من المحيط إلى الخليج، ويجدون- يا للأسف- أنصارًا لهم من أبناء أهل التوحيد، كأنهم صم بكم عمي؛ لم يعرفوا شيئًا عن ملة إبراهيم المأمورين باتباعها، ولم يتلوا شيئًا من آيات اللّٰه، وكأنهم عمي صم لا يبصرون ولا يسمعون ما أجراه اللّٰه عليهم من الشقاق الذي ازداد به انقسامهم وتعالت صيحاتهم على بعضهم البعض، حيث صدق عليهم المثل الذي ضربه اللّٰه لمن انسلخ من آياته وأعرض عنها؛ إخلادًا إلى أرض وطنه وتقديسًا لمادتها، واتباعًا لهواه حيث قال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦]

فبعض أبناء التوحيد- من أمثال الكاتب- لم يعتبروا بهذه المعجزة الخالدة التي هي من معجزات القرآن، والتي يجريها اللّٰه في صفوف كل من تنكب عن هداه من الشقاق العظيم والتهارط البشع الذي تنفر منه الأسماع في الصحف والإذاعات. فهل ضلتهم حاجات في صدورهم فنسوا حظًا مما ذكروا، وقست قلوبهم فلم يلتفتوا إلى الحق ولم يعبئوا به، فاستحوذت عليهم شياطين الإنس

والجن ، وصدتهم عن رسالتهم التي أوجب اللّه عليهم حملها والتفاني في سبيلها وأولعتهم بمبادئ الجبت والطاغوت التي انتحلها اليهود وملاحدة النصارى كـ « داروين » و« كارل ماركس » و« فرويد » و« غوستاف لوبون » و« جولد شيهر » و« مورغورنجه » وأفراخهم وأذنابهم مما سنذكره فيما بعد ، أو اغتروا بدجل من حمل تلك المبادئ والمفاهيم من محترفي السياسة ، فطمعوا في السياسة فطمعوا بهم ورغبوا في تقليدهم ، وإلا فما الذي أصمهم وأعماهم عن وعد اللّه ووعيده الذي حق على معتنقي القوميات والمبادئ المخالفة لدين اللّه من سوء الانقسام ، وضراوتهم فالدم الإنساني الناشئ من حبك المؤامرات التي ينفق في سبيلها الأموال الطائلة فتعود عليهم بالوبال كما في لبنان والعرق وغيرهما . وقد أخبر اللّه عن أمثالهم أنهم ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] . أم ران على قلوبهم ظلمة الشرك والوثنية الجديدة التي وقعوا بها وهم لا يشعرون ، فلم يصغوا إلا لأقوال[١] محبوبيهم ودعاويهم ، على الرغم من أنهم يرمون خصومهم بدائهم الذي تلبسوا به من النشاط المتواصل في المؤامرات والتخريب ، وإفساد القلوب وإثارة الحفائظ والنعرات ، وبذل الأموال الطائلة في سبيل ذلك ، مع أنهم لم يربحوا فيما سبق لهم تحقيقه ، ولعل ذلك من عقوبة اللّه عليهم التي نص عليها في الآية السابقة ، وتنكيل منه تعالى بمن تقاعس عن حمل لوائه على أيديهم ، ثم تكون العاقبة للمتقين .

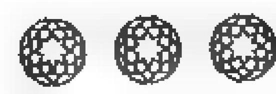
خامسًا : أن القوميين أخرجوا أنفسهم من تبعية اللّه ورسوله إلى تبعية أحبابهم من فلاسفة القوميات وطغاتها ، فأخذوا يقدمون بين يدي اللّه ورسوله في أغلب ما يسنوه وما يقننوه من التشريعات في سائر الميادين؛ نابذين كتاب اللّه وراء

(١) في الأصل : « إلا إلى لأقوال » .

ظهورهم لم يحسبوا للَّه ورسوله حسابًا ، بل ازدادوا عتوًا ونفورًا : أن كتاب اللَّه وسنة رسوله أوراق صفراء مدعاة للتخلف لا يتمسك بها إلا الرجعي!! صرحوا بذلك قولًا وعملًا .

هكذا موقفهم من القرآن والسنة اللذان هما بلسان[1] عربي مبين ، لو عضوا عليهما بالنواجذ اعتزازًا بهما لصدقوا عروبتهم ، لكن لو كتب لهم مدلولهما باللغة الفرنسية والروسية ونحوهما لكان أدعى للقبول!! فموقفهم المشين موقف المتحدي لقول اللَّه تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: الآية ١] إذ مع كونهم منتهكين لهذا النهي العظيم يصرحون بعدم صلاحية تشريع اللَّه ورسوله ، ويتهكمون بمن يحاول الوقوف عند حدود الله؛ متعللين بشبهات سوف نكشف زيفها إن شاء اللَّه .

فيا حضرة الكاتب ، هل ما ذكرناه لك من خطط القوميين موافق للإسلام أو مخالف له أصلًا وفرعًا؟ لا بد لك من الرجوع إلى ربك وحكمه في خلقه لتصدق ما قررته في قاعدتك ، فتعلن البراءة من هؤلاء إعلانًا صريحًا لا نفاق فيه؛ إرضاء لرب العالمين . وسنوافيك بمزيد إيضاح لمخالفتهم دين اللَّه وشرعه .. فإلى اللقاء .



(١) في الأصل : « اللسان » .

نقد من الكويت[١]

[٩]

أكل هذا اندفاع أو انضباع؟

سادسها وسابعها : أن القوميين قطعوا صلتهم بالله ورسوله ، فلم يجعلوا لعروبتهم المزعومة صلة بالله الذي خلقهم وصورهم ورباهم بنعمه ، ونمّى قواهم وأحاسيسهم ، وشرفهم بإرسال نبي منهم ، وأنزل عليهم كتابه بلغتهم مصرحًا أنه ذكر لهم ، فلم يلتفتوا إلى حكم من أحكامه ، ولم يرعوه في دينه ، ولم يحفظوه في أمره ونهيه وحدوده ، ولم يراقبوه لا في ورد ولا صدر ، فكأنه صفر على الشمال ، والعياذ بالله من تفريطهم في جنب الله .

وكذلك قطعوا صلتهم برسوله النبي العربي فلم يجعلوا لعروبتهم صلة روحية صحيحة بالله ورسوله ، بل جعلوا صلتهم بملاحدة اليهود والنصارى ممن أوغلوا بالكفر والإفساد ، وأخذوا على عواتقهم إفساد جميع الخليقة في سائر المناهج والميادين بما يقذفونه من غي وفجور وفسق وفساد معتقد ، أمثال : « اليازجي » ، و« جورج حبش » و« سلامة موسى » و« كلوفيس مقصود » و« ميشيل عفلق » و« أنطون سعادة » و« الخوري » الذي منحه أحد الرؤساء لقب : « قديس القومية »؛ من أجل إيغاله في الوثنية وتقديسه للكفر وترحيبه بجهنم على عكس مقصود الرحمن الرحيم! فهل هذا إلا رفض صريح لقول الله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمران: الآية ٨٥] ، ولقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمران: الآية ١٩] . بصيغة الحصر؟ ورفض لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٣٩) في ٥- ربيع أول- ١٣٨٢هـ.

كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المُمتحَنة: الآية ١] وغيرها من الآيات التي في معناها؟!.

هل عملهم هذا إلا رفض لكلام اللَّه ورسوله وقبول لمخططات أئمة الكفر الذين يخدعون الأمة باسم الوحدة الكاذبة ليصرفوها عن دين اللَّه المرتضى ويعيدوها إلى الوثنية؟

وهل هذا إلا قطع لصلتهم الصحيحة باللَّه ورسوله، وارتباطهم بأولئك الذين نفذوا برامج الطاغية «زويمر» و«دنلوب» وأمثالهما من أعداء الإسلام الذين قرروا استحالة تحويل المسلمين إلى المسيحية، ولكن عملوا على صبغتهم صبغة إلحادية لا دينية يخرجوا بها عن دينهم وينسلخوا من كتابهم وينبذوا رسالتهم بما رسموه من الخطط والمفاهيم الإلحادية الفاجرة؟

وهل هم بذلك موافقون للإسلام، أو مخالفون له في أصل الأصول أيها الكاتب؟

إن كنت لا ترى مخالفتهم لأصول دين اللَّه فما أجهلك بوحي اللَّه وأبعدك عن هدي محمد ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين!!.

ثامنها: أن القوميين نقضوا كل عهد للَّه ورسوله.

فنقضوا العهد الفطري الذي فطر اللَّه الخلق عليه من تأليهه دون ما سواه وإقامة وجوههم لدينه الحنيف ورفض غيره. فخرجوا من تلك الفطرة، وأغروا الناس على الخروج منها.

ونقضوا عهد اللَّه الخلقي بتسخيرهم جوارحهم وجميع قواهم فيما يخالف[1] شرعه ويجانب حدوده.

ونقضوا عهده الشرعي الذي عهد به إليهم أن يعبدوه ولا يعبدوا الشيطان؛ إذ

---

(١) في الأصل: «يختلف».

قال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]

فخالفوه ونقضوا عهده وعبدوا كل شيطان رجيم من شياطين الجن وطواغيت الإنس!

وإن زعموا أنهم لم يعبدوا أحدًا كما يتبجحون إفكًا وتضليلا بأنهم لا يعبدون الأشخاص.

قلنا لهم: قد زعم قبلكم عدي بن حاتم فقال لرسول الله ﷺ: إنا لم نعبدهم، ولم نتخذهم أربابًا من دون الله. فقال له الرسول ﷺ متسائلًا: «أليسوا يحلون لكم الشيء فتستحلوه، أو يحرمون عليكم ما أرادوا من الحلال فتحرموه؟» قال: بلى. قال: «فتلك عبادتهم»[1].

والقوم تقبلوا كل ما وضعه رؤساؤهم وفلاسفتهم، وخضعوا لكل ما يقننه المقننون من تشريع؛ مصرحين بكل قحة ووقاحة بأن كتاب الله وسنة رسوله فيهما الرجعية والتخلف! فهل هم أعلم أم الله؟ وهل هم أحكم أم الله؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٤٠] مع العلم أن أهل الجاهلية- أصحاب عدي بن حاتم- أهون جرمًا ومسؤولية من هؤلاء؛ لأنهم قلدوا آباءهم الذين لم ينزل عليهم نور ولا هدى، أما هؤلاء فقد ورثوا الكتاب الذي فيه النور والهدى، فاستحبوا العمى على الهدى، وآثروا طاعة الجبت والطاغوت على طاعة الله ورسوله!!.

فهل هم بحالتهم هذه أحسن أو أسوأ ممن وصفهم الله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني١٧/٩٢(٢١٨)، والبيهقي١٠/١١٦. وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٠] . ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النِّساء: الآية ٦١] .

إن كنت أيها الكاتب ذا ضمير- كما أظنك- فستحكم على القوم بأنهم أسوأ حالًا وأشد ضلالًا؛ لأنهم أجمعوا على استحسان الخطط المخالفة لدين اللَّه وشرعه ، لم يختص بها منافقوهم كأولئك . ولا شك أنهم ارتكبوا أمرًا شنيعًا وقعوا به في :

الأمر التاسع : وهو اعتقادهم عدم كفاية النصين- قول اللَّه ورسوله ﷺ- لمقتضيات العصر!

وهذا أمر قبيح منهم وواضح؛ صرحوا به قولًا وعملًا .

وهذا استدراك على اللَّه ورسوله! فيا ويح من استدرك على اللَّه ورسوله؛ معتمدًا على مذاهب أعدائهما ومناهجهم الحنظلية الجالبة للشقاق المفسدة للأخلاق ، والتي هي مدعاة للظلم وانتقال بالظلم إلى ظلم من نوع آخر .

ومع هذا يزداد إثمهم بمخادعتهم المؤمنين ، فيلبسون الحق بالباطل ويزعمون السير في طريق عدالة وتطوير لا يتنافى مع نصوص الإسلام وجوهره! كأن الجوهر شيء والنص شيء آخر ، وكأنهم علموا من الرشد والهدى ما لم يعلمه أصحاب رسول اللَّه ﷺ والتابعون لهم بإحسان من كل إمام وعالم . فهم بذلك لا يخرجون عن معنى هذه الآية : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣]

بل هم أعظم ظلمًا من ذلك؛ لأنهم لم يقولوا : سننشرع مثل ما شرعه اللَّه وننزل على الناس من نظمنا كما أنزله . بل زعموا أن نظمهم وقوانينهم ملائمة

للعصر أحسن من ملائمة شرع اللَّه وحدوده القاسية!!

هذا كلامهم مع الاعتدال، ولهم كلام أغلظ من ذلك وأشنع؛ يوحي به بعضهم إلى بعض سرًا تارة ويعلنوه أحيانًا وذلك في الغالب؛ إذ يزعمون أن ما أحدثوه خيرًا مما في الأوراق الصفر التي هي سبب التأخر ومتمسك الرجعية!! وسنتكلم- إن شاء الله- على الرجعية بما يعكس مطلوبهم عليهم.

وإذا احتاجوا إلى التلبيس والاصطياد في الماء العكر قالوا: إن ما عملوه هم لا يخالف الإسلام في جوهره!

فهل تراهم- أيها الكاتب- محقين في ذلك، موافقين للإسلام أو مخالفين[1] له أصلًا وفرعًا؟ أم للإسلام مفهوم عند القوم وأتباعهم غير المفهوم الذي فهمه السلف الصالح وغصت بتوضيحه الكتب منذ ألف وثلاثمائة سنة؟ أم الحب يعمي ويصم؟ نرجو من اللَّه أن لا يعمي بصيرتك.

عاشرها: أنهم حاربوا المنتسبين إلى الإسلام- دين اللَّه ورسوله- والصالحين من عباده وأوليائه جهرًا على عمد. وسخروا بهم وبدينهم من أول وهلة، وأخذوا يصمونهم بالتهم والألقاب الشنيعة؛ تنفيرًا للأغمار والناشئة منهم، وإيغالًا بالعداوة لما نزل من الحق، وولوعًا بالباطل الذي افتتنوا به وأشربوا حبه في قلوبهم كعجل بني إسرائيل. ولا يلتفتوا لأحد من المسلمين إلا من استرخص نفسه فباع ضميره عليهم، وأخذوا يسخرونه بإصدار الفتاوى الكاذبة المخدرة المضللة للجمهور الذين وصفهم الإمام علي رضي اللَّه عنه بأنهم همج كالذباب.

وفي الوقت الذي يبتعدون به عن موالاة المسلمين يعلنون الولاء لأخدانهم من ملاحدة النصارى الآنف ذكرهم، والذين هم سائرون في مخطط صهيوني وماسوني.

(١) في الأصل: «ومخالفين».

وإذا سئلوا عن الماسونية؟ أجاب بعض طغاتهم ممن حاز الصدارة ونال الدكتوراه: بأنها جمعية إنسانية!!

وهذا منتهى الإفك والزور! فالماسونية: مؤسسة سرية يهودية هدامة تخدم أغراض المستعمر سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا. فيطلونها بهذا الطلاء الكاذب!

أما الإسلام الذي يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فهذا لا يصفونه بالإنسانية، ولا يقوم له منهم دعاة، ولا ينفق في نشره مال، ولا يقام من أجل رفع لوائه جهاد! بل يُحاوَل القضاء عليه وطمس معالمه، ويُمسخ تاريخ أهله، فيحل محل اسمهم اسم العرب، فيقال: غزا العرب، وفتح العرب. وتجهيز العرب، وحضارة العرب، وأدب العرب، وقصص العرب. والشرق العربي، والمغرب العربي، والجنوب العربي.. ونحو ذلك.

ونسوا أو تناسوا أن المغرب وما حوله لم يكن عربيًا إلا بالإسلام الذي هو غصة في حلوقهم وزكمة في أنوفهم بما ارتكبوه من أرجاس الاستعمار الثقافي وما ترسموه من خطط طغاته.

فهم بهذه الحالة قد شاقوا اللّٰه ورسوله بموالاتهم كل من حاد اللّٰه ورسوله، فاللّٰه يقول ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢].

فمعاكستهم للّٰه ورسوله صريحة؛ إذ أعلنوا جهرًا أن العربي المسيحي خير وأولى من مسلم غير العربي؛ لا يعدونه شيئًا حتى يقتنعوا بأنه عمل لخير العرب وصالح العرب! وما هو خير العرب وصالحهم في عرفهم؟ سنشرحه في مقال مختص، ونبين فيه أنهم هم أنفسهم لم يعملوا لخير العرب أو صالحهم، وإنما

عملوا لدنارهم[١].

ومن المؤسف أنهم خدعوا الشباب وسمموا أفكاره نحو المسيحيين؛ زاعمين أنهم حققوا العروبة وعملوا للوحدة! وهم الخبثاء الذين جمدوا طاقات أبناء المسلمين وأقعدوهم عن واجبهم نحو اللّٰه ورسوله من نشر الدين الإسلامي ورفع مناره، وغرسوا في قلوبهم كل غي وإلحاد بحجة الوحدة وإخماد الطائفية!

وفي الحقيقة أن الطائفية تتمثل بهم في كل مناسبة ولكنها مصبوغة بطلاء آخر، وهم حجر العثرة في سبيل الوحدة بكل قطر وفي كل مناسبة.

ففي لبنان قاوموا كل الجهود المبذولة للوحدة حتى أحبطوها بعدما ذهب ضحيتها آلاف المسلمين.

وفي العراق تلبسوا باسم الشيوعية وناصروها وقادوا[٢] جميع حركاتها في أنحاء العراق ضد الوحدة، وفتكوا بالمسلمين فتكًا عظيمًا في الموصل، وشعارهم المشهور في هتافاتهم: تلكيف نال استقلالخ.. دين محمد بطَّالخ.

وفي سوريا لم يقف حجر عثرة في حلب ضد الوحدة إلا المسيحيين.

وفي فلسطين هم أنصار اليهود في كل ناحية يكثروا بها، وفي الناحية التي يقلون بها يداهنون المسلمين خوفًا من نقمتهم.

وفي أفريقيا هم الذين بذلوا ويبذلون للجهود المتواصلة لبسط نفوذ إسرائيل وتغلغلها في كل ميدان.

ومع ذلك ظل الشباب مخدوعًا بهم يحمل لهم التعظيم والتقدير، ويرى في شخصية «عفلق» المنافق عاملًا لخير العرب، وهو الذي بارك له «البابا» منذ سنتين على خطته الملعونة التي خدع بها العرب، وجعلهم ملاحدة بفلسفته

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) في الأصل: «وقادوها».

الزائفة ومدحه الماكر للنبي محمد ﷺ الذي هو أعظم كافر به وبما جاء به.

فعلى الكاتب أن يلتفت إلى قاعدته التي قعدها، فيصدق مع ربه أولًا، ومع قراء مقالاته ثانيًا، ويعلن البراءة من قوم هذا موقفهم من اللّٰه ورسوله وكتابه وعباده المؤمنين.

وسأردف مع هذه العشرة أمورٍ عشرةَ أمورٍ أخرى فأكثر لزيادة الإيضاح والتحقيق .. فإلى اللقاء.



نقد من الكويت[1]

[١٠]

أكل هذا اندفاع أو انضباع؟

نعم إن المسيحيين إخوان القوميين في كل مكان، عملوا سرًا وجهرًا ضد الوحدة التي يتشدقون بها، وجعلوا هدفهم من ذلك التنكيل بالمسلمين تحت شعارات القوميات المختلفة في كل مكان، وقد عملوا من أول فرصة سنحت لهم في أوائل هذا القرن على التنكيل بالمسلمين في «البلقان» أعظم تنكيل وأشنعه؛ حيث نسفوا دور المسلمين ومساكنهم بالألغام المتفجرة ودمروها على أهلها هدمًا وإحراقًا، وأسرفوا في قتل الكبار والصغار والنساء، وهتك الأعراض وسلب الأموال؛ باسم المسيح وتحت علم الصليب رفعًا لشأنه كما يزعمون. ثم لم يتناهوا عن منكر فعلوه أو وحشية ارتكبوها، بل يبارك بعضهم لبعض في ذلك.

وهذه المآسي اعتبرها النقاد من الباحثين أول الثمرات الحنظلية للقوميات المصطنعة لأغراض خبيثة، ومن أخبثها القضاء على الفضيلة وعلى المسلمين الذين هم مادة دين الله.

وما اصطناع تلك القوميات التي ذاق المسلمون ثمارها السيئة- ولا زالوا يذوقونها- إلا لباس جديد للحرب الصليبية التي تعاون بها معهم نصارى العرب منذ البداية حتى الآن، كما شهد عليهم بذلك قواد الحملة الصليبية العسكرية من الخيانة بالمسلمين في جميع البقاع العربية التي كانت ميدانًا للحرب وعرضة للغزو.

ثم في هذا القرن تعاونوا معهم التعاون الوثيق لمَّا لبست حربهم الصليبية ثوبها

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٤٤) في ١١- جمادى الأولى- ١٣٨٢هـ.

الثقافي الخداع الذين خيوطه سمٌّ نسجته أيدي الطغاة من القسس والملاحدة في الغرب والشرق .

ونراهم في الوقت الذي يتعاونون فيه جميعًا- حتى مع الشيوعية على الإسلام والمسلمين- يسهلون وسائل التبشير ، ويرعون المبشرين بالمسيحية ، ويحمونهم حماية لا يحظى بها إلا الدبلوماسيين ، ويوعزون إلى عملائهم وتلاميذهم من بني جلدتنا بتحبيب كتب الوجودية والشيوعية إلى الشباب ، ويملئون المكتبات من تلك الكتب التي تفسد القلوب وتدغدغ الغرائز ، ويسلطون الأضواء على كل ملحد أثيم وماجن خبيث رجيم ليحيطوه بهالة التعظيم؛ كي ينخدع به الشباب الذي فرغ قلبه من حب اللَّه ورسوله ، وتخلى عن رسالته السماوية التي شرفه اللَّه بها وعهد إليه بفتح القلوب بها وإصلاح جميع المجتمعات على ضوئها ، حتى أغروه بحمل رسالة الشيطان ورفض نداءات الرحمن الرحيم ، والاستجابة لجلادي الشعوب في كل مكان ، كاستجابة الأنعام للجزار الذي يناديها إلى المجزرة ، وأوغروا صدورهم على آبائهم وجيرانهم وحكامهم؛ ليشغلوهم بالتناحر معهم ثم بتحطيم بعضهم بعضًا كلما صفا لهم الجو ، كما جرى في عدة مناطق لم يكتسب أهلها سوى البؤس والشقاء مما عملت أيديهم من الثورات المجافية للدين ، وسوى التنكيل وضراوة بعضهم بدم البعض ، واكتظاظ السجون بالأشقياء والأبرياء ، والجناية على التاريخ بالمحاكم الباطلة المجنونة التي لا يقدم إليها الشخص إلا بعد إرهاقه الذي تخور به أعصابه وتذهب معنويته وإحساسه .

وفي الوقت الذي تنشط فيه المسيحية الكاذبة وأعوانها على إفساد العقيدة وتسميم الأفكار وبلبلة الخواطر يقمع دعاة الإسلام بشتى الأساليب ، ويرمون بالرجعية والطائفية ، ويضيق عليهم الخناق! .

وهذه خطة المسيحيين إخوان القوميين الذين نسوا حظًّا مما ذكروا به ،

فاتخذوا أعداء اللّٰه وأعداءهم أولياء يلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءهم من الحق، وعملوا جاهدين على طمسه.

وكل هذا انخداع منهم بدعوى الوحدة التي يزعمونها في كل مكان، ويعدونهم بها؛ معاكسة لقول اللّٰه الذي ضمن الوحدة بتحقيق عبوديته بإخلاص، واتباع ما أنزله دون إحداث، وضمن الشقاق لمن تولى عما أنزل إليه، كما هو مشاهد الآن وفي كل زمان ومكان، على الرغم من مغالطتهم لأنفسهم وجنايتهم على الحقيقة.

ومن أعجب العجب أنهم أعمتهم الأغراض الدنيئة والانقياد الأعمى لمتبوعيهم عن الواقع المحسوس والخطط الأثيمة التي سلكها ويسلكها إخوانهم المسيحيون ضد الوحدة التي يزعمونها في كل مكان، ومناصرتهم لأهل الشغب والفوضى في كل ثورة. وموقفهم السيئ المخزي معروف في لبنان، الذي أخروا به العمل الوحدوي سنينًا عديدة، وابتزوا به الأموال الكثيرة مع ذلك، ولا زالوا يبتزون ويخفون في صدورهم ما لا يبدون لنا، ويضعون لأجل اصطيادنا أناسًا منهم كالمنفصلين عنهم؛ لصالح العروبة المزعومة. وهم يلعبون على الحبلين أو على عدة حبال.

كما أن موقفهم في سوريا معروف، وفي العراق أخزى وأضل؛ إذ يجب على كل عربي أن لا ينسى سعيهم الحثيث الخبيث في سائر أنحاء العراق؛ لإبعاد الشقة وقصم روابط الأخوة والوحدة، وخداعهم للجماهير التي لا عقل لها هناك بشعارات التفرقة وغرس الأنانية.

كما يجب على كل عربي مسلم أن لا ينسى شعارهم القبيح: «تلكيف[1] نال استقلالخ .. دين محمد بطالخ» وأن لا نخدع بما يبديه الساسة من التصريح

(١) في الأصل: «فلكيف».

بخلاف الواقع ، أو التعامي عنه دجلًا أو تأليفًا فاشلًا ، نظن به أن العداوة في الدين والحقد الدفين يزول نهائيًا بجرة قلم أو طمع عاجل ، فالشاعر العربي يقول :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي

ومع شهرة عملهم القبيح وتنكيلهم بالمسلمين في « الموصل » ، و« كركوك » وغيرهما لم تقم عليهم أي لائمة من المسيحية العالمية المتشدقة بالديمقراطية! .

والعجب أنهم في الوقت الذي جمدوا به المسلمين عن نصرة دينهم- بل جعلوا ذكره عندهم عار يسمونه عن وجوههم ، ويتعلقون باسم الجنس والوطن الذي نهاهم اللَّه عنه وتوعدهم على التعلق به- أقول : في نفس الوقت يتبجحون بقتل المسلمين ويصرحون بإبادتهم في « الجزائر » ويركزون في قلوب جيشهم خاصة ، والمسيحية عامة ، أن هذا القتال وتلك الإبادة التي يسعون لتحقيقها إنما هي لنصرة دين المسيح والقضاء على المسلمين هناك!!

ومع مواصلتهم الأعمال الوحشية وتصريحهم المتكرر بالعزم على الإبادة لم يتناهوا عن هذا العمل الوحشي الفظيع ، ولم تقم عليهم صيحات من نصارى الشرق؛ إخوان المبتعدين عن ملة إبراهيم ، ولا من نصارى الغرب المتشدقين بالتنور والحرية والعرفان ، بل ولا من « جمعية حقوق الإنسان » الذي يعتبر موقفهم السلبي من هذه الجرائم كفر بمبدئهم الذي أسسوه في عصر النور الكاذب ، الذي هو في الحقيقة ظلام دامس وظلم طامس!!

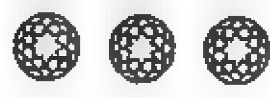
بل نسمع العجب العجاب من « جمعية الرفق بالحيوان » باحتجاجها على « روسيا » حين أرسلت كلبًا في سفينة الفضاء للتجربة! بعدما خرست ألسنتهم عن المجازر البشرية الوحشية التي تقوم بها فرنسا ، وقامت بها دول غيرها من قبل ومن بعد ، مما أوضحوا به فعلًا أن الكلب أعز قيمة وأرفع شأنًا من الإنسان ، ولا

سيما إن كان مسلمًا!!

فأين هم من رحمته والسعي لصالحه؟ ثم أين العروبة الصادقة لربها المخلصة لدينه الساعية لإعلاء كلمته التي تستحق اسم الإيمان الصحيح من هذه المواقف المخزية؟

من منهم الذي قطع علاقاته مع جلادي البشرية والفاتكين بالإسلام؟

من الذي قاطع فرنسا اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا ونزل مع إخوانه في المعركة الحاسمة وقاطع كل من يمولها ويمونها بالمال والعتاد؟ أو على العكس ساعدوها ببيع أعز السلع لديهم وأنفقها في أسواق العالم وأخذوا ثمنها من سلعها البائرة التي لا تنفق إلا في أسواقهم، وقليل منهم من استحصل على بعض عملة صعبة ينتفع بها، مع أن رفضها واجب عليه لمصلحة المسلمين والجهاد المقدس لو كانوا يقيمون للإسلام وزنًا ويعرفون واجبهم أمام اللّٰه ورسوله وكتابه العربي المبين.



نقد من الكويت(١)

[١١]

أكل هذا اندفاع أو انضباع؟

حادي عشرها : أن القوميين في سائر بقاع الأرض على اختلاف أجناسهم قطعوا ما أمر اللَّه به أن يوصل مما أوجب اللَّه عليهم من الموالاة في الدين والتناصر من أجله ، والتراحم العام بين بني الإنسان ، فأحدثوا قطيعة بين الشعوب الإنسانية وقبائلها ، لم يشهد لها التاريخ مثيلًا؛ إذ لا يهتم القومي في كل مكان ومن أي جنس كان إلا بوطنيته الضيقة وبني جنسه المحدود ، أو بمبدئه الذي يعتنقه والمصالح التي يراها نصب عينيه في غالب الأحوال .

وخذ قليلًا من كثير الأمثلة لمواقف القوميين السلبية في بقاع الأرض؛ كالمجازر الوحشية التي أحدثتها فرنسا كما تقدم ، والأعمال الوحشية التي عملها الإنجليز في « عمان » ولم يجد العرب المسلمون لهم نصيرًا من سائر ذوي القوميات .

ولو عمل أقل منها بنصارى أو شيوعيين لضجت المسيحية العالمية والشيوعية العالمية حتى يوقف الأمر عند حده؛ وذلك لانحصار الاهتمام بالمبدأ المحدث أو الجنس المقدس ، وخذ أيضًا موقفهم السلبي جميعًا من المجازر التي أحدثها « الهندوك » بالأقلية المسلمة في « الهند » تحت رعاية حكومتها على السمع والبصر .

فأي صيحة قومية انبرت للانتصار لتلك الأقلية المسلمة المسالمة العزلاء من السلاح؟

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٤٥) في جمادى الأولى- ١٣٨٢هـ .

وخذ بالاختصار الموقف السلبي لحكومات قومية من دولة الكويت الفتية لما تعرضت لأعظم تهديد بأبشع غزو واغتصاب! كيف وقفت بعض الدول القومية موقفًا سلبيًا؟ ووقف بعضها موقف المتفرج ، وبعضها أطلق الصيحات ضدها ، والبعض خذلها وصاح عليها في الأمم المتحدة وجند إذاعته ضدها لما اضطرت من عدم نصرة للاستنصار بالحليف خوفًا من هجوم مباغت؛ لأن خصمها في القرب منها على حد قول الشاعر :

.... **فهن ووادي الرس كاليد للفم**

ثم إن بعض تلك الدول لما تراءت لها المصالح وشخصت أمام عينها الأغراض أقبلت بوجه جديد ولسان حديد مما لا يجوز أن يفسر ذلك الإقبال بعد ذلك الإدبار إلا بذلك؛ لأن الحقيقة لا يمكن أن تبدو للنائم وتخفى على اليقظان .

وكل الذين تقاعسوا عن نصرة الكويت من أول وهلة حتى لجوؤها إلى ما لا تهواه هم من ذوي الاختصاص في اليقظة والسبق للإحاطة بما لم يحط به غيرهم ، ولكنهم بموقفهم هذا كذبوا أنفسهم بما يزعمونه من محاربة الاستعمار ونصرة الشعوب؛ إذ بموقفهم السلبي قضوا على جميع حركات التحرر في سائر الخليج؛ سواء القائم منها أو المأمول انبعاثها .

ونكتفي بهذه الأمثلة كأدلة واضحة على ضيق أفق القوميات وقصر نظر أهلها على مصالحهم الخاصة وأغراضهم التي يهدفون إليها ولو في « الكونغو » أو « كوبا » أو « الأرجنتين » وتقاعسهم عن الواجب الذي لا يرجون منه نفعًا ولو في أقرب قريب حتى يكون له مساس بالمصالح والمبادئ التي يخدمونها ، أما نصرة الحق للحق صدقًا وإخلاصًا فليسوا منها في شيء .

ثم ألا يستحي من حاز الدكتوراه أن يكتب في ذم الناشئ على تربية إسلامية بأن نظرته أممية لا قومية فيها ولا وطنية؟ يا للسخافة والوقاحة! يقلب المحمدة

مذمة؛ يعير الحسناء بسواد عينيها وتوريد خديها؟

ومن الأمثلة على قطعهم ما أمر اللَّه به أن يوصل أن كل دولة منهم لا تسمح لأحد أن يعمل في بلادها وهو يحمل تابعية لغيرها ، فأين هم من التشدق بالقومية والإنسانية؟

أما نصرة ملة إبراهيم والسعي لإعلاء كلمة اللَّه والقوامة على المسلمين عامة فليسوا منها في ورد ولا صدر .. وإلى اللقاء.



نقد من الكويت(١)

[١٢]

ثاني عشرها : أن القوميين في كل مكان خرقوا الميثاق الإسلامي الإلهي؛ ذلك الميثاق الذي يربط المشرقي بالمغربي ، والعربي بالأعجمي ، والأبيض بالأسود ، وعكسه .

فكما أن القوميات أحدثت قطيعة بين شعوب الأرض وقبائلها فقد جنت جناية أعظم بخرق ذلك الميثاق الذي يصبح بموجبه عباد الله المؤمنين إخوة في مشارق الأرض ومغاربها ، يتألم بعضهم لألم بعض ، وينتصر بعضهم لبعض ، ويشتركون في الولاء والعداء ، فلا يوالي أحد منهم المعادي لأخيه ، ولا يعادي من صاحب أخاه أو نفعه ، ولا من صاحبه أخوه .

ويستنصر بعضهم بعضًا في الدين فيجد منه النصرة والتضحية والفداء بكل غال ورخيص؛ استجابة صادقة لتلك الأخوة في الله ، ووفاء بذلك الميثاق الذي توعد الله من نقضه باللعنة وسوء الدار؛ لأنه يحصل بنقضه(٢) فساد كبير في الأرض؛ حيث بانتقاض تلك الروابط ينتقص عدو المسلمين للمسلمين من أطرافهم ويمزقهم شر ممزق ، ويوزعهم أشلاء وأجزاء ، كما حصل منه إذ نجح بادئ الأمر في خداعهم بالتعلق بالقوميات حتى مزق دولتهم الكبرى بعدما أفسد قلوب بعضهم على بعض ، حيث أغرى الأتراك بالقومية الطورانية والافتخار برجال المغول ، وجعلهم ينتقصون من تحت أيديهم ويغمطونهم حقهم ، حتى استفزوهم إلى قومياتهم التي انفصلوا من أجلها ، ودفع المسلمون أغلى ثمن

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٤٨) في ٩- جمادى الثانية- ١٣٨٢هـ.

(٢) في الأصل : « بنقده » .

للانفصال من دمائهم وأعراضهم وأموالهم على أيدي أعدائهم المسيحيين الذين ما زال العرب يتعلقون بهم ويتبجحون بأخوتهم التي نبذوا كتاب اللّٰه من أجلها، ورغبوا عن ملة إبراهيم وعطلوا رسالة اللّٰه، واستبدلوها برسالة كل شيطان مريد: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: الآية ٤].

واللّٰه يقول في ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: الآية ٢٥].

وبما أن اللعنة هي: الطرد والإبعاد عن رحمة اللّٰه، فها هي قد حقت عليهم في سائر المعمورة، كما حق عليهم السوء في الدار؛ إذ هم في شقاق بعيد وخصام كبير وتهابط بشع ستكون له أسوأ النتائج، وكل منهم يبذل مجهوده في صنع ما يدمر المدنية ويفتك بالحياة، ولا يزالون في عناء وشقاء تضطرهم حالتهم إلى بذل المادة العزيزة لمن يبغضونه؛ تأليفًا له ليكون في جانبهم، وكل منهم يلعب على الآخر.

وقد أذاق اللّٰه ما توعد به كثيرًا ممن نبش الوثنية والإلحاد باسم قوميته، كالأتراك ومن وراءهم، وكالنازية الألمانية التي أذاقها اللّٰه صنوف ويلات الحرب والدمار، وألبس اللّٰه باقيهم الخلط والتفرق في المذاهب والأذواق والأهواء؛ حتى أغرى بعضهم بعداوة بعض والتهيج عليه، فجعل بأسهم بينهم. هذا في الناحية السياسية وما يجر إليها.

ومن الناحية الاجتماعية؛ فهم في انحطاط خلقي سحيق، وأزمات يتخبطون فيها من بؤس إلى بؤس، وكلما حاولوا الخلاص من ذلك انتقلوا إلى أدهى منه وأفظع؛ لأنهم في عمى عن العلاج السماوي الحلّال لجميع المشاكل.

ولقد قاسى المسلمون من جراء القوميات أكبر ذل وأعظم فساد، تلك القوميات التي نبشها اليهود والنصارى، ثم تبناها وتولى كبرها تلاميذ اليهود من النصارى الذين لا زالوا فلاسفة القومية.

وقد نجحوا في خداع العرب وإبعادهم عن دينهم الصحيح ورسالتهم السماوية الخالدة الصحيحة، وأغروهم بحمل رسالة الجبت والطاغوت وفق مخطط «زويمر» و«دنلوب» ونحوهما، وجعلوا الدين سبة وقذاة في أعينهم وعار يسمونه عن وجوههم، والدعوة إليه رجعية وطائفية، والتخلق بأخلاقه وآدابه تخلفًا وهمجية أو وحشية.

وكان العرب المسلمون لا يسمعون ولا يبصرون ما يقوم به المسيحيون من الدعوة لدينهم ليلًا ونهارًا سرًا وجهارًا، حتى إنهم يدفعون الإغاثة للاجئين باسم: «يسوع المسيح» ويغرونهم على التنصر.

وفي الحبشة يسدون على المسلمين منافذ الكسب والمعيشة حتى يضطروهم إلى التنصر!

ولهم في أكثر أفريقيا وسائل كثيرة لتحويل المسلم إلى المسيحية قسرًا، دون أن تقابل دعوتهم بما يصرفها ويدفعها، ودون أن تقام عليهم الصيحات بما فعلوه من وسائل النكاية بالمسلمين، على الرغم من أن عملهم هناك وفي كل مكان لصالح «إسرائيل» ضد العروبة المزعومة، وجميع الفلسفات التي يبثونها بيننا هي من ابتكار اليهود من شيوعية أو وجودية أو ماسونية، وما إلى ذلك مما ينشر تحت اسم: «علم النفس، وعلم الحيوان، وعلم الاجتماع، ونحوه»

ولا يزال المسلمون يقاسون الذل والهوان من جراء القوميات؛ إذ نجد المتعلقين مثلًا بالقومية العربية قطعوا ميثاق اللّٰه الإسلامي الذي يربطهم بمسلمي الصين والهند والباكستان والملايو وأندونوسيا والحبشة وغيرها، وأخلصوا مع

القوميين الوثنيين هناك من هندوكي وغيره، على الرغم من اعترافهم بإسرائيل وخدمتهم لقضيتها. ويلقبون الوثني الهندي باللقب الذي لا يجوز إلا للأنبياء، وهو معترف بإسرائيل مناصر لها متاجر معها ساع في صالحها.

ويغمطون حق المسلمين في باكستان الذين قلوبهم مع العرب من أجل الإسلام ولم يعترفوا بإسرائيل ولا عملوا لصالحها كما عمل غيرهم ممن يحبه القوميون ويشيدون بذكره.

وكان الواجب عليهم أن يملئوا الدنيا صيحات على طغاة الهند من أجل «كشمير» التي يجب عليهم أن لا تقل عندهم شأنًا عن فلسطين، كما يقتضيه الواجب الإسلامي الذي لا يقدس الجنس والوطن ولا يحترمها، وإنما يحترم المسلم حيثما كما، ومن أي جنس كان، وفي الأثر: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»(١). وفيه أيضًا: «لعن اللّٰه أمة ضاع الحق بينها»(٢).

وأي حق أعظم مما ضاع للمسلمين في الهند الذي لا تهتم العروبة المزعومة ولا سائر القوميات المنبوشة به؟ فزعيم الهند المقدس عندهم قد شرد وأهلك ما يقارب اثني عشر مليونًا من المسلمين، كانت جريمته بهذا تزيد على جريمة إسرائيل أكثر من عشر مرات، فإذا أضيف إلى ذلك اغتصابه منطقة «كشمير» وحيفه على المسلمين في «كلكته» حين القسمة التي ساعده عليها الإنكليز، تضاعفت الجريمة فوق ذلك أضعافًا مضاعفة عن جريمة إسرائيل الملعونة!!

والقوميون لم يتفوهوا بكلمة واحدة في نصرة المسلمين؛ لأن كل قومي في أنحاء الأرض لا يهمه إلا بني قومه ومصالح وطنه الخاصة وما يلائم سياسته ويحتف بظروفه وملابساته.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط(٧٤٧٣) من حديث حذيفة رضي اللّٰه عنه. وقال الألباني في الضعيفة (٣١٠): ضعيف جدًا.

(٢) لم نقف عليه.

وإذا عذرنا القوميين الذين لا تربطهم بالمسلمين رابطة فكيف نعذر العرب الذين هم من أبناء حملة الإسلام سابقًا ، ويتعلقون بالتاريخ ، ويتمسحون بالإسلام عند الحاجة؟ وموقفهم من نوائب المسلمين موقفًا سيئًا موحشًا غير مشرف ، على الرغم من حسن مواقف المسلمين معهم في كل نائبة ، وسوء مواقف إخوانهم في القومية من مسيحيين ووثنيين ، حيث عملوا ويعملون دائمًا لصالح إسرائيل جهرًا على عمد .. وإلى اللقاء .



نقد من الكويت[١]

[١٣]

والقوميون يبررون مواقفهم السيئة المخزية من المسلمين باعتراف حكومات علمانية بإسرائيل.

وتلك الحكومات لا يجوز تحميل شعوبها جريرتها؛ لأن رجالها قوميون سبقوا غيرهم إلى تبني القومية الطورانية الوثنية، ونفضوا أيديهم من ملة إبراهيم، وجروا على المسلمين جميع أنواع الويلات في «البلقان» وغيرها كما تقدم. وكانوا هم السبب في محو معالم الإسلام هناك، والجرائم التي عملها ربيبهم «أتاتورك» وخلقه السيئ أعظم من اعترافه بدولة يهودية.

أما تجديدٌ لاعتراف سابق من زعيم قومي مقدس عندهم هو «مصدق» وهذا التجديد كتحصيل حاصل.

وإذا كان بعض زعماء العرب يكرر مطالبته بحدود سنة ٤٨ المحددة من قبل الأمم المتحدة، وإسرائيل ترفض ذلك، فهل لهذا الطلب معنى غير الاعتراف بقيامها والاختلاف معها على الحدود؟!

ومهما كان فالواجب قصر اللوم على الحكومة أنيتات[٢] حينما تغيب عنهم تلتفت إلى المسلمين فيما تأتي وتذر! ولكنهم يعرفون أنهم إذا قصروا اللوم على هذا وتلك طولبوا بتعميم اللوم؛ ولذا فهم يلجون في الخصومة على المسلمين الأبرياء الأطهار من هذه القضية، ويضربون الذكر صفحًا عمن طعنهم في الصميم بذلك؛ لاشتراكهم في عداء المسلمين واتفاقهم في المبدأ القومي

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٥١) في ١- رجب ١٣٨٢هـ.

(٢) كذا في الأصل.

المخالف لوحي اللّٰه وتنزيله على رسله من أولهم إلى آخرهم .

ثم العجب أن القوميين لا يرضون من حدوث دولة إسلامية ، ويصيحون عليها لو نشأت ، كما صاحوا على دولة باكستان؛ زاعمين أن ثورتها الأخيرة ثورة رجعية!

فإذا صار الأمر إلى ما يريدونه من دولة علمانية واعترفت بإسرائيل حملوا جريمتها على المسلمين الذين ليس لهم من الأمر شيء؛ لعدم من يساندهم . فمن هم الجناة على المسلمين إذًا؟

لا شك أن الجاني أكبر جناية هو الذي نقض الميثاق الإسلامي وانفصل بقوميته عن المسلمين ولم يعبأ بقضاياهم ، بل خذلهم وأسلمهم لمن يتحكم بهم ، فناقض بفعله دين اللّٰه وكذب فيما يزعمه .

ثم لماذا لا يقيمون الصيحات على إخوانهم المسيحيين لاعتراف الدول التي يرأسها مسيحيون بإسرائيل في أفريقيا وآسيا؟ أو هؤلاء ذنبهم مغفور وسعيهم مشكور ، حتى ولو عملوا جميعًا لصالح إسرائيل كما هو واقع؟! ولذا فهم يتعاونون معهم ويسدون عليهم المدائح .

ثم انظر إلى موقفهم السلبي المشين من المجازر التي أحدثها الهندوس في قرى المسلمين ، والوحشية التي ارتكبوها بمساندة الحكومة من الهتك والإحراق والقتل في جبل « بور » في العام الماضي ، وما فعلوه هذه السنة من الوحشية في « مالدا » وغيرها في البنغال الغربي . هل تحرك للقوميين قلم أو نطق لهم لسان؟ أو انطلقت من إذاعاتهم صيحات لنصرة الحق؟ بينما تعج بالباطل؛ إذ تتعالى صيحاتهم على حوادث « الكونغو » ومقتل النصراني الشيوعي « لومومبا » وعلى مساعدة لاجئ « كوبا » لاسترجاعها ، مما لا يجب أن يهمهم في شيء ما داموا متخلين عن رسالة اللّٰه جل شأنه .

عجبًا كيف تتعالى صيحاتهم في غالب الإذاعات على أولئك وتخرس عن ما يجريه أعداء اللَّه بالمسلمين من أقبح وحشية عرفها التاريخ بفرية يفترونها عليهم، فضلًا عما عملوا بهم سابقًا؟!.

أهذه المثل العليا للقومية التي نبشها «زويمر» وعمل على تركيزها في الشرق «دنلوب» و«مورغورنجد» وأضرابهم من ملاحدة اليهود والنصارى؟!

ثم اعجب أيها القارئ من جعلهم النصراني الشيوعي «لومومبا» شهيدًا، ومشايعتهم له، وإعلان شهادته على منابر المسلمين التي عبثوا بها وجعلوها أداة لأغراضهم على الرغم من قول اللَّه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: الآية ٢٣]، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٨] وتشبيهها أيضًا بأنها ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: الآية ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات. وهم يخالفون حكم اللَّه ورسوله في تحقيقهم الشهادة للكافر وتسميم الأفكار والجناية على العقول، بينما تخرس ألسنتهم عن شهداء المسلمين في الهند وفي «يوغسلافيا» وبينما هم يساعدون الشيوعية على المسلمين في «أندونيسيا» أسوة بساداتهم من الروس والأمريكان، إذا هم يخذلون المسلمين في الحبشة الذين يلاقون من أبشع أنواع الإفناء والاضطهاد، وهم عدد ضخم يبلغ عشرة ملايين، لا يجوز تضييعه عقلًا فضلًا عن الدين الذي يجب إسناده لكسبه كما تفعل الشيوعية لكسب الشعوب. ومع هذا خرست ألسنتهم عما تربطهم به وشائج الدين لو كانوا يقيمون لها وزنًا، بل عكسوا الأمر.

وكذلك خرست ألسنتهم عن استنكار العدوان على شعب «إرتيريا» المسلم الذي أجبر على الانضمام للحبشة، وعن زعمائه المغلولين في الأصفاد، وما تقوم به طغمة هناك من التنكيل بالصومال في «أوغادين» بشتى الوسائل حتى يتنصروا

أو يهلكوا ولم ينتصروا لهؤلاء المسلمين الذين يلاقون صنوف المحنة والعذاب. كل هذا من نقضهم للميثاق الإسلامي، وقطعهم ما أمر اللَّه به أن يوصل.

ولا يهيج نفوسهم أو يحرك قلوبهم ما يقوم به المسيحيون لنصرة إخوانهم في كل مكان، ولا ما يقوم بهم الشيوعيون لنصرة عملائهم في كل مكان، بل تجدهم في الغالب يتعاونون مع أولئك على المسلمين بحجج وثنية أو بدعية لا يجيزها الشرع! فأي نقض لميثاق اللَّه أعظم من هذا النقض؟

ولو أنهم بذلوا نشاطهم منذ ...[١] في سبيل الإسلام، ونشر دعوة اللَّه وغلب[٢] ما يسمونهم بالرجعيين لكسبوا الصين قبل أن تكسبه الشيوعية، وكسبوا شعوب آسيا وأفريقيا، وربما كسبوا بعض أوربا والبلقان، ولم يدعو لغيرهم مجالًا أو فراغًا ينفذوا منه، ولتحطمت على صخرة الإسلام العاتية مطامع كل جبار عنيد، فحققوا عروبتهم المزعومة بحسن الصدق مع اللَّه والإخلاص لدينه والعمل لرفع كلمته.

هذا، وإن المسلمين همهم قلبًا وقالبًا مع هذا النكوص العظيم، فكيف لو عملوا بما ذكرنا؟

وقد يقول قائل: إن المانع لهم من ذلك انشغالهم بفلان وعلان.

والجواب: أن الصراع الشخصي ليس مانعًا من العمل لخير الإسلام والمسلمين، بل هو خير حافز على ذلك، وأكبر سبب لنصر اللَّه وغرس المحبة في القلوب، وإنهاء الفتنة بسرعة فائقة، وائتلاف القلوب على دين اللَّه، كما جرى لأسلافنا الذين هم أشد شقاقًا وأكثر تناحرًا قبل الإسلام فألف اللَّه بين

(١) كلمة غير واضحة في الأصل.
(٢) كذا في الأصل.

قلوبهم عليه ومكنهم من أعدائهم واستخلفهم في الأرض؛ تصديقًا لوعده ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ١١١]

ولكن الغاية التي من أجلها نبشت القوميات مخالفة لذلك ومعاكسة له تمام الانعكاس؛ إذ لم تنشأ إلا لهدم الدين والقضاء عليه، لكنهم يموهون على الناس تارة بالتمدن والتطوير، وتارة بالتظلم من الأوضاع، كأنهم إذا حكموا صاروا وردًا بلا شوك وعسلًا بلا شمع.

ومن نظر إلى مخططاتهم منذ نشأوا حتى الآن في جميع الميادين وجدهم كمن يضرب أغصان الشجرة بالفأس ويتلفها وهو مستظل بها، فهذا موقفهم من الإسلام والمسلمين.



نقد من الكويت[1]

[١٤]

نعم إنهم ورثوا الأرض بفضل اللَّه ثم بفضل الإسلام، وتولدوا من آباء مسلمين في الغالب، أو تربوا في أحضانهم وتفيئوا من الإسلام ظلًا ظليلًا، ثم تنكروا له وأخذوا يعملون جاهدين على محوه من القلوب والصحائف، وتحطيم أهله بشتى الوسائل والأساليب، ويتعاونون مع كل مغرض على أهله والتمرد على تعاليمه وهدم قواعده من الأساس، كما سنوضح ذلك في الأمور التالية، إن شاء اللَّه.

ولا زالوا في طغيانهم يعمهون، وفي ابتعادهم عن مدلول الإسلام سائرين، فلا تجد القومي يساند المسلم في أي نائبة، ولو ساعده في بعض الأحيان لغرض ما فإنما يساعده باسم القومية والوطنية، وما إلى ذلك من مصطلحات اليهود والنصارى العصرية.

ولا يذكر القوميون الإسلام أو يعولون عليه إلا عند الحاجة والجدل؛ لأن قوميتهم فقيرة تحتاج حينئذ إلى من يسندها، وحتى عند الحاجة لا يقبلونه على وجهه الصحيح، بل يسطون على نصوصه بالتأويل والتحريف، أو يلبس على العامة بذكر كلمة «الدين» و«الأديان السماوية» أو «الرسالات السماوية» وهو الغالب؛ ليخدعهم بهذه الكلمة للجملة تكتيكًا خطيرًا يلعب به على السذج حتى يزجهم فيما يريد، وكثيرًا ما يخدعون الناس بدعوى الصدق والنزاهة؛ ناسين أن من لم يصدق مع اللَّه ويخلص لدينه فهو منافق لا بد له من سلوك كل طريق سلكه المنافقون ويتخلق بكل خصلة لهم.

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٥٢) في ٨- رجب ١٣٨٢ هـ.

وما جحودهم للحقائق ونكرانهم لجميل الإسلام الذي وسع رقعتهم ونشر لغتهم إلا لما ران على قلوبهم من أوضار الثقافة الاستعمارية التي هي حرب صليبية بثوب جديد، والتي تقبلوها بجميع ألوانها الزائفة الخبيثة حتى انقطعت عندهم من جرائها صلة الأرض بالسماء، والأجسام بالروح، والصناعة والحضارة بالإيمان والأخلاق.

وما تنكرهم للمسلمين بقطعهم صلتهم بهم من غير مبالاة إلا بسبب ذلك، وقد ساعدوا على هذه القطيعة بتماديهم في ترسم خطى أعداء اللّه وأعدائهم. فمتى يربئون بأنفسهم عن هذه الخطة الأثيمة الوخيمة، ويخافون من الخالق ويستحييون من المخلوق فينتفضوا الانتفاضة الإيمانية الصحيحة التي يحققون بها استقلال شخصيتهم من الاستسلام الفكري لأعداء اللّه، ويخرجون من جديد بالعبقرية المحمدية والعقيدة الإسلامية التي يخشون بها ربهم فقط، ويوفون بعهده الإسلامي إلى كل مسلم في أنحاء المعمورة، ويصلون ما أمر اللّه به أن يوصل، ويحسنون المعاملة تمامًا مع الخالق والمخلوق، فيملئوا الدنيا عدلًا ورحمة وعلمًا وحكمة، ويكسبوا أكثر الأمم شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا بدلًا من أن يعيشوا في دائرة ضيقة ينحصر فيها تفكيرهم على أنفسهم متخلفين عن قيادة العالم والتفكير لأجله عمومًا كما طلبه اللّه منهم، ونقل القيادة من بني إسرائيل إليهم.

فلعب عليهم عملاء اليهود من ملاحدة النصارى والمحسوبين على الإسلام حتى أردوهم إلى هذه الحالة التي يدورون بها في حلقة مفرغة، ازداد بها شقاقهم وفساد أخلاقهم في كل ميدان.

ثالث عشرها: أن القوميين نبذوا رسالات اللّه، وأعرضوا عن كتابه في أحوج ما يكون الناس إليه، فجميع العالم اليوم- خصوصًا بعد الحرب العالمية الأخيرة-

في أزمة دينية بحيث أصبح مستعدًا لقبول كل ما يسمى دينًا ، حتى إن « البوذية » صار لها مجال في أوربا؛ لأنها متعطشة إلى دين ينقذها من الضلال والانحلال ، مع ما يتمتع به القوميون من ذلاقة لسان وقوة بحث وتفنن في أساليب الدعاية والنشر ، قد جندوا أنفسهم للشيطان وتعلقوا بالجنس والأوطان ، كعادة من انسلخ من آيات اللَّه وملئوا الدنيا ضجيجًا وعجيجًا بما لا يؤثر إلا في الأغمار من الشباب العربي الذي تؤثر عليه العاطفة أو يميل للشهوات .

أما أن يؤثر فيمن سواهم أو يكسب أحدًا غيرهم فمن المستحيل ، حتى في أفريقيا التي يجزع أهلها من ذكر القومية ، وقد يلجأون عنها إلى البربرية لو فرضت عليهم ، ولو جند القوميون أنفسهم للَّه وحمل كتابه وتبليغ رسالته لسبقوا الجامدين والمنهمكين في الشهوات من قومهم شوطًا بعيدًا وسبقًا صحيحًا يكسبون به ما بين المشرقين والمغربين حقًّا .

واللَّه إن قواهم المادية والأدبية بجميع ضروبها التي بذلوها في سبيل الجبت والطاغوت لو بذلوها في سبيل اللَّه لإعلاء كلمته بصدق وإخلاص لحازوا قصبات السبق في كل ميدان ، ولم يدعوا فراغًا لانتشار الشيوعية والديمقراطية ، أو غيرها من الألقاب والمذاهب الملعونة ، وكانوا هم الغالبين .

هم بيت القصيد .. هم المعسكر الذي بيده الحل والعقد .. هم الذين يصلحون ما أفسده الناس .. هم الصالحون الذين يورثهم اللَّه الأرض .. هم الربانيون فيها .

ولكن برفضهم رسالات ربهم ونبذهم كتابه حسب المخطط الذي برزوا به من أجله عكسوا الأمر فحق عليهم وعيد اللَّه من الإمداد في الضلالة والازدياد في الشقاق والحياة التعيسة المحفوفة بالنكد والأخطار ، وصاروا يتقلبون في مسخ معنوي بأزيائهم وأخلاقهم ، وتفكيرهم وتقاليدهم ، وسائر أحوالهم .

فيا لها من قومية بدايتها ونهايتها وغاية أهلها الإعراضُ عن كتابها الذي أنزله اللَّه ذكرًا لها وشرفًا أيما شرف لمن قام به .

بل نرى كل قومية تتبجح بنبذ رسالة اللَّه ، وحمل رسالة كل طاغوت احتل عندها الصدارة من أي مبدأ كان! وهذا هو المسخ المعنوي المشين؛ لأن القومية بمجردها فقيرة ، إذ لا تعدو كونها جنسًا من الأجناس ، فلابد لها من مادة طيبة أو خبيثة ، فإذا رفضت الطيب العذب السلسبيل الذي أكرمها اللَّه به استبدلته بالخبيث واستساغت القبيح والصديد الذي يمجه الملاحدة والطغاة على كل من أعرض عن ذكر اللَّه وتعلق بالمادة . فهم الذين أفسحوا المجال لانتشار كل خلق ذميم .

والواجب على كل من يعتز بقوميته أن يجعل منها أكبر حافز على حمل رسالة اللَّه وكتابه؛ ليعرف بهما ويكون رأسًا لا يعول على غيره ، فيظهره اللَّه بدينه على من سواه ، كما جرى ذلك لعدة دول غير عربية حصلت به على العز والسؤدد كـ «السلاجقة» و«الغزنويين» فاتحي الهند ، و«الأيوبيين» الأذربيجانيين ، وسلاطنة الأتراك الأوائل ، وغيرهم ممن توعد اللَّه العرب بهم إن هم تخلوا عن ذلك ، حيث قال : ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٩]

وقد أجرى سبحانه وتعالى في سنته هذا الوعيد فرفع برسالة الغفران أقوامًا ووضع بها آخرين .

ومن المؤسف جدًّا أن العرب سعوا حثيثًا إلى ما يرديهم ويجعلهم في ضعة ما بعدها ضعة ، كانوا بها أضحوكة بين الأمم وألعوبة لهم!

وإذا نظرت إلى تماديهم في خططهم الأثيمة وسوء برامجهم في إذاعاتهم وصحفهم عرفت أنهم ممن : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: الآية ١٩] تلك

الإذاعات والصحف المشحونة بلهو الحديث وزور القول، والمهازل والخزعبلات التي لا يعلمها إلا من هو في أوج عزه وغاية أمنه فارغ من كل مهمة. أما أمثالهم فكيف يلهون ويطربون، وفي المهازل يمرحون، مع توالي الطعنات عليهم في كل ناحية؟ وما يرتقبهم في سمائهم الملبد بالغيوم أدهى وأمر ولكن حقًا أنساهم اللّٰه أنفسهم كما نسوه وأعرضوا عن رسالته وكتابه واتخذوا دينهم هزؤا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا بالتفاخر والتكاثر، فاستعبدتهم المادة من جهة، واستعبدهم رواد مذاهبهم من الأشخاص الذين اتخذوهم أندادًا من دون الله؛ يتقبلون جميع ما صدر منهم، ويحاولون فرضه على الناس والمسلمين؛ شأن الكاتب وأضرابه ممن يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًا مما ذكروا به.. مساكين كيف يعولون على الناس ويشحذون من قلوط الملاحدة كأنهم صفر اليدين من هداية القرآن، أو في بطالة مفروضة عليهم عن حمل رسالة اللّٰه التي يكونون بها سادة ويكسبون جميع الأمم، ثم لا يستحيون مع إفراطهم في الإعراض أن يسبغوا الألقاب الجليلة على كل منسلخ من وحي الرحمن نابذ لرسالته خائن للّٰه ورسوله، ويصفونه بالإخلاص ونحوه، واللّٰه حصر الإخلاص فيمن وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزَاب: الآية ٣٩] ومن عداهم فلا يجوز وصفه بالإخلاص، بل يرجع فيه إلى ما وصفه اللّٰه به من مثل السوء الذي يستحقه بإعراضه وتفريطه.. وإلى اللقاء



نقد من الكويت(١)

[١٥]

فإن اللَّه تعالى ضرب المثل السيئ لمن فرط في رسالته، ولم يحمل كتابه العزيز بالعمل والتبليغ، فشبهه بالحمار يحمل أسفارًا؛ جعله بهذه المثابة لجهله وبلادته.

وهذا النوع من الناس الجدير بهذا الوصف: هو من جهل قيمته الإنسانية فتخلى عن حمل رسالته السماوية التي شرفه اللَّه بها.

أما النوع الآخر الذي هو أشد جريمة فذلك الذي انسلخ من آيات اللَّه، وجعل إلهه هواه، واتبع خطوات الشياطين والطواغيت، فتجاوز حده المأمور به والمخلوق لأجله وتبنى مبدءًا أو مذهبًا مخالفًا لوحي اللَّه، وأخلد إلى الأرض؛ تقديسًا للجنس والوطن رغبة فيهما وفي كسب المادة من أجلهما.

فهذا النوع ضرب اللَّه له مثلًا أسوأ من الأول؛ إذ قال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦] وهذا المثل بهذا النوع من معجزات القرآن الخالدة التي تحققت في هذا الزمان الذي نرى فيه أصحاب القوميات والوطنيات يتنابحون تنابح الكلاب في صحفهم وإذاعاتهم، ويتجاورون بالشتائم والوقاحة، وإذا سكت بعضهم لم يسكت الآخر حتى يعود إليه؛ لأن مبلغهم من العلم والتقدم المزعوم تأليه أنفسهم ومبادئهم الوثنية، وتقديس أوطانهم ومذاهبهم المادية. فهذا المثل السيئ منطبق عليهم تمام الانطباق: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦]

(١) صحيفة القصيم العدد (١٥٣) في ١٥- رجب ١٣٨٢هـ.

بل نرى أهل هذا النوع متصفًا بخسائس الصفات الكلبية التي ذكرها المفسرون لهذه الآية مما لا نطيل بذكره، لكن ننبه هنا إلى أن من وصف المقصرين في حمل رسالتهم أو المعرضين عنها المنصرفين لغيرها من مذاهب الغرب والشرق بأي وصف محمود فقد خالف مقصود اللّٰه وتعدى حدوده، وأنه لا يجوز له بأي حال أن يصف أحدًا بخلاف ما وصفه اللّٰه به فيكون مستدركًا عليه، كما أنه لا يجوز له أن يصف بالخيانة من وصفه اللّٰه بالأمانة كالأنبياء والصالحين من أتباعهم، ولا يجوز له أن يصف بالظلمة والتأخر والقسوة ونحوها من وصفه اللّٰه بالنور والهداية والرحمة والحكمة والحياة كشرعه وكتابه ونبيه، فكذلك لا يجوز له أن يصف بالإخلاص والبطولة والتحرر ونحوه من وصف اللّٰه أعماله بالخيانة والفسق والنفاق والجحود ونحوه، وشبهه بالكلب أو الحمار.

ومن العجب أنهم جمدوا الدعوة إلى الإسلام، وعطلوا مواهب الشباب من نشر الخير والنور الذي جاء به محمد ﷺ، وسخروهم بكل مكر وإغراء لحمل الشرك الجديد والإثم والعدوان، وحجتهم عند الخصام عدم إغاضة النصارى وامتعاضهم، في حين أن النصارى جادون في نشر مسيحيتهم وبث إلحادهم، ومئات الألوف من المبشرين تصول وتجول وتلقى الإعانات الهائلة من حكوماتها! وإن كان بعضهم قوميًا كفرنسا، ويختطفون الناس عن الإسلام بما يبذلونه من خدمات صحية وتعليمية. وحكوماتنا القومية سادرة في غيها وابتعادها عن اللّٰه، ولا يلتفت أحدهم إلى الدين إلا للتضليل أو خوف الهزيمة، فأين هم من مراقبة ربهم والاقتداء بنبيهم ﷺ؟

بل بدأوا من حيث انتهت أوربا التي أخذت تتلاشى فيها نعرة القوميات، وما أغنى الشرق الإسلامي عنها لو طهرت أدمغة قواده وناشئتهم من الثقافة الاستعمارية التي جعلتهم يبدلون نعمة اللّٰه كفرًا، ويرجعون بالإنسانية والمدنية

إلى الوراء وهم يتبجحون بدعوى التقدم الكاذب، ويتبنون ثورة شريرة على الدين والأخلاق، ثورة يعيدون بها عصر الجاهلية بل أخبث منه بكثير؛ لأنها باعثة للأنانيات، مثيرة للشهوات، مرتبطة بأفكار سطحية لا تملك قداسة عقيدة دينية ولا قوة عاطفة صحيحة ولا تستطيع أن تجمع بين شعوب مختلفة وبلاد متفرقة، كيف وقد أخفقت؟ وستخفق في الجمع بين شعوب متحدة في اللغة والدين مشتركة في قضايا كثيرة. ومن أخفق في جمع نفسه ففي غيره أشد إخفاقًا!

أما رايتهم الثورية العظيمة التي حملهم اللَّه إياها فعصوه وطرحوها فهي الكفيلة بقوة الاجتماع ومتانة الأخوة الإسلامية التي امتلأ التاريخ من شواهد قوتها ومتانتها، ونقتصر من ذلك على التذكير بصلاح الدين الأيوبي زعيم الجهاد الإسلامي، الذي افترى عليه خطباء العروبة الخاطئة بأنه رائد القومية الأول، كما افترى اليهود والنصارى على خليل اللَّه بأنه يهودي أو نصراني! فكذبهم اللَّه بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٧].

وحاشا على صلاح الدين أن يكون مشركًا يدعو إلى العصبية أو يقاتل من أجلها، أو يتعزى بعزاء الجاهلية الذي نهى عنه النبي ﷺ(١) ونفاه من الإسلام، ويكذب فريتهم على هذا الزعيم المسلم تاريخه المجيد، ونسبه الأعجمي الأذربيجاني الذي شرف بإسلامه، واجتمع عليه تحت راية الإسلام لا راية القومية، التي لم يعرفها هو ومعاصروه، اجتمع عليه تحت الراية الإسلامية جميع العرب والأكراد والمصريين والسودانيين وغيرهم من الأجناس البشرية، وألهب

---

(١) يشير إلى حديث أبي بن كعب، وفيه: «من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوا». أخرجه أحمد ٥/ ١٣٦، والنسائي في الكبرى (٨٨٦٤)، وابن حبان (٣١٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٨). وفي الباب من حديث جابر، وفيه: «دعوها فإنها منتنه». عند البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

صدورهم بروح العقيدة الإسلامية والحماسة الدينية ، بحيث استماتوا في سبيل الشهادة ابتغاء مرضاة اللّٰه والجنة . لم يحل في قلوبهم أو يسنح في خلدهم شيء من هذه النعرات العصبية الجاهلية التي نبشها المستعمر بثقافته ودهائه وأظهرها بثوب جديد يحمل في طيه ألوانًا ومذاهب شتى من مبتكرات كل ملحد أثيم .

وكان من أمر ذلك القائد والزعيم المسلم أن بدد جموع الصليبيين وأخرجهم من البلاد المقدسة صاغرين ، ولم تظهر عليه ثورة أو جموح من سائر جوانب معسكره العالمي العظيم المتكون من خليط من البشر؛ لأنه يجمعه أقوى رباط عرفه التاريخ؛ هو رباط العقيدة والحماسة الدينية ، ليست الروابط المحدودة الضيقة المصطنعة للتفريق بين الأمم التي لم يتلطخ بها قلب هذا القائد المسلم ولا قلوب من حوله ، ولم يعرفها إلا السطحيون الذين نشؤوا في الإسلام وهم لا يعرفون الجاهلية ، فلعب عليهم المستعمر بثقافته وعمل على إبراز رجال منهم بشتى وسائله الخبيثة؛ ليحتلوا الصدارة بينهم فيقودوهم للضلال بجميع أنواعه ، ويحولوا بينهم وبين ما يحصل به التكتل الصحيح الذي يحول دون عودته إلى الأبد ، ويشغلوهم بتكتل محدود يدورون به في حلقة مفرغة يزداد بها شقاقهم وفساد أخلاقهم فيلتفت فريق منهم ذات اليمين وفريق ذات الشمال ، فيعود الاستعمار بألوان أخرى تناسب الوضع والتخطيط بألوان يكون فيها أشد نكاية وأعظم أضرارًا .

ومن هذا المثل الأيوبي يتضح لذي التفكير الحر كذب القوميين على الإسلام بدعوى الطائفية؛ إذ منشؤها الأنانية وإن تلبس أصحابها بالدين فلا يضيره ، كما سنوضحه .



نقد من الكويت[1]

[١٦]

ثم إن القوميين بتجميدهم الدعوة إلى الإسلام ، فضلًا عن رفضه والامتعاض من ذكره ، قد أساؤوا إلى العرب جدًا ، على الرغم من تبجحهم بأنهم يعملون لخير العرب ولصالحهم ، واللَّه يشهد إنهم لكاذبون ، ويشهد الصالحون من عباد اللَّه في كل مكان لما رأوه عيانًا أنهم جنوا على العرب وأساؤوا إليهم إساءة لا مثيل لها في التاريخ؛ لأنهم عملوا على قطع صلتهم عن هذا العالم الإسلامي الفسيح الذي يدين بحبهم ويؤمن بقيادتهم ويتعطش إلى إمامتهم ، وذلك بحجة سخيفة هي إرضاء لأقلية غير مسلمة تعيش في العالم العربي؛ أقلية ضئيلة لا تبلغ أربعة في المائة .

بينما المسلمون الذين قطعوا صلتهم بهم ، وخرقوا الميثاق الإسلامي الذي يربطهم بهم ، ولا زالوا يحبونهم مع ذلك ، يبلغوا أضعاف العرب في الكثرة .

فيا لها من مساومة على صفقة خاسرة ، خسارة العرب فيها محققة ظهرت نتائجها السيئة في كل مكان ، وما أوهى حجتهم وأسخفها في دعوى إرضاء تلك الأقلية غير المسلمة من عدة وجوه :

أولها : أنه لا يجوز إرضاء المخلوق بسخط الخالق؛ لأنه جل وعلا لا يرضى من عباده إلا بإقامة دينه الذي هو ملة إبراهيم ، ولا يبيح لأحد التنازل عن شيء من أمور الدين أو التسامح على حسابه ، فمن عمل ذلك فهو مخالف له يكون كافرًا أو فاسقًا على حسب الأهمية لما ضيعه من دين اللَّه .

ثانيها : السير على ما يرضي أعداء اللَّه وأعدائه ، فإنهم لا يرضون منه إلا أن

(١) صحيفة القصيم العدد (١٥٤) في ٢٢- رجب ١٣٨٢ هـ .

الاسترسال في مرضاة الكافر لا حد لها.

فإذا ترسم المسلم باطراح دينه واتباع ملتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٠] كما أنهم فيما بينهم لا يتراضون؛ لاختلاف مللهم ونحلهم: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧]

ولما عجزوا عن رد العرب المسلمين عن دينهم بقوة السلاح لجؤوا إلى الفتنة والدهاء فأغروهم بفتنة الشبهات والشهوات، واحتالوا على عقولهم بهذه الألاعيب التي أخرجوهم بها عن ملة إبراهيم عليه السلام إلى جاهلية جديدة وردَّة جديدة كانوا في شبهاتها يعمهون.

ثالثها: أن الإسلام لا يبيح لأهله اضطهاد غير المسلم مهما بلغ من القلة والضعف، بل يأمر بالعدل والإحسان والبر لكل من لم يشهر على المسلمين سلاح الحرب أو سلاح الفتنة والإغراء.

وقد عاش النصارى وغيرهم مع المسلمين منذ فجر الإسلام إلى يومنا في أمن وطمأنينة وحفظ كرامة، لم ينالوها ممن حكمهم قبل الإسلام كالفرس والبيزنطيين، والقرآن يقول: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٨]

أما إذا قاتلونا بحرب كاوية، أو حرب باردة يفتنون بها أولادنا، ويفسدون مفاهيمنا وأخلاقنا، ويظاهرون أعداءنا، كما جرى منهم فعلًا، فلا يجوز لنا أن نترك لهم الحبل على الغارب، فضلًا من أن نتنازل لهم على حساب الدين، كما عمله القوميون الذين تتلمذوا على أيدي طغاتهم، فعمت قلوبهم عن الحق، والله يقول: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ

إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٩] . وهؤلاء طعنوا في ديننا ، وظاهروا اليهود على إخراجنا ، وسيعاونون كل معتد علينا .

وما دام الإسلام يوصي أهله بالعدل والإحسان والبر إلى المواطنين عمومًا على هذه القاعدة فلا مبرر للقوميين في اطراح دين اللَّه لأجل من يزعم أنه نصراني وهو مكذب للمسيح حقًا؛ إذ لو كان مصدقًا له لآمن بما بشر به المسيح ، فقد جاءهم مصدقًا لما بين يديه من التورية ومبشرًا بمحمد ﷺ . فمن لم يؤمن بالتوراة وبما أنزل على محمد فهو مكذب للمسيح مفتر على اللَّه ، لا يجوز للمسلم أن يترسم خطاه أو يتقبل مفاهيمه ، وليس محتاجًا إلى مصافاته بأكثر مما أمره اللَّه به من العدل والإحسان ، ومن لم يرض بذلك فلا أرضاه اللَّه .

رابعها : أن الأقليات غير المسلمة التي أطرح القوميون دينهم من أجلها استجابة لدعوات طغاتهم لا يزالون في تحيزهم يعملون ضد الوحدة ، ويسعون لصالح الدول الأجنبية المقاربة لهم في الأديان والمذاهب . وموقف المسيحيين معروف في فلسطين كيف ظاهروا الصهاينة علينا سابقًا ، ويعملون لصالحهم في إفريقيا والبلاد المجاورة لاحقًا .

وموقفهم ضد الوحدة المنشودة معروف في لبنان وسوريا والعراق ، وموقف أقباط مصر في تطلعهم إلى المستعمر معروف ، وخدمة قضاياه في كل فرصة سانحة ، واللَّه يقول : ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التّوبَة: الآية ٨] ، ويقول : ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التّوبَة: الآية ١٠]

ومما تقدم تعرف أن حجة القوميين واهية؛ أوهى من بيت العنكبوت ، وأنهم يقصدون التدليس والتلبيس على البسطاء وعامة الناس ، وأن جريمتهم لا يجوز أن تقر ولا تغتفر ، وأنهم أساؤوا بذلك إلى العرب خاصة والإسلام عامة ، وقطعوا

صلتهم باللّه ورسوله ، وأنهم أفقدوا العرب شخصيتهم العالمية التي حباهم اللّه إياها وهيأهم لها ليكونوا قادة لجميع العالم مما لو حققوا ذلك لكانوا هم المعسكر الأكبر في الأرض ، ولكنهم ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ﴾ [الحشر: الآية ١٩] فتركوا سلسبيل الوحي وشهد السنة المطهرة ووردوا موارد القلوط من الشرق والغرب ، وتعشقوا الحنظل يرجونه ينقلب رمانًا أو برتقالًا! فمرجت عقائدهم وغدت أخلاقهم ، وساءت أحوالهم وازداد شقاقهم ، وانطووا على أنفسهم وعاشوا في عزلة عن العالم الإسلامي الذي يجب أن يكونوا سادته وقادته خاصة ، ولم ينالوا من صلتهم بغيره سوى أضغاث أحلام ، فأخذوا ينقسمون على أنفسهم ، وحق عليهم وعيد اللّه من الشقاق البعيد الذي يتوزعون به في معسكرات ، وأنشئوا منهم قوميات في ضمن قوميات ، وحدات في بطن وحدات . وتلك طبيعة كما قررها الباحثون لا تستطيع أن تسد أبواب القوميات الصغيرة ، بل هي التي تفتحها وتعهد العقول وتثير العواطف للاستقلال المجزئ والاستغلال بنفس المبدأ والطريق .

ومع ذلك فهم يغالطون بدعوى السير في طريق الوحدة ، وعملهم هذا تكذيب لقول اللّه وسنته الكونية في خلقه؛ إذ الوحدة لا تتحقق إلا بتحقيق ما جاء به محمد ﷺ .

ومن المؤسف أنهم يجدون من يشجعهم على ذلك ، ويأمل صحة المغالطات من الشباب الذين لم تنضج عقولهم ، أو الكهول الذين نسوا حظًا مما ذكروا به ، أو أعمتهم حاجات في صدورهم .

كما أنه من المؤسف أن العرب بخطتهم هذه أعطوا لدعاة القوميات الأخرى حجة على المسلمين في بلادهم ، أولئك[1] المسلمون الذين لا يزالون متعلقين

(١) في الأصل: « ذلك » .

بالعرب كقادة لهم، ومتمسكين بالجامعة الإسلامية الكبرى، ويعتبرون العرب مركزًا روحيًا لهم ومصدرًا لإشعاع النور السماوي؛ إذ بطرحهم لذلك وتبنيهم القومية التي ليس لها صلة روحية بنبيهم، ولا تعير شريعته اهتمامًا أو تقيم لها وزنًا، بل تتلقف الأنظمة والمذاهب من ملاحدة الغرب والشرق .. أقول: إن العرب أعطوا بذلك دعاة القوميات الأخرى في بلاد المسلمين المترامية الأطراف حجة يقيمونها عليهم بتعلقهم فيمن نفض يديه منهم وقطع صلته بهم ونقض الميثاق الذي يربطه معهم، وأخذ يسعى بجانب أعدائهم في كل قضية ضدهم.

أما رميهم الإسلام بالطائفية، وتبريرهم الانحراف عن هدى اللّه بذلك، فهو من أشنع مفترياتهم على اللّه، وتشويههم وجه الدين وصحائف المسلمين، مما سنتكلم عليه إن شاء اللّه بما يعكس مقصودهم، ويحطمهم على صخرة الإسلام العاتية، بحول اللّه وقوته، فإن افتراءهم مفضوح يكذبه الواقع الصحيح الذي يحاولون تغطيته بالباطل. ولعمر الحق لقد أراحوا المستعمرين والمبشرين والمبطلين بخططهم التي انتهجوها، وأبعدوا بها شباب المسلمين عن واجبه أمام اللّه ورسوله وكتابه وعباده المؤمنين .. وإلى اللقاء.



نقد من الكويت(١)

[١٧]

وللمنحرفين من القوميين شبهة أخرى يعتبرونها حجة لهم ويطبلون لها ويزمرون، وقد راجت على أسماع كثير من المغفلين، وانشرحت لها صدور المبطلين والموتورين في كل مكان، وهي في الحقيقة حجة عليهم أمام اللّه، ووصمة عار في جبينهم لو كان تفكيرهم مرتبطًا بالحاسة الدينية، لا بالمشاعر العاطفية والنواحي المادية، وفقهم اللّه للإنابة إليه وأنجاهم من هذه العماية.

وشبهتهم المذكورة: هي أن بعض المتدينين فرطوا في أحكام الشريعة أو أفرطوا، وأن بعض المسؤولين في البلاد الإسلامية أو غالبهم لم يلتزموا حدود الشريعة جميعها، أو لم يطبقوها في كل شيء وعلى كل فرد؟

وهذه شبهة من موضة مفضوحة ينكشف أمرها لكل من سلم اللّه قلبه من الأمراض والأغراض بعدة وجوه:

أحدها: أن البشر ليسوا بمعصومين إلا من عصمه اللّه بعدم إقراره على الخطأ وصرفه عن دواعي الانحراف كالأنبياء. وفي القرآن الكريم صريح المعاتبة للرسول ﷺ وأصحابه على أشياء انتهجوها أو تطلعوا إلى انتهاجها فحذرهم اللّه منها وتوعدهم بأشد الوعيد.

وما من فئة أو فرد انتهج مذهبًا أو مبدأ أو زاول أعمالًا إلا ويعتريه النقص والخطأ تارة، والانحراف تارة، فيسعى المصلحون لتقويم الاعوجاج وإصلاح الخطأ حسب الإمكان دون اطراح المبدأ والصياح عليه من أبنائه كائنًا ما كان. بل يعتبر المنادي باطراحه والمعلن بفساده خائنًا ومرتدًا وعميلًا .. إلى غير ذلكم

(١) صحيفة القصيم العدد (١٥٧) في ١٣- شعبان ١٣٨٢ هـ.

من الألقاب التي يرميه بها أهل ذلك المذهب أو المبدأ ، فكيف بالدين السماوي الذي أوجب اللَّه على خلقه إقامته ووكل القيادة والإمامة فيه إلى العرب الذين أبوا في هذا العصر أن يتشرفوا بما شرفهم اللَّه به، وطلبوا الشرف والسؤدد من مخططات أعداء اللَّه وأعدائهم؟!.

ثانيها : أن إقامة شعائر الدين الإسلامي والانتفاضة غضبًا لحدود اللَّه ليست وقفًا لأحد دون أحد ، ولا مقصور إيجابها والقيام بها على فئة دون فئة ، وإنما ذلك واجب على كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي ، وأمر محتم على كل من نطق بالشهادتين ، إذ يلزمه التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، والأمر بالمعروف والتعاون على البر والتقوى ، وأن لا يخاف أحد منهم في اللَّه لومة لائم ، ولا يخشى إلا اللَّه ، ومن خشي غيره أو رهب فهو مشرك ، كالمسترسل في غيه دون إنابة إلى اللَّه لمخالفته مدلول الشهادتين .

فالواجب على من رأى الخلل أن يقوم بإصلاحه على ضوء وحي اللَّه وسنة رسوله متعاونًا مع إخوانه المسلمين صابرًا متحملًا جميع ما يلاقيه من ذات اللَّه ونصرة سنة نبيه ﷺ، لا أن يتهم الدين نفسه ، ويشرب بغضه في قلبه ، ويسمم أفكار الشباب؛ تطلب النور والهداية والسعادة في سواه من مخططات أعداء اللَّه ورسله؛ متذرعًا بأعمال المنحرفين والمقصرين . فيكون كمن عالج إخماد الدخان بإيقاد النيران ، أو من رأى في القلعة المحاصرة ضعفًا أو خللًا يحتاج إلى الترميم والتقوية العاجلة فعمل على هدمها ، والعدو محيط بها من كل جانب ، ومن المستحيل إعادتها بعدما ينكشف للعدو .

فهذه حال دعاة القومية والمتبجحون بدعوى العمل لخير العرب وصالحهم ، إذا تدبرها الأديب المنصف بنظرة شرعية صحيحة عرف مبلغ حماقتهم وتحاملهم على الدين وعمايتهم بسيرهم في غير سبيل المؤمنين

ثالثها : أن التقصير في تطبيق شرائع الإسلام كلها مع إقامة شطر منها واعتقاد حرمتها وتعظيمها يعتبر فسقًا ومعصية لا كفرًا ، كاقتراف المسلم بعض الذنوب مع عدم استباحتها لا يكون بها كافرًا خارجًا عن الملة ، أما اطراح الدين بالكلية وتبني مبادئ مخالفة لملة إبراهيم ومناقضة لأصول الإسلام فهذا كفر وضلال وخروج من جماعة المسلمين . وكذلك من يشرع نظمًا وقوانين مخالفة لشرع اللَّه يلغي فيها التواصي بالحق والأمر بالمعروف ، ويخرس ألسنة الناس عنه ، ويبيح الخمر بيعًا وشربًا ويحميه ، ويبيح الفواحش ويحمي الزاني من إقامة حد اللَّه عليه؛ فإن هذا خارج عن الملة الإسلامية ، محاد للَّه ورسوله .

فجريمة هذا ومتبني المبدأ المناقض لملة إبراهيم جريمة أخرجته من الإسلام إلى الكفر ، بخلاف المتساهل في تطبيق جميع الشعائر أو المحابي في تنفيذ الأحكام فإنه مذنب فاسق ، لو حصل التكاتف والتعاون من طبقات الشعب على التواصي بالحق والأمر بالمعروف لخالجه الحياء من ناحية ، واعتوره الخوف من ناحية ، فاستقام وحسنت أحواله طوعًا أو كرهًا ، أو كان الجميع ناصرًا للَّه حافظًا لحدوده بالتعاون على إقامة شعائره .

فلو طهرت ضمائر القوم من رجس الثقافة الاستعمارية ، وأخلصوا دينهم للَّه ، وكفروا بما سواه من همزات الشياطين والطواغيت ، وتعاونوا مع آبائهم وإخوانهم المسلمين على إصلاح ما فسد وتقويم كل ما اعوج؛ لصلح المجتمع وحسنت أحوال الحاكم والمحكوم ، وطبقوا ما نص عليه نبيهم ﷺ بقوله : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة » .- ثلاثًا- قال له بعض أصحابه : لمن يا رسول الله؟ قال : « للَّه ولكتابه ولدينه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[(١)] .

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي اللَّه عنه . وليس فيه : « ولدينه » .

ومن المستحيل أن النصيحة لا تجدي ولا تنفع إذا أفرط بها الناس ولم يقم بها سوى شرذمة قليلة لا يؤبه بها، فحينئذ يكونوا هم العصاة، وإنما الواجب القيام جميعًا وتعاون جميع الطبقات على التواصي بالحق والأمر بالمعروف، دون أن يشذ بعضهم أو يفت بعضهم في عضد بعض ويتخاذلون.

فإذا اجتمعوا على طاعة اللَّه وتقواه حصل فائدة ذلك وجدواها، وارتدع المقصر عن تقصيره، والمفرط عن تفريطه، والغاوي عن غوايته.

أما أن يقف أكثر الناس هذا الموقف المشين، ولا سيما المثقفون بثقافة أجنبية، فإنهم بذلك يزيدون الطين بلة، ويوسعون شقة الخلاف، ويعطلون طاقات المسلمين عن القيام بواجبها كما حصل فعلًا، وستزداد ضراوته ما داموا على هذه الحال حتى يتغلب الإيمان على الكفر أو بالعكس. فالمعركة الآن على الحقيقة ليست معركة أشخاص كما يصورها المغرضون تلبيسًا على الأغمار، وإنما هي معركة بين الكفر والإيمان والمادة والروح. فمتى ينتبه ذووا القلوب السليمة؟.

رابعها: أنهم بهذه الشبهة نقموا من دين اللَّه، وصبوا جام غضبهم عليه، وحملوه جريرة المتأكلين به أو المفتاتين عليه المقصرين بتنفيذ أحكامه، فهربوا من الجريمة التي تزول بالتعاون على طمسها ووقعوا في الكفر؛ مختارين الكفر الذي وجههم إليه تلاميذ الكفر على الدين الحنيف إذا شابه شيء من المعاصي. وتلك المعاصي لم يتجرأ عليها أصحابها إلا من عدم التكاتف والتعاون على إزالتها، فهم يناصبون العداء كل من حاول الأمر بالمعروف والدعوة إلى الفضيلة، والواجب عليهم أن يتعاونوا معه ليتمكن بمساعدتهم من القيام بالواجب، ولكنهم عكسوا الأمر. ولم يكتفوا بذلك بل أعلنوها حربًا على الدين بشتى الوسائل والأساليب؛ قاصرين أهدافهم على الخطوات المادية والإغراء بالملاهي؛ تنفيذًا

لمخططات الكفرة الفجرة.

فموقفهم من الدين ذلك الموقف عار وشنار عليهم، وشبهتهم هذه تنقلب عليهم وتفضحهم وتبين أنهم ممن: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦]،

وسيقول المتحذلقون منهم: إنه لا يمكن تقويم الاعوجاج إن وجد، ولا إصلاح المنحرف؛ لأنهم لا يقبلون نصحنا ولا يتفاهمون معنا؟.

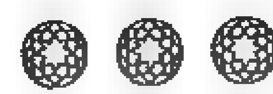
والجواب لهم: إنكم لم تبسطوا إليهم أيديكم في يوم من الأيام للتعاون على البر والتقوى والقيام بنصرة دين محمد ﷺ الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وإنما أنتم مخالفون لهم على طول الخط بما وجهتكم إليه الثقافة الاستعمارية وجعلت مسامعكم وأذواقكم لا تستسيغ ذكر الدين أو تلجئوا إليه إلا عند الجدل والخصام بالباطل.

ومع هذا فقد حصلتم على كثير من مطالبكم، وهي مخالفة للإسلام، فكيف لو كانت موافقة له، وقد تعاونتم مع كل شيطان مريد على تجميد دعوة الخير وإخماد نار الغيرة لله، وشل حركة الأمر والنهي، فما المانع لكم من القيام بالدعوة إلى الله ورسوله قيام رجل واحد؟ ما المانع لكم من أخذ القرآن بقوة لتغلبوا فيه غيركم وتكونوا خيرًا من آبائكم كما يطلبه الله ويحبه لكم كل منصف؟ ما الذي جعلكم تعرضون عن التشرف بحمل كتاب فيه شرفكم، ومنه مصدر عزكم، قال فيه منزله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠]؟ ما الذي يمنعكم من الاحتساب لله والقيام مثنى وفرادى وجماعات وهيئات لتركيز الفضيلة والأمر بالمعروف نصحًا منكم لله ورسوله متعلقين بحبه مندفعين بتعظيمه مستمسكين بحبله، بدلًا من تعظيمكم لأشخاص احتسوا من قيح الثقافة الغير إسلامية ودمها وصديدها، فأخذوا يضلونكم

ويبعدونكم عن دينكم فيما يكتبون وما يذيعون ، وإفراطكم في بغض المسلم المقصر في فروع الإسلام التي تقدرون على إعادته عليها لو بذلتم في سبيل اللَّه بعض ما تبذلونه في سبيل الشيطان؟

إن اللَّه وعَدَ- ووعده الحق- بنصر المؤمنين وإنجائهم من كل فتنة ، ولو بذلتم أنفسكم في نصرة اللَّه وتحقيق الإيمان الشرعي لأصلحتم ما أفسده الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، فضلًا من إصلاح رقعة صغيرة كنتم بها ، ولكن اللَّه يعلم أسراركم : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٠]

وقد أوضحنا أن القيام بأمور الدين والتواصي بالحق والأمر بالمعروف ليس وقفًا على أحد دون أحد ، وأن الإسلام ليس فيه ما يسمى « رجال دين » بل كل فرد من أفراده رجل دين مسؤول عن القيام بذلك تمامًا ، بل كل فرد منهم هو على ثغر من ثغور الإسلام ، فأرونا عبقريتكم المحمدية إن كنتم تؤمنون بما أنزل على محمد إيمانًا صحيحًا تظهرون به ثمرة معلوماتكم وثقافتكم ودعاويكم الفارغة . وواللَّه إن كل مسلم يفرح إذا سبقتموه إلى نصرة دين اللَّه وتطهير أرضه من الكفر والفسق والفجور . أما الدعاوى والتبجح الكاذب فلا يتعذر على أحد .. وإلى اللقاء .



نقد من الكويت(١)

[١٨]

نعم أرونا عبقريتكم المحمدية، وحققوا أصالتكم التي تتبجحون بها هراءً وتهويشًا، فإن الأصالة ليست بالنسب، وإنما هي بالأخلاق الفاضلة وجلائل الأعمال الروحية التي فتح بها أسلافنا القلوب قبل البلاد، وحطموا أعداءهم في اللَّه بصلاح أعمالهم لا بقوة سلاحهم أو كثرة عددهم.

إن بني إسماعيل لم يشرفوا على غيرهم بأصالة النسب، وإذا تجردت العروبة من دين ملة إبراهيم، وتخلت عن رسالة محمد، فقد يغلبها غيرها في الأصالة، ولو كان الغلب بذلك، لكن في الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٢).

ولم ينفع أبو لهب وأمثاله أصالة نسبهم مع ما فيهم من الخصال الطيبة المفقودة في عروبة اليوم، بل سبقهم إلى السؤدد والشرف مواليهم من حبشي ورومي وفارسي. فحقيق الأصالة هو بحمل الرسالة التي شرف اللَّه العرب بها، وتطهير أخلاق أهل الأرض جميعًا على ضوئها، ليس بالتخلي عنها واستيراد المبادئ والمذاهب من الشرق والغرب وتمحق أخلاق الغير وأزيائهم، والسعي في خدمة الجسم والوطن، ونيل المادة لأغراض شيطانية دون تربية الروح وتصفية القلب للَّه تعالى وتسخير كل شيء من أجله.

إن الخطط التي انتهجها المتبجحون بالعروبة خطط تشهد عليهم بعدم الأصالة الحافظة لقوميتهم والدافعة برسالتهم إلى الأمام، وبعدم الصلابة التي

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٥٨) في ١٩- شعبان ١٣٨٢ هـ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

يتفانون بها في حسن التصرف بما أورثه لهم نبيهم ﷺ؛ لينشرونه في الآفاق غير هيابين ولا وجلين، كما فعله أسلافهم الذين حققوا الأصالة والصلابة بتسخير كل شيء من العلم والمادة في ذات اللّٰه.

أما الذين فرضوا عروبتهم المتفرنجة علينا فمبلغهم من العلم هو تقليد الإفرنج والروس في إباحة الخمر والزنى والربا والملاهي الخليعة، وحماية مرتكبها، والتعلق بالمادة التي تعلقوا بها مما هو مسخ معنوي، سنوضحه إن شاء اللّٰه.

ثم مع سلوكهم هذه الخطة الكافرة ومنابذتهم لملة إبراهيم لا يستحون من الطعن بالمسلم المقصر في أداء بعض الواجب، أو الفاسق فسق شهوة لا فسق اعتقاد، كما فصلناه، وسنزيد في تفصيله إن شاء اللّٰه.

فمثلهم بذلك كالشبكة التي تعيب على المنخل! فالشبكة الواسعة الفروج التي ينهل منها الحصى كيف تعيب على المنخل الضيق الذي لا يخرج منه إلا الدقيق جدًا؟!

وكيف يستحي من جعل رسالة محمد ﷺ وطريقة أصحابه رجعية وهو لم ينشأ في بلاده إلا بسببها ولم يعتز إلا على حسابها؟ وجعل ما نسبه «كارل ماركس» و«لينين» من مذهب «مزدك» الإباحي اليهودي القديم الرجعي: تقدمية؟! وقرنه بوحي رب العالمين، وحاول فرضه على دين الإسلام كأنه نابع منه؟! كما جعل مذاهب الإغريق والصابئة الأولى، تلك المذاهب المادية الإلحادية: تقدمية وحضارة أيضًا؟! وسعى لتسميم أفكار الشباب فانقاد بعضهم له كالشاء إذ تنقاد للجوبان؟!

فعلى الكاتب أن يجاهد نفسه في اللّٰه، ويلتزم رسالة نبيه، ويكفر بما سواه.

رابع عشر: أن القوميين في سائر البلاد رفضوا الاستجابة لكل نداء إلهي، واستجابوا لأعداء اللّٰه ورسوله، واتبعوا الخطط الأثيمة التي رسمها كل ملحد وطاغوت من اليهود والنصارى ومن تتلمذ عليهم.

والواجب الصحيح المحتم على كل مسلم أن يستجيب لنداءات اللَّه في القرآن، وهي تزيد على مائة وعشرين نداءً. كما أن من المحتم عليه أن يستجيب لنداءات رسوله ﷺ ويكون مترسمًا خطاه منابذًا لأعدائه، واللَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤]، والحياة المعنوية لا تتحقق إلا بالاستجابة لهما. والمستجيب[١] لغيرهما إنما يعيش عيشة البهائم، ويخنع لما يقذف به عليه من اليمين والشمال. فالحياة الطيبة بمعناها الصحيح هم منها في مكان بعيد؛ حياتهم مملوءة بالشقاق والنفاق، والتقاطع والتدابر، والسخرية والسباب، وقلة الحياء ومفاسد الأخلاق، واستحسان الخبث، والمسارعة في الإثم والعدوان بشكل عجيب من الإغراء والتفسخ، مما يعتبر ثورة وانقلابًا على كل فضيلة، وجنوحًا واستحسانًا لكل رذيلة، حتى اتسعت بلادهم لكل منكر وفجور.

وقد أثروا تأثيرًا بليغًا سيئًا على أحوال المسلمين؛ لأنهم تبوؤوا الصدارة غالبًا في البلاد فأكثروا فيها الفساد. ومن لك بقوم تتسع بلادهم وتنشرح صدورهم بتوزيع الخمر والإغراء على شربه بنشر الدعاية له في الصحف وفي الساحات العامة من البلاد بأنوار النيون أعظم مما ينشر لدعاية عصير البرتقال ونحوه بكثير؟!

زد على ذلك إباحة القمار والربا وحماية أهله، وقبول التقاضي فيه وصدور الحكم من قضاتهم بإثباته والإلزام بدفعه! والرسول ﷺ لعن في الخمر عشرة: لعنها هي، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومبتاعها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها[٢]. ولعن في الربا خمسة: «آكله،

---

(١) في الأصل: «والمستجب».

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٥، ٧١، وأبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما، وأخرجه الترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١) من حديث أنس رضي اللَّه عنه. وصححه الألباني.

وموكله، وكاتبه، وشاهديه»[١].

ومعلوم من الشرع بالضرورة كما قرره العلماء في أبواب الردة من كتب الفقه: أن من أباح ما حرم اللَّه، أو رضي به حكمًا وإقرارًا، فهو متعد لحدود اللَّه، مرتد عن الإسلام، تجرى عليه أحكام المرتدين.

وقال الشيخ محمد عبده في «التفسير» جزء (٦ ص ٣٦٧): «ومن المسائل المجمع عليها قولًا واعتقادًا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنما الطاعة في المعروف، وأن الخروج على الحاكم إذا ارتد عن الإسلام واجب، وأن إباحة المجمع على تحريمه كالزنا والمسكر، واستباحة إبطال الحدود، وشرع ما لم يأذن به اللَّه كفر وردة، وأنه إذا وجد حكومة عادلة تقيم الشرع، وحكومة جائرة تعطله، وجب على كل مسلم نصر الأولى ما استطاع ..»

فبماذا يحكم الكاتب الذي أشهد الناس على نفسه أنه يكرر للمرة المائة بعد المليون مرة: أن كل شيء يخالف الإسلام في أصوله وفروعه فهو باطل ومرفوض من الأساس؟ كيف لا يعلن حكمه بصراحة على من قام بإقرار ذلك وحمايته وتنفيذ القضاء بأحقيته؟

نرجو أن يرينا حماسه على الدين وغيرته للَّه ولرسوله بشجاعة الشبان وشهامتهم؛ ليشهد اللَّه وجميع خلقه على ما في قلبه إن كان صادقًا كما نرجو له ونؤمل، وأن لا ينخدع بمن رفض الاستجابة لنداءات اللَّه ورسوله، وقام بتجميد كل دعوة إليها، وسعى في ضدها، وأن لا يلتمس لهم المعاذير وهم يصيحون على العالم كله من أجل الشيوعية في «كوبا» و«الكونغو» بحجة أنه انتصار لشبه قوميتهم الممسوخة، فكيف يأتيهم الخوف من ذكر الدين إن عملوا به فقط، أو توسعوا في الدعوة إليه دعوة يثبتونها في صحفهم وإذاعاتهم؟ فليتعظنَّ كل لبيب .. وإلى اللقاء.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٧، ١٥٩٨) من حديث ابن مسعود وجابر رضي اللَّه عنهما.

نقد من الكويت[1]

[١٩]

خامس عشرها : أنهم شابهوا اليهود بقولهم سمعنا وعصينا مشابهة صريحة بالفعل ، فجميع خططهم تشهد عليهم أنهم قالوا بمثل ما قال به أولئك . وإذا تدبرت سلوكهم في جميع نواحي الحياة وجدتهم لا يراقبون اللَّه في ورد ولا صدر ، ولا يحكمون كتابه في شيء ، أو يلتفتون إلى سنة نبيهم ﷺ ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢١]

وهم لإعراضهم عن اللَّه وتنزيله وزهدهم فيما عنده ، أو شكهم في وعده ووعيده ، تجارت بهم الأهواء واستحوذ عليهم الشيطان ففقدوا الحاسة الدينية ، وجعلهم اللَّه في طغيانهم يعمهون ، وأمدهم بالضلالة التي ركنوا إليها فصاروا لا ينتفعون بحواسهم؛ لأن من فقد الحاسة الدينية التي منشؤها خشية الرحمن بالغيب لا ينتفع بحواسه الطبيعية ، كما قرر الباحثون ، وأثبته اللَّه بقوله : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] .

فهم بغفلتهم عن مراقبة اللَّه وذكره الصحيح وتعظيمه الواجب ، وعدم اطمئنانهم إلى وعد اللَّه ووعيده لم يلتزموا طواعيته وطواعية رسوله ﷺ ، بل ساروا عنها في مكان بعيد بجميع أمورهم واتبعوا خطوات كل شيطان من شياطين الجن والإنس وطواغيتهم ، وجعلوا قصارى أمرهم وغاية مطلبهم العيش في الدنيا كالبهائم ، وعبادة المادة والشهوات بشتى الطرق والأساليب .

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٥٩) في ٢٦ / ٨/ ١٣٨٢هـ.

فالمادة وشهوات الحياة هي دينهم ودنياهم، لها يسعون وعليها يتقاتلون ويحبون ويبغضون، فأي عبادة للهوى والشيطان أعظم من ذلك؟ وأي عبادة للدرهم والدينار أعظم من ذلك؟ وأي حياة لهو ولعب وإعراض عن الآخرة أعظم من ذلك؟ وقد قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٠].

فالقوم قالوا بلسان حالهم وسوء فعالهم: سمعنا وعصينا؛ إذ جميع أفعالهم تنطق بهذه العبارة البشعة التي سبقهم إليها اليهود. وإذا كان اليهود ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: الآية ٩٣] فكم أشرب هؤلاء من حب عجل تعشوه وتعلقوا بحبه، وأسلموا وجوههم له من دون الله؟ هو عجل المادة فقط، أو هو عجل الشهوات والرغبات النفسية التي لا تنتهي ولا تقبل معذرة أو تسويفًا، وهو عجل المذاهب والمبادئ التي يتبنونها ويقدسون رائدها ونابشها، ويولونه من الحب والانقياد ما لو جعلوه لرب العالمين لأعادوا دور الصحابة فسعدوا وأسعدوا الدنيا، ولكن صدق الله العظيم ﴿إن الله لا يهدي من يضل﴾، بفتح الياء وكسر الضاد على القراءة الصحيحة الموافقة لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: الآية ٢٧]، فالله يهدي المنيب إليه الراجع لوحيه الواقف عند حدوده، ويجعل له فرقانًا ويزيده هدى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٧]، أما من اختار الضلالة واستحب العمى على الهدى فإن الله يمده في الضلالة، ويختم على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاة ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ [مريم: الآية ٧٥]، والمد: الزيادة في الشيء كمد البحر ومدد الجيش.

فكل من افتتن بالشهوات وتعلق بالمادة وآثر منافع الحياة على التزام هدى اللَّه والقيام بنصرته ولم يستعمل نعم اللَّه في موضعها من إقامة شريعته والسعي لإعلاء كلمته، فإن اللَّه يوله ما تولى، ويعرض عنه ويكله إلى نفسه، ويذهب بنوره فيجعله يتخبط في الظلمة، بل في ظلمات بعضها فوق بعض، ظلمات متعددة بتعدد أنواع المبادئ والتقاليد والأغراض الدنيوية التي افتتن بها، وبتعدد أنواع الهداية التي أعرض عنها. فلا ينتفع بحواسه انتفاعًا صحيحًا يسعد به ويسعد غيره، بل يكون انتفاعه معكوسًا يجلب به على نفسه وعلى غيره الأزمات والإرهاصات المتلاحقة كما هو مشاهد، فإن اللَّه لا يهدي كيد الخائنين، الذين خانوا ربهم فيما ائتمنهم عليه من العمل بكتابه والسعي لنصر دينه ونشر شريعته وإعلاء كلمته، فالمؤثر حظوظه على ذلك خائن للَّه، واللَّه لا يهديه بل يمده في الضلالة، ويزيده من الغواية، ويسلط عليه جميع أنواع الشياطين، قال تعالى أيضًا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٠].

فيجعل حواسهم تنقلب في الضلال وسوء التأويل الذي يجعلهم في ظلمات لا يخرجون منها: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨]، فقدوا المنفعة الصحيحة بحواسهم؛ عقوبة من اللَّه على خيانتهم له، فهم لا يرجعون عن غيهم وضلالهم، ولا يخرجون من ظلماتهم، ولا يتخلصون من أزمة إلا وقعوا في أشر منها: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

فيذرهم اللَّه في طغيانهم يتقلبون من حيرة إلى حيرة، ومن شر إلى شر لتقليب اللَّه قلوبهم وأبصارهم؛ جزاء لهم على خيانته والتنكر لجميله ومعروفه العظيم، فتجدهم يخربون بيوتهم وينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل اللَّه بما ابتدعوه من مذاهب، أو قلدوا غيرهم به، فتكون عليهم حسرة، فيخضعوا لأعدى عدو لهم،

ويتحملوا المخاطر والأهوال التي لو تحملوا بعضها في ذات اللَّه لفتح عليهم فتحًا مبينا يحصل لهم به العز والتمكين في الأرض .

وكل هذا نتيجة عدم الانتفاع بالسماع ، فإن من لم يفهم ما سمعه ويقبله قبولًا صحيحًا بالعمل المرضي لقائله فإنه غير سامع لعدم انقياده لما سمع ، فإذا عمل بخلاف ما سمع فقد قال بلسان حاله وسوء فعاله : سمعنا وعصينا؛ شأن من يتبجح بالعروبة إفكًا وتضليلًا لنفسه ولغيره ، وهو معرض عن الكتاب الذي أنزله اللَّه عليه ذكرًا له وشرفًا أيما شرف ، بل سار في كل أعماله بما يناقض هذا الكتاب ، وقد قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٣٦] .

فحصر اللَّه حقيقة الاستجابة لأهل السمع الصحيح الذين ينظرون في الآيات الكونية النفسية والآفاقية ، فيصدقون ما يسمعون من الآيات القرآنية بالعمل الذي هو الاستجابة لأمر اللَّه ونهيه وإعارة حدوده إذعانًا لما سمعوه من الحق بسلامة فطرتهم واستقلال عقولهم مما يعبث بها . فأما من لم يستجب لما سمعه بالعمل فهو من موتى القلوب الذين قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون . هذا إذا لم يخالفوا ما سمعوه بأفعالهم خالفوا وحي اللَّه وتنزيله ، كان لهم النصيب الأوفر من مشابهة اليهود بقولهم : ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٣] كما شابهوهم أيضا في تحريف الكلم عن مواضعه : ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ [النِّساء: الآية ٤٦]

فعسى أن يُفيق الكاتب ويتبصر في أمر من انخدع بهم فيرجع إلى ربه تعالى ويكون من أنصاره وأنصار رسوله حقًا؛ ليزكي نفسه وعروبته بما نزل من الحق بدلًا من أن يلبس الحق بالباطل ، أجاره اللَّه من ذلك .. وإلى اللقاء .

❁❁❁

نقد من الكويت(١)

[٢٠]

سادس عشرها : أنهم مع خروجهم من دين اللَّه وشرعه بما انتهجوا من مخططات الشرق والغرب التي ناقضوا بها الملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية ، فقد خرجوا أيضًا من معاني العروبة الصحيحة؛ لأن اللَّه جبل العرب الأولى على سجايا حميدة جعلهم بها مظنة الخير ، وهيأهم بها لحمل الرسالة التي أظهرت الآثار الحسنة والنتائج الطيبة لحملهم إياها ورعايتهم لها حق رعايتها ، حيث طهروا الأرض بالأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة ، فالإسلام زادهم نورًا على نور؛ إذ يأمرهم بالإخلاص وهو محبب إلى نفوسهم ، ويأمر بالصدق وهو سجية لهم بحيث يأنف أحدهم جدًا من نسبة الكذب إليه ، ويأمرهم بالبر والإحسان والصلة وهي صفات أصيلة في نفوسهم ، ويأمرهم بالعفة ، ناهيًا لهم من مقاربة الزنى وهو أيضًا مستشبع عندهم بحيث لا تزني إلا الأمة ، حتى استنكرت « هند » زوج أبي سفيان مبايعة النبي لها على عدم الزنى قائلة : أو تزني الحرة؟!(٢) .

إلى غير ذلك من الأخلاق التي لا تجدها في عروبة اليوم المزعومة؛ لأنها عروبة اسمية خداعة تحمل وراء غلافها وطلائها كل خلق ذميم من أخلاق الإفرنج في الشرق والغرب ، فهي ممسوخة من جميع المعاني التي طابت بها العروبة من جراء إقرار الإسلام لها ، ولا تحمل غير الاسم ، إلا ما أحدثته الثقافة الاستعمارية وقام به توجيه المفرطين لإبرازها بهذا الاسم حاملة كل خبث وإثم ،

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٦٠) في ٤ رمضان ١٣٨٢ هـ.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٧٥٤) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها . وقال الحافظ في « التلخيص الحبير » ٤/ ٥٢: وفي إسناده مجهولات . وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٦/ ٣٧: وفيه من لم أعرفهن .

فالكذب والنفاق شعار لتلاميذ أولئك والسالكين في طريقهم، فمبدؤهم وجميع مذاهبهم التي ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: الآية ٩] تبنوها ولا زالوا يقدسونها مبنية على الإشراك بالله والتنكر لدينه، وتقديس أئمة الكفر، والإخلاص لما نبشوه من المذاهب القديمة الرجعية التي طمسها الإسلام، كمذاهب ملاحدة الإغريق في الكونيات والماديات ومذهب اليهودي «مزدك» وأتباعه من الفرس في الإباحية والسيطرة على الموارد وتأميم جميع القوى لمصلحة الحاكم، وهكذا.

وهو المذهب الذي نبشه اليهودي الجديد المسمى «كارل ماركس» فقد نبشوا كل مذهب رجعي وقدسوه وجعلوه تقدمًا، ورموا ما جاء من عند الله على لسان محمد ﷺ بالرجعية إفكًا وتضليلًا للأغمار، «رمتني بدائها وانسلت» ثم يفترون على الله الكذب؛ زاعمين أن نحلة هذا اليهودي وخلفه السيئ مما أمر الله به، وأنه موافق لرسالة السماء؛ ترويجًا لباطلهم وتدليسًا على العميان. فأي كذب أعظم من الكذب على الله ورسوله؟ وأي نفاق أفظع من هذا النفاق؟ زد على ذلك ما شحنوا به الأفكار ولطخوها من الدجل والأكاذيب، وما تطفح به صحفهم وإذاعاتهم المسعورة مما يكذب بعضه بعضًا، وينقض بعضه بعضًا؛ ففلان مثلًا ممدوح في سنة، مذموم في سنة أخرى! بل يكون ممدوحًا أعظم المدح في شهر ثم الشهر الثاني يكون مذمومًا! بل بلغ الأمر إلى أن يكون الرجل ممدوحًا في أسبوع، مذمومًا في الأسبوع الآخر. وهكذا مما جعلهم أضحوكة لأعدائهم لو كانوا يعقلون.

أما البر والصلة والإحسان فقد انعكس مفهوم ذلك عندهم أو أصبح مقصورًا على شيء دون أشياء، فقد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل، كما أوضحناه فيما مضى، وقصروا مدلول الإحسان على أضيق من «جحر الضب» بحيث لا يسمح

أهل قطر لأحد من أهل القطر الآخر أن يشتغل في بلاده أو يزاول أي عمل حتى يتجنس بجنسيته المقدسة هو، أو يجعل له شريكًا من المتجنسين، وهكذا.

أما العفة فأصبحت صفرًا على الشمال، والداعون إليها والمحافظون عليها أصبحوا يسمون: متزمتين .. متحذلقين .. رجعيين، وهكذا.

وأصبح انتشار الزنى وإقراره الذي هو دياثة يسمى: تقدمًا وتطورًا وحضارة ورقيًا ومدنية وما إلى ذلك! وأي دياثة أفحش من حماية الزاني عن إقامة الحد بنص قوانينهم وأنظمتهم التي يطبق العمل بها في البلاد التي يتبجح أهلها بتلك العروبة الكاذبة؟! بل تكون عندهم دعوى الزنى سببًا في درء العقوبة عن السارق إذا لزمه صاحب البيت وسلمه للشرطة وسجل عليه محضر بذلك، يستطيع التخلص من العقوبة إذا ادعى عند القاضي أنه لم يدخل للسرقة، وإنما دخل على موعد مع من في البيت؟ نعم إذا ادعى هذه الدعوة البشعة حصل له الإبراء من العقوبة، وخرج حرًا طليقًا بعدما أشاع الفاحشة فيمن هو غافل مستور عفيف لا تحوم حوله الريبة، فلطخه ذلك اللص بالدنس، وخرج بريئًا بدلًا من أن تضاعف عقوبته! ولكنه القانون العربي الذي يبيح الزنى بالرضا، ويحمي مرتكبه!

فقارنوا بين عروبة الجاهلية الأولى وغيرتها وشهامتها وبين عروبة القوم الذين تقمصوا أخلاق فرنسيس وكل يهودي ونصراني، واحتسوا من قيحهم ودمهم وصديدهم، ثم فرضوا عروبتهم المتفرنجة المتفرنسة علينا.

فهم، والعياذ باللّه، مع خروجهم من دين اللّه وانسلاخهم من شريعته وآياته وكفرهم بنعمته وجحودهم لجميله قد خرجوا من معاني العروبة الحقة، وانماعت عن قوميتهم وانصهرت في أخلاق غيرهم من كل شيء.

وإني أتكلم عليهم من النواحي الدينية، أما النواحي السياسية التي سخرت الإذاعات والصحف لرفع أشخاص ووضع آخرين، وإضفاء ثوب القداسة على

أفعال بعض ، وغشاء الشيطان على أفعال البعض الآخر ، فتلك النواحي ننزه أقلامنا عنها ونكلها إلى التاريخ الذي يصرفه مالك الملك لا إله إلا هو ، والذي سيكشف من الخبايا والخفايا ما يجعل كثيرًا من الكتاب والمضبوعين والمغرضين ينقلب على عقبيه ، ويعض من شدة الأسف على يديه ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٢١] ، ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٧٩] ، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] .. وإلى اللقاء .



نقد من الكويت[1]

[٢١]

سابع عشرها: أن القوميين جنوا على الإسلام جناية عظيمة لم يشهد لها التاريخ مثيلًا من قبل، وهي عزلهم الدين عن السياسة عزلًا صريحًا معممًا بكل قبح ووقاحة؛ متأسين بذلك بأساتذتهم من الإفرنج والفرنسيين، بثورتهم[2] على دينهم المزعوم، وإحلال القوميات مكانه.

وقد سمموا أفكار الشباب بهذه الفرية الأثيمة والخطة اللئيمة، وبنوها على شبهتين مفضوحتين للناقدين، ولكن مع الأسف أن الشباب اغتروا بهما، وساعد على رواجهما:

١- حاجات في الصدور. ٢- تقصير بعض المسؤولين والموجهين.

وها نحن ننقضهما ونكشف زيفهما، ونعكس مقصودهم عليهم؛ دمغًا لرؤوس المتعشقين للباطل وأصله، ورفعًا للحق وأهله بحول اللّٰه، فنقول:

إن شبهتهم الأولى في إقصاء دين اللّٰه عن الحكم وجعل السياسة الهوجاء تتحكم في مصير البشرية؛ هي لزعمهم أن الدين علاقة بين العبد وربه فقط!

هذا زعم باطل ينقضه نفس مدلوله لو كانوا يعقلون معنى ما تفوهوا به، لكنهم مقلدين لغيرهم تقليد القردة، أنجاهم اللّٰه من هذه الهوة السحيقة.

وإلا فهذه الشبهة التي جعلوها حجة لانفلاتهم من الدين واطراحهم لأحكامه هي في الحقيقة حجة عليهم داحضة لرؤوسهم مرغمة لأنوفهم؛ لأن علاقة العبد بربه يجب أن تتعمق إلى جميع نواحي الحياة، ولا يجوز بوجه من الوجوه قصرها

---

(١) صحيفة القصيم- العدد (١٦٢) في ١٨- رمضان ١٣٨٢ هـ.

(٢) في الأصل: «بوثرتهم».

على المسجد كما قصر القوميون من المسيحيين دينهم على الكنيسة ، وقلدهم المعرضون والمغرضون من أبنائنا الذين تنكروا على أولئك .

فعبودية اللَّه ليست مقصورة على صلاة صورية ، أو صوم أو زكاة يؤديهما الإنسان بتوجع أو امتنان ، ولا على حج يرجع منه أهله دون أن يشهدوا منافع لهم .

والصلاة التي لا تظهر آثارها في أخلاق صاحبها بطيب سلوكه وحسن معاملته ، لا تزيده من اللَّه إلا بعدًا . وكذا كل شعيرة لا تقع مواقعها المشروعة لها وتحصل نتائجها المطلوبة .

وعبودية اللَّه التي يطلبها الدين الإسلامي عامة في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والحربية وغيرها من سائر الشؤون الاجتماعية . ومن قصر في شيء من ذلك فهو مخل بعبودية رب العالمين ، لم يحسن علاقته بربه بحسب ذلك .

ففي الشؤون الاجتماعية : يوجب الدين على أهله أن يعامل كل منهم الآخر بمثل ما يحبه لنفسه في سائر الميادين ، ويحبذ إليهم الإيثار ، ومشاطرة كل واحد منهم السراء والضراء .

كما يوجب عليهم التناصح والتراحم إلى أبعد حد وأقصاه ، حتى بين السيد والمسود ، والقائد والمقود . وقرر أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

وشرع لهم الأخذ بأسباب الوقاية والمبادرة بالاستشفاء والعلاج .

وعمل على حفظ نفوسهم وجوارحهم وعقولهم؛ لمشروعية القصاص والتعزير والردع للجناة والمنحرفين .. إلى غير ذلك مما يطول شرحه .

وفي النواحي الاقتصادية : أوجب عليهم السعي في طلب الرزق واكتساب المال من حله وإنفاقه على مستحقه ، وجعلهما من شعب الإيمان .

وحضهم على تسخير كل دابة ومادة على وجه هذه الأرض أو في جوفها أو

أجوائها؛ للتغلب بها على أعداء اللَّه وأعدائهم . وجعلهم آثمين إن هم فسحوا المجال لغيرهم باكتساب تلك المواد الهائلة التي يفرض بها عليهم سلطانه ويتحكم بمصيرهم ، كما جرى فعلًا .

وحرم على أهله الإسراف والتبذير وتعطيل طاقاتهم ومواهبهم على القيام بنصرة الحق وإسعاد مجتمعهم في الحياة .

وأمر بصيانة المال وحفظه عما لا فائدة فيه ، وجعل هذه القاعدة هي الضابط للرشد من السفه الذي يحجر على صاحبه .

وحرم الربا والقمار ، وما يتفرع منهما مما فيه تعطيل للمواهب وشل لحركة الأعمال .. إلى غير ذلك .

وفي الشؤون السياسية والحربية : أوجب اللَّه على أهل دينه أن يأخذوا حذرهم على الإطلاق من كل ناحية ، فيتوسعوا في المباحث والعيون ، ولا ينخدعوا بألاعيب الساسة ومكرهم . وأن يعتبر كل فرد نفسه على ثغر من ثغور الإسلام ، فيحرص جاهدًا أن لا يؤتى من قبله .

فأمرهم أن يعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة بجميع أنواعها واختلاف تطويرها ، مع زيادة القوة في الإيمان والتفوق بالأعمال الصالحة المزكية لنفوسهم المؤثرة في أعدائهم الجالبة لتأييد ربهم ونصرته التي كتبها على نفسه لمن قام بذلك بقوله : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧] .

وأوجب عليهم النفير العام بكثرة؛ مناديًا لهم بقوله : ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٣٦] ، وحرضهم على مواصلة الكفاح بقوله : ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٠٤] .

وأوضح أحكام الحرب والأسر والفداء في الكتاب والسنة .

ونهاهم سياسيًّا من الركون إلى أعدائهم أو اتخاذهم أولياء؛ طمعًا في صدقهم، وثقة في مواعيدهم، أو أن يتخذوهم أولياء من دون المؤمنين يلقون إليهم بالمودة باسم الوطنية أو الجنسية أو النفعية المادية، كما هي خطة القوميين في هذا الزمان؛ مخاطبًا لهم بصيغة الاستفهام والتوبيخ قائلًا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٦].

وصارحهم بأبلغ النهي وأبشع التهديد قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢]، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٢، ٥٣] عكسُ القومِ الذين هم اليوم أعزة على المؤمنين أذلة على إسرائيل وأنصارها، العاملين لخيرها من أحبابهم.

بل الذين سيبعثهم اللّٰه بوعده في هذه الآية هم الذين يجاهدون في سبيل اللّٰه ولا يخافون لومة لائم، ليس الجهاد لهم في سبيل القومية العصبية المحرمة والوطنية والنفعية، كجهاد من وصفه اللّٰه في أول هذه الآية بأنه مرتد على دينه، وأن اللّٰه سيبدله بما شاء ممن يقوم بالجهاد الشرعي الصحيح، وقد حذرهم تعالى من الاطمئنان إلى من سواهم رغبة أو رهبة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: الآية ١١٨].

وفضح الدين الإسلامي أحوال أعدائه بأساليب مضطردة إلى يوم القيامة؛ منها

ما تقدم ، ومنها قوله : ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التّوبَة: الآية ٨] .

كما شخص لنا أحوال المنافقين التي نراها ملموسة في كل عصر؛ بحيث يُعرف المنافق من سيرته وأعماله المفضوحة في القرآن ، وإن تبجح باسم العروبة وادعى العمل لخيرها ، فإن من رجع إلى القرآن لمعرفة أحوال الناس وسبر صفاتهم بما جاء فيه تبين له المخلص من المنافق .

زد على ذلك أن علاقة العبد بربه لا تسمح له أبدًا بتسمية شيء معه ، فضلًا عن تفضيله على القيام بدينه ونصرة شريعته . وأنه لا يجوز له أن يحب مع اللّٰه أحدًا أبدًا من أهل أو مال أو وطن أو عشيرة ، فضلًا من أن يكون عنده أحب من الله؛ كالقوميين الذين تعلقوا بحب الوطن والمادة والجنس ، وطرحوا دين اللّٰه من أجلها ، ولم يسعوا يومًا واحدًا لإعلاء كلمة اللّٰه ونشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها؛ خشية من إخوانهم النصارى بزعمهم دون أن يخشوا من الله! : ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التّوبَة: الآية ١٣] ، ولذا قال تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجَادلَة: الآية ٢٢] ، وقال : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التّوبَة: الآية ٢٤]

وهذا وعيد لهم شديد أبهمه اللّٰه للمنافقين الذين يؤثرون حب هذه الأصناف الثمانية من أوطان ، وأولاد ، وعشيرة ، على حب اللّٰه ورسوله ، والسعي لإعلاء كلمته ، وقمع المفتري عليه بالجهاد الصحيح .

قال المفسرون : أبهم اللّٰه هذا الوعيد للمنافقين؛ لتذهب أنفس المؤمنين فيه

كل مذهب ، ويزداد خوفهم من إتيان اللّه بشيء من عقوباته المتنوعة التي لا تحيط بها العقول . وكل من آثر شيئًا من ذلك على حب اللّه ابتلاه اللّه بكثير من عقوباته ، وضرب عليه الذلة ، وجعل أعداءه تكتنفه وتتداعى عليه من كل جانب؛ بدلًا من أن يكون هو الذي يخوفهم ويقتحم أسوارهم كما فعله الأسلاف البررة الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه من مدلول الشهادتين ، وأحسنوا علاقتهم مع ربهم تمام الإحسان ، ووثقوا صلتهم به .

ومما ذكرنا يتضح لك أيها القارئ الكريم أنه لا يمكن تحقيق العلاقة بين العبد وبين ربه وتحسينها تمامًا إلا بإيثار محبته ومحبة رسوله على كل شيء ، بل تسخير كل شيء من أجل القيام بنصرة دينه وإعلاء كلمته ، والمسارعة لما يرضيه ، والمسابقة في الخيرات وفق شرعه ، والتواصي بالحق والأمر بالمعروف والتعاون على البر والتقوى ، وإقامة علم الجهاد لقمع المفتري عليه ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى .

فمن قام بذلك فقد حقق علاقته الطيبة بربه ، وأحسنها كما أوجب اللّه عليه .

ومن آثر مخططات أعدائه من القومية والوطنية اللذان يكون تحت شعاراتهما عبدًا للمادة منطلقًا في سبيل الشيطان فقد قطع علاقته بربه ، وإن صلى كل يوم أو ارتاد المسجد يوم الجمعة كارتياد النصارى كنيستهم يوم الأحد! فإن اللّه لا يرضى من عبده أن يعيش بإيمان أعزل أمام إلحاد مسلح ، ولا أن يحكم بغير شريعته ويسير في الحياة على خلاف وحيه وتنزيله على رسوله .

وبذلك تنعكس شبهة القوميين وأكذوبتهم اللئيمة على رؤوسهم ، وتكون شاهدة عليهم أنهم في مكان بعيد عن ربهم ، ولم يتوسلوا إليه بأي علاقة ، فضلًا من أن يحسنوا علاقتهم به . ويأبى اللّه إلا أن يظهر الحق ويفضح المفتري ، فيجعل ما رسمه من الخطط شاهدًا على كفره وفجوره وإعراضه عما جاء به نبيه الكريم .. وإلى اللقاء .

نقد من الكويت[١]

[٢٢]

ثم إن القوميين الذين يحصرون الدين بأنه علاقة بين المرء وربه ، ويقصرون مدلوله على أضيق نطاق ، لا يرضون بتطبيق هذا المدلول على أنفسهم ، ويصرخون عند أدنى حاجة بما يناقض زعمهم .

كما تراهم أيها القارئ الكريم يلجئون إلى الإسلام ويستدلون بنصوصه على خصمهم ، وإن كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ليًا بألسنتهم وجناية على الدين بالتأويل الفاسد الملائم لأغراضهم ، والذي يدعمون به مبادئهم الفقيرة من الهدى!

فلنتساءل مع القراء الكرام عن هذه الأكذوبة والفرية العظيمة التي عطلوا بها حكم اللّٰه وأقصوا شريعته عن ميادين الحياة تحت ستارها ، فنقول : هل يرضى رئيس دولة من الدول التي قررت هذه الفرية مبدأ لها أن يقتصر رعاياه وموظفوه في ارتباطهم بحكمه على مجرد احترام اسمه والثناء عليه والانحناء أمامه وتعليق صورته ورفعها فوق الرؤوس دون أن يتقيدوا بأوامره وتشريعاته كلها ، بل يقبلون منها القليل الذي يوافق أذواقهم ، ويرفضون الكثير ، ويتمردون عليه بحجة ما؟!

وهل يرضى منهم أن يجلبوا نظم وتشريعات دولة معادية له فيحتكمون إليها؛ رافضين أوامره وتشريعاته بحجة عدم ملاءمتها لهم ، أو أنها لا تخالف نظمه في المعنى ونحو ذلك من التدليس والتلبيس؟!

هل يعتبرهم قائمين بوظائفهم مخلصين له؟ أو يعتبر من سلك هذا المسلك خائنًا عميلًا لغيره ذنبًا يصفه بكل وصف ذميم ، ويقصيه عن عمله ، ويحكم عليه

(١) صحيفة القصيم العدد (١٧٠) في ٢٢- ذو القعدة- ١٣٨٢ هـ.

بشتى العقوبات الصارمة؟.

لا شك أنه يعتبر من لم يلتزم بنظمه وينفذ تشريعاته خائنًا عميلًا ذنبًا لفلان وفلان، ويصب عليه الشتائم، وينزل به أقصى العقوبات، كما جرى على من لم يعمل معشار ذلك من التمرد والإعراض، فقد جعلوا لأنفسهم منزلة أعظم من منزلة رب العالمين.

فهم بهذه الفرية العظيمة والخطة اللئيمة انتقصوا اللَّه ورسوله انتقاصًا لم يسبقهم عليه أي كافر من كفار القرون البالية؛ إذ حصروا علاقة المسلم بربه في المسجد ونحوه، وأوجبوا عليه الانقياد لهم في كل شيء والاستسلام لهم في كل ناحية من نواحي الحياة وإلا فيكون خائنًا.

أما هم فلهم الخيرة من أمرهم دون ما قضى اللَّه ورسوله من الأحكام والشرائع، فقد أوجبوا على الناس تأليههم من دون اللَّه بهذا العمل الذي يحتوي على جميع معاني التوحيد، وجعلوا حدود الوطن ومحبة الجنس وتحصيل المادة فوق حدود اللَّه وأعلى من محبته وأولى من توسيع رقعة دينه ونصر كلمته! فهذا أشر بكثير من عمل أهل الجاهلية الأولى؛ لأن هؤلاء جعلوا للَّه جزءًا يسيرًا من الانقياد محصورًا في أضيق بقعة وهم لا يرضون إلا بالجميع!

كيف يعملون بكل جد ودهاء على إغراء الناس على التمرد من حكم اللَّه وشريعته، يلطخون أدمغة الشباب والسفهاء لهذه الفرية؛ وبأن الدين لا يصلح للسياسة، وأنه علاقة بين العبد وربه؟ فما هذه العلاقة الكاذبة التي انطلت على فاقدي التمييز ممن بدلوا حظًا مما ذكروا به، أو نقموا على الدين بسبب جمود بعض المتدينين أو انزلاق بعضهم من مكر السياسة الغاشمة، كما أوضحته في الحلقة السابعة عشرة؟

باللَّه عليكم إذا كان الدين علاقة بين العبد وربه، فهل يرضى اللَّه من عبده أن يتخلى عن الإصلاح في الأرض وتطهيرها من الكفر والظلم والفسق والفجور؟

إن المتخلي عن رسالة محمد ﷺ من ذلك لم يحسن علاقته بربه، وهل يرضى اللَّه من عبده أن يسمح لأعدائه وأعداء رسوله بافتراء الكذب عليه وينشطوا لترويج مذاهبهم ومبادئهم على حساب دينه وهو قاعد لم يدفع بدعوة نبيه ﷺ إلى الأمام؟

لا شك أن هذا عبد سوء، لا يرضى عنه مولاه وهو لم يغضب له ويغار لدينه وتأخذه الحمية لنصرته. إن علاقته هذه أسوء العلاقات لا يرضى بها المخلوق من مخلوق مثله!

ولعلك تكتفي أيها القارئ مما قلته بفساد هذه الخطة وفضيحة هذه الأكذوبة التي جعلوها نصيبًا للَّه من عبده، وحظًا خسيسًا لعبده منه، والعياذ باللَّه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: الآية ٥].

الشبهة الثانية: هي زعم بعض المتشدقين المتحذلقين منهم، وهي قول أولئك: «إن الحي يسعى لتأمين الحياة، وبالدين هو يسعى لتأمين ما بعد الحياة»

فهل هذا القول المتناقض ينطلي على ذي عقل صحيح غير متأثر؟

باللَّه عليك أيها القارئ والسامع، هل يحصل تأمين الحياة وإسعادها بالتعايش السلمي النافع إلا إذا سعى الحي لتأمين ما بعد الحياة بمراقبة رب العالمين والوقوف عند حدوده بإعطاء كل ذي حق حقه دون غش ولا مراوغة؟ بل بما رسمه اللَّه على لسان رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥]، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٠]، ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: الآية ٥٦]، ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النِّساء: الآية ١٣٥]: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به تكن مسلمًا، وأحب للناس ما تحبه لنفسك تكن مؤمنًا»(١). «لا يؤمن أحدكم حتى

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣١٠، والترمذي (٢٣٠٥) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه. بلفظ: =

يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)].

فبهذه الطريقة الدينية يحصل تأمين الحياة وما بعد الحياة، كيف خفي على تلاميذ الإفرنج وخريجي مدارس فرنسيس، أن هذا مستلزم لهذا، بل حصول السعادة في الدارين متوقف على الإيمان بالغيب، ولذلك حصر الله الهداية والمنفعة بالتذكرة عليه؛ إذ قال في القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣] وقال: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨، ٤٩].

ولذلك لما انطبع أسلافنا بذلك كانوا أصلح الخلق، وأنفع الخلق للخلق، وأرحم الخلق للخلق. ولو أن جهود القوميين العظيمة بذلت في ذلك لحصل خليفة صالحة لهم في هذا الزمان، ولكن المخطط المرسوم لهم من أعداء الله، فكيف يرتجى من شجر الحنظل أن ينتج رمانًا أو برتقالًا؟

بالله عليكم هل يحصل تأمين الحياة إذا تعلق الناس بالمادة والأنانية وحب الرئاسة والأغراض الدنيئة؟ ألم يحصل بذلك الشر المستطير؟ ألم تر العالم مهددًا في كل وقت بحروب طاحنة؟

ألا تراهم منهمكين في صنع ما يدمر المدنية ويفتك بالحياة؟

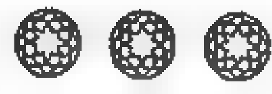
حقًا إن تأمين الحياة منوط بالعمل على تأمين ما بعدها، وذلك لا يحصل إلا بالإيمان بالغيب، الذي هو غاية الحكمة، وأقصى درجات الكمال والجمال؛ لأنه يجعل في الإنسان رقيبًا باطنيًا يرافقه في كل عمل، ولا يخوفه من عقوبات الله العاجلة والآجلة، فالمؤمن بالغيب هو الذي ينتفع به جميع الخلق على السواء، وهو الذي يسعى بالصلاح والإصلاح إذا حقق إيمانه غير متلبس بالأثرة،

= « وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ». وحسنه الألباني.

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

أو طامع في لقب أو منصب . وهذا هو مذهب الرسل ومن تخرج من مدارسهم ، أما من تخرج من مدارس القوميين من مشارق الأرض ومغاربها فهو الذي يعمل أعمالًا تكون وبالًا على أهل الأرض وذهابًا بأمنهم ، وإن تذرع بالدين فهو كاذب إذا خرج بأعماله عن تعاليمه ، فلا يجوز أن يحمل الدين جريرته ، بل يجب على المنتقص منه أن يغلبه بتطبيق الدين والنصح للَّه أن ينتقم من دين اللَّه وينتقصه من أجل المنحرف ، فينتقد الفاسق ويكون هو كافرًا ، كالهارب من الرمضاء إلى النار .

فنرجو للكاتب أن يحسن التأمل في خطط من تعشقهم ، ورضي لنفسه أن يكون ميزابًا لهم يجري بما يصب فيه؛ فيشمخ بنفسه إلى العبقرية المحمدية ، منيبًا إلى اللَّه عاملًا على نصرة دينه وحمل رسالته من جديد؛ ليطهر نفسه مع أرجاسهم .. وإلى اللقاء



نقد من الكويت(١)

[٢٣]

وليعلم الكاتب ومن على شاكلته من المخدوعين الملعوب على عواطفهم : أنه لو لم يجر من مفتريات القوميين وجرأتهم على الله إلا ما ذكرناه في الحلقتين السابقتين لكفى بهم خزيًا وضلالًا يجب إنكاره والبراءة من أهله ، فكيف وجرائمهم تزيد على الأربعين جريمة ، ذكرنا بعضها مجملًا للاختصار ، وسنذكر باقيها إن شاء الله . وكل جريمة منها تؤدي إلى الكفر لقيام الحجة ، ولأنها جميعها لها مساس بأصول العقيدة ، ومنشؤها الإلحاد في آيات الله ، وإطراح أحكامه ، وموالاة أعدائه ، وعدم خشيته والإشفاق من حسابه في يوم الدين . وكيف ينخدع الشباب المسلم ويدفعه الحب والعاطفة الهوجاء بموالاة الذين تجاوزوا حدود الله وجعلوا لأنفسهم منزلة أعلى من الله في الحكم والتشريع والتسلط والتحكم في الشعوب بالافتراء على الله ، والله يقول : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ٥٧] بصيغة الحصر الذي لا يجوز لأحد معها أن يحكم بغير شريعته ، ويقول : ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: الآية ١٠] ، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٠] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤] .. ﴿هم الظالمون﴾ .. ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: الآية ٥٥] والكفر والظلم والفسق بمعنى واحد إذا أطلقه القرآن دون تقييد أو تخصيص متصل بالسياق أو منفصل .

فالقوم الذين ضربوا بهذه الآيات عُرض الحائط ، وأعرضوا عن سياسة القرآن

(١) صحيفة القصيم العدد (١٧٢) في ١٢/٧/ ١٣٨٢ هـ .

القاهرة واتبعوا ما تتلوه شياطين الإنس من طغاة اليهود والنصارى، كيف يروج باطلهم على الأمة ويجدون من طبقات المتعلمين أنصارًا؟! هذا مما يدل على أن الجماهير لا عقل لها، وأن الحق في الغالب مع القلة: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: الآية ١٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦]، وقد قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

ومن استعمل عقله جيدًا، ونقد أحوال الناس، ووزنها بميزان القرآن والسنة، ودرس الموارد والعلل المؤثرة عرف الضلال ومنشأه، والحق كالشمس لا تخفى دلائله إلا على من أعمت بصائرهم حاجات في صدورهم، والولوع بحب المادة، وتقديس الأشخاص، والانصراف من عبادة اللَّه حقيقة إلى عبادة الهوى:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: الآية ٢٦]

إنهم سجلوا على أنفسهم بما انتهجوه من مخططات أنهم أعداء الإسلام؛ بحرمانه من حقه المفروض في الحكم وعزله عنه؛ أسوة بالعداوة التقليدية التي تكنها أوربا للإسلام وأهله، حيث وضعت لتلاميذها من العرب برامج لخطوط عريضة تقضي على هذا الدين بعد اندحارها في الحروب الصليبية، ويغرونهم على تنفيذ تلك النزعات الحاقدة بما فعلوه مع كنيستهم وتطليقهم للأديان. فانصبغ تلاميذهم من أبنائنا بذلك دون إمعان النظر في الفوارق العظيمة بين الدين الحنيف الواجب عليهم إقامته والاحتكام إليه، وبين الأديان الباطلة التي يبيع أهلها صكوك الغفران، وغاية أمرها كله افتراء على اللَّه.

فتسوية الدين الإسلامي بغيره كفر واضح؛ لأنه سلطة روحية زمنية حكمية لا ينفك بعضها عن بعض، فلا يجوز قصره على المسجد دون الدوائر والقضاء

والدواوين السياسية- كما أوضحته قبل حلقة- فإن له تشريعات وأهدافًا يجب أن يصل إليها حتمًا وإلا فلا يكون أهله قائمين بما عاهدوا اللَّه من التزام أحكامه ، ولا يمكن للإسلام أن يعيش تحت حكم قومي لا تقام فيه حدود اللَّه جميعها ، ولا يؤبه فيه باتجاهات الإسلام السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ولا يلتفت إلى سائر تشريعاته ، فإن المسلمين لا يجوز لهم أن يطمئنوا إلى هذا النوع من الحكم القومي ، أو يؤيدوه بكل وسيلة؛ فيرتدوا عن دينهم بذلك . ومطالبتهم أن يعيشوا في كنف ذلك الحكم خاضعين للنظم الغريبة عن الإسلام كمطالبة أهل المستعمرات أن يعيشوا تحت وطأة المستعمر الذي يزعم أنه جاء ليمدنهم ويطور حضارتهم ويهيئهم للحكم الذاتي الذي يمشون به على تعاليمه سواء بسواء ، فالحجة واحدة ، والحالة مشتركة في المعنى ولا عبرة باختلاف الصورة .

إن الإسلام ليس مجرد فلسفة عقلية يتسلى الإنسان بمطالعتها ويدرسها إذا شاء لبعض عشاقها ، وليس نظرية هندسية كذلك ، وإنما هو منهاج كامل شامل لجميع نواحي الحياة تعبَّد اللهُ البشر بإقامته حسب ما شرع ، وشرف العرب بحمل رسالته ، فمن المحتم عليهم أن يقوموا به ويحكموا الناس على ضوء تعاليمه؛ ليطهروا الأرض مما حل بها من الظلم والفساد .

كيف يجوزون لغيرهم من أهل النظريات الأخرى أن يحكموا بها ويفرضوا تنفيذها على الناس؟ عار عليهم السماح لأولئك بهذا ، بل وأعظم العار أن يتبنوا شيئًا من الأفكار والنظريات يفرضون به نوعًا من الحكم على الناس ، ويطرحون الحكم باسم الإسلام وفق ما أنزله! هذا انحطاط عظيم ومسخ معنوي مشين ، وتنكر لملة نبيهم ﷺ ، وجحود لنعمة ربهم ، وإخلاد إلى مخططات أعدائهم ، وهو ناشئ من مركب نقص ومرض قلب ، ابتعدوا به عن واجبهم أمام اللَّه ورسوله .

كما أنه من العار والشنار عليهم أن يحملوا دين الإسلام والعقل شيئًا من أوزار المتلاعبين باسمه أو الجامدين المتخوفين من سوء العواقب الذين رأوا بعض نتائجها السيئة ، فإن هذا منطق يجافي العدل والعقل؛ إذ العقل والعدل يقضيان على المنصف أن يضع الجريمة وأصحابها داخل إطار خاص ملائم لهم ، ويقوم بإصلاح الدين مما أحدثوه فيه ليغلبهم ويسبقهم على الخير ، كما أن الإنصاف يقضي بعدم حب الغضب على العالم المتخوف من سوء المصير على الدين حتى ينظر جيدًا في النتائج السيئة التي حدثت من برامج التعليم التي لم ترتكز على دين ، وإنما ارتكزت على المادة وإعطاء النفس ما تشتهي ، والنفرة من تعاليم الإسلام وآدابه ، وتعشق أخلاق الغربيين ومدنيتهم الزائفة ، بحيث إن كثيرًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا ، ولا يعمر مساجد اللّٰه ، ولا يؤمها إلا في يوم الجمعة؛ لنزعته القومية التي قلد بها النصارى ، فصار مكتفيًا من دينه بدخول المسجد يوم الجمعة كدخول المسيحي كنيسته يوم الأحد! أما مراقبة اللّٰه وعمارة المساجد في جميع الأوقات بتعظيمه وعمارة قلبه بمحبته والاندفاع لحمل شريعته والسعي لإعلاء كلمته ، فهذا صفر على الشمال ، وليس معروفًا لديهم بل منبوذ من برامجهم! فمن الذي وسع رقعة الخلاف بينهم وبين المسلمين ، وجعل المسلم في ريبة من كل ما اقترحوه سوى التعليم المنحرف عن شريعة الله؟! فهلَّا رجعوا إلى اللّٰه وأنابوا إليه صحيحًا؛ ليلتقوا مع إخوانهم المسمين على صعيد واحد وهو الصعيد المحمدي؛ لأن السبخة الغربية ذات الأشجار المرة .. وإلى اللقاء .



نقد من الكويت[1]

[٢٤]

ثامن عشرها : أنهم مع تكذيبهم بآيات الله ووحيه على رسوله تكذيبًا عمليًا، فقد صدفوا الناس عن القرآن، خصوصًا النشء الجديد الذي تولوا تربيته في المدارس التي لا تزال تمشي على البرامج الثقافية الاستعمارية، ويدرس بها من احتسى من دم الإفرنج وقيحهم وصديدهم، فيمجه على الأفئدة الطاهرة من الطلاب الذين استلموهم من أيدي آبائهم المقصرين في رعايتهم؛ مندفعين بذلك إلى تحصيل الوظائف المادية، غافلين عن وظائف الرحمن الرحيم التي خلقهم من أجلها وشرفهم بحملها، فأعموهم عنها وأصموهم بهذه الفتنة المادية الجديدة وشعارات الوطنية ونحوها، فاستغلوا ذلك لإبعاد الأمة عن مقصود القرآن، وركزوا في قلوب الناشئة تنقيصه والإعراض عنه، وإن كانوا يدرسونه في الابتدائي تدريسًا لفظيًا صوريًا ويذيعونه من إذاعاتهم الهوجاء بصورة الغناء على نمط أوزان الموسيقى؛ تخديرًا للعامة، وتضليلًا للدهماء ليدسوا سمومهم من بين يديه ومن خلفه.

فهم لم يكتفوا بصدوفهم عن القرآن ووحي الرحمن وحرمان أنفسهم من هدايته بالسير على ما هو مخالف له من خطط ملاحدة الشرق والغرب، بل صرفوا الناس عنه وأبعدوهم عن اتباعه كما كان كفار الجاهلية يفعلون، بل فتنة أولئك أعظم وأشد تأثيرًا؛ لأن كفار الجاهلية يصرفون الناس عن هداية القرآن بالعنف الموجب للامتعاض واليقظة ورد الفعل الذي جرى ممن فتنوه وحاولوا صده، وهؤلاء القوم يصرفونهم عنه بالشبه والأوهام، فلا يفاجئونهم جميعًا

(١) صحيفة القصيم العدد (١٧٣) في ٢٠- ذي الحجة ١٣٨٢ هـ.

بتكذيب القرآن، بل يلبسون عليهم ما قدروا على تلبيسه من أحكام تارة، ويزعمون عدم صلاحيته لتطور الزمن تارة، ويصرحون لمن يثقون به ممن ركن إليهم من الشباب وتبلور مخه بخبثهم أن القرآن وما فيه من الحدود والأحكام قاسية لا تلائم حالة البشر في هذا العصر!

وغالبًا أيضًا يضيقون ذرعًا بقراءته واستماعه، وتشمئز قلوبهم ولا يستكينون إليه، بحيث إذا كان لهم نفوذ واضطروا إلى التطفل عليه حاولوا الاختصار منه، ولو على آية واحدة؛ لعدم هضمهم إياه وصعوبته عليهم، والعياذ بالله.

وهذا شيء مشاهد لمسناه ممن جالسناه من الخارج منهم، وطباعهم وملامحهم تشهد عليهم بذلك، زيادة على سوء سلوكهم في منابذته ومنافاته. فهم شر وارث لمن وصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٤، ٢٥] ومن وصفهم الله أيضًا بقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٦].

فهم ينهون أتباعهم عن استماع القرآن والاعتماد على شيء منه، ويحثونهم على قراءة كتب الوجودية والإلحادية والشيوعية والقومية الممزوجة بهذا كله. ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٦] أي: يبعدون ناهين ومنتهين لا يقيمون له وزنًا، وما ابتعادهم من هدايته وصرفهم الناس عنها إلا لأنهم لا يعتبرونه نورًا وهداية وشفاء لما في الصدور، بل يعتبرونه مدعاة للتأخر، وسببًا من أسباب التخلف والتحجر، ولا ينظرون إلى أهله إلا أسوأ نظرة، ويتلقفون الزلات والعثرات فيرتكزون عليها في دعاياتهم للصد عنه؛ تنفيرًا للشباب المنكوبين بهذه النزعة الثقافية الصليبية، فيحملوا كتاب الله أوزار من لم يحسن التصرف في حمله أو

قصر في الاهتداء به .

والواجب عليهم أن يقلبوهم عن حمله وتطبيقه بدلًا من أن يستغلوا ذلك لإبعاد الشباب عنه ، وإفساد قلوبهم برجس أعدائه . فقد عملوا غاية جهدهم على سد الطريق أو قطعه دون من أراد الاهتداء بالقرآن ، وحشروا أدمغة الناس ، وخاصة الشباب ، بلهو الحديث والمجون ، وما يبثونه نشرًا أو إذاعة؛ لئلا يكون في قلوبهم استعداد لقبول هداية القرآن ، أو يكون فيها فراغ لذكر اللَّه وما نزل من الحق ، ولهم أسوة سيئة في أسلافهم الذين حكى اللَّه عنهم أنهم قالوا : ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٦]

فلقد أخذوا بهذه الوصية كابرًا عن كابر حتى رسم لهم « زويمر » و« دنلوب » و« مورغورنجه » وأمثالهم من طغاة القوميات الطرق والأساليب التي تفننوا فيها بصرف الناس عن القرآن وإشغالهم عنه واقتلاع أحقيته من القلوب ، فسخروا دور الطبع والنشر وبرامج الإذاعات المشحونة باللهو والمجون والتهريج والتهويش والتمثيلات الماجنة والمغرضة وأفلام السينما والمسارح التي يرفضها أغلب الكفار ويمنعها في بلاده .

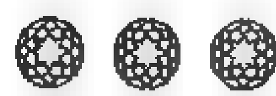
وهكذا نفذوا خطط أعداء اللَّه التي رسموها لصرف أمة القرآن عن القرآن وإبعادهم عنه؛ لأنهم يجزمون بذهاب ظلهم إلى غير رجعة إذا عملت الأمة بالقرآن وانفتح وعيها على أساس هدايته ، فرسموا المخطط التي يضمن لهم عودتهم وتروج ثقافتهم وتقوى وسائل غزوهم سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا .

فالمستعمر لا يخاف من الشيوعية الماحقة أكثر مما يخاف من القرآن الذي يلهب صدور أهله الصادقين ببغض الكفار ، ويوجب محاربتهم ، ويحرم موالاتهم والركون إليهم والتشبه بهم والاحتكام إلى شيء من نظمهم ، ويمضي أهله على السعي في هداية البشر وإعلاء كلمة اللَّه وفتح القلوب وإصلاح البلاد والعباد من

أنواع الكفر والظلم والفساد.

هذا القرآن الذي لو استنارت الصدور بهدايته في هذا الوقت، وحصل الوعي على أساس تعاليمه لأقض مضاجعهم ورفع رؤوس أهله عاليًا فكانت لهم الكلمة العليا بأمر اللَّه، هو الذي يخيفهم ويبلون صنوف الدعاية ضده. فهذه في بلادهم خشية من زحفه إليهم وهم لا يشعرون ...[١] أبنائها المتربين في أحضانهم والمنصبغين برجس ثقافتهم، فعملوا على تضليل أمتهم وإبعادها عن كتابها ورسالتها، وجعلوهم يدورون في حلقة مفرغة عشرات السنين؛ كل سنة يزداد بها ضلالهم ويتفاقم شرهم وشقاقهم ونفاقهم، وتنحدر أخلاقهم من سوء إلى أسوأ.

ولا شك أن خططهم[٢] خطط من لا يؤمن بالآخرة، وإن زعم بلسانه أنه مؤمن بها مليون مرة؛ إذ المؤمن بها يأخذ ما آتاه اللَّه بقوة ويتفانى في حمله، وأولئك على حد وصف اللَّه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٥]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٥] .. وإلى اللقاء.



(١) مقدار خمس كلمات غير واضحة بالأصل.

(٢) في الأصل: «خططهن».

نقد من الكويت[١]

[٢٥]

تاسع عشرها : سعيهم الحثيث المتواصل لفتنة الأمة الإسلامية شيبًا وشبانًا عن الملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية أصلًا وفروعًا .

وقد نص اللَّه تعالى في كتابه على أن ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩١] ، وقال أيضًا : ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧] . أي : أشد قبحًا ، وأكبر تأثيرًا من القتل؛ إذ القتل الحسي مختص بالجسم الذي قد يستريح من أعباء الحياة ، وتتحقق له الشهادة والسعادة في الممات إذا جرى عليه وهو ثابت على الإسلام . أما الفتنة فهي جناية عظيمة على العقل والروح ، وفيها إحراج للإنسان وتضييق لفطرته[٢] عن الاستمرار والثبات فيما هو عليه .

هذا إذا كانت الفتنة بالتعذيب منهم له أو بالتخلي عنه وإسلامه لمن يعذبه ويضيق عليه المعيشة ، كسكوتهم عن مسلمي بعض البلاد وتشجيع من يعذبهم بصداقته وإحسان المعاملة معه والثناء عليه ، عكس ما أمر اللَّه .

أو كانت الفتنة فيما هو أعظم من ذلك وأطم وهي تسميم الأفكار والجناية على العقول بالتعاليم المفسدة للعقيدة والأخلاق والآداب ، والقضاء على الروح الإسلامية ، وتسويد تسميم القلب بتحبيب الذنوب واعتبارها مدنية وحضارة ، وقتل الروح المعنوية الدينية وطمسها وإحلال محلها حب الوطن والتعلق بالمادة وزخارف الحياة ، كما هو بعض الخطوط التي رسمها الغربيون لإفساد الشرق .

فجميع أنواع هذه الفتنة حاصلة وأضعافها ، وتبذل المجهودات العظيمة

(١) صحيفة القصيم عدد (١٧٦) في ١٢- محرم ١٣٨٣ هـ.
(٢) في الأصل : « لفطته » ولعل الصواب ما أثبتناه .

للزيادة من ضراوتها ، وحشو القلوب من رجسها ، وطمس معالم الملة الإبراهيمية وآثارها من البلاد وقلوب العباد .

ثم إن قاتل الجسم مأخوذ بقتلته ، ومدين بالقصاص أو العقوبات الأخرى ، وقتل الجسم ينشأ من الآثار الحسية في الغالب من الغضب والحذر والعزم على أخذ الثأر الحافز للاستعداد بالقوة والبغي للاحتيال بكل وسيلة من أجل الانتقام لذلك ، كما جرى لليهود سابقًا ولاحقًا ، وجرى من كل أمة استعمل معها عدوها البطش والقسوة . أما قاتل الروح فعلى العكس من ذلك ، قد يكون محبوبًا تضفى عليه الألقاب الحسنة باسم العلم والفن والتمدين ، ويمضي بالجوائز والصلات وإقامة الأعياد ، كما جرى فعلًا في البلاد التي تتبجح بالعروبة وتتذرع بالإسلام من رفع شأن أولئك حتى المطربين والمغنيات والراقصات ، وتبجيل دعاة السوء والإلحاد ، ومفسدي القلوب والعقول .

وانظروا معشر القراء الكرام فيما قاله الفيلسوف الشاعر الهندي « أكبر أبادي » إذ يقول : إن فرعون مصر أخطأ الرمية وجانبه التوفيق في تحقيق القضاء على بني إسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرق سافرة ألصقت به العار ، وأثارت عليه اللعنات بقتله أبنائهم ليأمن ثورتهم! لو أنه رزق شيئًا من الابتكار وبعد النظر والتفكير لاكتفى بتأسيس كلية علمية لهم ينشئ بها الجيل الجديد ، كما يشاء ، ويسبك العقول والطبائع سبكًا جديدًا لا يدع معه مجالًا للشعور الديني ، بل تجعله لا يهتم إلا بالوظائف والمناصب ودرجات الرتبة وزينة الجسم والتأنق في اللباس تقليدًا للطاووس . لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى المتاعب وسوء الأحداث ووصل إلى غايته بسهولة وسلام ، واشتهر بين الناس بلقب : حامي العلم .. ومربي الجيل ، ونحو ذلك ، بدلًا من سوء العاقبة واللعنات .. نقلته وعزوته؛ قيامًا بأمانة العلم واعترافًا بفضله في السبق .

وقد مشى الغزاة هذا الزمن في غزوهم الصليبي الثقافي على هذا المنوال حتى تخرج على أيديهم من أبنائنا من هو شر منهم وأشد تأثيرًا؛ لأنهم من بني جلدتنا وينطقون بلغتنا، وأسماؤهم أسماء إسلامية لا أسماء يهود ولا نصارى، وقد ورد في حديث حذيفة المشهور(١) ما يدل على ذلك.

فالبرامج الثقافية الاستعمارية لم تنقص ولم تتبدل إلا بسوء أشد نكاية من ذي قبل؛ لأنها طعمت بمذاهب المزدكية الشيوعية الماركسية، والفلسفات الوجودية الإلحادية، فالتعليم لا يزال يحدث الفوضى الفكرية، ويتلف اللسان، ويعمي القلب عن نور الهداية، ويفسد الخلق، ويمسخ الفضيلة؛ ذلك أن الذي احتل الصدارة في الشرق وتولى التعليم والرعاية- بل والقيادة بأنواعها- ليس وجودهم إلا تجليًا للإفرنج؛ فهم كالشبح لظل من رباهم، بل هم صورة مجسمة لمن أخذوا عنه تلك الثقافة والمبادئ والمذاهب، وهم اسطوانات تتكلم بما سجل فيها، حياتهم عارية من الغرب؛ لأنه بناء قد بنوه وبوق نفخوا فيه ما أرادوا، وصورة ارتدت أزياءهم وانصبغت بصبغتهم! فهل يرجى منهم غير تلك البضاعة التي لا يملكون غيرها؟ فكيف إذا كانت وظيفته الإفساد بدل الإصلاح، ومهمته الهدم بدل البناء؟ وقد غرسوا في قلوب أكثر الناس التنكر للقديم والثورة عليه، لا لفساده ولكن لقدمه وحسد أهله! كما غرسوا التعصب العنيد لكل جديد في رأيهم، لا لصلاحه بل لجدته المزعومة عندهم، وهو في الحقيقة قديمٌ أقدم من غيره! فهو كالمنبوش من القمامة لو كانوا يعقلون! ولكن كيف يعمل العقل مع الفتنة التي تسممه والإغراء الذي(٢) يحجبه ويزوقه. والقوم تفننوا في أنواع الفتنة بادئين فيها بطعن الدين في الصميم طعنات غير مباشرة، طعنات توجه إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧) مطولًا.

(٢) تكررت في الأصل.

أشخاص وتتشبث بأفعالٍ بعضها عن خطأ وبعضها عن تفضيل وتقليد ، وهي في الحقيقة تستهدف الدين والعقيدة ، ولذا يصرحون بطعنه مباشرة في بعض الأحيان ، أو بين من انصبغ بصبغتهم وكسبوه رخيصًا . وتجدهم في الوقت الذي يهمزون فيه الدين ويلمزونه ينقدون أساليب الحكم ويلتمسون مواقع الضعف الذي هو كنقط حساسة ينفذون منه إلى أغراضهم .

والأمر المكشوف من هذه الأمور هو إقصاء شريعة الله عن الحكم ، وعزلها عن تنظيم شؤون الحياة؛ منادين بكل وقاحة أنها لا تصلح للحياة ، ولا تساير العصر! كأن نور الدين لا يضيء فيه ، أو كأنه استنفد أغراضه وانقضت رسالته من الكون وأفلت شمسه ، ووجب الاهتداء بظلام الغرب الذي أصبح خيرًا من ضياء شمس الدين الذي شرف الله العرب به!!

ثم توسعت فتنتهم في الفروع ، وذلك بفتح نوافذ الشر والفساد من كل ناحية؛ لإغراء الناس على الانغماس في الرذيلة وإشباع الشهوات ، وقضاء فراغهم ، وإضاعة أموالهم وأوقاتهم فيما يرديهم ويهلكهم ، ويبعدهم عن دينهم ورسالتهم ، حتى صاغوا الجبل الجديد ، وأرغموا القديم بصيغة وثنية جديدة؛ وثنية المادة والإلحاد باسم التطوير والتحسين والتقدم والحضارة ، وما إلى ذلك مما هو من شعارات القوميات العنصرية التي أشادوا بها كعقيدة وديانة ، بل صرحوا بأنها عقيدة وجندوا جهود الأدباء والكتاب بالتغني بها كهدف أسمى ليس له سواه ، وكما تغنى القوميون في بعض البلاد بأسلافهم الطورانيين الوثنيين تغنى مدعوا العروبة المتبجحون بالقومية بأسلافهم الكفرة الفجرة الذين قال الله فيهم : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٤١] .. والله اللقاء .

❁❁❁

تذكرة لذوي العواطف والتصفيق[1]

[١]

لقد ابتليت الشعوب الإسلامية عامة والعربية خاصة بدجاجلة شتى ، تخرجوا من المدارس الاستعمارية ، واحتسوا من ثقافتها الملعونة ، وأخذوا يروجونها على قلوب شبابنا الطاهرة والسطحيين من كهولنا . فخبطوا العقول والأذهان ، وجعلوا العاطفة تتحكم فيهم بشتى الألوان التي يقذف بها أولئك الدجاجلة ، فكسبوا جيلًا لا يعرف غير العاطفة والتصفيق ، ولا يدين للَّه بشيء مما شرعه أو يلجأ إليه إلا عند الخصام والمغالطة ، ومع هذا يرمي غيره بدائه . وواحدهم لو محص ما في صدره ، وحوسب على اندفاعه ، ونوقش عن صحة ما يزعم الحصول عليه من مصلحة الوطن والأمة لظهر أنه المصفق بدون وعي صحيح لأشخاص تمكن حبهم في قلبه ، وإنما التقليد الأعمى لكتاب ملاحدة خلطوا له السم في الدسم ، وأغروه بما يبعده عن ملة إبراهيم؛ يجعل دين اللَّه عنده صفرًا على الشمال ، أسوة بمن لا دين له ولا كتاب ولا رسالة ، ولا يعرف غير تربية بدنه وأولاده ، وصيانة المصلحة المادية ، وعمارة المصانع بخراب القلوب وفقرها من كل خير ورسالة : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية ٤٤] .

إن من هذا الصنف من يجرأ غالبًا على الكتابة في الصحف والهذر في الإذاعات! وهم لا لون لهم ولا طعم ولا ريح سوى ما ذكرناه ، ومع ذلك يتبجحون بما ليس في جعبتهم ، ويرمون غيرهم بدائهم الذي هو شعارهم ودثارهم .

فقد أضاعوا الرجولة التي هيأ اللَّه أمة الإسلام لها ، وأوجب عليهم أن يزكوا

---

(١) صحيفة اليمامة- العدد (٤٢٧) في ٣- جمادى الثانية- ١٣٨٣ هـ .

أنفسهم بتحقيقها، فدسوها وعبدوا الأشخاص وصفقوا لهم بحجة مصلحة الوطن أو طرد المستعمر الذي هو أخف من ريشة عند من يحبونه في نظرهم، وتطلعوا للمادة، ورموا من يكتب خلاف أذواقهم بكسبها، كأنهم الزهاد منها والعاملون لإعلاء كلمة اللّه ليس لإعلاء المبادئ والمذاهب الكافرة التي يأبى اللّه أن يحقق لهم بها وحدة، بل حصر جميع أحوالهم في الشقاق، إذ قال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ [البقرة: الآية ١٣٧].

فليعلم هؤلاء حق العلم أن الوحدة الحقة لا تتحقق أبدًا إلا بأخذ القرآن بقوة؛ عملًا وتبليغًا ودفعًا به إلى الأمام، وأن العرب ما داموا مختلفين فيه وملتفتين إلى غيره فلا يعدون خطة اللّه المحتومة وسنته التي لا[1] تتغير بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: الآية ١٧٦] وأن جميع جهودهم مصيرها خطته الثانية بقوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦]

ومن تأمل انتكاسة الأوضاع في جميع الحركات الانقلابية، وضياع الجهود، ونكران بعضهم لجميل بعض وانشقاقهم على بعضهم، ومخالفة أفعالهم لأقوالهم وواقعهم لدعاويهم، عرف أن وعيد اللّه لا بد أن يحق بهم فيزدادوا سوءًا على سوء حتى يفيئوا إلى أمر اللّه، أو يبدلهم اللّه ولو بأكثر منهم حسب حكمته ومشيئته في خلقه جل وعلا.

أما قيام إسرائيل؛ فهو من بعض الثمرات الحنظلية للقوميات، وعقوبة من اللّه على من سمح بافتراء الكذب عليه وفسح له المجال باسم القومية والوطنية، وجعله ينمو على حساب دين اللّه الذي لا يرضى بغيره.

---

(١) سقطت: «لا» من الأصل.

بل افترى القوميون على اللَّه كذبًا قبيحًا صريحًا بقولهم : « كل المذاهب للَّه » وجعلوا الوطن ندًا من دون اللَّه وهو يقول : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥].

والمشكلة اليهودية المشئومة لا يحلها أي انبعاث ، ومهما انصبغ بأي طلاء أو تبناه أي شخص محبوب عندكم ، وإنما يحلها البعث الإسلامي الصحيح الذي سيبعثه اللَّه حسب وعده على يد مسلم من عباده ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٥] ولو غير عربي أمثال صلاح الدين الكردي الأذربيجاني ، أو يوسف بن تاشفين البربري؛ اللذين لم يتلوثا بالعصبيات الوثنية التي شدد في منعها رسول اللَّه ﷺ ، والتي تفتح الباب لكل طامع أن يقيم وطنًا قوميًا في بلاد اللَّه .

وما نبتت هذه الشرذمة الخبيثة وتجمعت من الآفاق إلا بسبب المفرطين في جنب اللَّه ، الذين عملوا على اطراح دينه واقتلاعه من قلوب أبناء المسلمين ، وإخماد نار الغيرة الدينية من قلوبهم بالشعارات العصبية ، وإيلاعهم بالمادة والشهوات ، حتى لم يبالوا بفلسطين في سبيل أغراضهم ، وليست بأعز من دين اللَّه الذي نبذوه ، ولا بأول الرزايا ولا خاتمتها ، فقد ذهبت « بلغاريا » المسلمة وغيرها ضحية القومية التركية ونحوها ، حتى ذهبت « كشمير » من ضحايا القومية .

ونكبة فلسطين مما يجب الاهتمام بشأنها ، لكن ليلاحظ أنه لا يمكن غسل الدم بالدم باستمرار على ما رسمه « زويمر » وأضرابه من القوميات المغضبة للَّه تعالى ، والتي لا نقدر إذا انتهجناها أن ننكر على من اعتز بها وحاول بناء كيان له على أساسها ، بل هي تقتضي ذلك في عرف أعداء الإسلام .

فلنتساءل مع قومنا المصفقين العاطفيين الذين يرمون غيرهم بدائهم عن الذي

أذكى النعرة الكردية وشجعها على الانفصال، ووجه إليها من «صوته» إذاعة بلغتها في الشهر الثالث عام ٥٨م؟ أهو مستعمر وجه إذاعته إليهم من «لندن» ونحوها؟، أو دولة عربية ملأت أمواج الأثير من الحماس القومي؟! وقد اضطركم الواقع إلى الاعتراف بأنها تشارك الشيوعية في الضغط على حكومة العراق؛ لإقامة دولة كردية؛ متسائلين عن وجهة المصلحة في ذلك، متعامين عن الواقع الذي اخترتموه!

فنذكركم بأن الدولة العربية المتحمسة للقومية وشجب الانفصال- فيما تزعمون- التي أذكت في الأكراد نعرة قوميتهم وانفصالهم منذ ذلك الوقت، لا لشيء سوى بعض[1] «نوري» الشقي، كان العراق هو «نوري» إلى الأبد.

فيا إخواننا، هذا هو واقع القوميين مهما حاولوا التهرب منه أو إخفاءه تلبيسًا على الناس، لا بد أن تسيطر عليهم العاطفة، أو تسيرهم المصالح القومية العربية إلى ما يخالف دعواهم من الوحدة أو محاربة إسرائيل، أو تحكيم العقل، أو العمل لخير العرب، ونحو ذلك مما تكذبها أفعالهم.

ثم هل وقفوا عن إذكاء النعرة في الأكراد وتشجيعهم بعد زوال «الشقي»؟ أو عادوا الكرة في استحكام خلفهم مع «قاسم» بحيث إن المواصلات معهم حتى فيما بعد القضاء عليه؟!

أما عن وصفكم لدولة «كردستان» المراد إنشاؤها بأنها «شيوعية»، فنحن نرجو أن لا تقوم مهما كانت، ولكن لا يجوز لمن بيته من زجاج أن يرمي الناس بالحجارة؛ إذ الذي يشجع على قيامها ليس بأقل منها مذهبًا ولا أهون إعراضًا وعتيًا عن دين اللَّه وشريعته، وقد نال التشجيع منكم والمودة منكم خلافًا لحكم اللَّه، على الرغم من اختلاف ظروفه ومحيطه عن غيره من الشعوب الغربية.

(١) كذا بالأصل. ولعلها: «بغض».

وبما أن الميزان الصحيح للمسلم الحقيقي هو دين اللّٰه ووحيه الخالد ، فإنه لا يجوز التفرقة بين الدول العلمانية مهما زعمت وبين الشيوعية إلا اشتراكهما في مجانبة دين اللّٰه وصراطه المستقيم ونبذ كتابه ومحاربة الملتفت إليه . فكلهم أمة واحدة في هذا السبيل ، وإن اختلفت أسماؤهم وألقابهم وأجناسهم ، فعلماء الأمة يقولون : الكفر ملة واحدة وإن اختلفت نحلهم. إنما الشيوعية صرحت بحقيقتها ، وكشرت عن أنيابها ، وأعلنت كفرها قائلة : « لا إله ، ولا دين ، ولا شريعة تقيد بها البشرية من سلطة عليا أبدًا »! والآخرون ينافقون ويخادعون اللّٰه فيعترفون بإله دينه مرفوض ، وشريعته معطلة ، وحدوده منتهكة عندهم! فهم أشد جرمًا ممن لا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان؟

فما هذا الإيهام والتضليل بقولهم : دولة شيوعية في أرضنا ، وهم ملة واحدة؟ .

أما الزعم بأن الجماهير الشعبية انطلقت لتدك قلاع الدكتاتورية وتحطم أكبر حصن للشيوعية في بلادنا ، كما يزعم المخدعون! . فإن التهويل بكمية الجماهير نغمة معروفة ، وسيكشف التاريخ عن حقيقة الجماهير الصحيحة ، ماذا تريد؟ وأية خطة تنتهج؟ وعن حقيقة الجماهير المزعومة ، ولأي شيء انطلقت؟

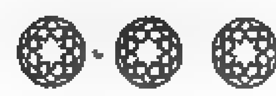
والمقصود إيضاحه هنا : أن المقضي عليه « قاسم » ليس حصنًا للشيوعية ، فضلًا عن أن يكون أكبر حصن ، يا للتهويل والتهريج! وليس أعظم جرمًا من غيره على دنيا العروبة ، وقد حظي بمديح بادئ الأمر لم يحظ به غيره ، كما أنه ليس أعظم دكتاتورية من غيره ، « ولكن عين السخط تبدي المساويا » .

ذلك السخط الذي ليس له أساس سوى عدم الاندماج مع من تحبونه ، وهذا شيء إن حصل من هذا فسيتكرر حصوله من غيره حتى تنقضي أعماركم وأنتم تدورون في حلقة مفرغة .

وهو في الحقيقة انتهازي ليس له دين ولا مذهب ، بل هو سيئة من السيئات التي أحدثها من عكس اللَّه عليه أمره ومقصوده ، ولا يزال دائبًا في أحداث سيئات من أشكاله أو أخبث في كل مكان .

فمن أبغض السيئة يجب عليه أن يكون أشد بغضًا لمحدثها والساعي في انتشارها ، واللَّه غالب على أمره ، قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩]

ومن أمعن النظر بعقل مستقل وقلب سليم في العالم الخارجي والعربي تيقن أن وعيد اللَّه وعذابه قد حق على أهل الأرض؛ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم: الآية ٤١] ودليلي من كتابٍ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٢] قد كفر به أكثر الناس كفرًا عمليًا .



تذكرة لذوي العواطف والتصفيق(١)

[٢]

ومن العجيب مغالطة بعضهم وزعمهم أن غيرهم يحرث في البحر! وهم واللَّه الذين يحرثون في البحر بما انتهجوه وحبذوه من هذه الخطط التي كلما عملوها بغاية الجهد وأفدح الخسائر، انقلبت شرًا عليهم؛ لعدم تأسيسهم البنيان على تقوى من اللَّه ورضوان، ولكن لا يتعظون فينيبوا إلى ربهم ويقتدوا بنبيهم بدلًا من أئمة الكفر؛ ليغلبوا المقصرين في ذلك، بل صدق اللَّه العظيم: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونس: الآية ١٠١]

وكثيرًا ما يصفون خصومهم بالخيانة! كأنهم هم الشرفاء الأوفياء لأمانة اللَّه وحمل رسالته وأخذ كتابه بقوة، والجهاد في سبيله لإعلاء دين الإسلام وقمع ما سواه.

إني لا أضفي على خصومهم أثواب القداسة، ولكن أقول: إن الفرق عظيم بين الخطأ والتقصير، وبين الكفر باللَّه بابتغاء الهدى والتقدم والسعادة من غير صراطه المستقيم: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٥].

وإذا تبجح بعض كتابهم بقوله: «لقد آمنا باللَّه وبالقدرة الحية الفاعلة المتطورة، وكفرنا بالأصنام» وأفعال قومه وخططهم كلها تكذب ذلك! فهل معنى ذلك أنهم خير من الأقزام المزعومة أو أضل سبيلًا؟!

ثم لكي لا ينخدع القراء بالكلمات المدخولة يجب عليهم أن يتساءلوا عن «القدرة الحية الفاعلة المتطورة»؟ التي عطفها على اللَّه، هل هي منه فلا يحتاج إلى هذا التصوير؟ أم هي ندًّا له يكيفونها ويتكيفون بها؟

(١) صحيفة اليمامة- العدد (٤٣٣)- في ٢٤- جمادى الثانية- ١٣٨٣هـ.

حقًّا إن الأقزام هم الذين خانوا اللَّه ورسوله بنبذ القرآن ، وانشغالهم وإشغال فراغ العالم بما تتطلبه المبادئ والمذاهب المادية المخالفة لملة إبراهيم ، والمجانبة لجميع أنواع عبادة اللَّه التي لم يخلق الجن والإنس إلا لأجلها : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٠]

فليس القزم إلا من سماه اللَّه بهذه المهانة ، فإن كان الإيمان بمجرد الدعوى ، وجب قبول دعوى الإيمان باللَّه من اليهود والصهاينة وسائر الوثنيين ، وكانت دعوة نبينا لكفار العرب ومراسلته لملوك زمانه غلطًا أو تحصيل حاصل ، وأن الإيمان باللَّه لا يتحقق إلا بالتزام توحيد الألوهية ، وحصر المحبة له ، وأن يكون الإنسان عبدًا للَّه خليفة في أرضه جنديًّا له وموظفًا لتنفيذ شريعته والقيام بنصرته وإعلاء دينه بكل المستطاع من حول وقوة .

فما أبعد المتشدقين بالقوميات والمذاهب العصرية عن الإيمان بالله؛ بحيث لا فرق بينهم وبين الشيوعية سوى التصريح والنفاق كما أسلفنا .

أما عن فيلسوف الصحافة « أباظة » وما طالب المطالبون من إبعاده عن هذا المحيط لما دعا إلى التحالف مع إسرائيل! فنذكركم أنه ليس في بلد كبلادكم يجرؤ الكاتب فيها على ما يريدون إطلاع السلطة وإذن الرقيب ، ثم بعد الكتابة تنتبه له السلطات ، بل هو في بلد قد كممت فيها الصحافة والأفواه والعقول ، فلا يمكن أن ينطلق لسانه أو قلمه ، ولو بأقل من هذه الخطة الوخيمة إلا بوحي منهم وعرض وممالاة!

فمن المستحيل أن يتحرك قلم أباظة بمثل هذا إلا بخطة مرسومة؛ لاستفزاز الشعور ، ومعرفة الخبايا ، أو المتاجرة السياسية ، أو زيادة في تغطية ما يجري تحت الستار مما سيكشفه التاريخ .

ولو أن السيطرة للعقول لانحجز المندفع عن الهياج العاطفي ، ولكن السيطرة

للعواطف عند من يتبجحون بالعقل أو التعقل ، وها هو الرجل يشتغل في محيط الصحافة ، واللَّه علام الغيوب .

أما زعمكم بأن مناقشة أمر إسرائيل ، بقصد التحالف معها أو الاتجار مع قراصنتها يعتبر خيانة وجريمة .. إلخ .

فالأمر أعظم من ذلك؛ إذ من تتمثل القومية في شخصه يصرح على رؤوس الأشهاد بقبول تحديد الأمم المتحدة عام ٤٧ ويطرح باللائمة على إسرائيل! وهذا يعني الاعتراف الصحيح بها وحصر الخلاف في الحدود!! وكل شيء بعد هذا هو أهون منه . ثم إن الأمر أعظم مما جرى من الاتجار مع قراصنتها؛ إذ خليج إيلات ، وشرم الشيخ الذي لم يسمح به على عهد فاروق مسموح به الآن ومفتوح لملاحتها ، مما زاد في تجارتها واتصالها بعوالم يصعب عليها الاتصال بهم لولا هذا الذي هو أعظم خرق للحصار العربي .

فهل هذا إخلاص وأمانة؟ أم العواطف المتحكمة والعصبية المتشربة في اللحم والدم والعروق تنعكس ولا تطرد ، أو تطرد ولا تنعكس ، أو لا تطرد أبدًا؟

وإذا هضمت الأمة الخيانات العظمى- خيانة الله- سهل عليها كل خيانة ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨] .

أما عن أهل « فلسطين » فالخطة فيما يظهر تجري حسب رسم خارجي عن مصلحتنا ، وهو تذويب الفلسطينيين من جهة توظيفهم في البلاد العربية والترفيه عنهم؛ ليبعدوهم عن قضاياهم ، وتنشأ ذريتهم في بلاد نائية عن النكبة ، فلا تتأثر قلوبهم ، فلا يعتنون بقضاياهم . ويستمرون على خطة تفتيتهم بتوجيههم إلى أشخاص يعتمدون عليهم في استرجاع بلادهم .. إلى آخر الأمور .

وهم بهذا كله قد أعطوا ويعطون كل فرصة لإسرائيل- المشتومة عندهم!- لمواصلة عدوانها واستمرار احتلالها! وهذا أعظم تشجيع منهم لها والهجرة إليها

مما يزيد في الخطر يومًا عن يوم على حد المثل الشرقي : « أشبعونا سطارات ، وأشبعناهم شتائم ».

فهذه طريقة القوم مع إسرائيل؛ أمنوها من هجمات الفدائيين من كل ناحية ، وفتحوا لها الطريق إلى الهند وأفريقيا ، وبعثروا أهالي فلسطين وفتتوا جهودهم ، وسمموا أفكارهم ، وفسحوا المجال لتقدم إسرائيل وتدفق الهجرة إليها بسبب ذلك ، وأخذوا يحثون الشتائم عليها في صحفهم وإذاعاتهم حثوًا بلا كيل ولا ميزان!

ولو صدقوا في القضية لقاموا بتدريب الفلسطينيين وتسليحهم بدلًا من توظيفهم ، ومدهم بمتطوعين بكل وسيلة ، وزجوا بهم لاسترجاع بلادهم ونكاية عدوهم المغتصب؛ كي يقلقوا إسرائيل ويشغلوها عن توطيد أقدامها ، ويفقدوها الثقة الدولية التي تتمتع بها الآن بسببهم ، فيمتنع تدفق الهجرة ، وتفقد الثقة ، وتأخذ تتهاوى حتى تذهب إلى غير رجعة .

وبذلك تفرض فلسطين وأهلها على الأمم المتحدة فرضًا ، كالجزائر التي ما فتئت الأمم المتحدة في مساعدة فرنسا عليها حتى خيبهم اللَّه . فإن الباطل لا يجول إلا عند سكوت أهل الحق عنه .

فواعجبًا لأناس يزعمون أنهم كفروا بالأشخاص ، وهم عبيد للمادة والشهوات والأشخاص الذين[1] تبنوا المبادئ والمذاهب المادية والوطنية التي جعلوها ندًا من دون اللَّه ، يسارعون من أجلها في الإثم والرذيلة وكل مخالفة لما أنزل اللَّه ، ولا يستحيون من الكذب؛ إذ يزعمون أنهم آمنوا باللَّه وكفروا بالأشخاص؛ لأن الكافر بالأشخاص وبالمادية يجب عليه أن يتمسك بما أنزل على محمد ﷺ ويسعى غاية جهده لتنفيذ سورة « براءة » خاصة ، وغيرها عامة؛

(١) تكررت في الأصل .

متبرئًا مما سوى اللَّه. لا يؤثر شيئًا من الأصناف الثمانية على حب اللَّه ورسوله والجهاد في سبيله لإعلاء كلمته ورفع منار دينه، ولا يجعل من دون اللَّه ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة، من مبدأ ورائد أو مذهب وفيلسوف، كالقوميين الذين بدلوا غير الذي قيل لهم، ولذا تجدهم لا يغضبون للَّه ورسوله، أو يغارون لانتهاك حرمات اللَّه وحدوده والاستهانة بدينه، ولا ينتصرون لقضايا المسلمين، بل يوالون أعداء اللَّه ورسوله والمؤمنين.

فتجد الذين أذاعوا الصيحات على «أباظة» ونحوه لم تتحرك ألسنتهم وأقلامهم على «روز اليوسف» و«آخر ساعة» عام ٥٦ لما واصلتا الكتابة بإنكار الله! والتصريح بخرافة الدين! وإنكار الرسل والبعث! وأشادتا بنظرية داروين اليهودي وأضرابه!! فهل هذا إلا قبول وتسليم لهم؟! ولكن لا يجرؤون على التصريح، فانشرحت صدورهم لذلك، بدليل عدم إنكارهم لهذا الكفر العظيم، مع سرعة صيحاتهم على ما يمس الأنداد التي اتخذوها من دون اللَّه.

كما لم تنطلق صيحاتهم على من يضطهد المسلمين ويحرق بلادهم بالنار، ويهتك أعراضهم، ولا على أعماله الشنيعة في «أريتريا»، ولا على مآسي المسلمين الأخرى. بينما هم ملئوا الدنيا صيحات على «لومومبا» الكافر الشيوعي، وسموه شهيدًا؛ مضادة لقول اللَّه ورسوله.

أما المجازر الوحشية التي تحل بالمسلمين حتى هذه اللحظة، فليس لها ضمير يتحملها، ثم مع هذا كله يغضبون للنيل ممن يحبونه من أولئك ويرمون من يتعرض لهم ولمبادئهم التي هي افتراء على اللَّه ما لا يغضبون[1] للَّه طرفة عين، أو يكتبون حرفًا لنصرة دينه!

فكيف يدعي الإيمان باللَّه من يشجع المفتري على اللَّه، ولا يؤدي ما

(١) في الأصل: «يغمضون».

افترض اللّٰه عليه؟

وواضح في القرآن- المنبوذ عندهم- أن من خالف توحيد الألوهية فهو مفتر على اللّٰه ، ولكن : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ : الآية ٤٦] .

ومن المؤسف أيضا أنهم يجنون على التاريخ بالأكاذيب ، ثم يرون ما كذبوه صدقًا ، كما هي سجية الكذاب .. وإلى اللقاء .



لا ، ثم لا ، أيها الأديب « القباع »[(١)]

نعم ، إن الذين يحادون اللَّه ورسوله بنبذ الشريعة وإقصاء الدين عن الحكم واتباع خطوات الملاحدة لا يجوز وصفهم بالإخلاص؛ لأنهم خانوا اللَّه ورسوله .

ولا يجوز انتحال النصر لهم ، أو ارتجاؤه؛ لأن اللَّه جعلهم في أهل الذلة بهذه الآية . فالذلة ملازمة لهم . وإن أحرزوا نصرًا مؤقتًا محدودًا- بسبب مساعدة غيرهم- فهو استدراج من اللَّه لهم؛ ليزلقهم بسببه في هوة الهلاك الحسي أو المعنوي ، فيكون ذلك كيدًا من اللَّه لهم[(٢)] ومكر منه بهم؛ حسب سنته الكونية في نظام الاجتماع ، قال تعالى : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٣] ، ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٧٩] ، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٥٤] .

ويصير انتصارهم المؤقت مغريًا لهم على السعي إلى طريق الذلة المحتمة ، فهو إمداد لهم في الضلالة التي ينتقلون بها من ذلة إلى ذلة أخرى ، ومن أزمة إلى أشد منها ، ومن مستعمر إلى مستعمر أدهى وأمر ، ومن مستغل للربح إلى مهلك للحرث مبتلع للربح ورأس المال .

هذه عاقبة المحادين للَّه ورسوله في مخالفة فرائضه وحدوده الذين يضعوا تشريعات غير تشريعاتهما ، أو يحدون حدودًا غير حدودهما ، ويتخذون من دونهما وليجة سوء وبطانة خبث من أعدائهما وأعدائهم ، كما فعله اليوم كل متشدق بالعروبة ، نابذ لكتاب اللَّه وراء ظهره ، موليًا وجهه شطر أئمة الكفر من طواغيت اليهود والنصارى والملاحدة الذين نبشوا مذهب « مزدك » اليهودي ، وأعادوه باسم « ماركس » و« لينين » ثم تجنوا على الإسلام بإلصاقه به؛ تضليلًا

(١) مجلة الجزيرة- العدد (٨)- جمادى الثانية ١٣٨٢هـ .

(٢) في الأصل : « لم » .

للمضبوعين المغفلين من المسلمين ، وإلا فهم في الحقيقة لو ندبهم الإسلام إلى تلك رفضوه كما رفضوا سائر أوامره وشعائره .

وفي المسائل الاجتماعية أحلوا نظريات « فرويد » اليهودي محل سورة « النور »!! فاللَّه سبحانه وتعالى غيور على دينه ، متعهد أن يكبت هؤلاء كما كبت قبلهم من أعدائه الذين تجاوزوا حدوده ونبذوا شريعته .

ولا يجوز لأحد من أهل الشهادتين حقًّا أن يتخذ أحدًا من هؤلاء وليًّا أو حبيبًا؛ لأن محبة اللَّه ورسوله لا تسمح بمحبة من ابتغى غيرهما حكمًا ، أو رغب عن شريعتهما إلى مبتكرات أعدائهما ، بل تستوجب بغض أولئك ومنابذتهم ، والعمل على قمع كل من افترى على اللَّه الكذب ، أو كذب بالحق لما جاءه من ذوي الأقلام الرخيصة الذين يشاقون اللَّه ورسوله بإنكارهما والتهكم على شريعتهما بشتى الأساليب ، وبغض من يحبهم ، أو تتسع بلاده لتوزيع باطلهم مهما كان وحيثما كان .

ومن أعظم الفرية أن يوصف أحد منهم بالإخلاص ، أو يعتبر عاملًا لخير العرب ، وهو سالك مسلك الخيانة للَّه ورسوله ، وعامل على إهلاك العرب بإغرائهم على ذلك ، وإبعادهم عن كتابهم الذي أنزله اللَّه ذكرًا لهم واختصهم منه بشرف أيما شرف ، وأناط خيريتهم بالإيمان به والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضوء نوره .

فيا ويح من سفه نفسه وأعرض عن هدي اللَّه ورسوله ، والتفت إلى من يصرخ بأنه يهتدي بهدي « ماركس » و« لينين » ويستنير بهما ، ويجعل أمانته في تنفيذ مذهبهما ، كأن وحي اللَّه وهداه استنفذا أغراضهما وانتهى زمانهما فحل محلهما ذلك القلوط « الماركسي »!!

تاللَّه إن الخطط التي يسلكها زعماء العروبة وفلاسفة القوميات خطط جالبة لغضب اللَّه ومقته ، ومذهبة لشخصيتهم الصحيحة ، وماحية لآثار دينهم ، وقاضية

على أخلاقهم، وباذرة فيهم مركب النقص في كل ناحية. فهم منها في مسخ معنوي شامل تحولوا به إلى نوع من الخلق لا يصلح أن يكون شرقيًا ولا غربيًا؛ إذ لم يبق الدين فيه أخلاقًا، ولا الأخلاق بقيت فيه دينًا، فأصبح روحه شرقية جامدة بلا أخلاق مرضية لرب العالمين، وأخلاقه غربية هامدة بلا روح صحيحة مستمدة من أنوار الوحيين، فكانوا بعروبتهم المبتورة من الدين عمى البصائر يتخبطون في جحيم المبادئ الهدامة، ويقلدوا أعداء اللَّه في الرذائل، لا في المخترعات وكسب الأسواق، حتى صاروا في مهوى لا يجوز أن يسعى إلا بسقوط النفس. ومع هذا يغالطون فيزعمون وأنهم[1] مرفوعي الرأس، والركب المتحرر، والجيل الصاعد! وهم الركب الحائر، الخائر، المتناحر، الذي يقذف به عدوه ذات اليمين وذات الشمال، والجيل السافل المنحط في أخلاقه، المهدر لكرامته بخيانته لمولاه، الركب المتحرر من الهداية والبصيرة الذين: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦].

وإني أعيذ هذا الكاتب باللَّه من الانزلاق في مزالق الذين بدلوا قولا غير الذي قيل لهم، وأرجو له حسن الإنابة، وأن يعمر قلبه بحب اللَّه وما نزل من الحق، ولا يجعل فيه فراغًا لأولئك، وأن لا يغلبه الشاعر الذي قال في جاهليته: «ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل».

فلا يعود إلى تأكيد ثقته فيمن فرط في جنب اللَّه وتقبل مبادئ أعدائه وثقافتهم بجميع مفاسدها، واستجلب نظمهم بجميع أوزارها وآصارها.

فالذي أرجوه للكاتب وأرجوه منه: هو أن يناشد العرب المحبوبين بحمل رسالة اللَّه التي شرفهم بها وقرن بها عزهم وتمكينهم في جميع الأرض وإحيائهم حياة طيبة، وأن يطالبهم بتنفيذ قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب: «أنهم».

رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣] . وبتنفيذ قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عِمران: الآية ١١٠] ، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: الآية ٧١] .

ويذكرهم بعكس ذلك من قوله : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: الآية ٦٧] .

ويطلب منهم أن يحاسبوا أنفسهم ، ويزنوا أعمالهم على ضوء هذه الآيات ، وأن يستنهض عزائمهم بقوله تعالى : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: الآية ٧٨] .

ويقول لهم : يا قومي ، إن لم تعملوا بالقرآن تطبيقًا وتبليغًا فتحملوا إلى الناس رسالة اللَّه التي اصطفاكم بها ، لا بد من أن ينعكس الأمر ويكونوا هم عليكم شهداء ، فتكونوا سبة بين الأمم التي استوردتم منها كل قبيح ولم تصدروا إليها شيئًا من النور والهدى الذي أمركم اللَّه بتوزيعه ، إذ المفروض وجود تناسب بين الاستيراد والتصدير في عرف المدنية الحاضرة ، وإلا فالواجب عليكم تصدير الطيب الذي حباكم اللَّه به دون استبداله باستيراد خبائثهم .

إني أريد من السيد الكاتب مخاطبة العرب بكلام اللَّه ورسوله ، وتحميلهم وصية اللَّه إليهم إن كان يريد تحقيق أصالتهم وإعادة صلابتهم الصحيحة ، لا أن يخاطبهم بالطقوس التي نعق بها أفراخ الإفرنج ومن تربى تربية فرنسيس ، ففرض عروبته المتفرنجة المتشعبة علينا .

هذا إذا كان الكاتب يعمل لخير العرب ويعرف واجبهم أمام ربهم ، ويريد

لهم الوحدة الصحيحة المؤسسة على تقوى من الله ورضوان- كما هو أغلب الظن به- فإن العرب لا يساووا شيئًا إذا انسلخوا من دينهم ورسالتهم، ولا يحسب لهم حسابًا كبيرًا في الميدان الدولي، بل تملى عليهم الإرادة من هنا وهناك، مهما حاولوا دفن رؤوسهم في الرمال. ولو تمسكوا بدينهم وحملوا رسالتهم لما كانوا معسكرًا ثالثًا فحسب، بل قضوا على أحد المعسكرين وأقضوا مضجع الباقي، فأحسنوا إلى أهل الأرض وأعادوا تاريخ أمجادهم، بدلًا من استسلامهم الفكري لأعداء الله وأعدائهم عن ضعف نفس ومركب نقص أرجعهم إلى أحط من حالتهم قبل الإسلام.

فليرجع الكاتب البصر، ثم ليرجع البصر إلى تخبطهم في أحوالهم السياسية والاقتصادية، وإلى تردي أخلاق أكثرهم إلى الحضيض؛ ليعرف أنه لا يعلق عليهم الآمال ما لم يراجعوا دينهم صحيحًا

أيطمئن الكاتب إلى حالتهم الاجتماعية المشحونة بصنوف اللهو والمجون والميوعة وعبادة الهوى على الرغم من الطعنات المصوبة في جسمهم؟

أيحبذ الكاتب المطعون أن يلهو ويلعب ويعاقر الخمر ويعانق الأخدان ويضيع أوقاته وفراغه بالبرامج التي وضعتها الحكومات المحبوبة لديه؟

إذا استمرت الحال هكذا فهنيئًا للصهاينة وكل طامع فينا طاعن لنا!

أيخفى على الكاتب أن حكومة الهند الوثنية حرمت الخمر على جميع الأهالي، وإسرائيل حرمت على جيشها شرب الدخان؟ فماذا يفعل بـ« الشعب العظيم » الذي يؤكد ثقته به؟! تلك الشعوب التي لا تسمح لأحد في بلادها بالدعوة الصحيحة إلى الله أو كتابة شيء من دعائم دينه، بينما لا يخلو شارع من الدعاية للخمر أو سائر الرجس بأنوار « النيون » الجذابة؟!

أن من الصعب أن « يبدي الإنسان عيبه أو يشق جيبه! » ولكن فضيلة الكاتب اضطرنا لهذه الهمسة؛ ذكرى، و﴿ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: الآية ٥٥].

وإذا قلنا للكاتب : إن الأفلام السينمائية العربية ممنوعة في الهند وفي روسيا الإلحادية؛ لشدة خطرها على الأخلاق! ماذا يكون موقفه من « الشعب العظيم » أو « زعمائه المخلصين »؟ فضلًا عما طفحت به صحف الشعب من إنكار للّه ودينه ومعاداته والاستفزاع برسوله ، واتسعت لها بلاد الشعب العظيم ، وحماها زعماؤه المخلصون في نظر الكاتب! .

فنرجو منه أن يزن أحوال العرب دون تحيز ، وليكن مرجعه إلى الميزان الصحيح الذي أنزله اللّه ، وأمرنا بإقامته بالقسط؛ ليعلم أنه لا يجوز له ولا لغيره أن يصف بالعظمة والإخلاص من وصفه اللّه تعالى بالسفاهة والخيانة والنفاق والافتراء ، وشبهه بالحمار تارة ، وبالكلب تارة . ويعلم أن كثيرًا ممن حازوا الصدارة وخدمتهم الظروف في سائر أنحاء الأرض هم على حد وصف اللّه وتشبيهه ، ولا يجوز وصفهم بغير ما وصفهم اللّه حتى ينيبوا ويتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم . وأن من وصفهم بخلاف وصف اللّه فهو مستدرك على اللّه معاكس لحكمه ، مضيع لحدوده . ويا ويح من استدرك على ربه وعاكسه في حكمه وتعدى حدوده : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النُّور: الآية ٥٠] ، ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٨] ، ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٣] .

أيها الكاتب : لقد وقعنا في جميع أنواع الفتنة من جميع ضروب الشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، وابتلي كل حزب بعبادة كل من يقدسه من الأشخاص واتخاذه ندًّا من دون اللّه ، يتقبل نظمه وتشريعاته بحب ورحابة صدر لا يحظاها منه رب العالمين .

فأرجوك أيها الكاتب أن تمعن النظر في الأوضاع؛ ليستنير قلبك ، فلا يطغى قلمك .. وإلى اللقاء .

فرية عظيمة .. وخطة أثيمة[١]

إن الذين يزعمون أن الإسلام علاقة بين العبد وربه فقط . حجتهم واهية مدحوضة ، بل لا يستطيعون أن يبرهنوا على ما قصدوا من ذلك؛ إذ يستطيع المسلم أن يدينهم بنفس مدلول هذه الكلمة ويجعلها حجة عليهم دامغة لرؤوسهم مرغمة لأنوفهم؛ لأن علاقة العبد بربه ليست مقصورة على نوع من العبادات دون نوع ، كما توهمه حملة الفكر غير الإسلامي ، ممن تتلمذوا على الإفرنج وأفراخهم ، ومن تأثر بثقافتهم .

فيحسبون أن عبودية اللَّه التي يطلبها الإسلام من أهله مقصورة على صلوات وأذكار في المساجد ، أو صوم يؤديه بعض الصائمين بتوجع وسوء استقبال ، أو زكاة يدفعها بعض من يدفعها بلا مراعاة جهاتها وموقعها ، أو حج يرجع منه بعض أهله أو غالبهم دون أن يشهدوا منافع لهم ، أو أن يقدس البعض طرقًا ومواليد مبتدعة .

كلا ، ثم كلا؛ إن عبودية اللَّه التي يفرضها الدين الإسلامي على أهله تتعمق إلى جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والحربية . ومن قصَّر في شيء منها فهو مخل بعبودية رب العالمين ، بحسب ذلك .

فالصلاة التي لا يظهر أثرها على أخلاق صاحبها بطيب سلوكه وحسن سيرته وصدق معاملته ، لا تزده من اللَّه إلا بعدًا؛ لأن اللَّه قد يعفو عن حقه لمن لم يشرك به ، ولكن لا يتجاوز عن حقوق المخلوقين . فحقوق الخلق لا يتخلص منها الإنسان إلا بحسن أدائها وفق شرع اللَّه ، أو التسامح من أهلها والتصالح معهم عن طيب نفس . وما من معاملة على وجه الأرض إلا والمسلم مسؤول عن تقويم

(١) مجلة الجزيرة- العدد الثاني- محرم ١٣٨٣هـ- وصحيفة الندوة ، في ١٣٨٢/٦/٢٢هـ .

اعوجاجها ، بحسب المستطاع .

كذلك ما من فساد يظهر في البر والبحر إلا والمسلم مطالب بإصلاح ما قدر على إصلاحه منه؛ ليحقق خيريته المتوقف تحقيقها على الجهاد ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتعاون على البر والتقوى ، وإيتاء المال على حبه مستحقه ، والإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكته الأيمان من كل شيء .

وعبودية اللَّه توجب على صاحبها أن يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به ، فيلتزم النصح والصدق في الأقوال والأفعال ، ولا يمكر بأحد أو يخادعه ، ولا تأخذه الموجدة على أحد فيحيك ضده المؤامرات ، ولا يلتمس المستور من مساوئ الناس ، فيحملهم على التنقيب على مساوئه ، ولا يشاورهم فيحملهم على دفن طيباته وإظهار سيئاته ، أو الافتراء عليه ، كما أصبح ذلك سجية للمعرضين عن دين اللَّه وهديه ، والمتلبسين بقومية تقمصت أخلاق أعداء اللَّه من الكفرة الفجرة؛ لابتعادهم بها عن دينها ورسالتها الشريفة الصحيحة اللذان هما مصدر عزها وسبب بقائها طيلة القرون .

والدين الإسلامي يوجب على أهله أن يحب كل أحد منهم لأخيه في اللَّه ما يحبه لنفسه في سائر الميادين ، ويحبذ إليهم الإيثار ومشاطرة كل واحد منهم السراء والضراء ، كما يوجب عليهم التناصح فيما بينهم إلى أبعد حد وأقصاه . ليس بين العامة فقط ، بل بين السيد والمسود ، والقائد والمقود .

وقرر أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

وأوجب عليهم السعي في طلب الرزق واكتساب المال من حله ، وإنفاقه في مستحقه .

وحرم على أهله الإسـراف والتبذير: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١]، ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٧]

كما أوجب على أهله تسخير جميع ما على وجه الأرض من دابة ومادة، وما في جوفها، وما فوقها من الأجرام العلوية؛ لئلا يسبقهم عدوهم إلى اكتساب الثروة المفيدة واقتناص المواد الهائلة التي تكون بيده أعظم سلاح يشهره عليهم، كما جرى فعلًا بسبب إهمالهم أوامر دينهم وتعطيلهم لطاقاتهم ومواهبهم.

وجعل الدين الإسلامي كل فرد من أفراده راعيًا مسؤولًا عن رعيته في كل ناحية. هذا في النواحي الاجتماعية والاقتصادية.

أما في النواحي السياسية؛ فقد أمرهم اللَّه في شريعته أن يأخذوا حذرهم على الإطلاق من كل ناحية، [وأن يعتبر كل فرد من المسلمين نفسه على ثغر من ثغور الإسلام، فيحرص جاهدا أن لا يؤتى من قبله.

وأمرهم][(١)] أن يعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة بجميع أنواعها على اختلاف تطويرها، وناداهم بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٣٦].

وحرضهم على مواصلة الكفاح بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٠٤].

ونهاهم أن يتخذوا أعداءه المخالفين لحكمه أولياء يلقون إليهم بالمودة، أو أن يتخذوا منهم أولياء من دون المؤمنين، كما هي خطة القوميين في هذا الزمان، وخاطبهم بصيغة الاستفهام والتوبيخ قائلًا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) سقط ما بين المعقوفين من «مجلة الجزيرة».

وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٦] .

وصارحهم بأبلغ النهي وأبشع التهديد بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المائدة : ٥٣، ٥٤] .

وناداهم بالتحذير عن الاطمئنان إلى من سواهم ، أو الميول إليه رغبة أو طمعًا فيه فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١١٨، ١١٩] .

وقد فضح الدين الإسلامي أحوال أعدائه بأساليب مطردة إلى يوم القيامة ، منها تلك الآيتين ، ومنها قوله تعالى : ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٠] ، ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: الآية ٨] ، ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٠] .

وآيات كثيرة غيرها لا نطيل بها المقام ، وإنما نورد ذلك؛ ليتبين للمنصبغين

بصبغة الإفرنج أن السياسة في دينهم أعظم سياسة وأقواها ، وأنه ليس مقصورًا على الروحانيات ، كما خدعهم أعداؤهم بذلك

ونزيدهم أيضًا : أن دينهم لا يسمح لهم بمحبة من شاق اللّه ورسوله أو موالاته ، ولو كان أقرب قريب ، كما قال اللّه تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٣] ، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢٤] .

ولهذا لما نظر اليهود وأذنابهم من النصارى في سياسة القرآن ، علموا أنهم لا يقدرون على تحطيم كيان المسلمين عامة ، والعرب خاصة ، وتمزيق وحدتهم ما داموا متمسكين بالقرآن ، أو ملتفتين إليه ، فأخذوا يعملون على إبعادهم منه وإشغالهم عنه ، ويصرفونهم عن توجيهاته وتعاليمه بما يناسب حالهم وأوقاتهم من الإغراء بالمادة تارة ، والمناصب تارة ، والتنافس العلمي المفضي إلى الشقاق تارة ، وإشغالهم بالتصوف والتزهد اللذين هما من ضروب الرهبانية تارة ليعطلوا طاقاتهم ، وإغرائهم بالشهوات والموبقات تارة ، وإضرام نيران العداوة والتناحر تارة ، حتى حان الوقت المناسب لإغرائهم بعصبية الجنس التي حرمها الإسلام وشدد في منعها .

فأشغلوهم بالقوميات وأرجعوهم إلى ضروب من الوثنية الهدامة المتلونة بشتى الألوان ، والمتمثلة بصنوف من الطواغيت ، تمركزوا في كل ناحية وميدان في

العالم، ومن لم يتمركز احتضنه الأغرار المتمركزون، فأصبحوا في مراكزهم كالواجهات ينفذون ويوقعون ما ينفثه ويرقمه أولئك.

ولتثبيت مراكزهم وتبرير خططهم الأثيمة ركزوا[١] في أدمغة الأوغاد والسطحيين أن الدين لا يصلح للسياسة، وأنه علاقة بين العبد وربه فقط!

وانطلت هذه الفرية على كثير من الناس الذين نسوا حظًا مما ذكرهم اللَّه به، وساعد على ذلك جمود بعض العلماء وتخليه عن واجبه، وانزلاق بعضهم في فتنة الشبهات والشهوات، وانصياع بعضهم إلى خدمة محترفي السياسة الماكرين بالأمم والشعوب.

فنقول لأصحاب هذه الفرية المفضوحة المكشوفة لمن له أدنى لب: إذا كان الدين علاقة العبد بين ربه فقط، فهل يرضى اللَّه من عبده أن يتخلى عن الإصلاح في الأرض وتطهيرها من الظلم والفساد؟! إن المتخلي عن ذلك لم يحسن علاقته بربه.

وهل يرضى اللَّه من عبده أن يسمح لأعدائه بافتراء الكذب عليه، ويقرهم على ذلك، أو يعينهم؟! لا شك أن هذا عبد سوء، لا يرضى عنه مولاه أبدًا، وهو لم يغضب له وتأخذه الحمية والانتصار لشرعه القويم.

وهل يرضى اللَّه من عبده أن يعيش ذليلًا محتقرًا تملى عليه الإرادة من كل طاغوت على وجه الأرض، ويعيش أضحوكة يهزأ عليه في زيه ولحيته وصلاته؟!

وهل يرضى اللَّه من عبده أن يعيش بإيمان أعزل أمام كفر وإلحاد مسلح، ويترك أعداء مولاه يعبثون في ماديات الحياة، ويلعبون بمقدرات الأمم والشعوب بمكرهم السياسي وطغيانهم الوحشي؟!

وهل يرضى اللَّه لعبده أن يوالي أعداءه ويحبهم ويخضع لهم ليتحكموا فيه

---

(١) سقطت: «وتبرير خططهم الأثيمة ركزوا» من مجلة الجزيرة.

وفي مصير العالم أجمع؟

إذن ما فائدة هذه العلاقة التي لا يجوز أن تسمى علاقة؟

إن علاقة المحب بمحبوبه، والعبد بمربوبه، لا تسمح بشيء من هذا أبدًا، بل توجب عليه أن يقيم وجهه للدين حنيفًا، ويشهر سيفه أمام الباطل، ويعد عدة لإحقاق الحق ورفع مناره، وإصلاح الأرض وتطهيرها من كل كفر وظلم وفساد؛ ليحقق عبوديته لربه ويصدق علاقته به، وإلا فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: الآية ٩]. وقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣].

إن الذين يحصرون الدين بأنه علاقة بين المرء وربه، ويفسرون ذلك بما يحصر مدلوله في أضيق نطاق لا يرضون بتطبيق هذا المدلول على أنفسهم، ويصرخون عند أدنى حاجة بما يناقض زعمهم، كما تراهم أيها القارئ الكريم يلجؤون إلى الإسلام ويستدلون به على خصمهم المسلم عند التشاجر؛ تمويهًا على عميان البصائر إخداع العامة بذكر شيء من حكم الإسلام؛ كي يستعذبوا الخطط الأخرى بمجرد ذكر واضعها لاسم «الدين» أو «رسالة السماء» بمجرد تلك الكلمة المجملة، وواضعها لا يريد الإسلام[1] ولا يستسيغه إلا عند الخصام لإفحام الخصم وخداع الجماهير التي لا عقل لها، بإلهاب صدورها نحوه، وتوجيهها إلى ما وضعه من خطط.

فلنتساءل مع القراء الكرام عن هذه الفرية والأكذوبة العظيمة على اللَّه ورسوله، فنقول أولًا:

---

(١) في الأصل: «بمجرد ذكر واضعها لاسم «الدين» أو «رسالة السماء» بمجرد تلك الكلمة المجملة وواضعها لاسم «الدين» أو «رسالة السماء» بمجرد تلك الكلمة المجملة، وواضعها لا يريد الإسلام».

هل يرضى رئيس دولة من الدول التي قررت هذه الفرية مبدءًا لها : أن يقتصر رعاياه وموظفوه في ارتباطهم بحكمه على مجرد احترام اسمه والثناء عليه والانحناء أمامه ، دون أن يتقيدوا بأوامره وتشريعاته كلها ، بل يقبلوا منها القليل الذي يوافق أذواقهم ويرفضوا الكثير ويتمردوا عليه بحجة ما ، أو يجلبوا نظم وتشريعات دولة معادية له فيحتكموا إليها؛ زاعمين أن أوامره وتشريعاته لا تنافيها؟

هل يعتبرهم في هذه الحالة قائمين بواجبهم مخلصين في خدمة وظائفهم؟ أو يعتبر من سلك هذا المسلك خائنًا عميلًا لغيره ذنبًا لفلان وفلان؟

لا شك أنه يعتبر من لم يلتزم بنظمه وينفذ تشريعاته خائنًا ، ويصفه بكل وصف ذميم ، ويرميه بكل تهمة ، ويقصيه عن عمله ، ويقدمه للمحاكمة ، ثم ينزل به أقصى العقوبات الصارمة ، كما جرى على من لم يعمل معشار ذلك من التمرد والإعراض .

وعلى هذا فقد جعلوا لأنفسهم منزلة أعظم من منزلة رب العالمين ، فهم بهذه العظمة والخطة الأثيمة انتقصوا اللّٰه ورسوله انتقاصًا لم يسبقهم عليه أي كافر في غابر القرون قامت[1] عليه حجة اللّٰه؛ إذ حصروا علاقة المسلم بربه في المسجد ونحوه ، وأوجبوا عليه الانقياد لهم في كل ميدان ، والاستسلام لهم في كل ناحية من نواحي الحياة ، وأوجبوا على الإنسان تأليههم من دون اللّٰه بهذا العمل الذي يحتوي على جميع معاني التوحيد ، وجعلوا حدود الوطن ومحبة الجنس وما يتبعها من شعارات وطقوس فوق حدود اللّٰه ، وأعلى من محبته .

فهم أشر بكثير من أهل الجاهلية الذين أخبرنا اللّٰه عنهم أنهم : ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ

(١) في الأصل : « قاست » .

﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦]

فخطتهم هذه أعظم انتقاص للّٰه واتهام له في حكمته واستهانة بعزته، وإلا فكيف يجعلون للّٰه جزءًا من الانقياد، وهم لا يرضون إلا بالجميع؟

كيف يعملون بكل جد ودهاء لإغراء الناس على التمرد من حكم اللّٰه وشريعته، ويشرعون لهم ما يوفق أذواقهم ومصالحهم، بينما هم لا يسمحون لأحد بالإخلال فيما شرعوه أو معارضتهم فيما وضعوه؟

هذا هو عين المحادة للّٰه ورسوله، وهو من افترائهم على اللّٰه الكذب، بل ازدادوا افتراء على اللّٰه بقولهم- خداعًا للعوام والمضبوعين(١)-: «إرادة الشعب من إرادة اللّٰه» إذ بتقريرهم هذه الفرية يكون للشعب أن يفعل ما شاء، ويتصرف في تخطيط حياته تصرف من ليس مقيدًا بشريعة رب، الذي أرسل رسلًا وأنزل كتبًا! بل يبني تصرفاته في الحياة وفق ما يهواه، وعلى أساس المادة والقوة كما الشعوب الكافرة التي لا تدين بدين يقبله اللّٰه، ولا ترعي خلقًا ولا فضيلة.

فقد تجرؤوا على اللّٰه بهذه الكلمة التي جعلوها قاعدة، تجرؤوا بها على اللّٰه جرأة لم يسبق لها مثيل في أي دور من أدوار الجاهلية المختلفة، وفي أي محيط من الكفر البواح؛ لأن غاية ما قص اللّٰه علينا من شأن الكفار المتعلق بالمشيئة بقوله عنهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨]. فرد اللّٰه عليهم إفكهم وضلالهم من تعلقهم بالمشيئة التي تعلق بها أول الكافرين ورئيس الكفر إبليس.

أما هؤلاء فقد جعلوا لأنفسهم إرادة الأمر؛ زاعمين أنها من إرادة اللّٰه، وحاشا على أبي جهل ومن على شاكلته- مع خبثه وعناده في الكفر- أن يصل إلى هذا الحد في الجرأة على اللّٰه، فهذا شيء معروف قبحه وضلاله ببداهة العقول؛ لأن

(١) المضبوع: دعاء عليه أن يأكله الضبع. «تاج العروس» مادة: (ضبع).

أذواق الشعوب ونزعاتها تختلف ، فإذا جعلت إرادة الشعب من إرادة اللَّه ، صارت[١] نزعات الوجودية والشيوعية الإباحية الإلحادية ، بل ونزعات الصهيونية والنازية والفاشية وشريعة الغاب وغيرها من إرادة اللَّه التي أمر بها!! وصار كل ما تهواه النفوس الشريرة من بطش وفتك هو من أمر الله! وما يعشقه مريض القلوب من التفسخ والانحلال ومعاقرة الخمر ولدغة الغرائز وإشباع الشهوات من أمر اللَّه على هذه القاعدة الخبيثة!! فعلام ينتقدوا على أفعال غيرهم ، ويصيحوا عليهم ، إذا كانت إرادة الإنسان ورغباته من إرادة اللَّه في حكمه الذي يرتضيه؟

وإذا كانت إرادة الشعب من إرادة اللَّه التي يرضاها فلأي شيء يرسل الرسل وينزل الكتب ويشرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويوجب على أتباع الرسل إقامة الجهاد ويشدد الأمر على الأمة في إقامة حدوده وعدم تخطيها ، وصدق اللَّه العظيم قوله : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: الآية ٣٢] ، وأي ضلال أعظم من هذا ، وأي افتراء أعظم من هذا الافتراء؟

لقد جاوزوا في فرياتهم قول من قال : ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] ولكن الكفر يجر بعضه بعضًا ، والاسترسال في المخالفات يجر إلى تكذيب آيات اللَّه والاستهزاء بها ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: الآية ١٠] .

وإذا كان اللَّه ينص في محكم كتابه أن ما بعد الحق إلا الضلال بصيغة[٢] الحصر ، فلا تستبعد أيها المسلم كل ما أجروه من ضلال ووقاحة ، فهم يتخبطون في الضلال بجميع أنواعه في كل ميدان ، ويجرؤون على افتراء الكذب والتضليل زاعمين التقدم في ذلك ، والرقي والحضارة ، قائمين بإغراء الناس على تعدي

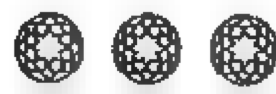
(١) في الأصل : « صارع » .
(٢) في الأصل : « بصفة » .

حدود اللّٰه بكل إغراء . وأي إغراء أشد وأفحش من جعل إرادة الشعب من إرادة اللّٰه؟!

ولكن لا يطبقون هذه الفرية الشنيعة على أنفسهم إذ يسمحوا لها بغزو الشعوب التي تختار لها حكمًا لا يتناسب مع أطماعهم وأغراضهم ، فيغزونها بالقوة والعنف وإنزال المضللين عليهم وقصفهم بالقنابل المحرقة المدمرة التي تجعل أراضيهم لا تصلح للزراعة إلا بعد عشرات السنين . فإذا كانت إرادة الشعوب من إرادة اللّٰه فلم يغزوهم ويقصفوهم بكل محرق ومدمر؟ أم يعتبروا الشعب الذي يحكموه هم بالحديد والنار هو الشعب الذي إرادته الوهمية من إرادة اللّٰه؟!

ومن العجيب أن الذين افتروا هذه الفرية وقالوا : « إن إرادة الشعوب من إرادة اللّٰه » ليس لشعبهم أي إرادة يستقل بها ويختارها لحياته ، وإنما هو مكبوت الفكر مكموم الأفواه ، مكسور العزيمة . فإنهم بفصل الدين عن السياسة- وإن افتروا تحت هذه القاعدة ما افتروه من أكاذيب لخداع الناس والسيطرة على جميع مرافقهم- فقد أعادوا الحكم القيصري والكسروي؛ لأنهم بعدما فصلوا الدين عن السياسة وأقصوه عن الحكم أصبحت السياسة كجمل هائج « حبله على غاربه » أو كنمر مسعور لا يعرف غير القوة وقضم الضعيف ، فكان بذلك في كل شعب وأمة قيصرًا وحده ، له الحول والصول على الرغم من أنه يسمى : « رئيس دولة ، أو رئيس مجلس ، أو وزير دولة » وما إلى ذلك من مصطلحات الأسماء التي لا نرى تحتها من المعاني سوى استبداد الفرد بأكبر مجموعة يحصل له التحكم في أمورها وتسييرها ، وفن ما يهواه بالحديد والنار ، وليس لها من أمرها سوى الخداع باسم « الشعب » الذي يمتنع عليه تحصيل أدنى شيء ، ويؤخذ باسمه كل شيء ، وتعمل باسمه الفظائع دون أن يكون في يديه أو تحت علمه شيء من ذلك .

فليس الحكم القيصري أو الكسروي فعلًا مقصورًا على أشخاص ممن يسمون أمراء أو سلاطنة، ونحو ذلك، وإنما العبرة بالمعاني لا بالأسماء، فالجمهوريات اليوم مجرد نغمة لإلهاء الشعوب التي دب فيها الوعي الخاطئ، التي لا تميز به بين من يعمل لحياتها وصالحها حقًّا، ومن يلعب على أذقانها ويسيرها إلى الهاوية في كل ميدان. وها هو يعمل في البلاد المسماة « جمهورية » من الفظائع وغمط الحقوق ما لا يقدر على فعله أو يترفع عنه من يسمون بالملوك والأمراء؛ لأنهم في الغالب عندهم مداراة ومجاراة واضحة لشعوبهم التي تتطلع إلى نوع جديد من الحكم، وهي لا تدري أنه مجرد اسم وتغيير طلاء. بل ما يجره من الظلم والمفاسد أعظم مما سبقه من أنواع الحكم الأول؛ لأن الظلم قد يكون في الحكم الأول مقصور على ناحية والفساد محصور في قصر، والنوع الجديد من الحكم- بأي لقب ظهر وبأي طلاء صبغ- نجد فيه الظلم متشعبًا في كل ناحية، والفساد موزعًا بكل فتنة وإغراء إلى كل مكان، حتى يدخل إلى كل بيت باسم التقدم والتطوير والحضارة والمدنية، وما إلى ذلك في المصطلحات التي يبحث تحت شعاراتها الفساد والإلحاد.



لا يا صاحب الوشائج[(١)]

نشرت « اليمامة » الغراء في عددها (٢٣٤) بتاريخ ١٤ صفر سنة ٨٠هـ مقالًا لشخص اسمه : علي المسلم- بعنوان « وهذه الوشائج » ، وقد خالف الكاتب في أسلوبه هذا العنوان ، حيث جعل منه في نقده عامل صلف[(٢)] وغلظة وافتراس ، وحشاه بنقمة الهجوم ومرارة التحدي وقلب الحقائق؛ مما لا ينشأ إلا من ثائرة أعصاب!

ونحن نقول له : يا علي ، لقد تحمست ضد الذين كتبوا عن مفهوم القومية العربية ، وعددتهم محاربين لها- بذاتها- كأنها مبدأ أو عقيدة ، وهي على العكس ، لا يوجه إليها نقد- بذاتها- لأنها جنس من الأجناس البشرية ، وواقع تاريخي موضعي ، ولم يجر النقد إلا على ما يحمله ويفعله المغرضون باسمها وتحت شعاراتها من مبادئ هدامة للدين المحمدي ، والأخلاق الفاضلة ، ومبادئ مفرقة للصفوف ، ومعطلة لما أباحه اللَّه من الاكتساب وجانية على فطرة اللَّه في خلقه!

إن الصراع ليس كما قلته أو توهمته ، وإنما هو صراع بين المادة والإيمان ، صراع بين عروبة تعرف نفسها وتريد القيام بواجبها نحو ربها ، وعروبة أخرى لا تعرف نفسها كما أرادها اللَّه أن تكون عربية حاملة لرسالته ، بل هي عول في كل شيء على أعدائها وأعداء ربها من ديمقراطية كاذبة ، أو مركسية خبيثة .

ولو أن دعاة القومية العربية جعلوا صلتهم بالنبي العربي ﷺ ، وقطعوا صلتهم مما سواه ، فحققوا عروبتهم ، لم يجرأ أحد على نقدهم ، أو التعرض لهم .

---

(١) مجلة راية الإسلام- العدد الخامس- ربيع الأول- ١٣٨٠هـ.

(٢) الصَّلَفُ : مجاوزة القدر في الظَّرْف والبراعة والادعاء فوق ذلك تكبرًا . « لسان العرب » مادة : (صلف) .

والعجب منك يا صاحب «الوشائج» كيف تسمي أقوال المسلمين ومذاهبهم بـ «كليشهات تبطل كل جديد بالهرطلة والزلل» فهل هذا المنطق صادر من جنان معمور بالإيمان بما أنزل الله؟ ومن هو الأليق بهذا اللقب، أهو الببغاء المتبع لكل ناعق باسم التطوير والتجديد دون الالتفات إلى واجبه وواقعه، والذي يعمل على ربط صلة أمته بنبيها العربي؟ وهل المتبع لما أنزل إليه من ربه، والداعي لسلوك ملة إبراهيم عليه السلام هو الذي يلوك[1] كلمات سمعت قبله بمئات السنين؟ والذي يتبع ما رسمه أئمة الكفر وطغاة الاستعمار هو المثقف الواعي لكل أحداث عصره وتاريخه المجيد كما زعمت؟

يا صاحب الوشائج؛ باللَّه عليك، إن كنت تقدر اللَّه حق قدره وتلتفت إلى أمره ونهيه، كيف تعكس الحقيقة، وتبلور من تبلورت أدمغتهم بالإذاعات المغرضة، وتشبعت بالمبادئ الهدامة، مثقف واع للأحداث، عامل على التطوير وإدخال التحسينات، وفي الحقيقة هم الذين يلوكون ما نعق به غيرهم دون تصويب النظر إلى واقعهم وعرضه على رسالات ربهم

ثم يا أخي، هداك اللَّه، أي تطوير وتحسين يمنعه الإسلام ويحول دونه؟ وهو الدين الوحيد الشامل لنظام الدنيا والآخرة، المبني على جلب المصالح عمومًا ودفع المضار، والموجب للعمل وأخذ الحيطة والاستعداد بكل قوة على اختلاف أنواعها، وهل يوجد تطوير نافع وتحسين صحيح لا يحث عليه الإسلام؟ اللهم إلا التطوير الخسيس والمنحدر السافل الذي وصلت إليه دول القوميات من الانحطاط الخلقي، والتباهي بالتسابق في الجمال، وإباحة الخمور والزنى والربا، وأخذ الرسوم على ذلك تكثيرًا للثروة القومية، وعمارة المسارح والسينمات بدلًا من المساجد، وتشجيع دور الطبع على نشر كل ما يصد عن سبيل اللَّه ويغري

---

(١) يلوك: يمضغ. «تاج العروس» مادة (ل وك).

العرب على خيانة ربهم ، وعلى التفسخ والانحلال ، بدلًا من طبع الكتب النافعة المرتكزة على هدى من اللَّه ، وإظهار النساء بأبشع المظاهر وجعلهن سلعًا رخيصة مبتذلة ، عكس ما أنزل اللَّه في سورة « النور » ، والإعراض عن الثروة العربية الزاخرة التي أورثنا اللَّه إياها ، واستبدالها بقوانين الأجانب الكفرة الفجرة من فرنسيس وشيوعية وغير ذلك .

لا أتهمك يا أخي أنك تتعشق التطوير والتحسين على هذا الوجه الشائن المشين الذي تتبجح به القوميات زاعمة أنه منتهى الثقافة وغاية التمدن . فما هذا الانصباب الساخط على دعاة الإسلام المحاولين التحفظ من تلك الشرور بحيث وصفتهم « لا شيء » وإذا كانوا لا شيء ، فكيف تتصدى لهم بهذه الحدة؟! وكيف تتألى على اللَّه ، وتتحدى وعده في تنزيله بقولك : « إن هذه القومية .. سوف تنتصر ويندحر أعداؤها عاجلًا أو آجلًا ..» واللَّه تعالى يقول : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: الآية ٥١] ويقول : ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: الآية ٣٢] فهل تعتقد أن هذه القومية التي هي أحط من قومية أبي جهل وأبي لهب من نور اللَّه ، ومما جاءت به رسله؛ ليكون لها النصر مضمونًا في نظرك؟

اسمع إلى وعيد اللَّه لكل من خالف الرسل : ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البقرة: الآية ١٣٧] ، وانظر كيف حصر اللَّه حالهم في الشقاق ، كما تراه اليوم علنًا بينكم ، والصهيونية تتفكه عليكم ، أو تريد انتصارًا جديدًا يبعدكم عن الدين ، أيها الفريق المثقف الواعي لأحداث العصر؟ بخ ، بخ ، على هذا الوعي الذي هو شر من العمى؟ وهل أحرزتم انتصارًا من أول وهلة إلا بمساندة المسلمين الذين انخدعوا بظواهركم ، ولا زال بعضهم يسير في ركابكم ، ويضلل السواد الأعظم في سبيلكم؟ ولو جرت بينكم وبينهم معركة

صحيحة صادقة للَّه لما ذقتم طعم الحياة ..

لنترك تفصيل ذلك خشية التطويل، وننتقل مع الكاتب إلى مغالطاته الأخرى، وقلبه للحقائق في سبيل نصرته للوثنية، حيث زعم أن نصارى الشرق ساعدوا المسلمين في الحروب الصليبية! بل زعم أنهم كانوا أشد على الصليبيين من المسلمين!! وجنى على التاريخ بجعله هذه الأكذوبة «حقيقة تاريخية لا تنكر»

وهذا افتراء على التاريخ ومسخ للحقيقة، وقد مشى الكاتب على عادة أضرابه ورؤسائه في هذا المنوال، فالحمد للَّه الذي جعل على نصارى الشرق شهودًا من أنفسهم، فقد سجل التاريخ عدة اعترافات وتقارير لقواد الحملات الصليبية: أنهم تلقوا أعظم مساعدة في فتح البلاد الإسلامية من النصارى المقيمين بها، وأنهم لم يحتاجوا إلى مرشدين يعرفونهم بالطرق، وسجلوا مساعدة «الأرمن» لهم في الطليعة، ثم النصارى اللبنانيون حتى «اليعاقبة» منهم، لم يترددوا جميعًا في مناصرتهم ومصاهرتهم أيضًا، وكذلك نصارى سوريا، ونصارى بيت المقدس، ثم النصارى الأقباط في دمياط والقاهرة وغيرهما؛ بحيث نقل عنهم المؤرخون- ميشو، وجوروسيه، ورينو- وهم من أبناء جلدتهم: أن الصليبيين ارتاحوا واطمئنوا لموقف هذه العناصر، إذ أنهم وجدوا فيهم حلفاء مخلصين في قلب الإمبراطورية الإسلامية، ولم يكن لهم إلا عدو واحد، هو المسلم.

وقد جاء في التقرير الذي وضعه «الكونت دي شام باي» عن خيانة نصارى العرب وغدرهم بالمسلمين ما يندى له الجبين!

ونحيلك أيها الكاتب إلى مرجعهم أنفسهم؛ خشية التطويل. ولو تلتف إلى قول اللَّه تعالى لأغناك عن التطفل على غيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٢]، يقول في كتابه: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٠]، ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: الآية ٨].

وينهاكم الله عن موالاتهم والركون إليهم والاعتماد عليهم فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عِمران: الآية ١١٨].

وأنت أيها الكاتب تتجاهل قول الله، أو تعرض عنه اتباعًا للهوى؛ أسوة بمتبوعك! وتعكس الحقائق التي سجلها تاريخ النصارى عليهم أنفسهم، بل تكذب على الواقع المحسوس في سبيل نصرة الجاهلية!!.

ولو أصغيت إلى ما يلقى في برنامج إذاعة عربية ضد الجزائر فقط لارتعدت فرائصك عند كتابة ما كتبت، ولم يجر قلمك بما جرى، بحيث فضلت ذلك البلد الماشي وفق مخطط عدائي للإسلام والعروبة على بلاد إسلامية زعمت عنها: أنها لم تبد أية حركة استنكارية ضد المعتدي على مصر والجزائر!

وهذا جناية منك على الواقع والتاريخ، فجميع البلاد الإسلامية وقفت موقفًا مشرفًا باستثناء أشخاص أبعدتهم أصوات انطلقت عليهم فأعانت عليهم الشيطان، وهذه ضد السجية العربية والخليقة الإسلامية

ويا أخي، مالك ضربت الذكر صفحًا عن حقد النصارى الملتهب وخيانتهم بنا في فلسطين؛ إذ اتفقت المسيحية العالمية بأجمعها من شرق وغرب على انتزاع فلسطين من أيدي المسلمين؛ أحباب المسيح الذين أبرزوا كرامته وأظهروا براءة أمه وتسليمها لليهود أعداء المسيح الذين قالوا فيه وفي أمه بهتانًا عظيمًا، وأزهقوا أرواح أتباعه في كل فرصة سانحة، ولم يشفع لنا عندهم حسن معاملتنا لهم، أو التسامح معهم طيلة القرون! أتظن أن كتمانك لهذه الحقيقة يشفع لك عندهم؟

ثم إنه لا يجدر بك أيها الكاتب أن تفضل النصارى على المسلمين؛ تأييدًا لإعادة العرب إلى الجاهلية الأولى ، فتكون ممن قال اللَّه فيه : ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ٥١] .

ولو فرضنا جدلًا : أن شعبًا مسلمًا بكامله لم يكترث بمصير دولة من الدول رغبت عن ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ إرضاء لقلة من النصارى لا يبلغوا نصف معشار السكان ، وتبنت أخلاق أوربا والشيوعية في التقاليد والاقتصاد ، فهل يصب عليها اللوم إذا وقفت موقف الحياد من دولة انفصلت عن العروة الوثقى وتعلقت بحبال أبي جهل وأبي لهب ، ومزقت القرآن تمزيقًا حسيًّا ومعنويًّا بعزله عن التشريع وإقصائه عن الحكم ، وجعلت وظيفة المسجد أحط من وظيفة الكنيسة ، حيث فرضت الرقابة على الخطابة فيه؟

أيها الكاتب العزيز ، لا تأخذك حمية الجاهلية وتندفع بغرور نحو ما رسمه الملاحدة وطغاة الاستعمار للعروبة أمثال اليهودي المجري « جولدت سيهر » ، و« زويمر » و« مورغورنجا » و« جورج حبش » و« ميشيل عفلق » وأضرابهم من مخدوعي أبناء المسلمين الذين تبنوا هذه الفكرة عن جهل أو حاجة في صدورهم ، واجعل لعروبتك صلة روحية بالنبي العربي ، واعرض جميع ما قذفت به المطابع والإذاعات على شريعته فاقبل ما وافقها ، وارفض ما خالفها؛ لتكون أحق بها وأهلها من أولئك الطغاة ، وتحقق عروبتك التي اختارها اللَّه لك .. وإلى اللقاء في مناقشة ما سطرته من المغالطات .. وأبشر إني لا أصفك بأنك « عميل » كما يصف كتاب القومية خصومهم ، فالرمي بالباطل من سجيتهم لا من سجيتنا . ولا ترى مني سوى المناقشة في إظهار الحق ، جازمًا بحسن طويتك ، وأنك مخدوع بما ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ..

❁❁❁

الأثر السيئ لعدم ضبط الحب والعاطفة[١]

الحب من الوظائف الباطنية التي تنبعث من أعماق القلوب، وتلهب مشاعر الإنسان وأحاسيسه وجوارحه، ويستسهل الصعاب، وتجعله يندفع بجميع أعضائه، ويقرب عنده البعيد، ويرخص عنده الغالي، ويبذل الطارف والتليد[٢] في سبيل نيل محبوبه، أو الأنس بقربه، أو السعي لنصرته، أو ما شابه ذلك.

ولما كان الحب بهذه الغاية من التأثير على المشاعر والجوارح والسيطرة على العاطفة، فقد أولته العقيدة السماوية جل اهتمامها من أول وهلة، وجعلته الركن الأعظم والأصل الأصيل في ملة إبراهيم عليه السلام المأمور باتباعها كل مسلم.

وقد حدها اللّه تعالى بحدود لا يجوز تخطيها، ومن تخطاها فقد وقع في الشرك والضلال، واعتوره الفساد والانحلال، وابتلي بالشقاق وسوء الجهد وضياع الكد فيما يعود عليه بالضرر كما هو مشاهد الآن وفي كل زمان ومكان: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٩]، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطّلَاق: الآية ١].

ولا شك أن كل ما زاد عن حدِّه انقلب إلى ضده، ولذا قيل: حبك الشيء يعمي ويصم. وقيل: عين الرضى عن كل عيب كليلة. وفي الأثر: أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما[٣].

---

(١) صحيفة الندوة- الأربعاء ١٣٨٢/٧/٨هـ.

(٢) التليد: المال القديم الذي ولد عندك، وهو نقيض الطارف الذي هو: الطريف من المال المستحدث «النهاية في غريب الحديث» (١/١٩٤)، و«مختار الصحاح» (١/ ٨٣، ٤٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٩٧) من حديث أبي هريرة مرفوعًا. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه .. والصحيح عن علي موقوف قوله. والموقوف أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢١). وينظر «علل الدارقطني» ٤/ ٣٣، ٨/ ١١٠.

ولا يمكن أن تنضبط الأعصاب والمشاعر التي يحركها الحب تحريكًا جنونيًّا إلا بالتزام العقيدة السماوية ، وجعلها ميزانًا يضبط الميول والعواطف عن الانزلاق في المحبة فوق ما قرره اللَّه ورسوله لنا .

ومن فقد تلك العقيدة أو ضعفت في قلبه استهوته الشياطين وجعلته ألعوبة يمتلك قلبه كل شيء فيهوى ما يسنح له ويوجهه شياطين الإنس إليه مما انتحلوا وينتحلون من المبادئ الوطنية والمذاهب المادية تحت اسم الجنس والوطن الذي يكون الإنسان في الغالب أكثر ميولًا إليهما إذا انصرف قلبه عن ملة إبراهيم ، فيتشبث بما يهواه من مبدأ أو رائد مبدأ ، أو مذهب أو نابش مذهب! .

وتجتذبه تلك المحبة إلى ما تضيع به دنياه وآخرته ، ويضر بمستقبله المادي ومستقبل وطنه الذي أحبه من أجله وأشرك به مع اللَّه ، وهو مغرور يتبجح بالتقدمية ، ويزعم أنه سائر لعيش أفضل! وهو سائر إلى الهاوية ، بل هو رجعي رجع إلى مذهب كل ملحد ويهودي أثيم .

وتارة تجتذبه الشهوة المحرمة وغير المحرمة ، فيبقى عبدًا أسيرًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا في حقه .

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة ، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ، فيوالي من يمدحه ولو بالباطل ، ويعادي من يذمه ولو بالحق ، كما هو مشاهد معروف ، وغالبًا يستعبده الدرهم والدينار ، وشهوة البطن والفرج ، فيحيق به الدعاء النبوي الذي قبله اللَّه ، وأوقعه في كل من شغف بمحبوب دونه؛ لأنه اتخذ إلهه هواه واتبعه بغير هدىً من اللَّه .

والحب هو الذي يحرك إرادة الإنسان ، وتقوى تلك الإرادة في سبيل نيل المحبوب بحسب قوة الحب في القلب ، فإذا كانت محبته تامة استلزمت منه إرادة جازمة ببذل النفس والنفيس في تحقيقها ، ويندفع بكل غرور إلى ما يضره ،

بل إلى ما ينقلب لعدائه سريعًا؛ لأنه اندفع بغير هدىً من اللّٰه، ووقع تحت إلحاح من ضغوط مزاجه، لا يقدر على تأجيله أو إلغائه؛ إذ ليس في حسبانه وتقديره إلا خدمة من انصرف إليه، والخضوع لما يفرضه عليه، مما هو أثقل من أوامر اللّٰه بكثير.

والحب إذا لم يكن تابعًا لمرضاة اللّٰه وموافقًا لشرعه أوقع صاحبه في الأنانية أو في الإلحاد:

فإن أوقعه في الأنانية أصبح مسعورًا تؤرقه رغباته وشهواته، وصار هواه يطالبه بما لا يطالبه به الخلَّاق العليم، ويقيده بالكثير ويغفله عن الكثير، ويحمله المخاطر والأهوال التي لو ارتكبها في ذات اللّٰه لفتح عليه بركات السماء والأرض، وأمده بالنصر والتمكين، ولكن بابتعاده عن صراطه المستقيم وولوعه بما يبغضه اللّٰه أصبح كالمنبت: لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى؛ فلا يزال يستجيب لطلبات لا تنتهي ورغبات لا تسعف ولا تقبل معذرة أو تسويفًا، فيكلفه إله الهوى ما لا يطيقه من مخاطر بدنية وعقلية يعيش بها في جحيم من الاضطراب والتخليط، مما يؤدي به غالبًا إلى الانتحار الحسي أو المعنوي.

وإذا تدبرت سلوك هذا النوع وجدتهم في انتحار معنوي وانتكاس، على الرغم مما يزعمونه أو يظهرون به من المظاهر الخلابة.

أما إذا أوقعه ذلك الحب المخالف في الإلحاد، فإنه يفرض لنفسه ولمن يغويه من أتباعه وأحبابه أهواء ضخمة ونزعات جمة لا يفرضها اللّٰه الرؤوف الرحيم، كما يفرض عليه وعلى أتباعه نواهي تحتم عليه أن يسقطها من اعتباره، وإن كانت هي المفروضة السمحة شرعًا وعقلًا، وقد يتحمل المجتمع في الغالب تضحيات كبيرة وخسائر فادحة من جرَّاء أهواء ذلك الملحد الذي يدفع ضريبة البشرية بآلامها وتضحياتها ونقائصها، وهي تسير معه في حلقته المفرغة وأفقه

المحدود ومجاله الهزيل الذي ربط نفسه وربط أتباعه المنكوبين به ، فقد جرَّه إلحاده وصدوفه عن آيات اللَّه إلى تقليد كل أفاك أثيم ، وأوقعه ومن معه في دركات جحيم الإلحاد التي يتكلف من أهوالها الهزات السياسية والأزمات المختلفة ، والقلاقل التي لا يتعرض لشيء منها لو كان على الملة الحنيفية التي من خرج عنها واسترسل في غيرها ذهب منه ما وفرته له من خسائر وما وقته من ويلات ، ودخل في حرب ضروس بين الآلهة المادية التي تألهها والعصبيات الجديدة المجنونة التي يصنع من أجلها كل سلاح فتاك ، وتكتوي منها البشرية بالمجازر الهائلة الرهيبة؛ انتصارًا للجنس الفلاني والمذهب الفلاني ، حتى قال بعض المفكرين : نحن في القرن العشرين الميلادي نخوض أزمة التمذهب؟! وكل هذا من عدم ضبط الحب والعاطفة بالمعيار الشرعي .

وقد قرر الباحثون أن الولاء الجماعي كلف الناس ما كلفهم الهوى الفردي من شطط بالغ وخسارة عميمة فادحة . وللكاتب الشهير « دوركايم » في كتابه : « قواعد المنهج » ، ترجمة الدكتور محمود قاسم (ص ٣٢ ٣٣) يرجع إليه من أراد المزيد ، فإني لا أريد الإطالة بنقله ، ولا أحب تمحيصه والتصرف فيه؛ ولذا أحيل الراغب إليه رأسًا .

والمقصود هنا : أن الحب إذا كان يساير العاطفة والشهوة ، لا العقيدة السماوية ، ذهب بلب الإنسان وعقله إلى ما ينسيه نفسه ، وجعله يسعى في خدمة عدوٍ ظنه صديقًا ، وعانى البؤس والشقاوة بدل العدل والسعادة ، وقد قال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: الآية ١٩] .

وقد أجرى سنته الكونية على ذلك؛ بحيث نجد المعرض عن حبِّ اللَّه ورسوله والمفرط في جنب اللَّه ساعيًا لما يهلكه ويشقيه ، ويؤله نفسه تارة باتباع ما يهوى ، ويؤله محبوبه تارة بفرط محبته لأناس باسم الوطنية والجنسية– مثلًا–

أو باسم مذهب من المذاهب المادية، دون التفكير فيما يضر بوطنيته أو بني جنسه؛ لاختلاف المحيط أو العقبات والعوارض. هذا إذا فرضنا سير التخطيط أو غير ذلك من- جدلًا- أن هواه منزه، أو محبوبه معصوم كملائكة ذوي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، مع شجب المستحيل. أما إذا مشينا على القاعدة الكونية التي لا مفر منها، فإن اللَّه جبل بني آدم على الظلم والجهل والشدة لحب المادة، والجحود حتى لنعمة ربه. وهذه الأوصاف التي هي غاية الأنانية ومنتهى قمتها لا يمكن أن يتخلص منها إلا بتحقيق الدين الصحيح الخالص الذي طهرت به ضمائر السلف الصالح. أما الأشخاص الذين عاصرناهم منذ وعينا الدنيا حتى الآن والناس يحبونهم ويولونهم الثقة العمياء تارة، ويصبوا عليهم اللعنات تارة وينصرفوا إلى محبوب جديد، فليس منهم أولًا ولا آخرًا من يجوز وصفه بعدم الأنانية، وهم لم يتمسكوا بالدين ولم يخلصوا لرب العالمين، فكيف يرجى الإخلاص ممن لم يخلص لربه ويصدق مع ربه؟ ومن الذي أخلص منهم لربه وصدق معه بحمل كتابه وتبليغ رسالته؟

بل كيف يجوز الحب ويرجى الإخلاص ممن لو سبرت جميع الآيات والأحاديث الواردة في المنافقين لوجدته متخلقًا بها، وملتصقة به في أقواله وأفعاله؟.

وإذا كانت الأنانية تحل في كل فرد من البشر إذا وجدت مفعوها، ولا تتزحزح عنه إلا بوازع الدين الخالص، فكيف يسوغ لأي عاقل نفي الأنانية عن أقوام لو وزعت أنانية أحدهم على قبيلة أو مدينة لوسعتها؟ وما أكثر الشواهد عليهم من أعمالهم المباينة لأقوالهم وتصرفاتهم التي أقصوا بها أقرب قريب منهم وأعظم مساعد لقضيتهم وقائم في تدعيم ثورتهم وبسط نفوذهم.

وفتش أيها القارئ الكريم في التاريخ، من عهد ابن مروان إلى هذه الساعة،

تجد ما قلته صحيحًا ، وتعرف أن لا مفر من الأنانية إلا بالدين الخالص الذي يكاد يكون منعدمًا فيمن احتلوا الصدارة في جميع العالم ، فتدرك مدى انزلاق الناس تحت تأثير الحب والعاطفة ، وأنهم أضل سبيلًا من الأنعام التي تستجيب نداء الجزار إلى المجزرة ، واذكروا قول اللّه تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٦].

وكثيرًا ما نسمع عباد الهوى والأشخاص يقولون بكل مكابرة ومغالطة : فلان أعظم من النبي! وفلان أرفع من مستوى البشر! وفلان المنقذ البطل! وفلان الزعيم الأمين والأوحد!! .. وما إلى ذلك مما هو تمرد على اللّه ورسوله ، ورفع للباطل ، ومكابرة في المحسوس . وهذا عقوبة من اللّه لهم على نسيانهم إياه .

ونحن لا ننكر أن بعض الأشخاص- ولو كان كافرًا- يكون مخلصًا في قضية من القضايا ، أو لقوم دون قوم ، لكن ننكر بشدة أن يكون مخلصًا لجميع قضايا الإنسانية ، أو لكل من حوله ممن يدعي جنسيتهم ومحبتهم ، كما أمر به اللّه ، وهو مجانب دين اللّه وشرعه ، خائن لربه معرض عن رسالته ، حامل رسالة كل طاغوت في القديم والحديث .

وقد يكون في الإنسان صفة يحب عليها ، أو يختص بعمل يحمد عليه ، لكن لا يلزم من ذلك أن يكون مقدسًا محبوبًا من كل ناحية ، يحظى بجميع ما يتبناه بالقبول من الناس ، وتضفى على أعماله أثواب القداسة ، فإن هذا من ضياع الحدود ، وكم من عامل لا تتناسب أعماله إلا مع محيطه الضيق ، ولا يتعدى عدله خارج قومه الأقربين ، وإن ادعى أنه سيشمل بعدله جميع الناس . هذا إذا فرضنا المستحيل من العصمة وعدم الأنانية .

فعليكم معشر الأحباب أن تقيدوا حبكم بملة إبراهيم ، كيلا تجمح بكم العاطفة إلى ما لا تحمدوا عقباه ، فضلًا عن إغضابكم لرب العالمين وتعديكم حدوده ، وتكونون بذلك عرضة لكل عقوبة من عقوباته المتنوعة . وانظروا ما جرته العاطفة على غيركم ممن حولكم ، وما جنوه من ثمارها المريرة ، فالسعيد من وعظ بغيره .. وإلى اللقاء .



الأثر السيئ لعدم ضبط الحب والعاطفة[١]

[٢]

لا يعزب عن بالكم أن الحب نوع من العبادة، لا سيما إذا اقترن بالتعظيم والإجلال، أو وصل حد الشغف بالمحبوب، بحيث يؤثر التعلق[٢] به عن الواجب الديني، وينشغل به عن ذكر اللّٰه، أو تكون الشفقة على المحبوب أعظم من الشفقة على الدين وسنة سيد المرسلين، أو تكون الغيرة عليه أزيد من الغيرة على شعائر الدين، وامتهان الكتاب والسنة، أو يكون الغضب له أشد من الغضب للّٰه ورسوله وانتهاك حدوده؛ هو شأن المندفعين بحب الأشخاص في هذا الزمان

فإن الضوابط والحدود للمحبة الشرعية المرضية، كلها تدور على كون محبة[٣] الإنسان وهواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ؛ من إيثار حق اللّٰه في كل شيء، وإجلاله وتعظيم حرماته فوق كل شيء، والقيام بنصرته دون التعلق بأي شيء، وجعل الأولوية لرسوله في كل شيء من أمور الدين والدنيا. وأن تكون الشفقة على دينه من جميع النواحي فوق كل شيء، والغيرة على شريعته أعظم من كل شيء، والغضب لانتهاك حرماته أشد من كل شيء، والقوة في أمر اللّٰه فوق كل شيء.

فمن تعدى هذه الحدود والضوابط بتفضيل أي محبوب على ذلك، أو مساواته به في هذه الأمور، فقد وقع في الشرك؛ مخالفًا لما جاء به نبينا من ملة إبراهيم الحنيفية.

وكثيرًا ما نرى الناس غضبوا أو يغضبون للنيل ممن يحبونه من رؤسائهم في

---

(١) صحيفة الندوة- السبت ١٣٨٢/٩/٨هـ.

(٢) في الأصل: «التعقل».

(٣) في الأصل: «صحبة».

الدين والدنيا، دون أن يغضبوا للنيل من نبيهم ﷺ، بل لم يغضبوا للَّه الذي صرحت بعض الصحف المصرية بإنكاره، وبعدم تأثيره في الكائنات! وإنكار الرسل والبعث مرارًا عديدة، وبصفة واضحة جدلية تهكمية! مما يُعد أعظم محادة للَّه ولرسوله. ولم نجد من المسلمين الذين راجت عندهم هذه الصحيفة غضبًا للَّه كما يجب عليهم، ولم يتأثروا أو تتمعر وجوههم للَّه، بل اتسعت بلادهم وصدورهم لهذه الصحيفة الفاجرة، ودخلت أعماق بيوتهم، ولا تزال تحتل الصدارة عندهم؛ بحيث تجد كثيرًا ممن يؤدي شعائر الإسلام الظاهرة، لم يكترث[1] عما قالته هذه الصحيفة، وما تحمله في طياتها من الفسق غالبًا والكفر أحيانًا، بل تجدهم يؤيدونها بالشراء والاقتناء، ويعتبرونها عاملة لخيرهم؛ لأنها تصدر من بلاد فيها ما يحبونه، أو تصدر بشعارات من دون اللَّه من المبادئ والمذاهب العصرية الأوربية المادية والجنسية وروادها!

فاعتبروا يا أولي الألباب بما جره الحب والعاطفة على الناس من الانزلاق في الشرك والإعراض عن اللَّه، وانشراح صدورهم لإنكار دينه ورسله ومعاده، أو عدم الاكتراث بذلك.

وأكثر الولوع بهذه الوثنية الجديدة، أو الجاهلية الجديدة- في العصر المسمى: بعصر النور- هو من عظم تقديس التابع للمتبوع والاستسلام له في كل شيء، واعتبار كل ما يصدر منه أو عنه حسنًا ومن سواه قبيحًا، وتبديل الناس وقولهم[2] قولًا غير الذي قيل لهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون؛ لأن عواقب الاستعمار وآثار ثقافته السيئة غرست في قلوبهم حب الجنس والوطن، والتعلق بالمادة ومتع الحياة، فاستولت على قلوبهم محبة القواد والزعماء المدعين العمل

---

(١) يقال: ما أكترث له. أي: ما أبالي به. انظر «القاموس المحيط»، و«المعجم الوسيط» مادة: (كرث).

(٢) في الأصل: «قول».

لذلك صدقًا وكذبًا، فاتخذوهم بذلك ولذلك أندادًا من دون اللَّه، يحبونهم بالحب والاستسلام بما لا يخصون به رب العالمين، فوقعوا بذلك في نوع من الشرك قد يزيد على شرك أهل الوثنية قديمًا وحديثًا؛ لأن اللَّه أخبرنا عن الوثنيين أن أقصى ما يعتقدونه في آلهتهم أنهم شفعاء ووسائط تقربهم إلى اللَّه زلفى، ويعتقدون أن الخالق اللَّه، والمؤثر في الوجود والأشياء من سبب ومسبب هو اللَّه، ولذلك يضرعون إليه في الشدائد. والشواهد على ذلك في القرآن كثيرة.

أما الماديون اليوم ومن اصطبغ بصبغتهم فلا يرون مؤثرًا في الوجود إلا المادة والجنس، ويرون أن من سيطر على الموارد، ولم تكبت شهواته البهيمية بحكم أو وازع، فهو المتغلب في الحياة والقادر على تسخيرها دون اللجوء إلى سلطة روحية عليا يستلهم منها الرشد والهداية، ويستعين بها في سيره بأعباء الحياة.

فإنكارهم للسلطة الإلهية وعقيدة الملة الإبراهيمية ظاهر معروف، لم تجرأ على مثله سائر أهل الملل والنحل على اختلاف إلحادها ووثنيتها.

وجميع مخططاتهم في سائر الميادين مبني على المادية الصرفة بجميع أنواعها، ومن لم يكتملها فهو سائر في الطريق الذي سار عليه غيره لإكمالها؛ مطمئنًا بها معرضًا عما سواها. والمتبع للسلطة العليا الروحية القاهرة يعتبر رجعيًّا وذنبًا وعميلًا، أما الذي يترسم خطى أعداء اللَّه ورسله، ويعبد المادة من دون اللَّه، ويتعلق بأذيال الملاحدة، فليس ذنبًا ولا عميلًا، بل هو- في عرفهم- متحرر، وهو في الحقيقة عبد وبئس العبد، بشهادة محمد ﷺ، ولم يتحرر إلا من عبودية الله؛ التي هي أشرف المقامات وأعلى الغايات.

والوثنية- معشر القراء- ليست مقصورة على عبادة صنم أو عبادة مقبور أو نحوه، فهذه وثنية انتفى معها توحيد الألوهية، وبقي توحيد الربوبية، ووثنية اليوم انتفى منها الجميع.

بل إن الوثنية طابع عام يتمثل في التعلق بغير اللَّه من كل شيء، والاستسلام لغير اللَّه في شرعة الحياة، وتحكيم غير ما أنزل اللَّه على رسوله فيما يأتي الإنسان ويذر. هذا هو عين ما غرسه الإفرنج، ويغرسه الآن في الجامعات والمدارس تلامذتهم، وأخذوا يدخلونه على قلوب الطلاب الذين تلطخت أدمغتهم بالوثنية من طريق أولئك.

والإنسان إذا أحب شيئًا وجعله غاية قصده كان عبدًا لما أحب، ولذا قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار[1]، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[2]. فسمى المحب لشيء من ذلك: عبدًا له، ودعا عليه بتلك الدعوات التي ظهرت آثار استجابة اللَّه فيها على عبادها المتعلقين بها؛ إذ الفرق عظيم وواضح بين المحبة للَّه ومع اللَّه.

فواجب المسلم أن لا يحب شيئًا إلا للَّه، وإذا أحب معه شيئًا صار مشركًا، وكل من طغى وآثر الحياة الدنيا فهو عبد لها من دون اللَّه، ولابد له أن يتقلب في جحيمها قبل الآخرة من الاضطراب والأنانية المستمرة؛ لأنه تجاوز حد المأمور به شرعًا والذي خلق من أجله.

فالمسلم يجب عليه استثمار الدنيا، وتسخير كل مادة لإعلاء كلمة اللَّه، وأن تكون غايته إصلاح ما أفسده المبطلون، وقمع المفترين على اللَّه، لا أن يركن إليهم ويقلدهم فيما أفسدوا ويعتنق ما اعتقدوا.

والمولعون بحب الأشخاص وتعظيمهم وإجلالهم من هنا وهناك، وتقبل خططهم واستحسان نظمهم وتشريعاتهم، هم عبيد لهم، سلكوا مسلك الوثنية بهذا العمل.

---

(١) في الأصل: «الدنيا». والمثبت من مصدر التخريج.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

وقصر الإنسان نظره على ملاحظة نفسه وصحته الجسمية، هو وأولاده- دون النظر إلى صحة القلب وطلبها بتقوى اللّٰه والمسارعة لمرضاته حسب ما شرع- فذلك وثنية أيضًا.

وإعطاء النفس ما تشتهي من لذة ومتاع، وزيادة في الرصيد المالي والشهواني- دون ضبطه بحدود الشريعة- هو وثنية أيضًا، قال اللّٰه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وما الأشخاص الذين أولع الناس بهم في الأزمنة الأخيرة ونالوا الحب والتعظيم، وأضفيت على أعمالهم أثواب القداسة أو العظمة إلا كالأنداد من دون اللّٰه.

فليست الوثنية مقصورة على صنم ونحوه، كما فصلناه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٥، ١٦٦]. والأنداد: جمع ند. وهو المثل.

والذين يسبحون بأسماء تلك الأشخاص، ويعلقون ثقتهم بهم، ويستحسنون نظمهم وتشريعاتهم، قد ساووهم باللّٰه في المثل على الأقل، أو زادوا على ذلك.

فالماديون الذين يرون مفاهيم المادية تتمثل بفلان وفلان، لا يقيمون للّٰه وزنًا بالكلية.

والقوميون الذين يرون مبادئ قوميتهم تتمثل بالأشخاص المحبوبين لديهم كذلك.

والأنداد عند جمهور المفسرين أعم من الأصنام والأوثان، فيشمل الرؤساء

الذين خضع لهم بعض الناس خضوعًا دينيًا أو سياسيًا قوميًا، اتخذوهم بذلك أندادًا، كما تدل عليه الآية الثانية بقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٦]. فالمراد: أن من الند من يرجى منه ما لا يجوز رجاؤه إلا من اللَّه، أو يؤخذ منه من النظم والخطط ما لا يجوز أن يؤخذ إلا عن اللَّه ورسوله.

وقد عظمت فتنة متخذي الأنداد من سائر الأشخاص، حتى احتلوا في قلوبهم من الحب والتعظيم ما لا يجوز إلا للَّه ورسوله، بل جعلوهم المرجع دون حكم اللَّه ورسوله، وجعلوا الأولوية لما يحضونهم عليه من مبادئهم ومذاهبهم. واللَّه أوجب عليهم أن يجعلوا الأولوية لرسوله في كل شيء، ومنعهم أن يختاروا أي مبدأ أو مذهب غير ما قضاه عليهم من أمور الشريعة على لسان نبيه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦].

ومما ذكرنا نعلم سوء المنزلق الذي انزلق إليه الناس تحت تأثير الحب الأعمى والعاطفة الهوجاء، وأن من أحب أحدًا لغير اللَّه، أو والاه على غير دين اللَّه ونصرة شريعته، فقد أشرك وكان من الظالمين الذين نقصوا اللَّه حقه، ووضعوا الأمر في غير موضعه.

فاعتبروا- معشر المسلمين- وعودوا من جديد لتصحيح إيمانكم بتجريد الحب للَّه وحده، فإن اللَّه ابتلى أباكم إبراهيم بذبح ولده لما رزقه إياه عند الكبر؛ لئلا يكون في قلبه شيء أحب من اللَّه والانقياد إليه. لما حقق المحبة بالامتثال رحمه ربه ففدى ابنه، وترك له لسان صدق في الآخرين.

فيجب أن يكون أقوى ألوان الحب كلها للَّه، وتكون أقوى البواعث منه

منصرفة إلى الله؛ لأنه هو مصدر بواعث الحب كلها ، فهو العظيم بكل معنى أوجب التعظيم ، وهو الجميل الكامل الذي كل ما في الأكوان العلوية والسفلية من كمال وجمال فهو من آثار كماله وجماله ، ومن أعطى الجمال فهو أحق بالجمال من المعطى ، وهو دائم المعروف والإحسان المتفضل على خلقه بجميع أنواع النعم ، والمسخر كل ما في السموات والأرض ، وهو الحفيظ والرقيب عليهم ، وهو الرحمن الرحيم الرؤوف بهم الحليم عليهم ، إلى غير ذلك من موجبات المحبة التي من صرفها لغيره فهو كافر شرعًا .

فينبغي أن يحتل حب اللَّه من القلب المكانة الأولى وأن يهيمن عليه؛ بحيث لا يتسع قلب المسلم لغير محبة اللَّه بصدق وإخلاص ، وأن يندفع بتلك المحبة للتضحية بالنفس والمال في سبيل اللَّه لإعلاء كلمته وقمع المفتري عليه ، وأن يكون ملتزمًا في جميع حركاته وسكناته مرضاة محبوبه العظيم ، ويغار من أجله ويغضب لانتهاك حرمته ، ولا يحب أحدًا أبدًا إلا إذا رآه عاملًا على نصرة دينه حاملًا لكتابه بقوة .

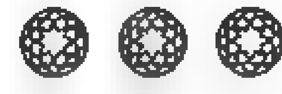
فمن أحب شيئًا مما يكرهه اللَّه ، أو كره شيئًا مما يحب اللَّه ، أو ركن إلى أحد من المخالفين لشريعته المتجاوزين لحدوده ، لم يكن محققًا لمحبته ، بل انعكس أمره وكان من المشاقين للَّه ورسوله ، مكذبًا بفعله مدلولَ ما نطق به من الشهادتين ، وكان فيه من الشرك بحسب ما كرهه مما يحب اللَّه ، وما أحبه مما يكرهه الله؛ لأن بغض ما يحبه اللَّه أو حب ما يكرهه اللَّه متابعة للهوى ، والموالاة على ذلك والمعاداة فيه نوع من الشرك المنافي لمدلول الشهادتين . فمن أحب شيئًا وأطاعه ، وكان غاية قصده ، ووالى لأجله ، وعادى لأجله ، فهو عبده ، وكذلك قد سمى اللَّه طاعة الشيطان في معصية اللَّه عبادة له؛ إذ قال : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: الآية ٦٠] .

فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن بطاعته له والانقياد لشرعه دون سواه، فهو عبد للشيطان؛ إذ لم يخلص لربه حسب ما يقتضيه مدلول الشهادتين.

وكذلك اتباع هوى النفس قادح في تمام التوحيد؛ إذ هو تأليه للهوى.

وكذلك القول على الله بلا علم، جعله الله عديلاً للشرك، وشدد في منعه كالملصقون بالشريعة ما ليس منها؛ تقليدًا لمحبوبهم من دون الله، وتحسينًا لفعله، هم على خطر عظيم.

وكل ما فصلناه من النتائج السيئة لعدم ضبط الحب بالمعيار الشرعي، وما فاتنا بسبب الاختصار أكبر. وعسى أن يكون فيه عبرة وعظة، فالذكرى تنفع المؤمنين: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: الآية ١٠١].



أيها الشباب .. هذا واجبكم(١)

[٣]

نعم إن عليهم ، بل إن من أوجب الواجب عليهم أن يكونوا من أشد الناس كفرًا بالطاغوت الذي أمرهم اللّه أن يكفروا به ، بجميع أنواعه وأصنافه؛ ليحققوا إيمانهم بالله؛ إذ لا يتحقق الإيمان ويحصل جدوى الأعمال الصالحة وتأثيرها إلا بالكفر بالطاغوت ، فقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦] ، وقال : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦] .

إن الشباب العربي الذي هو سلالة أبناء التوحيد من أب إلى جد ، كابرًا عن كابر ، يجب عليهم أن يكونوا من أشد الناس عتيًا على الطاغوت ، وجميع مبادئه ومذاهبه التي يطغي بها العباد عما جاءت به رسل اللّه بأي ثوب ظهرت ، وأن لا ينزع عن الإيمان بأي منزع ، ولا يتبع خطوات الشيطان ، أو تصده عن سبيل اللّه زخارف الفتنة الغربية التي أضل الغرب بها كثيرًا ، وضلوا عن سواء السبيل .

إن الواجب عليه أن يعرف قيمته التي اختارها اللّه له وجعله أهلًا لقيادة الأمم إن هو تمسك بكتابه وحمل رسالته التي شرفه اللّه بها ، وأن لا يشغله عنها أي شاغل ، ولا يصرفه أي صارف أو مذهب من مبتدعات شياطين الإنس وطواغيتها ، وأن لا يقدس الجنس والتراب ويطرح ملة رب الأرباب ، عليه أن يكون عبدًا للّه لا عبدًا للمادة والشهوات كما يريده له أعداؤه الذين يخدعوه باسم الحضارة والتطوير والاقتصاد والتصنيع ، فيصرفوه عن واجبه الصحيح الذي لا تتم

(١) صحيفة الندوة في ١٣٨٢/٦/١٠هـ .

الحضارة النافعة إلا به ، ولا يحصل التطوير الشريف إلا منه ، ولا يتحقق الاقتصاد والتصنيع المثمر للجمهور إلا بسببه وعلى ضوئه ، فيزحزحه عن واجبه الكبير ومهمته العظيمة ورسالته الشاملة الخالدة إلى ضيق المادة التي لا تنظر إلى أبعد من قدمها ، ولا تؤمن إلا بفائدة وطنها ، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وخدمة الجسم الحيواني ، ولا تقدس غير الأثرة التي لا تسمح لاثنين بالعيش في إقليم واحد حتى يتحدا في الجنسية المنبوشة من الجاهلية .

أما الاتحاد في الدين فهو عندها صفر على الشمال؛ لأنه من وضع رب العالمين ، لا من وضع السادة الأوربيين الذين تحجروا الواسع ، حتى قلبوا سعة الدنيا إلى أضيق من جحر الضب ، وقيدوا الناس بأغلال من مبتكرات المادية الغربية المطلية بطلاء التمدن والتنظيم ، حتى ابتلاهم اللَّه بلون جديد شديد من ألوان الأثرة والتحجير ، ألا وهو الشيوعية التي تستأثر حكوماتها بكل شيء ، وتحجر على كل شيء باسم الشعب المخدوع المكذوب عليه الذي أصبح مسخرًا كالحيوان ، لا ينال إلا ما يتفضل به عليه مالكه ، ولا يقدر أن يعيش عيشة حرة ولا بقرش واحد .

وكل هذا من بعض عقوبات اللَّه القدرية التي يصيب بها كل من تنكب عن هداه ، وفرط في رسالة مولاه ، حتى إذا انتقم اللَّه من بعضهم ببعض وأذاقهم صنوف الوبال والنكال بما كسبت أيديهم ، قيض اللَّه من يختاره لنصرة دينه ، فأظهر الحق والنور على يديه .

فاحذروا يا معشر الشباب العربي المسلم؛ سلالة رجال التوحيد ، أن تكونوا من بعض أهل الصنف الأول ، واحرصوا أن تكونوا من الصنف الثاني من حزب اللَّه المفلح ، الذي سينقذ اللَّه على يديه جميع العالم أو غالبه ، فإنكم من أمة إسلامية لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها ، ولا يزال فيها من يحن

إلى ملة إبراهيم، وينشد الإخلاص لله، والجهاد في سبيله لإعلاء كلمته. والدنيا إن لم يسعدها المؤمنون بالله القوامون بالقسط الحافظون لحدود الله، فلا يصلحها تلامذة الإفرنج وخريجو مدارس فرنسيس، عباد الهوى والمادة، ولا يصلحها «المزدكية» وإن طليت بطلاء الشيوعية أو الاشتراكية، ولا يصلحها الجاهلية الرجعية التي ظهرت بثوب القومية والعصبية التي وصفها نبيكم ﷺ بأنها «منتنة»[1]. بل لا يصلحها ويسعدها إلا دين الله الذي وعد وتعهد بإظهاره وإتمام نوره: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: الآية ٤٧]

فاحذروا أن يظهر هذا النور على غير أيديكم، فتسقط بكم حبال الضلال التي أعيذكم بالله أن تتعلقوا بها فترديكم إلى الهاوية، وكونوا معشر الشباب من شباب محمد ﷺ الحاملين لرسالته الداعين بدعوته، ولا تكونوا من شباب موسكو وباريس ولندن، ومن تتلمذ على أولئك من حملة مذاهب الضلال والدعاة إلى الانحلال، فإنكم ستكونون من أولئك الفجرة إن اتبعتم ما تقذف به المدارس والجامعات في الشرق؛ لأنها احتست من قيح أولئك ودمهم وصديدهم، وأخذت تمجه على قلوبكم الطاهرة كما مجته على من قبلكم فأفسدته.

فاحذروا أن تبدءوا من حيث انتهى غيركم، أن تستأنفوا حياتكم بالتحرر من رق كل ثقافة أجنبية عن دينكم وعن حقيقتكم، واطمحوا برؤوس شامخة إلى القيادة التي أوجبها الله عليكم تحت راية محمد ﷺ وتعاليمه وثقافته، وحمل النور والهدى الذي جاء به ذكرًا لكم وشرفًا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠]. ولن تشرفوا إلا به، لا بغيره من مفاهيم الغرب والشرق.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

واطرحوا عبادة الأشخاص ومحبتهم، لا سيما من اتصف منهم بصفة من صفات الطاغوت الذي يجب الكفر به قبل كل شيء.

يجب على كل واحد منكم أن يجعل حياته امتدادًا لحياة نبيه ﷺ فيكرس جهوده كلها في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فأنتم موئل[1] الإنسانية، وأمة المستقبل بإذن اللَّه إن أنتم عرفتم واجبكم حقًّا وقمتم به خير قيام.

والعالم الإسلامي لا يمكن أن ينهض نهضة صميمة مأمونة الغوائل إلا برسالات اللَّه التي وكلها إليه، وهي رسالة قوية زحافة واضحة المعالم لا يفوقها شيء؛ لأنها تمحو من قلوب أهلها الأثرة والأنانية، وتجعلهم وكلاء للَّه مستخلفين له في أنفسهم العزيزة وأموالهم، أمناء للَّه في الأرض على ذلك. وأنتم شباب الجزيرة أحق بها وأهلها؛ أحق بالإيمان بها والاستماتة في سبيلها، فعار عليكم ثم عار عليكم أن يستبقكم إليها أحد.

إن مما يحز في قلبي ودعاني لمخاطبتكم كتابيًّا شيئين لمستهما في داخل بلادكم وخارجها:

أحدهما: أن عددًا من شباب العراق وسوريا سبقوكم على هذه المهمة، وكرسوا جهودهم في ذات اللَّه أثناء دراستهم؛ فأنشئوا مراكز إسلامية في عدد من بلاد أوربا، ولم يكتفوا بذلك بل عملوا في اليابان وجنوبي أمريكا على نشر الدعوة، وكسبوا هناك خلقًا، وسيكونون أمة على الرغم من قلة إمكانياتهم وعدم من يساندهم من الحكومات، أو يساعدهم من الشعوب، سوى أفراد قليلة انتبهت لهم وأعجبت بهم فبذلت لهم جهد المقل، ولو ظفروا بمن يساندهم

(١) الموئل: الملجأ والنجاة، وواءل- على وزن فاعل- أي: طلب النجاة. والموئل: المرجع أيضًا. انظر «اللسان»، و«المصباح المنير» مادة: (و أ ل).

لتضاعف مجهودهم، وكسبوا الكثير من أهل تلك البلاد المتعطشة إلى دين؛ لما أصابها من النكسات والأزمات.

فيؤسفني أن لا أرى بين هؤلاء من شباب الجزيرة وأبناء مهابط الوحي من يشارك أولئك الأحرار في مهمتهم؛ إذ لو شاركوهم حصلت المساعدة الجدية، خصوصًا إذا انخرط في سلكهم من أبناء الأثرياء والأسر الرفيعة العماد الراسية الأوتاد في هذه البلاد، مما يكون لفعلهم تأثير عظيم في المجهود والإنتاج.

ولكن يا للأسف أرى بعضهم سادر[1] في غفلته، مطمئن إلى الترف والزخارف وعيشة البهائم، راض بما ألِفه وعاش عليه؛ ناسيًا أن لآبائه قدم صدق في سبيل الله، سائرًا من ركب الضلال كالأعمى المقلد.

وبعضهم مقتنع بما وجهه إليه أعداؤه ضد دينه وكتابه ورسالته، منشرح صدره لفتنة الجاهلية الجديدة التي اصطنعها المبشرون كسلاح فتاك للحرب الصليبية الحديثة على الإسلام وأهله، تلك الجاهلية المستندة إلى الشبهات والشهوات الطارئة، والأزياء والأخلاق الأجنبية عنا، والمذاهب والمبادئ المخترعة لهدم الملة الحنيفية من الأساس، فيجند بعض أبنائنا الأعزاء قلمه ولسانه للهدم- لا للبناء- لأبناء الجاهلية الجديدة التي ظهرت علينا بأسماء وألقاب ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.



(١) سادر: تائه، يقال: سادر في الغي، أي: تائه. «تاج العروس»، و«المعجم الوسيط» مادة: (سدر).

كيف نحن والزحف المقدس ؟[١]

الحلقة الثانية

نعم إنه زحف عليك أيها المسلم، لا على أعدائك. زحف عليك أيها المسلم في كل شيء، ومناصرة لأعدائك الذين يقاومون دينك وعقيدتك، وينكلون بإخوانك في كل مكان.

انظر إلى أصحاب هذا الزحف المقدس كيف يسندون الألقاب الحميدة التي لا تجوز إلا للأنبياء على الوثني الذي شرد أهلك- أكثر من ١٢ مليون مسلم- وجريمته تزيد على جريمة إسرائيل عشر مرات أو أكثر! كيف لقبوه؟ مع أنه اعترف بالصهيونية، وصرح بعدالة قضيتها، وتبادل معها التمثيل الدبلوماسي دون أن يحسب لعروبة هؤلاء حسابًا!!.

فهل سمعت من أصحاب الزحف المقدس المتشدقين في أغلب نواحي البلاد العربية أي احتجاج على هذه المجازر الوحشية؟ وهل صرفوا شيئًا من صيحاتهم على من اتسعت بلاده ورحب صدره بهذه المآسي والمخازي؟ أو لم تسمع بشيء من ذلك أيها المسلم القوَّام بالقسط، كما يريده اللَّه منك- أو أيها المواطن العربي- الذي لا يهتم بغير طينته ومادته الوثنية، كما يريده منه تلاميذ الإفرنج الذين احتلوا الصدارة في بلاده، وأخذوا ينفذون مخططات أعداء اللَّه وأعدائه.

وقبل ذلك، كيف خرست ألسنتهم عمن فتك بمليون مسلم في يوغسلافيا؛ فضلًا عن موالاته ومصافاته؟ وكيف خرست ألسنتهم عن التنكيل بالمسمين أعظم تنكيل في الحبشة؛ لتحويلهم إلى المسيحية، والافتخار بذلك على رؤوس

(١) صحيفة الندوة في ١٣/٣/١٣٨٢هـ.

الأشهاد أمام البطاركة الذين باركوا ذلك، وانطلقت أصواتهم بشتم أقطاب المسلمين الذين تعاونوا معهم في الملمات.

أيها القارئ الكريم، أليس من أقل الواجب على من ادعى الزحف المقدس أن تتضاعف صيحاته، ويأز[١] الدنيا أزًا باحتجاجاته على تلك الجهات التي عملت وتعمل الفظائع الوحشية بالمسلمين؟

أليس في موقفهم السلبي من المسلمين والمشجع لأعدائهم نقضًا لعهد اللَّه وميثاقه الإسلامي الذي يربط العربي بالأعجمي والمشرقي بالمغربي؛ حيث يجمع الجميع أواصر الدين التي لا يشبهها شيء؟ أم عملهم هذا إشهاد منهم على أنفسهم بقطع تلك الأواصر، ونقض ذلك الميثاق؟

ومن المضحك المبكي لأصحاب هذا الزحف المقدس المزعوم أنهم لا يرضون إلا من إقامة حكومات علمانية في سائر البلاد الإسلامية، فإذا ابتلي قطر إسلامي بحكومة علمانية كافرة واعترفت بإسرائيل، وجهوا صيحاتهم على المسلمين، واتخذوا من عمل تلك الحكومة حجة على قطع صلتهم بالدين وأهله، بل على مناهضتهم المسلمين ومظاهرة النصارى عليهم، كأن النصارى لم يكونوا أكبر عامل على تكوين إسرائيل وتكريس الجهود لخيرها.

وتنطلي فريتهم على كثير من المضبوعين فيفضل الدولة التي تدين رسميًا بالمسيحية؛ لمجرد انتسابها للعروبة على الدولة المسلمة[٢] بحجة تلك العروبة المخالفة لملة إبراهيم عليه السلام، ويزعمون أنها عملت لخير العرب، وهي وكر صهيوني أو استعماري، أو سمه ما شئت.

---

(١) أزا وأزازًا وأزيزًا: تحرك واضطرب صوت من شدة الحركة أو الغليان. «المعجم الوسيط» (أز).

(٢) في الأصل: «المسلمية».

هذا من بعض نماذج التضليل لأصحاب الزحف الذي يروجون به باطلهم . ويبررون موقفهم المخزي من القضايا الإسلامية التي لا يعذر كل صاحب ضمير عن التخلي عنها ، فضلًا عمن تربى في أحضان المسلمين وتفيأ مما فتح له الإسلام ظلًا ظليلًا ، فجحد المعروف وكفر بالنعمة ، وقال : أنا عربي ولا أبالي ، ونسي أنه لم يتولد في تلك البلاد ويقطف ثمارها هو وآباؤه بعروبة كافرة ، وإنما زحف إليها بالعقيدة التي جاء بها محمد ﷺ ، امتدادًا لملة إبراهيم عليه السلام ، فحاز بها القيادة والشرف حتى لعب عليه أعداؤه من يهود ونصارى وملاحدة فمكروا به وأرجعوه إلى العصبية الجاهلية باسم القومية المحببة التي هي كعجل بني إسرائيل ، ورموا الإسلام بدائها من الطائفية التي هي بها ألصق والإسلام برئ منها؛ لأنه يقول لأهله : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٦] .

وإن تعجب فاعجب لتحريفهم الكلم عن مواضعه بتأويلهم قول اللّه تعالى : ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٨] . كيف اتخذوا منها دليلًا على موالاة النصارى ، بل واليهود ، مع غمطهم للمسلمين .

وهذه الآية الكريمة لا تدل على أكثر من إباحة الإحسان إلى من لم يؤذ المسلمين ويغدر بهم من أولئك القوم ، وليس فيها ما يدل على اتخاذهم بطانة من دون المسلمين ووليجة من دون اللّه ورسوله ، كما فعلوه باسم القومية ، وما أسرع انتحالهم لما يناسبهم أو يقدرون على تأويله من آيات القرآن الذي لا يرفعون به رأسًا أو يلتفتوا إليه إلا عند الخصومة ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٥٨] ولو رفعوا رأسًا بكتاب ربهم وأرادوا السير على هدايته لتدبروا الآيات التي قبل

هذه الآية وعملوا بما نصت عليه من البراءة من كل كافر ، ومعاداته ، والكفر بما يحمله من مفاهيم ، بدلًا من الاستجابة إلى مفاهيمهم ، والسماح لهم بافتراء الكذب على اللَّه ، بل إغراؤهم على ذلك بالركون إليهم واتباع مخططاتهم .

ثم إن الآية التي سمحت للمسلم بمبرة الكافر قيدت السماح بمن لم يقاتلنا سرًّا أو جهرًا ، ولم يخرجنا من ديارنا أو يظاهر على إخراجنا . ومعلوم خطط المسيحيين في مظاهرة اليهود علينا ، وخدمة قضاياهم ضدنا في كل مكان ، وترقب الفرص للتنكيل بنا ، كما فعلوا في حوادث فلسطين في الأمكنة التي تكون لهم فيها الكثرة ، ثم في المد الشيوعي الذي أعقب ثورة العراق عام ٥٨ ٥٩م وفعلها في حادث الاعتداء على مصر . زد على ذلك نشاطهم ضدنا باسم المسيحية في كل مكان مما يعد مناوأة صريحة للإسلام .

فأصحاب الزحف المقدس نسوا حظًّا مما ذكروا به ، فكان زحفهم لصالح حزب الشيطان ليس لصالح حزب الرحمن؛ إذ أوقفوا نشاط المسلمين ، وعطلوا انتشار دعوة محمد ﷺ ، وخذلوا حملة دينه وكمموا أفواههم وجمدوا أقلامهم ، وعرضوا الأمة شيبًا وشبابًا للفتنة عن الدين ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩١] بسماحهم لانتشار الإلحاد ، وسعيهم الحثيث في سوء التربية الذي جعل من أولاد المسلمين مسخ معنوي في كل شيء؛ في زيهم ، وفي تفكيرهم ، وفي عقيدتهم ، وفي أخلاقهم .

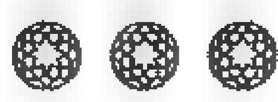
لقد تفننوا في اختطاف العقول وغزوِ البيوت كالشياطين ، وإغرائهم الشباب على خيانة اللَّه ورسوله والتخلي عن رسالته الصحيحة المطلوبة منه إلى رسالة شياطين الإنس وطواغيتها من ملاحدة اليهود والنصارى ومن تتلمذ عليهم ، وذلك بتسميتهم المسلمين بألقاب شنيعة أسوة بسلفهم الكافر في عهد النبوات ، وإعطاء ألقاب جذابة « كالركب المتحرر » ، و« الفريق الواعي » ، و« الجيل الصاعد » ،

و« مناوئي الاستعمار » . كأن الاستعمار لم يعش في أدمغتهم ويستحوذ عليهم بجميع أحوالهم وتقاليدهم! وكأنهم أقل إلحادًا وظلمًا وإفسادًا من المستعمر .

وإلي سأنتقل بكم لمقارعتهم بنفس هذه الألقاب المكذوبة وأعكسها عليهم ، فارتقبوا ذلك قيامًا بحق اللّه ورسوله؛ لنوضح للملأ زحف أولئك ، هل هو إلى الفضيلة أو إلى الرذيلة؟ ونبين للناس ماذا يحملون ، ولأي شيء يزحفون؛ ليتضح لهم أن أصحاب هذا الزحف أكبر عون لأعدائه المسلمين من يهود وفرنسيس وفرنجة على تنفيذ خططهم في محو جميع آثار التربية الإسلامية وسجاياها الطاهرة ، وإحلال رجسهم مكانها ، وإفساد عقول الناشئة والمبادئ المخالفة لملة إبراهيم ، والتي هي محادة للّه ورسوله واتباع للأهواء ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٥٠]

ودأبهم المجادلة بالباطل للتلبيس والتدليس؛ أسوة بالكفرة الذين قال اللّه عنهم : ﴿وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: الآية ٥٦] .

وإلى اللقاء فيما وعدتكم به قريبًا إن شاء اللّه ، والسلام عليكم .



موقفنا من القرآن[(١)]

قال اللَّه تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٢١] ، وقال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: الآية ٢٩] ، وقال : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: الآية ٢٤] .

وعن ابن مسعود رضي اللَّه عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن هذا القرآن حبل اللَّه المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع؛ عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الترداد ، اقرؤوه فإن اللَّه يأجركم على قراءته؛ بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول : ألم . حرف بل ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(٢)] .

وليست قراءته المطلوبة هذرمة أو ترنمًا يخرجه من شرف مكانته وعلو رفعته إلى فنِّ الأغاني والمطربات ، كما أولع به أهل هذا الزمان ، ولا أن تقصر قراءته على المآتم كما يفعلوه ، ولا أن يؤول تقديسه إلى أن يجعل تعاويذ يحملها المرضى والصبيان .

فإن الكتاب- وكل كتاب- لا يرسل لأجل نقوشه ، ولا لأجل تكييف الأصوات بكلمه وحروفه ، ولكن ليعلم مراد المرسل منه ، ويعمل به .

وقد ضرب الإمام الغزالي مثلًا للعاصي إذا قرأ القرآن وكرره ، فجعله بمثابة من يكرر قراءة كتاب الملك كل يوم مرات ، وقد أمره الملك فيه بعمارة مملكته وهو

---

(١) صحيفة الندوة- الأربعاء- ٢٨ / ٩ / ١٣٨٠هـ. مجلة راية الإسلام العدد (١) من السنة الثانية- ذو الحجة ١٣٨٠هـ.

(٢) أخرجه الدارمي (٣٣٥٨)، والطبراني (٨٦٤٦)، والحاكم ١/ ٥٥٥، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٤٥). وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٨٤٢).

مشغول بتخريبها ، ومقتصر على قراءة كتابه ، فلو ترك تلك القراءة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء والمقت .

وقد جاءت الأحاديث بوصف أقوام يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم : أنهم شرار الخلق .

فالقرآن دستور كامل شامل لنظام الدنيا والآخرة ، وصفه منزله أنه : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢] في عامة أحوالهم ، حتى إن جميع قصصه محشوة بالأحكام والعبر .

وللاختصار على القراء الكرام نقتصر على تذكيرهم بسورة واحدة قصيرة أودع اللَّه فيها دستورًا شاملًا لنظام السلم والحرب ، ووافيًا بحقوق الإنسان مما لم يتمحض عن مثله المجلس الدولي الكبير العام في « سان فرانسيسكو » ولا منظمة حقوق الإنسان التي كفر بها واضعها بفعله من أول وهلة . فهذه السورة التي سبقتهم بأربعة عشر قرنًا إلى أشرف الغايات وأجمل الخصال هي سورة « الحجرات » .

ومع هذا نجد بعض مديري الجامعات في العواصم العربية يرسم- ويا للأسف- في مجلة « العربي » للقومية نقاطًا لا يتفوه بها إلا أبعد الناس عن القرآن وأجهلهم به؛ يريد في آخرها للقومية أن تتعشق المثل العليا الدولية! كأنه ساكن في غير هذه الكرة الأرضية ، لا يسمع ولا يبصر ما فعلته الدول في شرقي أوربا ، واللَّه تعالى يقول : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٠]

هل تلوناه حق تلاوته بإقامة حدوده ، وحمله إلى جميع البشرية المتعطشة إلى دين يحميها من الانحلال ، ونظام شريف يغذيها بأشرف الخصال؟

هل عرفنا أنفسنا وشكرنا ربنا على هذه المنة فقمنا بواجبه ، وحققنا الذكر الحسن؟ أو على العكس سفهنا أنفسنا واستخففنا بخالقنا فنبذنا ذلك الكتاب ولم

نعره اهتمامًا؛ تأسيًا باليهود، فاشتركنا معهم في المثل السيئ الذي ضربه اللَّه لهم إذ قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٥].

باللَّه عليكم، أي فارق بينهم وبين من ترك العمل بالقرآن، وأضاع حدوده، ومزقه تمزيقًا معنويًّا بعزله عن التشريع وإقصائه عن الحكم، وحرم نفسه وأهل الأرض جميعًا من الاهتداء به فلم يبلغ رسالات اللَّه على ضوئه؟

أيها المسلمون، إن مسؤوليتنا في حمل كتاب اللَّه مسؤولية كبيرة، وإنها واللَّه من الخطورة بمكان عظيم.

تأملوا أيها المسلمون؛ إذا كان الذي يتلو الكتاب لمجرد التلاوة ويعطل أحكامه مثله كمثل الحمار، فكيف حال من لا يقرأه ولا يعيره اهتمامًا، بل يراه كتابًا باليًا رجعيًّا، ويعتبره مدعاة للتأخر، زاعمًا أنه لا يوافق حال العصر ولا يتمشى معها، ويعكف على قراءة كتب الشيوعية والاشتراكية التي هي بنتها، وما تقذف به دور الطبع الحديثة من المصورات الخليعة.

هل حال هذا شر ممن ضرب اللَّه لهم المثل السيئ أم لا؟ وهل هو بحالته البهيمية كمن قال اللَّه فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمَّد: الآية ١٢].

لقد أثبتت التجارب أن طلب العلوم والفنون مع إهمال النفس عن التربية البدنية المحمدية لا يجدي نفعًا ولا يحل مشكلًا، بل يتكون منه عالم مادي لا همَّ له سوى النفعية والوصولية بأي شيء كان، وعلى أي حساب كان. وما هذا التسابق في التسلح والانهماك في صنع ما يدمر المدنية إلا من خراب الضمائر بسبب ابتعادها عن هدي رب العالمين. يقول اللَّه تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يُونس: الآية ٣٢].

التفتوا أيها الأحباب إلى سلفكم الصالح؛ تجدوا أحدهم بحمله بعض سور من القرآن أصلح ما أفسده الفرس والروم، وفتح القلوب بحفاظه على الأنفس والأموال والأعراض دون استئثار بشيء أو طمع في لقب.

وانظروا أهل زمانكم وما ضاع ويضيع بينهم من أموال، ويهتك من عرض، ويراق من دم، وإذاعاتهم تتبجح بالحرية وخدمة الشعوب إفكًا وتضليلًا!

أما العرب المسلمون الذين صلحت ضمائرهم بالقرآن فقد ترفعت أنفسهم عن المادة، وطهرت أخلاقهم عن تسخير الشعوب والجناية على عقولها واللعب بمقدراتها؛ لأن القرآن هداهم إلى العدل والإحسان والصدق والرحمة فقضوا بالحق، وأطلقوا الفكر حرًّا لا تقيده الأوهام المصنوعة، ولا تستره حجب الأباطيل.

أيها المسلمون، لقد سيطرت الثقافة الاستعمارية على أدمغتنا، وجعلتنا كأبعد الأمم عن القرآن الذي أنزل علينا وفي لغتنا، فأحدثت فينا عصبية الجنسية التي حرمها الإسلام وشدد في منعها بعد أن ضعف الدين والعلم فينا. وقد بذل المستعمر جميع وسائله في تركيزها بأذهان الناشئة والرعاع؛ لأنه يرى فيها نقضًا لعهد اللّه في اتباع الحنيفية ملة إبراهيم، وقطعًا لما أمر اللّه به أن يوصل من الميثاق الإسلامي الذي يربط العربي بالأعجمي والمشرقي بالمغربي، كما شرع الحج من أجله، ولولا إبعادنا عن القرآن لما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

فالواجب على كل من يعتز بعروبته أن يجعل منها أكبر حافز له على أخذ القرآن بقوة وحمله بالتبليغ الصحيح العام الشامل كما أمر الله؛ ليكون محققًا لعروبته وانتسابه لذلك النبي الكريم، ومرضيًا لربه الذي أنعم عليه بذلك، وليكون مكرمًا لنفسه غير مهين لها ولا مستخفٍّ بها، فإن لم يحمل القرآن حملًا صحيحًا

إلى جميع المعمورة فقد سفه نفسه ودساها بنبذه لرسالات ربه ، وكان باستجابته لداعي الغي كاذبًا في جميع ما يدعيه ، عابدًا للشيطان ، وصدَّق عليه إبليس ظنه فاتبعه فكان منسلخًا من القرآن ، مستحقًّا أسوأ مثل ضربه الرحمن ، ولو بلغ شأوه ما بلغ وحاز ألقابًا ، فإنه لا يرتفع عما وصفه به الخلاق الحكيم . وكيف يرتفع من وضعه للّه بسبب قصور همته ونقص إيمانه عن حمل رسالة ربه ، كيف يرتفع من أبى أن يشرف نفسه بالكتاب الذي شرفه اللّه به ، فاختار الضعة لنفسه ، باقتفائه ما رسمه له أعداء اللّه وأعداؤه؟!

إن من جعله اللّه بهذا المثل السيء لا ينفعه ما يسدي عليه البشر من ألقاب ، ولا يرتفع برفعة مركزه عن ذلك ، بل يأخذه الغرور برفعة الشأن الخلابة ، فيتمادى في إعراضه عن القرآن واستهجانه لوحي رب العالمين حتى ينحط إلى مثل أسوأ؛ وهو المثل الذي ضربه اللّه أيضا لمن أوتي الكتاب فانسلخ منه واستبد له بتقديس الجنس والوطن ، فجعله اللّه بهذه الغواية بمثابة الكلب ، حيث قال جل وعلا : ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥] .

ذلك أن الشيطان ليس له سلطان على عباد اللّه المخلصين له قصدًا وعملًا ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ [النّحل: الآية ١٠٠] فأخبرنا اللّه عمن هذا شأنه ، أنه لإغواء الشيطان له واستيلائه عليه ، تخلى اللّه عن نصرته ، فلم يرفعه بتلك الآيات التي انسلخ من العمل بها ، فقال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦] . بانسلاخه التام عن وحي رب العالمين ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦] فكانت رغبته ومنتهى عزيمته في الأرض تقديسًا للجنس والوطن ، رغبة منه في المادة وتعلقًا بالأنانية التي هي مصدر عبادة الهوى والغواية ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ

﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦] . واللَّه، إن هذا المثل منطبق على أهل هذه الصفحات من المعرضين عن القرآن، إلى أبد الآبدين؛ إذ الواقع المحسوس يشهد بذلك، ففي الماضي يقص التاريخ كثيرًا من هذيان الذين اقتصروا على إرادة حرث الدنيا وأعرضوا عن كتاب اللَّه، وفي الوقت الحاضر تكاد تستك الآذان من كثرة سخفهم وصيحاتهم الوحشية في الإذاعات، كل يدعو إلى معسكره، ويشتم الفريق الآخر، وإذا سكت فريق لم يسكت الفريق الآخر عمن تركه، فهذا المثل الرائع من معجزات القرآن الخالدة، إذ جميع الصفات الكلبية الخسيسة موجودة فيمن انسلخ عما جاء به الرسول الأمين من وحي رب العالمين؛ لأنه محروم من الآداب القرآنية الجليلة، فالتصقت به خسائس الصفات الكلبية، حتى فيما نحبذ تنزيه أقلامنا عن ذكره، وبما أنه جرت سنة اللَّه الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل، بأن أصحاب المخالفات إذا تمادوا في غيهم ولم يؤوبوا إلى رشدهم، تكون عاقبتهم التكذيب بآيات اللَّه والاستهزاء بها، فإني أربأ بقومي وبني ملتي من التمادي في انحرافهم عن تعاليم القرآن وتحكيمه؛ خشية أن تحيق بهم هذه العاقبة المشينة، كما حاقت بغيرهم، فيكونوا من أهل هذا المثل السيء الثاني، الذي هو أسوأ من الأول وأفظع، أجارهم اللَّه منه، ووفقهم لانتهاج الخير الذي يكونون به مثلًا أعلى، قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ١٠] .

أيها القراء الكرام، لنتفكر جيدًا في موقفنا من القرآن: هل هو موقف سلبي فحسب، أو موقفنا موقف المنابذ له؟ لنحذر أن نكون ممن ابتغى غير اللَّه ربًا، أو افترى عليه الكذب؛ فإن اللَّه توعد نبيه وحبيبه محمدًا ﷺ بمضاعفة عذابه في الدنيا والآخرة؛ إن هو ركن إلى الكفار شيئًا قليلًا في طلبهم منه افتراء شيء غير ما

أوحي إليه، فكيف حال من يركن إليهم شيئًا كثيرًا، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣- ٧٥] أي: لو ركنت إليهم ذلك الركون القليل، لضاعفنا لك العذاب المعجل في الحياة الدنيا، وضاعفنا العذاب الذي يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار.

فيا أمة القرآن، إن في هذا الوعيد الشديد، دليل على أن أدنى مداهنة للكفار أو انصياع لتقليدهم، مضادة للّه، وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه، وقد صدق علينا هذا الوعيد بزيادة ركوننا إليهم ومداهنتنا لهم، فما هذه الكوارث والنكبات المتلاحقة التي حلت، وتحل بالمسلمين، في كل زمان ومكان، إلا من غضب اللّه علينا بذلك وتنفيذه وعيده بمضاعفة العذاب في الحياة، فمتى نؤوب إلى اللّه ونعطي القرآن حقه، ليرفعنا عما نحن فيه، قال في «الكشاف»(١): فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها، فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين اللّه.

وأقول: هذا واجب المؤمن الذي يتلوا القرآن حق تلاوته، كما أمره اللّه، ففيه ما يهيج النفوس ويثير العزائم، ولو طهرت قلوب المسلمين من أمراضها وأخلصوا دينهم للّه، لعرفوا قيمتهم وواجبهم أمام القرآن إذا تلوا هاتين الآيتين فقط: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

أليس من المؤسف المبكي أنهم عالة على غيرهم في كل شيء، أليس من المؤسف المبكي أن أغلب أولاد المسلمين في حاجة ماسة إلى لغات الأجانب،

ولو استمسكوا بكتاب ربهم وحملوه، كما أمر اللَّه، لطبقت لغتهم ما بين الخافقين ونطق بها جميع أهل الأرض عن حب ورغبة، فحققوا عزهم وذكرهم الذي اختاره اللَّه لهم، وكان لهم السؤدد والقول الفصل في هذه الحياة، بدلًا من حالتهم المعكوسة التي نالوا بها ضعف العذاب في الحياة.

حقًّا إن لم يرتض القرآن دستورًا بمعنى الكلمة، لا بد له من ابتداع شيء واقتداء بشيء من وضع البشر، فيكون ممن افترى على اللَّه الكذب وهو يدعى إلى الإسلام وأحكامه، فيكون عرضة لعقوبات اللَّه، كما قدمنا ذكر الوعيد الشديد بذلك، وقال تعالى في مزيد تهديده: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٨]. لقد أورثنا سوء موقفنا من القرآن الكريم، انحطاطًا عامًا في كل شيء، وجعل العاطفة تسيطر علينا سيطرة لا تجري إلا على فاقد التمييز، وجعلتنا كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران يتأرجح بين جحيم المبادئ الهدامة، وبلغ بنا الانحطاط إلى أن نقلد أعداءنا في الرذائل، ونقصر عن لحوقهم في المخترعات وكسب الأسواق والنفوس، حتى صرنا في مهوى لا يجوز أن يسمى إلا بـ: سقوط النفس.

وهذا من بعض عقوبات اللَّه لمن أعرض عن وحيه وهداه، وفي مثل هذا يقول شاعر العروبة:

يا أمة ذاك ماضيها الذي عرفت ... ماذا دهاك فقد أصبحت هاوية
بما ابتليت وما ذا قد منيت به ... ما السحر أسوأ مسًا لو سحرت به
والسحر ليس له فعل ولا عمل ... قذفت بالمجد في مهوى لو انحدرت
مهوى من الذي نائي الغور ممتلئ ... قد انسحبت عليه شر منسحب
وبت في نوب للظهر قاصمة ... فالجسم في شلل والعقل في خلل

واللَّه ليس بظلام لأعبده.

فيا أمة محمد عمومًا، ويا من يعتز بعروبته خصوصًا، غيروا موقفكم من القرآن إلى موقف حسن، يليق بكرامتكم، ويصدق انتسابكم إلى هذا النبي، واعتزازكم بحقيقتكم ولغتكم الحبيبة؛ لغة القرآن، الذي من قصر في حمله فهو مفرط بجميع مقدساته، ولاعب بنفسه، متنكرًا لحقيقته، متعرض لشكاية الرسول ﷺ إذ يقول: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: الآية ٣٠] انتشلوا أنفسكم من وصمة العار وغضب الجبار الذي أوقعنا شر موقع أمام الصهيونية والشيوعية الماحقة التي شعارها التنكيل والنهب والسحب، ألا تعتبروا بالأحداث الجسام، ألا يلهب الحماس في صدوركم، إن هؤلاء يتفانون في حمل مخازيهم، ويتحملون المشاق لنفث ونشر رذائلهم، وأنتم تتقاعسون عن حمل رسالة النور والهدى.

منه بمجد صريح غير مؤتشب ... مهاوي الذل من حين إلى عطب
فصرت من بعد خفض العيش في نصب ... مما دهاك فساوي الرأس بالذنب
يحكي انقلابك من رأس إلى عقب ... فيه النجوم غدت فحمًا بلا لهب
من المصائب والأرزاء والنوب ... بما اكتسبت إليه شر مكتسب
لم يذكروا مثلها في سائر النوب ... والقلب في نصب والروح في وصب
فلا يغير من حال بلا سبب

أيها القراء الكرام، إن من تتبع ما جرى ويجري في بقاع الأرض من إضاعة الأموال؛ قوام البشرية في أعياد ومراسيم شكلية، وتسابق التسلح القاضي على المدنية، وإزهاق الأرواح، وإهدار الكرامة، وضياع العرض والشرف، عرف أن الناس قد دفعوا ثمنًا غاليًا لإضاعة القرآن، وخسروا خسرانًا لا يجبره إلا الرجوع إلى وحي رب العالمين وتصحيح الإيمان من جديد.

فعودوا إلى حمل رسالتكم؛ ليحق اللّٰه الحق الذي كتبه على نفسه بقوله جل وعلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٧]، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ

ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٦] .

فإن من استمر في إعراضه، ضاعف اللّٰه له عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فُصّلَت: الآية ١٦] .



فهرس الكتاب

الموضوع **الصفحة**

